المحجة البيضاء

في تهذيب الإحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتألّه

محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني

المتوفى ١٠٩١ هـ

قدس سره

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

المحجة البيضاء

في تهذيب الإحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري

الجزء الخامس

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص ب : ٧١٢٠

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأوّل من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي تتحيّر دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش في مبادي إشراق أنواره الأحداق والنّواظر ، المطّلع على خفيّات السرائر ، العالم بمكنونات الضّمائر ، المستغني في تدبير ملكه عن المشاور و الموازر ، مقلّب القلوب ، و غفّار الذّنوب ، وستّار العيوب ، و مفرّج الكروب ، و الصّلاة على محمّد سيّد المرسلين ، وجامع شمل الدّين ، وقاطع دابر الملحدين ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين .

اما بعد فشرف الإنسان وفضيلته الّتي بها فاق جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه الّتي في الدّنيا جماله و كماله و فخره و في الآخرة عدّته و ذخره ، وإنّما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ، فالقلب هو العالم بالله وهو العامل لله ، وهو السّاعي إلى الله ، وهو المتقرّب إليه ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنّما الجوارح أتباع له وخدم وآلات يستخدمها القلب ، ويستعملها استعمال المالك للعبيد ، واستخدام الرّاعي للرعيّة ، والصانع للآلة ، والقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله وهو المطالب والمخاطب ، وهو المثاب والمعاقب ، وهو الّذي يستعدّ بالقرب من الله تعالى فيفلح إذا زكّاه ، وهو الّذي يخيب ويشقى إذا دنّسه ودسّاه[1] وهو المطيع لله بالحقيقة وإنّما الّذي ينتشر على الجوارح

(١) دنس ـ بكسر النون ـ عرضه أو ثوبه أو خلقه : تلطخ بمكروه أو قبيح فهو دنس ، و دنسه من باب التفعيل صيره دنساً . ودس الرجل : افسده واغواه ، ودسا نفسه : أخملها و أخس حظها .

من العبادات أنواره ، و هو العاصي المتمرّد على الله و إنّما السّاري على الأعضاء من الفواحش آثاره ، وبا ظلامه و استنارته تظهر محاسن الظّاهر ومساويه إذ كلّ إناء يترشّح بما فيه ، وهو الّذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، و إذا عرف نفسه فقد عرف ربّه ، و هوالّذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، و إذا جهل نفسه فقد جهل ربّه ، و من جهل بقلبه فهو بغيره أجهل ، و أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقدحيل بينهم وبين أنفسهم فإنّ الله يحول بين المرء و قلبه ، وحيلولته بأن لايوفّقه لمشاهدته ومراقبته ، ومعرفة صفاته ، و كيفيّة تقلّبه بين أصبعين من أصابع الرّحمن وإنّه كيف يهوي مرّة إلى أسفل سافلين وينخفض إلى اُفق الشياطين و كيف يرتفع اُخرى إلى أعلاعلّيّين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقرّبين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه و يترصّد مايلوح من خزائن الملكوت عليه و فيه فهو ممّن قال الله تعالى فيه : « ولاتكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اُولئك هم الفاسقون » (١) . فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدّين وأساس طريق السّالكين .

وإذقد فرغنا في الشطر الأوّل من هذا الكتاب عن النّظر فيما يجري على الجوارح من العبادات و العادات و هو العلم الظّاهر و وعدنا أن نشرح في الشّطر الثاني ما يجري على القلوب من الصّفات المهلكات و المنجيات و هو العلم الباطن فلابدّ و أن نقدّم عليه كتابين كتاباً في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، و كتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه، ثمّ نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات .

فنذكر الآن من ذكر شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال مايقرب من الأفهام فإنّ التصريح بعجائبه وأخلاقه وأسراره الدّاخلة في جملة عالم الملكوت ممّا يكلّ عن دركه أكثر الأفهام - وبالله التوفيق - .

(بيان معنى النفس والروح والعقل والقلب وماهوالمراد بهذه الاسامي)

اعلم أنّ هذه أربعة أسامي تستعمل في هذه الأبواب و يقل في فحول العلماء من يحيط بمعرفة هذه الأسامي واختلاف معانيها وحدود مسمّياتها وأكثر الأغاليط

(١) الحشر : ٢٠ .

منشاؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي و باشتراكها بين مسمّيات مختلفات ، و نحن نشرح من معاني هذه الأسامي مايتعلّق بغرضنا .

اللفظ الأوّل لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين أحدهما اللّحم الصنوبري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، و هو لحمٌ مخصوص و في باطنه تجويف و في ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الرّوح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله و كيفيّته فلايتعلّق به الأغراض الدّينيّة و إنّما يتعلّق بذلك غرض الأطبّاء ، و هذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميّت ، و نحن إذا أطلقنا اسم القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك ،.فإنّه قطعة لحم لاقدر لها وهو من عالم الملك و الشهادة إذ تدركه البهائم بحاسّة البصر فضلاً عن الآدميّين ، والمعنى الثاني هو لطيفة ربّانيّة روحانيّة لها بهذا القلب الجسمانيّ تعلّق ، و تلك اللّطيفة هي حقيقة الإنسان و هو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني ، و قد تحيّرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ،فإنّ تعلّقها به يضاهي تعلّق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلّق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلّق المتمكّن بالمكان ، و شرح ذلك ممّا نتوقّاه لمعنيين أحدهما أنّه متعلّق بعلوم المكاشفة و ليس غرضنا في هذا الكتاب إلّا علوم المعاملة ، والثاني أنّ تحقيقه يستدعي إفشاء سرّ الرّوح ولم يتكلّم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله[1] فليس لغيره أن يتكلّم فيه ، والمقصود أنّا إذا أطلقنا القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللّطيفة و غرضنا ذكر أوصافها و أحوالها لاذكر حقيقتها في ذاتها ، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها و أحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني الرّوح و هو أيضاً يطلق فيما يتعلّق بجنس غرضنا لمعنيين

---

(١) حديث أنه صلى الله عليه وآله لم يتكلم فى الروح أخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ، وأحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان وابن مردويه و أبو نعيم والبيهقى معاً فى الدلائل عن أبى مسعود - رضى الله عنه - راجع الدر المنثور للسيوطى ج ٤ ص ١٩٩ .

أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق الضّوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانها في البدن و فيضان أنوار الحياة والحسّ والسمع و البصر و الشمّ منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الّذي يدار في زويا الدّار فإنّه لاينتهي إلى جزء من البيت إلّا و يستنير به ، فالحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان ، والرّوح مثالها السراج و سريان الرّوح وحركتها في الباطن مثاله مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محرّكه ، والأطبّاء إذا أطلقوا اسم الرّوح أرادوا به هذا المعنى و هو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، و ليس غرضنا شرحه إذ المتعلّق به غرض أطبّاء الّذين يعالجون مرض الأبدان ، فأمّا غرض أطبّاء الذّين المعالجين للقلوب حتّى تنساق إلى جوار ربّ العالمين ، فليس يتعلّق بشرح هذا الرّوح أصلاً ، والمعنى الثاني هو اللّطيفة الربّانيّة العالمة المدركة من الإنسان وهو الّذي شرحناه في أحد معنيي القلب وهو الّذي أراده الله تعالى بقوله : « و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي[1] » وهو أمر عجيب ربّانيّ يعجز أكثر العقول و الأفهام عن درك كنه حقيقته .

اللفظ الثالث النّفس و هذا أيضاً مشترك بين معان ، و يتعلّق بغرضنا منه معنيان أحدهما أنّه يراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب و الشهوة في الإنسان على ماسيأتي بيانه ، و هذا الاستعمال هو الغالب على الصّوفيّة لأنّهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصّفات المذمومة من الإنسان فيقولون : لابدّ من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك[2] » المعنى الثاني هو اللّطيفة الّتي ذكرناها الّتي هي الإنسان في الحقيقة ، و هي نفس الإنسان و ذاته ولكنّها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت

(١) الاسراء : ٨٥ .

(٢) أخرجه البيهقى فى الزهد كما فى كنوز الحقائق للمناوى . و رواه قاضى نعمان فى دعائم الاسلام من طريق أهل البيت عليهم السلام بلفظ آخر كما فى مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢٧٠ .

تحت الأمر و زايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سمّيت النّفس المطمئنّة ، قال الله تعالى : « يا أيّتها النفس المطمئنّة ✿ إرجعي إلى ربّك راضية مرضيّة » (١) والنّفس بالمعنى الأوّل لايتصوّر رجوعها إلى الله ، فإنّها مبعّدة عن الله تعالى ، و هي من حزب الشيطان ، و إذا لم يتمّ سكونها ولكنّها صارت مدافعة للنّفس الشّهوانيّة ومعترضة عليها سمّيت النفس اللّوامة لأنّها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاها ، قال الله تعالى : « ولا أُقسم بالنفس اللّوّامة (٢) » وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سمّيت النّفس الأمّارة بالسوء ، قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام : « و ما اُبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسّوء » (٣) وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمّارة بالسّوء هي النّفس بالمعنى الأوّل ، فإذن النّفس بالمعنى الأوّل مذمومة غاية الذمّ ، وبالمعنى الثاني محمودة لأنّها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وبسائر المعلومات .

اللفظ الرّابع العقل و هو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلّق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنّه قد صار يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الّذي محلّه القلب ، والثاني أنّه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللّطيفة ، ونحن نعلم أنّ كلّ عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، و العلم صفة حالّة فيه ، و الصّفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محلّ الإدراك ، أعني المدرك و هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله : « أوّل ما خلق الله العقل (٤) » فإنّ العلم عرض لايتصوّر أن يكون أوّل مخلوق بل لابدّ أن يكون المحلّ مخلوقاً قبله أومعه ولأنّه لايمكن الخطاب معه . وفي الخبر أنّه « قال له : أقبل فأقبل ، وقال له : أدبر

(١) الفجر : ٢٧ و ٢٨ . (٢) القيامة : ٣ .

(٣) يوسف : ٥٣ .

(٤) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث عائشة باسنادين ضعيفين كما في المغنى وما عثرت عليه من طريق الخاصة .

فأدبر ـ الحديث ـ »[1] .

فإذن قدانكشف لك أنّ معاني هذه الأسامي موجودة وهو القلب الجسماني، والرّوح الجسماني ، والنّفس الشّهوانيّة ، والعقل العلميّ وهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، و معنى خامس و هي اللّطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة ، و كلّ لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلّمون في الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الرّوح ، وهذا خاطر النّفس ، و هذا خاطر القلب ، و ليس يدري النّاظر اختلاف معاني هذه الأسماء ، فلأجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامي ، وحيث ورد في القرآن و السنّة لفظ القلب فالمراد به المعنى الّذي يفقه من الانسان و يعرف حقيقة الأشياء و قد يكنّى عنه بالقلب الّذي في الصّدر لأنّ بين تلك اللّطيفة و بين جسم القلب علاقة خاصّة ، فإنّها وإن كانت متعلّقة بسائر البدن و مستعملة له و لكنّها يتعلّق به بواسطة القلب فتعلّقها الأوّل بالقلب فكأنّه محلّها و مملكتها و عالمها و مطيّتها ، و لذلك شبّه سهل التستري القلب بالعرش والصدر بالكرسيّ فقال : القلب هو العرش والصّدر هو الكرسيّ ولايظنّ به أنّه يريد عرش الله سبحانه و كرسيّه فإنّ ذلك محال بل أراد به أنّه مملكته والمجرى الأوّل لتدبيره وتصرّفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسيّ بالنّسبة إلى الله تعالى ، فلا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلّا من بعض الوجوه و شرح ذلك لا يليق بغرضنا فلنتجاوزه .

✲(بيان جنود القلب)✲

قال الله تعالى : « و ما يعلم جنود ربّك إلّا هو »[2] فللّه سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجنّدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلّا هو، و نحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب و هو الّذي يتعلّق بغرضنا ، و له جندان

(١) رواه البرقي في المحاسن ص ١٩٢ ، والكليني في الكافي ج ١ ص ٢٦ .
(٢) المدثر : ٣٤ .

جنديرى بالأبصار و جند لا يرى إلّا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان ، و هذا هو معنى الجند فأمّا جنده المشاهد بالعين فهي اليد والرّجل والعين والأذن واللّسان وسائر الأعضاء الظّاهرة والباطنة ، فإنّ جميعها خادمة للقلب و مسخّرة له وهو المتصرّف فيها والمردّد لها ، وقد خُلقت مجبولة على طاعة القلب، لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرّداً ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، و إذا أمر الرّجل بالحركة تحرّكت ، و إذا أمر اللّسان بالكلام وجزم الحكم به تكلّم ، و كذا سائر الأعضاء ، و تسخير الأعضاء والحواسّ للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنّهم جُبلوا على الطّاعة ، لا يستطيعون له خلافاً بل « لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون » وإنّما يفترقان في شيء و هو أنّ الملائكة عالمة بطاعتها وامتثالها لربّها والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها و لا من طاعتها للقلب ، و إنّما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزّاد لسفره الّذي لأجله خلق ، وهو السّفر إلى الله تعالى وقطع المنازل إلى لقائه ، فلأجله خلقت القلوب قال الله تعالى : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون»(١) وإنّما مركبه البدن وإنّما زاده العلم وإنّما الأسباب الّتي توصله إلى الزّاد و تمكنه من التزوّد منه العمل الصالح ، و ليس يمكن أن يصل القلب إلى الله تعالى مالم يسكن البدن بالموت ولم يجاوز الدّنيا فإنّ المنزل الأدنى لابدّ من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، والدّنيا مزرعة الآخرة و هي منزل من منازل الهدى ، و إنّما سمّيت الدّنيا لأنّها أدنى المنزلتين فاضطرّ الإنسان إلى أن يتزوّد من هذا العالم ، والبدن مركبه الّذي يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهّد البدن وحفظه ، و إنّما يتحفّظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، و بأن يدفع عنه ما ينافيه ويهلكه أو يمكنه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين : باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والأعضاء الجاذبة للغذاء فخلق في القلب من الشّهوات ما احتاج إليه ، و خلقت له الأعضاء الّتي هي آلات

(١) الذاريات : ٥٦ .

الشهوة ، وافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن وهو الغضب الّذي به يدفع المهلكات و ينتقم من الأعداء ، و ظاهر و هو اليد والرِّجل الّذي به يعمل بمقتضى الغضب ، و كلّ ذلك بأُمور خارجة عن البدن كالأسلحة وغيرها ؛ ثمّ المحتاج إلى الغذاء إذا لم يعرف الغذاء لا تنفعه شهوة الغذاء وآلته فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن و هو إدراك البصر والذّوق والشمّ والسّمع واللّمس ، وظاهر وهو العين و الأُذن والأنف و غيرها و تفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ذكره ولا يحويه مجلّدات كثيرة ، وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشّكر فليقنع به .

فجملة جنود القلب يحصرها ثلاثة أُصناف : صنف باعث ومستحثّ إمّا إلى جلب الموافق النافع كالشهوة ، و إمّا إلى دفع الضارّ المنافي كالغضب ، وقد يعبّر عن هذا الباعث بالإرادة ، والثاني هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبّر عن هذا الثاني بالقدرة وهي جنود مبثوثة في سائر الاعضاء لاسيّما العضلات منها والأوتار ، والثالث هو المدرك المتعرّف للأشياء كالجواسيس و هي قوّة البصر والسّمع والشمّ والذّوق وغيرها ، وهي مبثوثة في أعضاء معيّنة ، ويعبّر عن هذا بالعلم والإدراك ، و مع كلّ واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركّبة من اللّحم والشحم والعصب والدّم والعظم الّتي اُعدّت آلات لهذه الجنود ، فإنّ قوّة البطش إنّما تبطش بالأصابع ، وقوّة البصر إنّما تدرك الشّيء بالعين ، و كذا سائر القوى .

ولسنا نتكلّم في الجنود الظّاهرة أعني الأعضاء فإنّها من عالم الملك والشهادة وإنّما نتكلّم الآن فيما أيّدت به من جنود لم تروها ، وهذا الصّنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ماقد أسكن المنازل الظاهرة و هي الحواسّ الخمس أعني السّمع والبصر والشّمّ والذّوق واللّمس وإلى ما أسكن المنازل الباطنة وهي تجاويف الدّماغ وهي أيضاً خمسة ، فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينيه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثمّ يبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ثمّ يتفكّر فيما حفظه فيركّب بعض ذلك إلى بعض ثمّ يتذكّر ما نسيه و يعود إليه ثمّ يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحسّ المشترك بين المحسوسات ، ففي

الباطن حسّ مشترك و تخيّل و تفكّر و تذكّر و حفظ ولولا خلق الله قوّة الحفظ والفكر والذّكر والتخيّل لكان يخلو الدّماغ عنه كما يخلو عنه اليد والرّجل ، فتلك القوى أيضاً جنود باطنة وأماكنها أيضاً باطنة فهذه هي أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضّعفاء يطول ، ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ولكنّا نجتهد في تفهيم الضّعفاء بضرب من الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم إن شاء الله .

(بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة)

اعلم أنّ جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تامّاً فيعينانه على طريقه الّذي يسلكه ، و يحسنان مرافقته في السّفر الّذي هو بصدده و قد يستعصيان عليه استعصاء بغي و تمرّد حتّى يملكاه و يستعبداه و في ذلك هلاكه و انقطاعه عن سفره الّذي بهوصوله إلى سعادة الأبد ، وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكّر كما سيأتي شرحه و حقّه أن يستعين بهذا الجند ، فإنّه حزب الله على الجندين الآخرين فإنّهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فإن ترك الاستعانة و سلّط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً وذلك حال أكثر الخلق فإنّ عقولهم صارت مسخّرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغي أن يكون الشهوة مسخّرة لعقولهم فما يفتقر العقل إليه و نحن نقرّب هذا إلى فهمك بثلاثة أمثلة .

المثال الأوّل أن نقول : مثل نفس الإنسان في بدنه - و أعني بالنفس اللّطيفة المذكورة - كمثل وال في مدينته ومملكته فإنّ البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرّها ومدينتها وقواه وجوارحه بمنزلة الصنّاع والعملة ، والقوّة العقليّة المفكّرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل ، والشهوة له كعبد سوء يجلب الطّعام والميرة إلى المدينة ، والغضب ، والحميّة له كصاحب الشّرطة والعبد الجالب للميرة كذّاب مكّار مخادع خبيث يتمثّل بصورة الناصح و تحت نصحه الشرّ الهائل والسّمّ القاتل ، و ديدنه و عادته منازعة الوزير النّاصح في كلّ تدبير يدبّره حتّى لا يخلو عن منازعته ومعارضته في آرائه ساعة واحدة ، فكما أنّ الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته بوزير معرضاً

عن إشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلاً بإشارته على أنّ الصّواب في نقيض رأيه وأدّب صاحب شرطته وأسلمه لوزيره و جعله مؤتمراً له و مسلّطاً من جهته على هذا العبد الخبيث و أتباعه و أنصاره ، حتّى يكون العبد مسوساً لا سائساً ، و مأموراً مدبّراً لا آمراً مدبّراً استقام أمر بلده وانتظم العدل بسبب ذلك ، فكذلك النّفس متى استعانت بالعقل وأدّبت الحميّة الغضبيّة وسلّطتها على الشّهوة واستعانت بإحديهما على الأخرى تارة بأن يقلّل مرتبة الغضب و غلوائه بخلابة الشّهوة واستدراجها ، و تارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحميّة عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها و حسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى : «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه و أضلّه الله على علم » (١) و قال تعالى : « و اتّبع هواه وكان أمره فرطاً » (٢) و قال تعالى : « واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب » (٣) و قال تعالى: فيمن نهى النّفس عن الهوى « فإنّ الجنّة هي المأوى » (٤). وسيأتي كيفيّة مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النّفس إن شاء الله .

المثال الثاني أنّ البدن كالمدينة والعقل أعني المدرك من الإنسان كملك مدبّر لها ، و قواه المدركة من الحواسّ الظّاهرة والباطنة كجنوده و أعوانه ، و أعضاؤه كرعيّته ، والنفس الأمّارة بالسّوء الّتي هي الشّهوة والغضب كعدوّ ينازعه في مملكته ، و يسعى في إهلاك رعيّته ، فصار بدنه كرباط و ثغر ، و نفسه كمقيم فيه مرابط ، فإن جاهد عدوّه وهزمه و قهره على ما يحبّ حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى : «فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» (٥) وإن ضيّع ثغره وأهمل رعيّته ذمّ أثره وانتقم منه عند لقاء الله فيقال له يوم القيامة: يا راعي السّوء أكلت اللّحم ، و شربت اللّبن ، و لم تردّ الضّالّة ، و لم تجبر الكسير، اليوم أنتقم لها منك - كما ورد في الخبر - (٦) و إلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله

(١) الجاثية : ٢٢ .　　(٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) الاعراف : ١٧٥ .　　(٤) النازعات : ٤٠ .
(٥) النساء : ٩٤ .　　(٦) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

ﷺ « : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »(١) .

المثال الثالث مثل العقل مثل فارس متصيّد ، وشهوته كفرسه ، وغضبه ككلبه ، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروّضاً وكلبه مؤدّباً معلّماً كان جديراً بالنجح ، و متى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً(٢) والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ، ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعاً ، فهو خليق بأن يعطب فضلاً أن ينال ما طلب ، وإنّما خرق الفارس مثال لجهل الإنسان و قلّة حكمته و كلال بصيرته ، و جماح الفرس مثال لغلبة الشّهوة عليه خصوصاً شهوة البطن والفرج ، و عقر الكلب مثال لغلبة الغضب واستيلائه .

✿(بيان خاصية القلب للانسان)✿

اعلم أنّ جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي إذ للحيوانات الشهوة والغضب والحواسّ الظّاهرة والباطنة أيضاً حتّى أنّ الشّاة ترى الذئب بعينها وتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذاك إدراك الباطن . فلنذكر مايختصّ به قلب الإنسان ولأجله عظم شرفه و قدره واستأهل القرب من الله سبحانه و هو راجع إلى علم وإرادة ، أمّا العلم فهو العلم بالأمور الدّنيوية والأخرويّة والحقائق العقليّة فانّ هذه اُمور وراء المحسوسات و لا يشارك فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلّيّة الضّروريّة من خواصّ العقل إذ يحكم الإنسان بأنّ الفرس الواحد لايتصوّر أن يكون في مكانين في حالة واحدة ، و هذا حكم منه على كلّ فرس ، و معلوم أنّه لم يدرك بالحسّ إلّا بعض الأفراس فحكمه على جميع الأفراس زائد على ماأدركه الحسّ ، فاذا فهمت هذا في العلم الظّاهر الضّروري فهو في سائر النظريّات أظهر ، و أمّا الإرادة فهو أنّه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر و طريق الصّلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى وجه المصلحة وإلى تعاطي أسبابها و الارادة لها و ذلك غير

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث جابر بسند فيه ضعف . ومن طريق الخاصة رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ١٢ تحت رقم ٣ .

(٢) الجموح معرب چموش .

إرادة الشّهوة وإرادة الحيوانات ، بل يكون على ضدّ الشّهوة فإنّ الشهوة تنفّر عن الفصد والحجامة والعاقل يريدهما ويطلبهما ويبذل المال عليهما والشّهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في المرض والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها فليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل المعرّف لعواقب الأمور و لم يخلق هذا الباعث المحرّك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضايعاً على التحقيق .

فإذا اختصّ قلب الإنسان بعلوم و إرادات ينفكّ عنها سائر الحيوانات بل ينفكّ عنها الصبيّ في أوّل الفطرة و إنّما يحدث ذلك فيه عند البلوغ و أمّا الشّهوة والغضب والحواسّ الظّاهرة والباطنة فإنّها موجودة في حال الصّبى .

ثمّ للصّبيّ في حصول هذه العلوم فيه درجتان : إحداهما أن يشتمل قلبه على جملة من العلوم الضروريّة الأوّليّة كالعلم باستحالة المستحيلات و جواز الجايزات الظاهرة فيكون العلوم النظريّة فيه غير حاصلة إلّا أنّها صارت ممكنة قريبة الإمكان و الحصول ، و يكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الّذي لم يعرف من الكتابة إلّا الدّواة والقلم والحروف المفردة دون المركّبة ، فإنّه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية أن يحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب و الفكر و يكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها ، وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب ، وإن لم يكن مباشراً للكتابة لقدرته عليها وهذه هي غاية درجة الإنسانيّة ، ولكنّ في هذه الدّرجة مراتب لا تحصى ، يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات و قلّتها و بشرف المعلومات وخسّتها وبطريق تحصيلها ، إذ يحصل لبعض القلوب بإلهام إلهيّ على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضها بتعلّم واكتساب ، ثمّ قد يكون ذلك سريع الحصول و قد يكون بطيء الحصول ، و في هذا المقام يتباين منازل العلماء والحكماء و الأولياء والأنبياء و درجات الترقّي فيه غير محصورة إذ معلومات الله تعالى لانهاية لها و أقصى الرّتب رتبة النبيّ صلى الله عليه وآله الّذي ينكشف له كلّ الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلّف بل بكشف إلهيّ في أسرع وقت و بهذه السّعادة يقرب العبد من الله قرباً

بالمعنى و الحقيقة و الصّفة لابالمكان و المسافة ، و مراقي هذه الدّرجات هي منازل السّائرين إلى الله تعالى ولاحصر لتلك المنازل وإنّما يعرف كلّ سالك المنزل الّذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ماخلفه من المنازل ، فأمّا مابين يديه فلايحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدّق به إيماناً بالغيب ، كما أنّا نؤمن بالنبوّة و بالنبيّ ونصدّق بوجود ذلك ولكن لايعرف حقيقة النبوّة إلّا النبيّ ، وكما لايعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميّز ، وما انفتح له من العلوم الضّروريّة ، ولاالمميّز حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظريّة فلايعرف عاقل ما انفتح على أولياء الله و أنبيائه من مزايا لطفه و رحمته « مايفتح الله للنّاس من رحمة فلاممسك لها » (١) وهذه الرّحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه غير مضنون بها على أحد ولكن إنّما يظهر للقلوب المتعرّضة لنفحات رحمة الله كما قال صلى الله عليه وآله : « إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألافتعرّضوا لها » (٢) والتعرّض لها بتطهير القلوب وتزكيتها عن الخبث و الكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة كما سيأتي بيانه ، و إلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله : « ينزل الله تعالى في كلّ ليلة إلى السماء الدّنيا فيقول : هل من داع فأستجيب له » (٣) وبقوله صلى الله عليه وآله حكاية عن ربّه عزّوجلّ : « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي و أنا إلى لقائهم أشدّ شوقاً » (٤) و بقوله عزّوجلّ « من تقرّب اليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً » (٥) و كلّ ذلك إشارة إلى أنّ أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل و منع من جهة المنعم - تعالى عن البخل والمنع علوّاً كبيراً - ولكن حجبت لخبث و كدورة وشغل من جهة القلوب فإنّ القلوب كالأواني

---

(١) الفاطر :٢ .

(٢) أخرجه البخارى و مسلم و قد تقدم . و أخرجه الطبرانى عن محمد بن مسلم بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١٧٥ من صحيحه . وتقدم الكلام فيه فى المجلد الثانى .

(٤) قال العراقى : لم أجد له أصلا الا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبى الدرداء ولم يذكر له ولده فى مسند الفردوس اسناداً .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٦٦ .

فمادامت ممتلئة بالماء لايدخلها الهواء ، فكذلك القلوب المشغولة بغير الله لاتدخلها المعرفة بجلال الله ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّماوات » [1] و من هذه الجملة يتبيّن أنّ خاصيّة الإنسان العلم والحكمة فإنّ أشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فبذلك كمال الإنسان وفي كماله سعادته و صلاحه لجوار حضرة الكمال و الجلال ، فالبدن مركب للنفس ، والنفس محلّ للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان و خاصيته الّتي لأجلها خلق ، و كما أنّ الفرس يشارك الحمار في قوّة الحمل ويختصّ الفرس عنه بخاصيّة الكرّ والفرّ وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصيّة فإن بطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار ، فكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور و يفارقهما في أمور هي خاصيّته ، وتلك الخاصّيّة هي من صفات الملائكة المقرّبين من الله تعالى و الإنسان على رتبة بين الملائكة و البهائم ، فإنّ الإنسان من حيث يتغذّى وينسل فنبات ، و من حيث يحسّ ويتحرّك بالاختيار فحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصّورة المنقوشة على الحائط ، و إنّما خاصيّته معرفة حقائق الأشياء ، فمن استعمل جميع أعضائه و قواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبّه بالملائكة فحقيقٌ بأن يلتحق بهم وجديرٌ بأن يسمّى ملكاً ربّانيّاً كما قال الله تعالى : « إن هذا إلّا ملك كريم » [2] ومن صرف همّته إلى اتّباع اللّذّات البدنيّة يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحطّ إلى حضيض أفق البهائم فيصير إمّا غمراً كثور أو شرها كخنزير و إمّا ضرياً ككلب أو سنّور ، أو حقوداً كجمل ، أو متكبراً كنمر ، أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كلّه كشيطان مريد ومامن عضو من الأعضاء ولاحاسّة من الحواسّ إلّا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشّكر إن شاء الله ، فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب ، وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله مقصده ، و الدّار الآخرة مستقرّه ، والدّنيا طريقه ، والبدن مركبه ، والأعضاء خدمه فيستقرّ هو- أعني

(١) تقدم في المجلد الثاني ص ١٢٥ .　　(٢) يوسف : ٣١ .

المدرك من الإنسان - في القلب الّذي هو وسط مملكته كالملك ويجري القوّة الخياليّة المودعة في مقدّم الدّماغ مجرى صاحب بريده إذ يجتمع أخبار المحسوسات عنده و تجري القوّة الحافظة الّتي مسكنها مؤخّر الدّماغ مجرى خازنه ، و يجري اللّسان مجرى ترجمانه ، و تجري الأعضاء المتحرّكة مجرى كتّابه ، و تجري الحواسّ الخمس مجرى جواسيسه ، فيوكّل كلّ واحد بأخبار صقع من الأصقاع ، فيوكّل العين بعالم الألوان ، والسّمع بعالم الأصوات ، والشمّ بعالم الأراييح و كذلك سائرها فإنّها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدّونها إلى القوّة الخياليّة الّتي هي كصاحب البريد ، ويسلّمها صاحب البريد إلى الخازن وهي القوّة الحافظة ، و يعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها مايحتاج إليه في تدبير مملكته ، و إتمام سفره الّذي هو بصدده ، و قمع عدوّه الّذي هو مبتلى به ، و دفع قواطع الطريق عليه ، فإذا فعل ذلك كان موفّقاً سعيداً شاكراً نعمة الله و إذا عطّل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشّهوة و الغضب و سائر الحظوظ العاجلة ، أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدّنيا طريقه الّتي عليها عبوره ، و وطنه و مستقرّه الآخرة كان مخذولاً شقيّاً كافراً لأنعم الله مضيّعاً لجنود الله ، ناصراً لأعداء الله ، مخذلاً لحزب الله تعالى فيستحقّ المقت و الإبعاد في المنقلب والمعاد ، نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الّذي ضربناه أشار كعب الأحبار قال : « دخلت على عائشة فقلت : الإنسان عيناه طائر وأذناه قمع ، ولسانه ترجمان ويداه جناحان ، ورجلاه بريدان ، والقلب ملك ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول »[1].

و قال عليّ عليه السلام في تمثّل القلوب : « إنّ لله تعالى في أرضه آنية و هي القلوب

---

(١) قال العراقى : أخرجه أبو نعيم فى طب النبى صلى الله عليه و آله ، والطبرانى فى مسند الشاميين ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله ولا حمد من حديث أبى ذر « وأما الاذن فقمع ، وأما العين فمقره لما يوعى القلب » ولا يصح منها شىء .

فأحبّها إليه أرقّها وأصفاها وأصلبها »[1] ثمّ فسّرها فقال : أصلبها في الدّين وأصفاها في اليقين وأرقّها على الإخوان وهذه إشارة إلى قوله تعالي : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم [2] » و قوله تعالى : « مثل نوره كمشكوة فيها مصباح » [3] قيل : معناه مثل نور المؤمن وقلبه ، وقوله : « أو كظلمات في بحر لجّيّ » [4] مثل قلب المنافق ، و قيل في قوله تعالى : « في لوح محفوظ »[5] هو قلب المؤمن .

وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسيّ . فهذه أمثلة القلب .

✿ (بيان مجامع أوصاف القلب وأمثاله) ✿

إعلم أنّ الإنسان قد اصطحب في تركيبه وخلقته أربع شوائب فلذلك اجتمعت عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، و هي الصفات السبعيّة و البهيميّة و الشيطانيّة والرّبّانيّة . فهو من حيث سلّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السّباع من العداوة و البغضاء والتهجّم على النّاس بالضّرب و الشتم ، ومن حيث سلّطت عليه الشّهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق[6] وغيره ومن حيث أنّه في نفسه أمر ربّاني كما قال الله تعالى : « قل الرّوح من أمر ربّي » فإنّه يدّعي لنفسه الرّبوبيّة ويحبّ الاستيلاء والاستعلاء والتخصيص والاستبداد بالأمور كلّها والتفرّد بالرّئاسة والإنسلال [7] عن ربقة العبوديّة و التّواضع ، و يشتهي الإطلاع على العلوم كلّها بل يدّعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور و يفرح إذا نسب إلى العلم و يحزن إذا قرن بالجهل . و الإحاطة بجميع الحقائق و الاستيلاء بالقهر على جميع الخلايق من أوصاف الرّبوبيّة ، وفي الإنسان حرص على ذلك ومن حيث يختصّ عن البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب و الشهوة حصلت فيه

(١) نقله الراوندى فى النوادر عن النبى صلى الله عليه وآله كما فى سفينة البحار ج ٢ ص ٤٤١ . وفى البحار ج ١٥ الجزء الثانى ص ٢٩ عنه و ص ٣٠ عن فقه الرضا .

(٢) الفتح : ٢٩ .
(٣) النور : ٣٥ .

(٤) النور : ٤٠ .
(٥) البروج : ٢٢ .

(٦) الشبق : اشتداد الشهوة .
(٧) الانسلال : الانتزاع .

شيطانيّة فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الحيل والشرّ ويتوصّل إلى الأغراض بالمكر و الحيلة والخداع ، و يظهر الشرّ في معرض الخير و هذه أخلاق الشياطين .

و كلّ إنسان ففيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الرّبانيّة والشيطانيّة والسّبعيّة والبهيميّة ـ و كلّ ذلك مجموع في القلب ، وكأنّ المجموع في إهاب الإنسان: خنزير ، و كلب ، وشيطان ، وحكيم .

فالخنزير هو الشّهوة فإنّه لم يكن الخنزير مذموماً للونه و شكله وصورته بل لجشعه وكلبه و حرصه .

والكلب هو الغضب فإنّ السّبع الضّاري أو الكلب العقور ليس كلباً ولاسبعاً باعتبار الصّورة واللّون والشّكل، بل روح معنى السبعيّة من الضراوة والعدوان والعقر وفي باطن الإنسان ضراوة السّبع وغضبه و حرص الخنزير وشبقه ، فالخنزير يدعو بالشّره إلى الفحشاء والمنكر ، والسّبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لايزال يهيّج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر و يحسن لهما ماهما مجبولان عليه .

والحكيم الّذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان و مكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ، و نوره المشرق الواضح و أن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة و يدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه و يجعل الكلّ مقهوراً تحت سياسته فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر و ظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكلّ على الصّراط المستقيم وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه ، فلا يزال في استنباط الحيل و تدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب أو خنزير .

و هذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همّهم البطن والفرج و منافسة الأعداء والعجب منه أنّه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه و كوشف بحقيقة حاله و مثّل له حقيقة حاله كما يمثّل للمكاشفين إمّا في النوم أوفي

اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرّة و راكعاً اُخرى و منتظراً لإشارته و أمره فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته و إحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدقّقاً للفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرّة شيطانه فإنّه الّذي يهيّج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما ، فليراقب كلّ عبد حركاته وسكناته وسكوته و نطقه وقيامه و قعوده و لينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلّا ساعياً طول النّهار في عبادة هؤلاء ، و هذا غاية الظّلم إذ جعل المالك مملوكاً ، والرّبّ مربوباً ، والسيّد عبداً ، والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحقّ للسّيادة والقهر والاستيلاء ، وقد سخّره لخدمة هؤلاء الثلاثة ، فلاجرم ينتشر إلى قلبه من طاعته هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتّى يصير طبعاً فيه و ريناً مهلكاً للقلب ومميتاً له .

أمّا طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء و الهتكة و المجانة والعبث و الحرص والجشع والملق و الحقد و الحسد والشماتة و غيرها .

وأمّا طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التّهوّر والبذالة والبذخ والصلف و الاستشاطة والتكبّر والعجب و الاستهزاء والفخر و الاستخفاف و تحقير الخلق وإرادة الشرّ و شهوة الظّلم وغيرها .

و أمّا طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب ، فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدّهاء والجربزة والتلبيس والتضريب والغشّ والخبّ والخنى وأمثالها ، ولو عكس الأمر و قهر الجميع تحت سياسة الصفة الرّبّانيّة لاستقرّ في القلب من الصّفات الرّبّانيّة العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقايق الأشياء ومعرفة الاُمور على ماهي عليه والاستيلاء على ذلك كلّه بقوّة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدّم على الخلق بكمال العلم و جلالته ، و لاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا نتشر إليه من ضبط خنزير الشّهوة و ردّه إلى حدّ الاعتدال صفات شريفة مثل العفّة

والقناعة والهدوّ والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة و أمثالها ، و يحصل فيه من ضبط قوّة الغضب و قهرها و ردّها إلى حدّ الواجب صفة الشّجاعة والكرم والنجدة وضبط النّفس والصّبر والحلم والاحتمال والعفو والثّبات والنّبل والشهامة والوقار وغيرها .

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثّرة فيه ، وهذه الآثار على التوالي واصلة إلى القلب ، أمّا الآثار المحمودة الّتي ذكرناها فإنّها تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقاً و نوراً و ضياءً حتّى يتلألأ فيه جليّة الحقّ و ينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدّين . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه »[1] و بقوله صلى الله عليه وآله : « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ »[2] و هذا القلب هو الّذي يستقرّ فيه الذّكر قال الله تعالى « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب »[3].

و أمّا الآثار المذمومة فإنّها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ، ولا يزال يتراكم عليه مرّة بعد اُخرى إلى أن يسوّد و يظلم و يصير بالكلّيّة محجوباً عن الله تعالى ، و هو الطبع والرّين قال الله تعالى : « كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »[4] و قال الله : « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم و نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »[5] فربط عدم السّماع بالطبع بالذّنوب كما ربط السّماع بالتّقوى حيث قال : « واتّقوا الله واسمعوا »[6] ، « فاتّقوا الله و أطيعون »[7] ، « واتّقوا الله و يعلّمكم الله »[8] .

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ام سلمة واسناده ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٢) قال العراقي : لم اجد له أصلا . أقول : في النهج خ ٨٨ نظيره ، وروى الشيخ في اماليه باسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : « ابن آدم لا تزال بخير ما كان لك واعظ » .

(٣) الرعد : ٢٨ . (٤) المطففين : ١٤ .

(٥) الاعراف : ٩٩ . (٦) المائدة : ١٠٨ .

(٧) آل عمران : ٥٠ (٨) البقرة : ٢٨٢ .

و مهما تراكمت الذّنوب طبع على القلب و عند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحقّ وصلاح الدّين ويستهين بأمر الآخرة و يستعظم أمر الدّنيا و يصير مقصور الهمّ عليه فإذا قرع سمعه أمر الآخرة و ما فيها من الأخطار دخل من اُذن و خرج من الاُخرى ، و لم يستقرّ في القلب ولم يحرّكه إلى التّوبة والتّدارك ، اُولئك الّذين « يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور » و هذا هو معنى اسوداد القلب بالذّنوب كما نطق به القرآن والسنّة .

أقول: روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء فإن أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السّواد وإن تمادى في الذّنوب زاد ذلك السّواد حتّى يغطّي البياض فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، و هو قول الله عزّ وجلّ : « كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [١] .

و عنه عليه السلام : « إنّ القلوب ثلاثة قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير و هو قلب الكافر ، و قلب فيه نكتة سوداء والخير والشرّ فيه يعتلجان فأيّهما كانت منه غلب عليه ، و قلب مفتوح فيه مصابيح يزهر لا يطفىء نوره إلى يوم القيامة و هو قلب المؤمن » [٢] .

(١) رواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٢٧٣ تحت رقم ٢٠ . وقوله عليه السلام : « تمادى فى الذنوب» اى لج فيها ودام عليها والرين الطبع و تحقيق الكلام فى المقام هو أن من عمل عملا صالحاً أثر فى نفسه و بازدياد العمل يزداد الضياء و الصفاء حتى تصير كمرآة مجلوة صافية . ومن أذنب ذنباً أثر ذلك أيضاً و وارث لها كدورة فان تحقق عنده قبحه و تاب عنه زال الاثر و صارت النفس مصقولة صافية و ان أصر عليه زاد الاثر الميشوم و فشا فى النفس ، و الاعتراف بالتقصير و الرجوع الى الله بالتوبة و الاستغفار والانقلاع عن المعاصى لا محل لشىء من ذلك الى هذا القلب المظلم و المستغاث بالله ولا حول ولا قوة الا بالله على العظيم .

(٢) الكافى ج ٢ ص ٤٢٣ و قوله : « لا يعى شيئاً » اى لا يحفظ . و الاعتلاج : المصارعة وما يشابهها ، وقوله عليه السلام : « منه غلب عليه » « من » سببية والضمير للقلب .

و إنّما قال : إلى يوم القيامة لأنّ القلب بهذا المعنى لايخرب بخراب البدن .

قال أبو حامد : و عن النبيّ ﷺ « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ، و قلب الكافر أسود منكوس » (١) فطاعة الله تعالى بمخالفة الشّهوات مصقلة للقلب و معاصيه مسوّدات له ، فمن أقبل على المعاصي اسودّ قلبه ، و من أتبع السيّئة الحسنة ومحى أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة الّتي يتنفّس فيها ، ثمّ تمسح ثمّ يتنفّس ، ثمّ تمسح فإنّها لاتخلو عن كدورة ، قال الله تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون » (٢) فأخبر أنّ جلاء القلب و إبصاره يحصل بالذكر وأنّه لايتمكّن منه إلّا الّذين اتّقوا ، فالتقوى باب الذّكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

(بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة)

اعلم أنّ محلّ العلم هو القلب وأعني بالقلب اللّطيفة المدبّرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء و هي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلوّنات فكما أنّ للمتلوّن صورة و مثال تلك الصورة ينطبع في المرآة و يحصل بها فكذلك لكلّ معلوم حقيقة و لتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتّضح فيها و كما أنّ المرآة غيرٌ ، و صور الأشخاص غيرٌ وحصول مثالها في المرآة غير . فهي ثلاثة اُمور فكذلك ههنا ثلاثة اُمور : القلب ، و حقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق في القلب و حضورها فيه .

فالعالم عبارة عن القلب الّذي يحلّ فيه مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء ، والعلم عبارة عن حصول العلوم في القلب كحصول المثال في المرآة ، فكما أنّ المرآة لاتنكشف فيها الصّور لخمسة اُمور : أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدوّر ويشكّل ويصقّل ، والثاني لخبثها وصدأها و كدورتها وإن كانت تامّة الشكل ، والثالث لكونها معدولاً بها عن جهة الصّورة إلى غيرها كما

(١) أخرجه احمد فى المسند ج ٣ ص ١٧ عن ابى سعيد الخدرى .

(٢) الاعراف : ٢٠١ .

أنّ الصّورة وراء المرآة ، والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصّورة ، والخامس للجهل بالجهة الّتي فيها الصّورة المطلوبة رؤيتها حتّى يتعذّر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها ، فكذلك القلب مرآة مستعدّة لأن يتجلّى فيها حقيقة الحقّ في الأمور كلّها و إنّما خلت القلوب عن العلوم الّتي خلت عنها بهذه الأسباب الخمسة.

أوّلها نقصان في ذات القلب كقلب الصبيّ فإنه لا يتجلّى له المعلومات لنقصانه.

والثاني لكدورة المعاصي والخبث الّذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإنّ ذلك يمنع صفاء القلب و جلاءه فيمتنع ظهور الحقّ فيه بقدر ظلمته و تراكمه و إليه الإشارة بقوله ﷺ : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » (١) أي حصلت في قلبه كدورة لا يزول أثرها أبداً إذغايته أن يتبع الذّنب بحسنة تمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدّم السيّئة لازداد لامحالة إشراق القلب فلمّا تقدّمت السيّئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيّئة ولم يزدد بها نوراً و هذا خسران مبين ونقصان لامحالة ، فليست المرآة الّتي تتدنّس ثمّ تمسح بالمصقلة كالّتي لم تتدنّس أصلاً وتمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق ، فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشّهوات هو الّذي يجلو القلب و يصفيه و لذلك قال تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » (٢) و قال ﷺ : « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم » (٣).

والثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فإنّ قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنّه ليس يتّضح فيه جليّة الحقّ لأنّه ليس يطلب الحقّ ولا يحاذي بمرآته شطر المطلوب ، بل ربّما يكون مستوعب الهمّ بتفصيل الطاعات البدنيّة أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمّل في حضرة الرّبوبيّة والحقايق الخفيّة الإلهيّة فلا ينكشف له إلّا ماهو متفكّر فيه من دقايق آفات الأعمال و خفايا عيوب النّفس إن كان متفكّراً فيها أو في مصالح المعيشة إن كان متفكّراً فيها

---

(١) قال العراقي : لم اره له أصلا . (٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) أخرجه ابو نعيم في الحلية من حديث أنس كما في المغني و قد تقدم .

و إذا كان تقييد الهمّ بالأعمال و تفصيل الطّاعات مانعاً من انكشاف جليّة الحقّ فما ظنّك في من صرف الهمّ إلى الشهوات الدّنيويّة ولذّاتها وعلائقها ، فكيف لايمنع عن الكشف الحقيقي ؟!.

والرابع الحجاب فإنّ المطيع القاهر لشهواته ، المتجرّد للفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبى على سبيل التقليد والقبول بحسن الظنّ ، فإنّ ذلك يحول بينه و بين حقيقة الحقّ و يمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقّفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضاً حجاب عظيم به قد حجب أكثر المتكلّمين والمتعصّبين للمذاهب بل أكثر الصّالحين المتفكّرين في ملكوت السماوات والأرض لأنّهم محجوبون باعتقادات تقليديّة جمدت في نفوسهم و رسخت في قلوبهم و صارت حجاباً بينهم و بين درك الحقائق .

والخامس الجهل بالجهة الّتي منها يقع العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلاّ بالتذكّر للعلوم الّتي يناسب مطلوبه حتّى إذا تذكّرها ورتّبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطريق الاعتبار ، فعندذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فيتجلّى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإنّ العلوم المطلوبة الّتي ليست فطريّة لا تقتنص إلّا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كلّ علم فلايحصل إلّا عن علمين سابقين يأتلفان و يزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والانثى وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كلّ علم فله أصلان مخصوصان و بينهما طريق في الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الاُصول و بكيفيّة الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ماذكرناه من الجهل بالجهة الّتي الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان مثلاً أن يرى قفاه بالمرآة فإنّه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلايظهر فيها القفا و إن رفعها وراء القفا و حاذاه ، كان قد عدل بالمرآة من عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها ، فيحتاج إلى مرآة اُخرى ينصبها وراء القفا و هذه في مقابلتها بحيث يبصرها و يرعى مناسبة بين وضع المرآتين حتّى تنطبع

صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ، ثمّ تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى الّتي في مقابلة العين ثمّ تدرك العين صورة القفا ، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات و تحريفات أعجب ممّا ذكرنا في المرآة يعزّ على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفيّة الحيلة في تلك الازورارات ، فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور و إلّا فكلّ قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقايق لأنّه أمر ربّاني شريف ، وإنّما فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصيّة والشرف و إليه الإشارة بقوله عزّ وجلّ : « إنّا عرضنا الأمانة على السّموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان »[1] إشارة إلى أنّ له خاصيّة تميّز بها عن السماوات والأرض والجبال ، بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى و تلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد ، وقلب كلّ آدميّ مستعدّ لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل و لكن ثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب الّتي ذكرناها ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : « كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه »[2] و قوله صلى الله عليه وآله : « لولا أنّ الشّياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّماء »[3] إشارة إلى بعض هذه الأسباب الّتي هي الحجاب بين القلب و بين الملكوت وإليه الإشارة بما روي أنّه « قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : أين الله في الأرض أو في السّماء ؟ قال : في قلوب عباده المؤمنين »[4] و في الخبر « قال الله تعالى : لم يسعني أرضي ولا سمائي و وسعني قلب عبدي المؤمن الليّن الوادع »[5] وفي الخبر « أنّه قيل للنّبيّ صلى الله عليه وآله : من خير الناس ؟ فقال : كلّ مؤمن مخموم القلب ، فقيل : وما مخموم القلب ؟ فقال : هو التقيّ النقيّ الّذي لا غشّ فيه ولا بغي ولا غدر

---

(١) الاحزاب : ٧٢ .

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٣١ .　　(٣) تقدم آنفاً .

(٤) و (٥) لم أجدهما بهذا اللفظ انما روى الطبراني في الكبير عن ابي عتبة الخولاني بسند ضعيف كما في الجامع الصغير « ان لله تعالى آنية من اهل الارض و آنية ربكم قلوب عباده الصالحين و احبها اليه الينها و ارقها » .

ولا غلّ ولاحسد »(١) ولذلك قال علي عليه السلام :(٢) رأى قلبي ربّي . إذا كان قد رفع الحجاب بالتّقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين ربّه تجلّى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنّة عرض بعضها كعرض السّماوات والأرض ، وأما جملتها فأكثر سعة من السماوات والأرض لأنّ السماوات والأرض عبارة عن عالم الملك والشّهادة ، و هو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة وأمّا عالم الملكوت و هي الأسرار الغايبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر ، فلا نهاية لها نعم الّذي يلوح القلب منه مقدار متناه ، ولكنّه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله تعالى فلانهاية له ، و جملة عالم الملك والملكوت إذا أُخذت دفعة واحدة تسمّى الحضرة الرّبوبيّة لأنّ الحضرة الرّبوبيّة محيطة بكلّ الموجودات ، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله و مملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلّى من ذلك للقلب هو الجنّة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنّة عند أهل الحقّ ، ويكون سعة ملكه في الجنّة بحسب سعة معرفته و بمقدار ما تجلّى له من الله سبحانه وصفاته و أفعاله و إنّما مراد الطاعات و أعمال الجوارح كلّها تصفية القلب و تزكيته و جلاؤه و قد أفلح من زكّاه ، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة ، و هو المراد بقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »(٣) وبقوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه »(٤) .

نعم هذا التجلّي و هذا الإيمان له ثلاث مراتب : المرتبة الأُولى إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض ، والثاني إيمان المتكلّمين و هو ممزوج بنوع استدلال و درجته قريب من درجة إيمان العوام السابقة ، والثالث إيمان العارفين وهو المشاهدة بنور اليقين ، ويتبيّن لك هذه المراتب بمثال و هو أنّ تصديقك بكون زيد مثلاً في الدّار له ثلاث درجات : الأُولى أن يخبرك به من جرّبته بالصدق ولم تعرفه بالكذب

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن بسند صحيح تحت رقم ٤٢١٦ و «مخموم القلب» بالمعجمة هو النقي الذى لاغل فيه ولا حسد ، و هو من خممت البيت اذا كنسته .

(٢) في الاحياء « قال عمر » .

(٣) الانعام : ١٢٥ . (٤) الزمر : ٢٢ .

ولاتتهمه بالجزاف في القول فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهومثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم و أمهاتهم وجود الله تعالى و علمه و إرادته و قدرته و سائر صفاته و بعثه الرسول و صدقه وما جاء به و كما سمعوه قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لحسن ظنهم بآبائهم و أمهاتهم و معلميهم و هذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة و أهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما يسمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنة بما سمعوه من آبائهم و أمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا مااعتقدوه خطأ لأنهم ألقي إليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه و لكن لأنهم ألقي إليهم كلمة الحق. الدرجة الثانية أن تسمع كلام زيد و صوته في الدار ولكن من وراء جدار فتستدل بذلك على كونه في الدار فيكون إيمانك و تصديقك و يقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإنك إذا قيل لك : إن زيداً في الدار ، ثم سمعت صوته ازددت به يقيناً لأن الصوت يدل على الشكل والصورة عند من سمع الصوت في حال مشاهدة الصورة ، فقلبه يحكم بأن هذا صوت ذلك الشخص ، فهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه إذا الصوت قد يشبه الصوت و قد يمكن التكلف أيضاً بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً ولايقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضاً ، الدرجة الثالثة أن تدخل الدار وتنظر إليه بعينك و تشاهده فهذه هي المعرفة الحقيقية ، والمشاهدة اليقينية ، و هي تشبه معرفة المقربين والصديقين ، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين و يتميزون عنهم برتبة يستحيل معها إمكان الخطأ نعم وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم و بدرجات الكشف ، أما الدرجات فمثاله أن تبصر زيداً في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل لك إدراكه ، والآخر تدركه في بيت أو من بعد أو في

وقت عشيّة ، فيتمثّل له من صورته ما يستيقن معه أنّه هو ولكن لا يتمثّل في نفسه الدقايق والخفايامن صورته ، ومثل هذا متصوّر فيتفاوت المشاهدة للأمورالالهيّة ، وأمّا مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدّار زيداً وعمراً وبكراً وغير ذلك ، وآخر لا يرى إلّا زيداً فمعرفة ذلكتزيد بكثرة المعلومات لامحالة ، فهذه حالالقلببالاضافة إلى العلوم .

☼(بيان حال القلب)☼

☼(بالاضافة الى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والاخروية)☼

اعلم أنّ القلب بغريزته مستعدٌّ لقبول حقائق المعلومات كما سبق و لكنّ العلوم الّتي تحلّ فيه تنقسمإلى عقليّة وإلى شرعيّة ، والعقليّة تنقسم إلىضروريّة و مكتسبة ، والمكتسبة تنقسم إلى دنيويّة واُخرويّة ، أمّا العقليّة فنعني بها ما يقضي به غريزة العقل ولاتؤخذ بالتقليد والسّماع وهي تنقسم إلى ضروريّة لاتدرى من أين حصلت ولا كيف حصلت ، كعلم الانسان بأنّ الشّخص الواحد لايكون في مكانين في حالة واحدة ، والشّيء الواحد لايكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً معاً ، فانّ هذه العلوم يجد الانسان نفسه منذ الصبى مفطوراً عليها ولا يدرى متى حصلت له و لا من أين حصلت أعنى أنّه لا يدرى فيه سبباً قريباً و إلّا فليس يخفى عليه أنّ الله تعالى هو الّذي خلقها . وإلى مكتسبة وهي المستفادة بالتعلّم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمّى عقلاً ، قال عليّ عليه السلام :

رأيت العقل عقلين ☼ فمطبوع ومسموع ☼ ولا ينفع مسموع

إذا لم يك مطبوع ☼ كمالاتنفعالشمس ☼ وضوءالعينممنوع

والأوّلهوالمراد بقوله صلى الله عليه وآله : « ماخلقالله خلقاًهوأكرم عليهمنالعقل»[1] والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : « إذا تقرّب الناس إلى الله تعالى بأنواع البرّ فتقرّبإليه أنت بعقلك »[2] إذا لايمكنالتقرّب بالغريزة العطريّة ولا

(١) تقدم سابقاً و أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول باسناد ضعيف .

(٢) راجع الرسالة المعراجية لا بن سينا ص ١٥ و قد تقدم فى المجلد الاول .

بالعلوم الضّروريّة بل بالمكتسبة ولكن مثل عليّ عليه السلام هو الّذي يقدر على التقرّب باستعمال العقل في اقتناص العلوم الّتي بها ينال القرب من الله تعالى ، و القلب جار مجرى العين ، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين و قوّة الأبصار لطيفة تفقد في الأعمى وتوجد في البصير ، وإن كان قد غمض العين أو جنّ عليه اللّيل ، والعلم الحاصل فيه جار مجرى قوّة إدراك البصر ، و رؤيته لأعيان الأشياء و تأخّر العلوم عن عين العقل في مدّة الصّبى إلى أوان التّمييز أو البلوغ يضاهي تأخّر الرّؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس و فيضان نورها على المبصرات ، والقلم الّذي يسطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس ، وإنّما لم يحصل العلم في قلب الصّبي قبل التمييز لأنّ لوح قلبه ما تهيّأ بعد لقبول نقش العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب البشر ، قال الله تعالى : « علّم بالقلم ✿ علّم الإنسان مالم يعلم »(١) و قلم الله سبحانه لا يشبه قلم خلقه كما أنّ وصفه لا يشبه وصف خلقه ، فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنّ ذاته ليست من جوهر ولا عرض ، فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظّاهر صحيحة من هذه الوجوه إلّا أنّه لا مناسبة بينهما في الشّرف فإنّ البصيرة الباطنة هي عين النّفس الّتي هي اللّطيفة المذكورة و هي كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضرّ على الفارس من عمى الفرس ، بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر ، و لموازنة بصيرة الباطنة للبصر الظّاهر سمّاه الله تعالى باسمه ، فقال : « ما كذب الفؤاد ما رأى »(٢) سمّى إدراك الفؤاد رؤية و كذلك قوله تعالى : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض »(٣) وما أراد بذلك الرّؤية الظاهرة فإنّ ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتّى يذكر في معرض الامتنان ولذلك سمّى ضدّ إدراكه عمى فقال تعالى : « فإنّها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور »(٤) و قال تعالى : « و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ

(١) العلق : ٤و٥ . (٢) النجم: ١١ .
(٣) الانعام : ٧٥ (٤) الحج: ٤٦

سبيلاً » (١) فهذا بيان العلم العقلي.

أمّا العلوم الدّينيّة فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم و ذلك يحصل بالتعلّم لكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ وفهم معانيهما بعد السّماع وبه كمال صفة القلب وبه سلامته عن الأدواء والأمراض ، فالعلوم العقليّة غير كافية في سلامة القلب ، وإن كان محتاجاً إليها كما أنّ العقل غير كاف في استدامة أسباب صحّة البدن بل يحتاج إلى معرفة خواصّ الأدوية والعقاقير بطريق التعلّم من الأطبّاء ، إذ مجرّد العقل لا يهدي إليها ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلّا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السمع ولا بالسّمع عن العقل فالدّاعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلّيّة جاهل ، والمكتفي بمجرّد العقل عن أنوار القرآن والسنّة مغرور ، فإيّاك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين ، فإنّ العلوم العقليّة كالأغذية والعلوم الشرعيّة كالأدوية والشخص المريض يتضرّر بالغذاء مهما فاته الدّواء فكذلك أمراض القلب لا يمكن علاجها إلّا بأدوية مستفادة من الشريعة ، و هي وظائف العبادات والأعمال الّتي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادات الشرعيّة واكتفى بالعلوم العقليّة استضرّ بها كما يستضرّ المريض بالغذاء و ظنّ من يظنّ أنّ العلوم العقليّة مناقضة للعلوم الشرعيّة ، وأنّ الجمع بينهما أمر غير ممكن ، هو ظنّ صادر عن عمى في عين البصيرة ، نعوذ بالله من ذلك ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعيّة لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظنّ أنّه ناقض في الدّين فيتحيّر بذلك و ينسلّ من الدّين انسلال الشعرة من العجين و إنّما ذلك لأنّ عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدّين و هيهات ، وإنّما مثاله مثال الأعمى الّذي دخل داراً فيعثر فيها بأواني الدّار فقال : ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا تردّ إلى مواضعها ؟ فقيل له : تلك الأواني في مواضعها و إنّما أنت لست تهتدي إلى الطريق لعماك ، والعجب منك أنّك لا تحيل عثرتك على عماك و إنّما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدّينيّة إلى العقليّة .

(١) الاسراء : ٧٢ . .

فأمّا العلوم العقليّة فتنقسم إلى دنيويّة وأُخرويّة فالدُّنيويّة كعلم الطبّ والحساب والهندسة والنّجوم و سائر الحرف والصناعات ، والأُخرويّة كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال ، والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله كما فصّلناه في كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعني من صرف عنايته إلى أحدهما حتّى يتعمّق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ، ولذلك ضرب عليّ عليه السلام للدُّنيا والآخرة بثلاثة أمثلة فقال : « هما ككفّتي الميزان ، وكالمشرق و المغرب ، وكالضرّتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأُخرى »[1] ولذلك ترى الأكياس في أُمور الدُّنيا وفي علم الطبّ والهندسة والحساب والفلسفة جهّالاً في أُمور الآخرة ، والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهّالاً في الأكثر بعلوم الدُّنيا ، لأنّ قوّة العقل لا تفي بالأمرين جميعاً في الغالب فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني ، و لذلك قال صلى الله عليه وآله : « أكثر أهل الجنّة البله »[2] إي البليد في أُمور الدُّنيا .

و قال بعض السّلف : أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا : شياطين . فمهما سمعت أمراً غريباً من أُمور الدِّين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم فلا ينفرنّك جحودهم عن قبوله ، إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجري أمر الدُّنيا و الآخرة ولذلك قال الله تعالى : « إنّ الّذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحيوة الدُّنيا واطمأنّوا بها »[3] وقال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحيوة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »[4] و قال تعالى : « فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدُّنيا ۞ ذلك مبلغهم من العلم »[5] فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدُّنيا والدِّين لا يكاد يتيسّر

(١) في النهج ابواب الحكم تحت رقم ١٠٣ «ان الدنيا والاخرة عدوان متفاوتان و سبيلان مختلفان : فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الاخرة وعاداها ، وهما بمنزلة المشرق و المغرب و ماش بينهما ، كلما قرب من واحد بعد من الاخر و هما ضرتان .

(٢) أخرجه البزار عن أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير» .

(٣) يونس : ٧ . (٤) الروم : ٧ .

(٥) النجم : ٢٩ و ٣٠ .

إلّا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم و معادهم وهم الأنبياء ﷺ ، المؤيّدون بروح القدس المستمدّون من القوّة الإلهيّة فقلوبهم يتّسع لجميع الأمور ولا يضيق عنها ، وأمّا قلوب سائر الخلق فإنّها إذا اشتغلت بأمر انصرفت عن الآخر وقصرت عن الاستكمال فيه .

✿(بيان الفرق بين الالهام والتعلم)✿

(والفرق بين طريق المجاهدين في استكشاف الحقّ وطريق النظار في الاكتساب)

اعلم أنّ العلوم الّتي ليست ضروريّة وإنّما تحصل في القلب في بعض الأحوال يختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنّه اُلقي فيه من حيث لا يدري و تارة تكتسب بطريق الاستدلال و التعلّم ، فالّذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدّليل يسمّى إلهاماً ، والّذي يحصل بالاستدلال يسمّى إعتباراً واستبصاراً ، ثمّ الواقع في القلب بغير حيلة و تمحّل و اجتهاد من العبد تنقسم إلى ما لا يدري العبد أنّه كيف حصل ، و من أين حصل ، و إلى ما يطّلع معه على السّبب الّذي منه استفيد ذلك العلم و هو بمشاهدة الملك الملقي في القلب ، و الأوّل يسمّى إلهاماً و نفثاً في الرّوع ، و الثاني يسمّى وحياً ، و يختصّ به الأنبياء ﷺ ، و الأوّل يختصّ به الأولياء و الأصفياء ، و الّذي قبله - و هو المكتسب بطريق الاستدلال - يختصّ به العلماء .

و حقيقة القول فيه أنّ القلب مستعدّ لأن يتجلّى فيه حقيقة الحقّ في الأشياء كلّها و إنّما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة الّتي سبق ذكرها ، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب و بين اللّوح المحفوظ الّذي هو منقوش ، بجميع ما قضى الله تعالى به إلى يوم القيامة و تجلّي حقائق العلوم من مرآة اللّوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها ، و الحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد ، واُخرى يزول بهبوب ريح تحرّكه ، و كذلك قد تهبّ رياح الألطاف وتكشف الحجب عن أعين القلوب فيتجلّى فيها بعض ما هو مسطور في اللّوح المحفوظ ، ويكون

ذلك تارة عند المنام فينكشف فيه ما سيكون في المستقبل ، و تمام ارتفاع الحجاب بالموت وبه ينكشف الغطاء ، وفي اليقظة أيضاً قد ينقشع الحجاب بلطف خفيّ من الله تعالى ، فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، و اُخرى على التوالي إلى حدّ مّا ، و دوامه في غاية الندور . فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ، ولا في محلّه ، ولا في سببه ، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب و أنّ ذلك ليس باختيار العبد ، ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإنّ العلوم إنّما تحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة و إليه الإشارة بقوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء » (١).

فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ ميل أهل المجاهدة إلى العلوم الالهاميّة دون التعليميّة ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم و تحصيل ما صنّفه المصنّفون و البحث عن الأقاويل والأدلّة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلّها و الإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى ، فمهما حصل ذلك كان الله تعالى هو المتولّي لقلب عبده والمتكفّل بتنويره بأنوار العلم فإذا تولّى الله تعالى أمر القلب فاضت الرّحمة و أشرق النور في القلب ، و انشرح الصدر و انكشف له سرّ الملكوت ، و انقشع عن وجه القلب حجاب العزّة بلطف الرّحمة و تلألأت فيه حقائق الاُمور الإلهيّة فليس على المريد إلّا الاستعداد بالتصفية المجرّدة و احضار الهمّة مع الارادة الصادقة و التعطّش التامّ ، و الترصّد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرّحمة ، فالأنبياء و الأولياء انكشفت لهم الاُمور وفاض على صدورهم النور لا بالتعلّم و الدراسة للكتب بل بالزّهد في الدّنيا ، و التبرّي عن علائقها ، و تفريق القلب عن شواغلها ، والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى « فمن كان لله كان الله له » و زعموا أنّ الطريق في ذلك أوّلاً أن يقطع علائق الدّنيا بالكلّية ، فيفرغ قلبه عنها ويقطع همّه عن الأهل و المال و الولد و الوطن و عن العمل و الولاية و الجاه بل

(١) الشورى : ٥١ .

يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كلّ شيء وعدمه ، ثمّ يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرّواتب ، و يجلس فارغ القلب مجموع الهمّ ، ولا يفرّق فكره بقراءة قرآن و لا بالتأمّل في تفسيره و لا بكتب حديث و غيره بل يجتهد أن لايخطر بباله شيء سوى ذكر الله تعالى ، فلايزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: « الله الله » على الدّوام مع حضور القلب إلى أن ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللّسان ويرى كأنّ الكلمة جارية على اللّسان ، ثمّ يصبر عليه إلى أن ينمحى أثره عن اللّسان و يصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثمّ يواظب عليه إلى أن ينمحى عن القلب صورة اللّفظ وحروفه وهيئة الكلمة و يبقى معنى الكلمة مجرّداً في قلبه حاضراً فيه كأنّه لازم له لايفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ و اختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس و ليس له اختيار في استجلاب رحمة الله بل هو بما فعله قد تعرّض لنفحات الرّحمة فلا يبقى إلّا الانتظار لما يفتح الله له من رحمته الّتي فتحها على الأنبياء و الأولياء بهذا الطريق ، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همّته ، و حسنت مواظبته ، ولم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدّنيا ، فتلمع لوامع الحقّ في قلبه ، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لايثبت ثمّ يعود و قد يتأخّر وإن عاد فقد ثبت و قد يكون مختطفاً ، و إن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لايطول ، و قد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، و قد يقتصر على فنّ واحد ، و منازل أولياء الله فيه لا تحصى كما لايحصى تفاوت خلقهم وخلقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك و تصفية وجلاء ، ثمّ استعداد وانتظار فقطّ .

و أمّا النظار وذووالاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، و إفضاؤه إلى المقصد على الندور ، فإنّه أكثر أحوال الأنبياء و الأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق و استبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا اجتماع شروطه ، و زعموا أنّ محو العلائق إلى ذلك الحدّ كالمتعذّر و إن حصل في حاله فثباته أبعد منه إذا دنى وسواس وخاطر يشوّش القلب ، قال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن أشدّ تقلباً من القدر في

غايانها »[١] و قال ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلّبه كيف يشاء » [٢] وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج و يختلط العقل و يمرض البدن وإذا لم يتقدّم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدّة طويلة إلى أن تزول و العمر ينقضي دون النجاح فيها ، فكم من مجاهد سلك هذا الطريق ثمّ بقي في خيال واحد عشرين سنة ، و لو كان قد أتقن العلم من قبل لا نفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلّم أوثق وأقرب إلى الغرض ، و زعموا أنّ ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلّم الفقه . وزعم أنّ النبيّ ﷺ لم يتعلّم ذلك ولكن صار فقيهاً بالوحي و الإلهام من غير تكرير وتعليق ويقول : أنا أيضاً ربّما انتهت بي الرّياضة إليه . و من ظنّ ذلك فقد ظلم نفسه و ضيّع عمره بل هو كمن ترك طريق الكسب والحراسة رجاء العثور على كنز من الكنوز فإنّ ذلك ممكن ولكنّه بعيد جدّا فكذلك هذا فقالوا : لابدّ أوّلاً من تحصيل ما حصّله العلماء وفهم ما قالوه ثمّ لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بالمجاهدة بعد ذلك .

✿(بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس)✿

اعلم أنّ عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواسّ لأنّ القلب أيضاً خارج عن إدراك الحسّ و ما ليس مدركاً بالحواسّ يضعف الأفهام عن إدراكه إلاّ بمثال محسوس و نحن نقرّب ذلك إلى أفهام الضعفاء بمثالين أحدهما إنّا لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق الماء إليه من فوقه بأنهار يفتح إليه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقرّ الماء الصّافي فينفجر الماء من أسفل الحوض و يكون ذلك الماء أصفى و أدوم و قد يكون أغزر و أكثر

(١) أخرجه احمد فى المسند ج ٦ ص ٤ من حديث المقداد بن اسود .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٥٢٥ و ج ٤ ص ٣٢١ و فيه « ما من قلب الا ـ الحديث ـ » .

فكذلك القلب مثل الحوض و العلم مثل الماء والحواسّ الخمسة مثل الأنهار ويمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواسّ و الاعتبار بالمشاهدات حتّى يمتلي علماً ويمكن أن تسدّ عنه هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغضّ البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره وبرفع طبقات الحجب عنه حتّى ينفجر ينبوع العلم من داخله .

فإن قلت :و كيف ينفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ؟ فاعلم أنّ هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة والقدر الّذي يمكن ذكره أنّ حقائق الأشياء مسطورة في اللّوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقرّبين ، فكما أنّ المهندس يسطر صورة أبنية الدّار في بياض ثمّ يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السّماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوّله إلى آخره في اللّوح المحفوظ ، ثمّ أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة و العالم الّذي خرج إلى الوجود بصورته يتأدّي منه صورة اُخرى إلى الحواسّ و الخيال ، فإنّ من ينظر إلى السّماء والأرض ثمّ يغضّ بصره يرى صورة السّماء و الأرض في خياله حتّى كأنّه ينظر إليها ولو انعدمت السّماء والأرض ثمّ بقي هو لوجد صورة السّماء و الأرض في نفسه كأنّه يشاهدها وينظر إليها ، ثمّ يتأدّى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء الّتي وجدت في الحسّ والخيال فالحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال ، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً عن خيال الإنسان وقلبه ، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللّوح المحفوظ .

وكان للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللّوح المحفوظ و هو سابق على وجوده الجسمانيّ ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، و يتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي أعني وجود صورته في الخيال ، و يتبع وجوده في الخيال وجوده العقليّ أعني وجود صورته في القلب .

وبعض هذه الوجودات روحانيّة وبعضها جسمانيّة ، و الرّوحانيّة بعضها أشدّ روحانيّة من بعض ، و هذا لطف من الحكمة الإلهيّة إذ جعل حدقتك على صغر

حجمها بحيث ينطبع فيها صورة العالم والسّماوات والأرض على اتّساع أكنافها،ثمّ يسري من وجودها في الحسّ وجود في الخيال ، ثمّ منه وجود في القلب فإنّك أبداً لاتدرك إلّاما هو واصل إليك فلو لم يجعل للعالم كلّه مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر بما يباين ذاتك ، فسبحان من دبّر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثمّ أعمى عن دركها القلوب والأبصار حتّى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وعجايبها . فلنرجع إلى المقصود .

فنقول : القلب يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم و صورته تارة من اقتباس الحواسّ و تارة من اللّوح المحفوظ ، كما أنّ العين يتصوّر أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها ، و تارة من النظر إلى الماء الصّافي الّذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللّوح المحفوظ رأى الأشياء فيه و يفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من مداخل الحواسّ، فيكون ذلك كتفجّر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللّوح المحفوظ ، كما أنّ الماء إذا اجتمع من الأنهار في الحوض منع ذلك عن التفجّر من الأرض ، وكما أنّ من نظر إلى الماء الّذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس فإذن للقلب بابان باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللّوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتوح إلى الحواسّ الخمس المتمسّك بعالم الشهادة و الملك و عالم الشهادة و الملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكات ، فأمّا انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواسّ فلايخفى عليك ، و أمّا انفتاح بابه الدّاخلاني إلى عالم الملكوت و مطالعة اللّوح المحفوظ فتعلمه علماً يقيناً بالتأمّل في عجائب الرؤيا ، واطّلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواسّ ، و إنّما ينفتح ذلك الباب لمن أفرد ذكر الله تعالى .

قال النبيّ ﷺ : « سبق المفردون . قيل : و من هم يا رسول الله ؟ قال :

المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً - ثمّ قال في وصفهم حكاية عن الله تعالى - : أقبل عليهم بوجهي أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أيّ شيء أُريد أن أعطيه ، ثمّ قال عزّ وجلّ : أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كما أُخبر عنهم »(١) و مدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن ، فإذن الفرق بين علوم الأنبياء والأولياء عليهم السلام و بين علوم الحكماء والعلماء هذا و هو أنّ علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكماء يأتي من أبواب الحواسّ المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردّده بين عالمي الشهادة و الغيب لايمكن أن يستقصى في علم المعاملة ، فهذا مثال يعرفك الفرق بين مدخل العلمين .

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين أعني عمل الأولياء وعمل العلماء فإنّ العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، والأولياء يعملون في جلاء القلب و تطهيره و تزكيته و تصفيته و تصقيله فقط . وقد حكي أنّ أهل الصّين وأهل الرّوم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش فاستقرّ رأي الملك على أن يسلم إليهم صفّة لينقش أهل الصّين منها جانباً وأهل الرّوم منها جانباً و يرخى بينهم حجاب يمنع اطّلاع كلّ فريق على الآخر ، ففعل ذلك وجمع أهل الرّوم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ، و دخل أهل الصّين من غير صبغ و جعلوا يجلون جانبهم و يصقلونه فلمّا فرغ أهل الرّوم ادّعى أهل الصّين أنّهم أيضاً قد فرغوا فتعجّب الملك من قولهم وأنّهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ فقيل : و كيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا : ما عليكم منّا ارفعوا الحجاب ، فرفعوا فإذا جانبهم قد تلألأت فيه عجائب الصنائع الرّوميّة مع زيادة إشراق و بريق ، إذ صار جانبهم كالمرآة المجلّيّة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء (٢).

(١) أخرجه الترمذى والحاكم بادنى اختلاف عن أبى هريرة ، والطبرانى فى الكبير عن ابى الدرداء بسند صحيح كما فى الجامع الصغير ، وأخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف كمافى المغنى .

(٢) القصة نظمها المولوى فى مثنويه وجعل مكان الرومى چينى وبالعكس وقال : ←

فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب و جلائه و تزكيته و صفائه حتّى يتلألأ فيه جليّة الحقّ بنهاية الإشراق كفعل أهل الصّين وعناية العلماء والحكماء باكتساب نقش العلوم و تحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الرّوم، و كيف ما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لاينمحي وصفاؤه لا ينكدر ، و إليه أشار من قال : التراب لا يأكل محلّ الإيمان ، و يكون وسيلته المقرّبة إلى الله تعالى ، أمّا ما حصله من نفس العلم أو ما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ، فلا سعادة لأحد إلّا بالعلم والمعرفة .

و بعض السعادات أشرف من بعض كما أنّه لاغنى إلّا بالمال فصاحب الدّراهم غنيّ و صاحب الخزائن المترعة غنيّ ، و تتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة و الإيمان كما يتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلّة المال و كثرته ، والمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلّا بأنوارهم قال الله تعالى : « يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم » (١) وقد ورد في الخبر « أنّ بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل و بعضهم يعطى نوراً أصغر منه حتّى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على

← اهل چین وروم در بحث آمدند ... رومیان در علم واقف تر بدند
چینیان گفتند یکخانه بما ... خاص بسپارید و یك آن شما
بود دو خانه مقابل در بدر ... آن یکی چینی ستد رومی دگر
چینیان صد رنگ ازشه خواستند ... پس خزینه باز کرد آن ارجمند
هر صباحی از خزینه رنگها ... چینیان را راتبه بود وعطا
رومیان گفتند نی نقش و نه رنگ ... در خور آید کار را جز دفع زنگ
در فرو بستند و صیقل میزدند ... همچو گردون ساده وصافی شدند
چینیان چون از عمل فارغ شدند ... از پی شادی دهلها میزدند
شه در آمد دید آنجا نقشها ... میربود آن عقل را و فهم را
بعد از آن آمد بسوی رومیان ... پرده را بالا کشیدن از میان
عکس آن تصویر آن کردارها ... زد بر این صافی شده دیوارها
هر چه آنجا بود اینجا به نمود ... دیده را از دیده خانه میربود

(١) الحديد : ١٢ .

قدر إبهام قدمه، فيضيء مرّة وينطفيء أخرى فاذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا طفيء قام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم، ومنهم من يمرّ كطرف العين ومنهم من يمرّ كالبرق ومنهم من يمرّ كالسحاب ومنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب[1] ومنهم من يمر كشدّ الفرس والّذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخرّ منه يد وتعلّق أخرى وتخرّ رجل وتعلّق أخرى وتصيب جوانبه النار قال: ولايزال كذلك حتّى يخلص - الحديث - ».

فبهذا يظهر تفاوت الناس في الايمان، فايمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج، وبعضهم نوره كنور الشمعة، وإيمان الصدّيقين نوره كنور النجوم والقمر، وإيمان الأنبياء كنور الشّمس، وكما ينكشف في نور الشّمس صورة الآفاق مع اتّساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلّا زاوية ضيّقة من البيت، فكذلك يتفاوت انشراح الصّدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين.

ولذلك جاء في الخبر « أنّه يقال: يوم القيامة أخرجوا من النّار من في قلبه مثقال من الايمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرّة»[2] كلّ ذلك تنبيه على تفاوت درجات الايمان، فانّ هذه المقادير من الايمان لاتمنع دخول النّار وفي مفهومه أنّ من إيمانه يزيد على مثقال فانّه لايدخل النّار ولو دخل لأمر باخراجه أوّلاً فانّ من في قلبه مثقال ذرّة لا يستحقّ الخلود في النار وإن دخلها.

وكذلك قوله ﷺ: « ليس شيء خير من ألف مثله إلّا الانسان أو المؤمن»[3] إشارة إلى تفضيل قلب العارف المؤمن فانّه خير من قلب ألف من عوام النّاس.

وقد قال الله تعالى: « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» [4] تفضيلاً للمؤمنين

(١) انقض الطائر انقضاضاً: هوى ليقع والخبر أخرج صدره الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٤٧٨ بأدنى اختلاف بسند صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن ابي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه ايضاً كما في الدرالمنثور ج ٦ ص١٧٢.

(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١١٧ بادنى اختلاف في اللفظ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن سلمان بسند صحيح كما في الجامع الصغير

(٤) آل عمران: ١٣٩.

على المسلمين و المراد به المؤمن العارف دون المقلّد ، وقال تعالى : « يرفع اللّه الّذين آمنوا منكم و الّذين اُوتوا العلم درجات » (١) فأراد ههنا بالّذين آمنوا الّذين صدقوا من غير علم و ميّزهم عن الّذين اُوتوا العلم ويدلّ ذلك على أنّ اسم المؤمن يقع على المقلّد و إن لم يكن تصديقه عن بصيرة و كشف ، و فسّر ابن عبّاس قوله تعالى : « والّذين اُوتوا العلم درجات » (١) قال : يرفع اللّه العالم فوق المؤمن سبعمائة درجة ، بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض.

وقال صلّى اللّه عليه وآله : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » (٢) و في رواية « كفضل القمر على سائر الكواكب » و قال صلّى اللّه عليه وآله : « أكثر أهل الجنّة البله ، و علّيّون لذوي الألباب » (٣) فبهذه الشواهد يتّضح تفاوت درجات أهل الجنان بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم و لهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة اللّه عظيم الغبن و الخسران ، و المرحوم يرى فوق درجته درجاتٍ عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغنيّ الّذي يملك عشرة دراهم إلى الغنيّ الّذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب و كلّ واحد منهما غنيّ ولكن ما أعظم الفرق بينهما و ما أعظم الغبن على من بخس حظّه منه ، قال اللّه تعالى : « وللآخرة أكبر درجات و أكبر تفضيلاً » (٤).

✿(بيان شواهد الشرع)✿

على صحّة طريق أهل المجاهدة في اكتساب المعرفة لا من التعلّم .
و لا من الطرق المعتادة

اعلم أنّ من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحّة الطريق و من لم ير ذلك من نفسه قطّ

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٥٨ و قد تقدم فى المجلد الاول ص ١٦ .
(٣) تقدم آنفاً دون هذه الزيادة .
(٤) الاسراء : ٢١ .

فينبغي أن يؤمن به فإنّ درجة المعرفة فيه غريزة جدّاً و يشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات.

أمّا الشواهد فقوله عزّ و جلّ : « و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »(١) فكلّ حكمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلّم فهو طريق الكشف و الإلهام ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم(٢) ووفّقه فيما يعمل حتّى يستوجب الجنّة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفّق فيما يعمل حتّى يستوجب النّار» وقال الله تعالى : « ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب »(٣) قيل : يجعل له مخرجاً من الاشكالات والشبه ، « ويرزقه من حيث لا يحتسب » يعلّمه علماً من غير تعلّم ويفطنه من غير تجربة ، وقال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً »(٤) قيل : نوراً يفرق به بين الحقّ والباطل ويخرج به من الشبهات و لذلك كان أكثر قول رسول الله صلى الله عليه وآله في دعائه سؤال النور ، فقال : « اللّهمّ أعطني نوراً و زدني نوراً و اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً - حتّى قال - : في شعري وبشري ولحمي ودمي نوراً »(٥) وسئل صلى الله عليه وآله عن قوله عزّ وجلّ : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه »(٦) فقيل : ما هذا الشرح ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « هو التوسعة إنّ النور إذا قذف به في القلب اتّسع له الصدر وانشرح » وقال صلى الله عليه وآله لابن عباس : « اللّهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل »(٧).

و قال عليّ عليه السلام : « ما عندنا شيء أسرّه النبيّ صلى الله عليه وآله إلينا إلّا أن يؤتي الله

(١) العنكبوت : ٦٩ .

(٢) الى هنا تقدم آنفاً وماعثرت على بقيتها .

(٣) الطلاق : ٢ . (٤) الانفال : ٢٩ .

(٥) أخرجه احمد فى مسنده ج ١ ص ٣٧٣ فى حديث طويل .

(٦) الزمر : ٢٢ . و الخبر راجع الدر المنثور ج ٥ ص ٢٢٥ ذيل الاية بادنى تغيير عن ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود .

(٧) اخرجه احمد فى مسنده ج ١ ص ٣١٤ .

عزّ وجلّ عبداً فهماً في كتابه »[١] وليس هذا بالتعلّم ، و قيل في تفسيرقوله تعالى : « يؤتي الحكمة من يشاء »[٢]: إنّه الفهم في كتاب الله عزّ وجلّ ، و قال تعالى : « ففهّمناها سليمان »[٣] خصّ ما انكشف له باسم الفهم ، و كان أبو الدّرداء يقول : المؤمن من ينظر من وراء ستر رقيق والله إنّه للحقّ يقذفه الله في قلوبهم و يجريه على ألسنتهم ، وقال بعض السّلف ظنّ المؤمن كهانة .

وقال ﷺ : « اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله »[٤] وإليه يشير قوله تعالى : « إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين »[٥] . و قوله تعالى : « قد بيّنّا الآيات لقوم يوقنون »[٦] . و عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو النافع »[٧]. و سئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ قال : هو سرّ من سرّ الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبّائه لم يطّلع عليه بشر ولا ملكاً ، وقد قال ﷺ « إنّ من امّتي محدّثين ومكلّمين »[٨] وقرأ ابن عبّاس « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ (ولا محدّث) »[٩] يعني الصدّيقين و المحدّث هو الملهم ، والملهم هو الّذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الدّاخل لا من جهة المحسوسات الخارجة .

و القرآن مصرّح بأنّ التقوى مفتاح الهداية و الكشف و ذلك علم من غير

---

(١) تقدم فى المجلد الثانى ص٢٣٩ .

(٢) البقرة : ٢٦٩ . (٣) الانبياء : ٧٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى التاريخ و الترمذى فى السنن عن ابى سعيد و الطبرانى وابن عدى عن ابى امامة كما فى الجامع الصغير .

(٥) الحجر : ٧٥ . (٦) البقرة : ١١٨ .

(٧) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر و ابن عبد البرفى العلم كما فى مختصره ص ٩٠ من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح و اسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر باسناد جيدو اعله ابن الجوزى كما فى المغنى ، و أخرجه ابن ابى شيبة عن الحسن كما فى الجامع الصغير وقدمر نحوه فى المجلد الاول ص ١٢٥ .

(٨) راجع صحيح البخارى ج ٥ ص ١٥ .

(٩) الحج : ٥٢ .

تعلّم قال الله تعالى : « وما خلق الله في السماوات و الأرض لآيات لقوم يتّقون»[(١)] خصّصها بهم و قال تعالى : « هذا بيان للّناس وهدى وموعظة للمتّقين » [(٢)]. و كان أبو يزيد و غيره يقول : ليس العالم الّذي يتحفّظ من كتاب فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً إنّما العالم الّذي يأخذ علمه من ربّه أيّ وقت شاء بلا تحفّظ و لا درس ، و هذا هو العالم الرّبّاني و إلى مثله الإشارة بقوله تعالى : « آتيناه رحمة من عندنا و علّمناه من لدنّا علماً » [(٣)] مع أنّ كلّ علم من لدنه ولكن بعضه بواسطة تعليم الخلق فلا يسمّى ذلك علماً لدنّياً ، بل العلم اللّدنّي هو الّذي ينفتح في سرّ القلب من غير سبب مألوف من خارج ، فهذه شواهد الشرع و العقل ولو جمع كلّ ما ورد فيه من الآيات و الأخبار والآثار لخرج عن الحصر ، وأمّا مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر و قد ظهر ذلك على الصحابة و التابعين و من بعدهم .

أقول: و قد ظهر على الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام من ذلك شيء كثير كما هو مذكور في كتاب الحجّة من الكافي للكلينيّ - رحمه الله - و في كتاب بصائر الدرجات لمحمّد بن الحسن الصفار ، و كتاب الخرايج و الجرائح للراونديّ ، و كتاب كشف الغمّة للإربلي ، وغيرها من الكتب المصنّفة في ذلك من تفرّسهم عليهم السلام و إخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم ، و مشاهدتهم الخضر عليه السلام و الحديث معه ، وصحبتهم للملائكة ، وتحدّثهم معهم ، و تسخيرهم للجنّ ، و بعثهم إيّاهم في حوائجهم إلى غير ذلك من فنون الكرامات ، و قد ذكرنا نبذاً منها في كتاب أخلاق الإمامة من ربع العادات ، و من الأخبار النبويّة في هذا المقام : « ليس العلم بكثرة التعلّم إنّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه » [(٤)] « العلم نور و ضياء يقذفه الله في قلوب أوليائه و أنطق به على لسانهم » [(٥)] « العلم علم الله لا يعطيه إلّا

---

(١) يونس : ٦ .

(٢) آل عمران : ١٣٨ . (٣) الكهف : ٦٥ .

(٤) معروف من حديث عنوان البصرى عن الصادق عليه السلام راجع بحار الانوار ج ١ ص ٦٨ .

(٥) ماعثرت عليها فى أى أصل .

الأولياء » (١) « الجوع سحاب الحكمة فإذا جاع العبد مطر بالحكمة » (٢) « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (٣) « ما من عبد إلّا و لقلبه عينان وهما غيب يدرك بهما الغيب » (٤) « فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيرى ما هو غائب عن بصره » (٥)

قال أبو حامد : والحكايات لا تنفع الجاحد ما لم يشهد ذلك في نفسه ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل ، و الدّليل القاطع الّذي لا يقدر أحدٌ على جحده أمران .

أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة فإنّه ينكشف بها الغيب و إذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلّا في ركود الحواسّ وعدم اشتغالها بالمحسوسات و كم من متيقّظ غائص الفكر لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

و الثاني إخبار رسول الله صلّى الله عليه وآله عن الغيب و أمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبيّ صلّى الله عليه وآله جاز لغيره إذ النبيّ عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور و شغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص يكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق و هذا لا يسمّى نبيّاً بل يسمّى وليّاً فمن آمن بالأنبياء عليهم السلام وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقرّ بأنّ للقلب بابين باب إلى الخارج وهو باب الحواسّ وباب إلى الملكوت من داخل القلب و هو باب الإلهام و النفث في الرّوع و الوحي ، و إذا أقرّ بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلّم و مباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن يكون المجاهدة سبيلاً إليه ، فهذا

(١) و (٢) ما عثرت عليها فى أى أصل .

(٣) أخرجه ابونعيم فى الحلية عن ابى ايوب بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٤) لم أجد له أصلا .

(٥) ما عثرت عليه الا مارواه ابوالشيخ عن ابى ذر بسند ضعيف « اذا اراد الله بعبد خيراً فتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين والصدق ، و جعل قلبه وعياً لما سلك فيه ، وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً و خليقته مستقيمة وجعل اذنه سميعة وعينه بصيرة » راجع الجامع الصغير باب الهمزة .

مما ينبّه على حقيّة ما ذكرناه من عجائب تردّد القلب بين عالم الشهادة و عالم الملكوت .

و أمّا السبب في انكشاف الأمور في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير و كذلك تمثّل الملائكة بصور مختلفة للأنبياء و الأولياء فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذلك إلّا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فإنّه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها .

☼(بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس)☼

☼(ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها)☼

اعلم أنّ القلب مثاله مثال قبّة لها أبواب تنصبّ إليها الأحوال من كلّ باب و مثاله أيضاً مثال هدف تنصبّ إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فيتراءى فيها صورة بعد صورة ولايخلو عنها ، أو مثال حوض ينصبّ إليه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه و إنّما مداخل هذه الآثار المتجدّدة في القلب في كلّ حال إمّا من الظاهر فالحواسّ الخمس ، وإمّا من الباطن فالخيال و الشهوة و الغضب و الأخلاق المركّبة في مزاج الإنسان ، فإنّه إذا أدرك بالحواسّ شيئاً حصل منه آثر في القلب و كذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل أو بقوّة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كفّ عن الإحساس والخيالات الحاصلة في النّفس تبقى ، و ينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال ، والمقصود أنّ القلب في التغيّر و التأثّر دائماً من هذه الأسباب ، وأخصّ الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر ، وأعني بالخواطر ما يعرض فيه من الأفكار و الأذكار ، و أعني به إدراكاته علوماً إمّا على سبيل التجدّد و إمّا على سبيل التذكّر فإنّها تسمّى خواطر من حيث أنّها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها ، والخواطر هي المحرّكات للإرادات فإنّ النيّة والعزم والإرادة إنّما يكون بعد خطور المنويّ بالبال لامحالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثمّ الخاطر

يحرّك الرّغبة والرّغبة تحرّك العزم ، والعزم يحرّك النيّة ، والنيّة تحرّك الأعضاء.

و الخواطر المحرّكة للرّغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشرّ أعني ما يضرّ في العاقبة ، و إلى ما يدعو إلى الخير أعني ما ينفع في الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمّى إلهاماً ، والخاطر المذموم أعني الدّاعي إلى الشرّ يسمّى وسواساً ، ثمّ إنّك تعلم أنّ هذه الخواطر حادثة ، و كلّ حادث لابدّ له من سبب ، ومهما اختلفت الحوادث دلّ على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنّة الله عزّ وجلّ في ترتيب المسبّبات على الأسباب ، فمهما استنار حيطان البيت بنور النّار و أظلم سقفه و اسودّ بالدّخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، فكذلك لأنوار القلب و ظلماته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الدّاعي إلى الخير يسمّى ملكاً و سبب الخاطر الدّاعي إلى الشرّ يسمّى شيطاناً ، و اللّطف الّذي به يتهيّأ القلب لقبول إلهام الملك يسمّى توفيقاً ، و الّذي به يتهيّأ لقبول وسواس الشيطان يسمّى إغواءً وخذلاناً ، فإنّ المعاني المختلفة يفتقر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم و كشف الحقّ و الوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه الله و سخّره لذلك ، و الشيطان عبارة عن خلق شأنه ضدّ ذلك و هو الوعد بالشرّ و الأمر بالفحشاء و التخويف عندالهمّ بالخير بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام و الشيطان في مقابلة الملك و التوفيق في مقابلة الخذلان و إليه الإشارة بقوله تعالى : « و من كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون »[1] فإنّ الموجودات كلّها متقابلة مزدوجة إلّا الله تعالى فإنّه لا مقابل له ، بل هو الواحد الحقّ الخالق للأزواج كلّها .

فالقلب متجاذب بين الشيطان و الملك فقد قال ﷺ : « في القلب لمّتان لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحقّ ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله فليحمد الله ، ولمّة من العدوّ إيعاد بالشرّ وتكذيب بالحقّ ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك

(١) الذاريات : ٤٩ .

فليتعوّذ بالله من الشيطان ثمّ تلا « الشيطان يعدكم الفقر - الآية »[1] وقال بعض السلف : إنّما هما همّان يجولان في القلب همّ من الله و همّ من العدوّ فرحم الله عبداً وقف عند همّه فما كان من الله أمضاه وما كان للعدوّ جاهده ، ولتجاذب القلب بين هاتين اللّمّتين قال رسول الله ﷺ : «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن »[2] والله سبحانه و تعالى منزّه أن يكون له أصبع مركّبة من لحم و دم وعظم تنقسم بالأنامل ، ولكن روح الأصبع سرعة التقليب و القدرة على التحريك والتغيير ، فإنّك لاتريد أصبعك لشخصها بل لفعلها في التقليب و الترديد ، و كما أنّك تتعاطى الأفعال بأصابعك فالله تعالى إنّما يفعل مايفعله باستسخار الملك والشيطان وهما مسخّران بقدرته في تقليب القلوب كما أنّ أصابعك مسخّرة لك في تقليب الأجسام مثلاً ، والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملائكة ولقبول آثار الشياطين صلاحاً متساوياً ليس يترجّح أحدهما على الآخر و إنّما يترجّح أحد الجانبين باتّباع الهوى والإكباب على الشّهوات أو الإعراض عنها و مخالفتها فإن اتّبع الإنسان مقتضى الشهوة و الغضب ظهر تسلّط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب عشّ الشيطان ومعدنه لأنّ الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وإن جاهد الشهوات ولم يسلّطها على نفسه و تشبّه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقرّ الملائكة ومهبطهم ، ولمّا كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشريّة المتشعّبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة و لذلك قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلّا وله شيطان ، قالوا : و أنت يا رسول الله ؟ قال : و أنا إلّا أنّ الله عزّوجلّ أعانني عليه فأسلم فلايأمرني إلّا بخير »[3] و إنّما كان هذا لأنّ الشيطان لا يتصرّف إلّا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتّى صار لاينبسط إلّا حيث

---

(١) البقرة : ٢٦٨ ، والخبر رواه الترمذي في السنن ج ١١ ص ١٠٩ و قال : هذا حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه الحاكم كما تقدم آنفاً .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٩ من حديث ابن مسعود .

ينبغي و إلى الحدّ الّذي ينبغي فشهوته لا تدعوه إلى الشرّ، فالشيطان المتدرّع بها لا يأمر إلّا بالخير .

و مهما غلب على القلب ذكر الدّنيا و مقتضيات الهوى و جد الشيطان مجالاً فوسوس ، و مهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك و الهمّ ، فالتطارد بين جندي الملائكة و الشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيسكن ويستوطن و يكون اجتياز الثاني اختلاساً ، و أكثر القلوب قد فتحها جنود الشيطان و ملكوها فامتلأت بالوساوس الدّاعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة ، ومبدء استيلائها اتّباع الهوى . ولايمكن فتحها بعد ذلك إلّا بتخلية القلب عن قوت الشيطان و هو الهوى و الشهوات وعمارته بذكر الله تعالى إذ هو مطرح أثر الملائكة ، قال جرير بن عبيدة العدوي : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال : إنّما مثل ذلك مثل البيت الّذي يمرّ به اللّصوص فإن كان فيه شيء عالجوه و إلّا مضوا و تركوه . يعني أنّ القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ، و لذلك قال الله تعالى : « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان »(١) وكل من اتّبع الهوى فهو عبد الهوى لاعبد الله فلذلك تسلّط عليه الشيطان ، وقال الله تعالى : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه »(٢) هو إشارة إلى أنّ الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لاعبدالله .

و قال عثمان بن أبي العاص : « يا رسول الله حال الشيطان بيني و بين صلاتي وقراءتي ، فقال : ذلك شيطان يقال له خنزب ، إذا أحسست به فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً ، قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عنّي »(٣) و في الخبر « أنّ للوضوء شيطاناً يقال له : ولهان فاستعيذوا بالله منه »(٤) و لا يمحو وسوسة الشيطان عن القلب

---

(١) الاسراء : ٦٥ . (٢) الجاثية : ٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٢١ . وقال النووى قوله « حال بينى وبين صلاتى » اى نكدنى فيها ومنعنى لذتها والفراغ للخشوع فيها .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١ و فى هامشه قوله ﷺ « و لهان » مصدر « وله » اذا تحير الشيطان لالقاء الناس فى التحيير سمى بهذا الاسم .

إلّا ذكر شيء سوى ما يوسوس به لأنّه إذا حضر في القلب ذكر شيء انعدم عنه ما كان فيه من قبل ولكن كلّ شيء سوى ذكر الله و سوى ما يتعلّق به فيجوز أن يكون أيضاً مجالاً للشيطان ، فذكر الله سبحانه هو الّذي يؤمن جانبه ويعلم أنّه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشيء إلّا بضدّه و ضدّ جميع وساوس الشيطان ذكر الله تعالى والاستعاذة به و التبرّي عن الحول والقوّة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، و ذلك لايقدر عليه إلّا المتّقون الّذين الغالب عليهم ذكر الله و إنّما الشيطان يطوف بقلوبهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة ، قال الله تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون» (١) و قال مجاهد في قوله تعالى : « من شرّ الوسواس الخنّاس » قال : هو منبسط على قلب الإنسان فإذا ذكر الله سبحانه خنس وانقبض و إذا غفل انبسط على قلبه ، فالتطارد بين ذكر الله و وسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظّلام و بين اللّيل و النّهار و لتطاردهما قال الله سبحانه : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » (٢).

و في الحديث « إنّ الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإن نسي الله التقم قلبه » (٣).

و قال ابن وضّاح في حديث ذكره : « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه ، وقال : بأبي وجه لايفلح » (٤).

﴿ فصل ﴾

و كما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم الآدمي و دمه فسلطنة الشيطان أيضاً سارية

(١) الاعراف : ٢٠١. (٢) المجادلة : ١٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان وابويعلى و البيهقي في الشعب من من حديث انس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٤) قال العراقي لم أجد له أصلا .

في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ، ولذلك قال النبيّ ﷺ : « إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدّم فضيّقوا مجاريه بالجوع » [١] و ذلك لأنّ الجوع يكسر الشّهوة و مجرى الشّيطان الشهوات و لأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخباراً عن إبليس : « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم و عن شمائلهم » [٢] وقال رسول الله ﷺ: « إنّ الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتسلم وتترك دينك و دين آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك ونساءك ؟ فعصاه فهاجر ، ثمّ قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد و هو تلف النّفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك ؟ فعصاه فجاهد ، قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك فمات كان حقّاً على الله أن يدخله الجنّة » [٣] .

فقد ذكر رسول الله ﷺ معنى الوسوسة و هي هذه الخواطر الّتي تخطر للمجاهد أنّه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك ممّا يصرفه عن الجهاد و هذه الخواطر معلومة ، فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة و كلّ خاطر فله سبب ويفتقر إلى إسم يعرفه ، فاسم سببه الشيطان ولا يتصوّر أن ينفكّ عنه آدميّ وإنّما يختلفون بعصيانه و متابعته ولذلك قال ﷺ : « ما من أحد إلّا و له شيطان » [٤] و قد اتّضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة و الإلهام والملك و الشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان و أنّه جسم لطيف أوليس بجسم و إن كان جسماً فكيف يدخل في بدن الإنسان ماهو جسم ؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة بل مثال الباحث عن هذا كمثال من دخل في ثوبه حيّة و هو محتاج إلى دفع

---

(١) أخرجه الدارمي ج ٢ ص ٣٢٠ واحمد في المسند ج ٣ ص ١٥٦ و ٢٨٥ و ٣٠٩ دون قوله « فضيقوا مجاريه بالجوع » .

(٢) الاعراف : ١٦ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٢ واحمد والطبراني وابن حبان والبيهقي في الشعب عن سبرة بن أبي فاكه كما في الدر المنثور ج ٣ ص ٧٣.

(٤) تقدم آنفاً .

ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها و شكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشرّ قد علمت و دلّ ذلك على أنّه عن سبب لامحالة ، وعلم أنّ الدّاعي إلى الشرّ المحذور في المستقبل عدوٌّ فقد عرف العدوّ فينبغي أن يشتغل بمجاهدته .

و قد عرّف الله تعالى عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى : « إنّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوًّا إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »[1] وقال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين »[2] فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه لا بالسّؤال عن أصله ونسبه و مسكنه ، نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه ، وسلاح الشيطان الهوى و الشهوات و ذلك كاف للعاملين ، فأمّا معرفة صفة ذاته و حقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات ولا يحتاج في المعاملة إلى معرفته ، نعم ينبغي أن يعلم أنّ الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعاً أنّه داع إلى الشرّ فلا يخفى كونه وسوسة و إلى ما يعلم أنّه داع إلى الخير فلا يشكّ في كونه إلهاماً ، وإلى ما يتردّد فيه فلا يدرى أنّه من لمّة الملك أو لمّة الشيطان فإنّ من مكائد الشيطان أن يعرض الشرّ في معرض الخير ، والتمييز في ذلك غامض و أكثر العباد به يهلكون ، فإنّ الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشرّ الصريح فيصوّر الشرّ بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ : أما تنظر إلى الخلق و هم موتى من الجهل ، هلكى من الغفلة ، قد أشرفوا على النّار أمالك رحمة على عباد الله عزّ وجلّ تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك ، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمته و تتعرّض لسخطه و تسكت عن إشاعة العلم و دعوة خلق الله سبحانه إلى الصراط المستقيم فلا يزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجرّه بلطائف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ثمّ يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزيّن لهم ويتصنّع بتحسين اللّفظ و إظهار الخير و يقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك عن

(١) فاطر : ٠٦ . (٢) يس : ٦٠ .

قلوبهم و لم يهتدوا إلى الحقّ فلايزال يقرّر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكّدفيه شوائب الرّياء وقبول الخلق و لذّة الجاه والتعزّز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلّم وهو يظنّ أنّ قصده الخير و إنّما قصده الجاه و القبول فيهلك بسببه و هو يظنّ أنّه عند الله بمكان و هو عندالله ممّن قال فيهم رسول الله ﷺ : « إنّ الله ليؤيّد هذا الدّين بأقوام لاخلاق لهم » (١) « و إنّ الله ليؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر »(٢).

ولذلك روي أنّ إبليس تمثّل لعيسى عليه السلام فقال له قل : لا إله إلّا الله فقال : كلمة حقّ ولكن لا أقولها بقولك ، لأنّ له تحت الخير أيضاً تلبيسات و تلبيسات الشيطان من هذا الجنس لاتتناهى و بها يهلك العلماء و العبّاد و الزّهاد و الفقراء و الأغنياء و أصناف الخلق ممّن يكرهون ظاهر الشرّ ولايرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة .

و سنذكر جملة من مكائد الشيطان في كتاب الغرور من آخر هذا الرّبع ، و لعلّنا إن أمهل الزّمان صنّفنا فيه كتاباً على الخصوص نسمّيه « تلبيس إبليس » فإنّه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لاسيّما في المذاهب والأعمال حتّى لم يبق من الخيرات إلّا رسمها كلّ ذلك إذعان لتلبيسات الشيطان و مكائده ، فحقّ على العبد أن يقف عند كلّ همّ يخطر له ليعلم أنّه لمّة الملك أو لمّة الشيطان و إن يمعن النظر فيه بنور البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه إلّا بنور التقوى وغزارة العلم ، كما قال تعالى: « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا (أي رجعوا إلى نور العلم) فإذاهم مبصرون » أي انكشف لهم الإشكال ، فأمّا من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان لتلبيسه بمتابعة الهوى ويكثر فيه غلطه ويتعجّل فيه هلاكه و هو لا يشعر ، وفي مثلهم قال الله تعالى : « وبدالهم من الله مالم يكونوا

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه والنسائي في سننه عن أنس ، و احمد والطبراني في الكبير عن ابي بكرة كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٠٩ . وقد تقدم ورواه البخاري عن ابي هريرة .

يحتسبون» (١) قيل هي أعمال ظنّوها حسنات فإذا هي سيّئات و أغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النّفس و مكائد الشيطان ، و ذلك فرض عين على كلّ عبد و قد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجرّ إليهم الوسواس وتسلّط عليهم الشيطان و تنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ، ولاينجي من كثرة الوسواس إلّا سدّ أبواب الخواطر ، و أبوابها من خارج الحواسّ الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدّنيا و الخلوة في بيت مظلم تسدّ باب الحواس و التجرّد عن المال و الأهل يقلّل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنه من التخيّلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلّا بشغل القلب بذكر الله سبحانه ، ثمّ إنّه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلابدّ من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلّا الموت إذ لا يتخلّص أحدٌ من الشيطان مادام حيّاً نعم قد يقوي الأسباب بحيث لاينقاد له ويدفع عن نفسه مكره بالجهاد ولكن لا يستغني قطّ عن الجهاد و المدافعة مادام يجري الدّم في بدنه فإنّه مادام حيّاً فأبواب الشياطين مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق و هي الشهوة و الغضب و الحسد و الطمع و الشره و غيرها كما سيأتي شرحها .

ومهما كان الباب مفتوحاً والعدوّ غير غافل لم يدفع إلّا بالحراسة والمجاهدة ، قال رجل لبعض السلف : أينام إبليس ؟ فتبسّم و قال : لو نام لوجدنا عنه راحة . فإذاً لاخلاص للمؤمن عنه نعم له سبيل إلى دفعه و تضعيف قوّته كما قال رسول الله ﷺ : « إنّ المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر » (٢) وقال ابن

(١) الزمر : ٤٧ .

(٢) أنضى البعير : هزله . والخبر أخرجه أحمد في المسند وابن ابي الدنيا في مكائد الشيطان عن ابي هريرة كما في الجامع الصغير و ذكره الشريف الرضي في المجازات النبوية ص ٢٦٤ ، و قال هذه استعارة والمراد أن المؤمن يصعب قياده على الشيطان فلا يصغى الى وساوسه ولا يجعل لهو اجسه ، اعتصاماً منه بدينه واستيلاماً عليه في جنة يقينه ، فشيطانه أبداً مكدود معه لطول منازعته القياد ومقالتته الزمام ، فشبهه ﷺ لا تعابه الشيطان في الاحتجار عن اضلاله والامتناع من اتباعه بالمنضي بعيره في السفر اذا طال سفره واستفرغ قوته وحسن عريكته .

مسعود : شيطان المؤمن مهزول . و قال قيس بن الحجّاج : قال لي شيطاني : دخلت فيك و أنا مثل الجزور ، و أنا الآن مثل العصفور ، فقلت : و لم ذاك ؟ قال : تذيبني بكتاب الله ، وأهل التقوى لا يتعذّر عليهم ترصّد أبواب الشيطان و حفظها بالحراسة أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجليّة الّتي تفضي إلى المعاصي الظاهرة ، وإنّما يتعثّرون في طرقه الغامضة فإنّهم لا يهتدون إليها ليحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعّاظ ، والمشكل أنّ الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة ، وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذا الكثير فالعبد فيه مثاله مثال المسافر الّذي يبقى(١) في بادية كثيرة الطرق، غامضة المسالك، في ليلة مظلمة، فلا يكاد يفلح إلّا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة ، فالعين البصيرة ههنا هو القلب المصفّى بالتقوى و الشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى و من سنّة رسوله ﷺ فبهما يهتدي إلى غوامض طرقه ، و إلّا فطرقه كثيرة غامضة ، قال عبد الله بن مسعود : « خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً فقال : هذا سبيل الله ثمّ خطّ خطوطاً عن يمين الخطّ و عن شماله ، فقال : هذه سبل الشيطان على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثمّ تلا هذه الآية « و إنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » (٢) يعني تلك الخطوط ، فبيّن ﷺ كثرة طرقه .

وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه وهو الّذي يخدع به العلماء والعبّاد المالكين لشهواتهم الكافّين عن المعاصي الظاهرة فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الّذي لا يخفى إلّا أن يضطرّ الآدمي إلى سلوكه ، و ذلك كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : «كان راهبٌ في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها و ألقى في قلوب أهلها أنّ دواءها عند الرّاهب فأتي بها الرّاهب ، فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتّى

---

(١) فى بعض النسخ [يسعى] .

(٢) الاية فى سورة الانعام : ١٥٣ ، والخبر رواه احمد ، وعبد بن حميد ، والنسائى ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن ابى حاتم ، وابو الشيخ ، وابن مردويه ، والحاكم و صححه عن ابن مسعود كما فى الدر المنثور ج ٣ ص ٥٥ و ٥٦.

قبلها ، فكانت عنده ليعالجها فأتاه الشيطان فوسوس إليه وزيّن له مقاربتها فلم يزل به حتّى واقعها فحبلت منه فوسوس إليه فقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فان أتاك أهلها فقل ماتت ، فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنّه أحبلها ثمّ قتلها ودفنها ، فأتاه أهلها فسألوه عنها ، فقال : ماتت فألقى إليهم الشيطان أنّها مدفونة عنده ، ففتّشوا فوجدوها مقتولة فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الّذي أخذتها و أنا الّذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج و اُخلّصك منهم ، فقال : بماذا ؟ قال : اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان : إنّي بريء منك ، وهو الّذي قال الله تعالى فيه : «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك» (١).

فانظر الآن إلى حيلته و اضطراره الرّاهب إلى هذه الكبائر و كلّ ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة و هو أمر هيّن وربّما يظنّ صاحبه أنّه خير و حسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفيّ الهوى فيقدّم عليه كالرّاغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره و يجرّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصاً ، فنعوذ بالله من تضييع أوائل الاُمور و إليه الإشارة بقوله ﷺ : «من حام حول الحمى يوشك إن يقع فيه» (٢).

✿(بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب)✿

اعلم أنّ القلب مثاله مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن ويملكه و يستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن عن العدوّ إلّا بحراسة أبواب الحصن و مداخله و مواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبواب الحصن عن العدوّ من لا يعرف

(١) الاية فى سورة الحشر: ١٦ ، والخبر رواه ابن ابى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٩٩ .

(٢) رواه البخارى بلفظ «من يرتع حول الحمى يوشك ان يوقعه» عن النعمان ابن بشير و نقله الشريف الرضى فى المجازات النبوية ص ٨١ مع بيانه هكذا «فمن ارتع حول الحمى كان قمناً ان يرتع فيه» .

أبوابه ، وحماية القلب عن فساد الشيطان واجبة و هي فرض عين على كلّ عبد مكلّف وما لا يتوصّل إلى الواجب إلّا به فهو أيضاً واجبٌ ولا يتوصّل إلى دفع الشيطان إلّا بمعرفة مداخله ، فصارت معرفة مداخل الشيطان واجبة ، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ولكنّا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدُّروب الّتي لاتضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة الحرص و الحسد ، فمهما كان العبد حريصاً على شيء أعماه حرصه وأصمّه إذ قال ﷺ : « حبّك الشيء يعمي ويصمّ » (١) ونور البصيرة هو الّذي يعرف مداخل الشيطان ، فإذا غطّاه الحرص أو الحسد لم يبصر فوجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كلّ ما توصله إلى شهوته و إن كان منكراً و فاحشاً ، فقد روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب البحر وحمل في السفينة من كلّ زوجين اثنين كما أمر فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له نوح عليه السلام : ما أدخلك ؟ قال : دخلت لأُصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي و أبدانهم معك ، قال نوح عليه السلام : اُخرج منها يا عدوّ الله فإنّك رجيمٌ ، قال له إبليس : خمس اُهلك بهنّ النّاس و سأُحدّثك منهنّ بثلاث و لا اُحدّثك بالثنتين فأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أنّه لا حاجة بك إلى الثلاث مره فليحدّثك بالثنتين فقال : ما الثنتان ؟ فقال : هما اللّتان لا تكذبانني ، هما اللّتان لا تخلفانني ، بهما أهلك النّاس الحرص و الحسد بالحسد لُعنت وجُعلت شيطاناً رجيماً و أمّا الحرص فإنّه اُبيح لآدم الجنّة كلّها فأصبت حاجتي منه بالحرص » (٢) .

ومن أبوابه العظيمة الغضب و الشهوة ، فإنّ الغضب غول العقل فإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ، ومهما غضب الإنسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة ، فقد روي أنّ إبليس لقي موسى عليه السلام فقال : يا موسى أنت الّذي اصطفاك

---

(١) أخرجه أبوداود في السنن ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٢) أخرجه ابن ابي الدنيا في مكائد الشيطان . وابن عساكر عن ابن عمر كما في الدر المنثور ج ٣ ص ٣٢٣ .

الله برسالته و كلّمك تكليماً ، و أنا من خلق الله أذنبت ذنباً و أُريد التوبة فاشفع لي إلى ربّي أن يتوب عليّ ، قال موسى : نعم فدعا موسى عليه السلام ربّه عزّ وجلّ ، فقال : يا موسى قد قُضيت حاجتك فمره أن يسجد لقبر آدم ، فلقي موسى عليه السلام إبليس فقال له : اُمرت أن تسجد لقبر آدم ليتاب عليك ، فاستكبر و غضب ، و قال : لم أسجد له حيّاً فكيف أسجد له ميّتاً ، ثمّ قال إبليس : يا موسى إنّ لك عليّ حقّاً بما شفعت لي إلى ربّك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهنّ اذكرني حين تغضب فإنّ روحي في قلبك وعيني في عينك ، و أجري منك مجرى الدّم ، و اذكرني حين تلقى الزحف فإنّي آتي ولد آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده و زوجته و أهله حتّى يولّي ، وإيّاك أن تجالس امرأة ليست لك بذات محرم فإنّي رسولها إليك ورسولك إليها»[1]

فقد أشار في هذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإنّ الفرار من الزحف حرص على الدّنيا ، و امتناعه عن سجوده لآدم منشاؤه الحسد وهو من أعظم مداخله . و قال بعض الأنبياء عليهم السلام لإبليس : بأيّ شيء تغلب ابن آدم ؟ قال : آخذه عند الغضب و عند الهوى .

و ظهر إبليس لراهب فقال له : أيّ أخلاق بني آدم أعون لك ؟ قال : الحدّة إنّ العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . و قيل : إنّ الشيطان يقول : كيف يغلبني ابن آدم ؟ وإذا رضي جئت حتّى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتّى أكون في رأسه .

ومن أبوابه العظيمة حبّ التزيّن بالثياب و الأثاث و الدّار فإنّ الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب إنسان باض فيه و فرخ فلا يزال الشيطان يدعوه إلى عمارة الدّار و تزيين سقوفها وحيطانها و توسيع أبنيتها و يدعوه إلى التزيّن بالثياب والدّوابّ و يستسخره فيها طول عمره و إذا أوقعه في ذلك فقد استغنى عن معاودته فإنّ بعض ذلك يجرّه إلى البعض ولا يزال يؤدّيه شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان عن ابن عمر كما في الدر المنثور ج ١ ص ٥١ ، والمجلد الرابع عشر من بحار الانوار ص ٦٣٤ .

أجله فيموت و هو في سبيل الشيطان و اتّباع الهوى ومن ذلك يخشى سوء الخاتمة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام و إن كان حلالاً صافياً فإنّ الشبع يقوّي الشّهوات والشّهوات أسلحة الشيطان ، روي أنّ إبليس ظهر ليحيى عليه السلام فرأى عليه مغاليق من كلّ شيء فقال له يحيى عليه السلام : يا إبليس ما هذه المغاليق ؟ قال : هذه الشّهوات الّتي اُصبت بها بني آدم ، قال : فهل لي فيها شيء ؟ قال : ربّما شبعت فثقّلناك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : هل غير ذلك قال : لا قال يحيى الله عليّ أن لا املأ بطني من طعام أبداً ، فقال إبليس : ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً [1].

ومن أبوابه العظيمة الطمع في الناس فإذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحسن التصنّع والتزيّن لمن طمع فيه بأنواع الرّياء والتلبيس حتّى يصير المطموع فيه كأنّه معبوده فلا يزال يتفكّر في حيلة التودّد و التحبّب إليه و يدخل كلّ مدخل في الوصول إلى ذلك وأقلّ أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة معه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

و قد روى صفوان بن سليم : أنّ إبليس تمثّل لعبد الله بن حنظلة و قال : يا ابن حنظلة احفظ عنّي شيئاً اُعلّمكه ، قال : لا حاجة لي به : قال : انظر فإن كان خيراً قبلت ، و إن كان شرّاً رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله شيئاً سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة العجلة و ترك التثبّت في الاُمور ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « العجلة من الشيطان و التأنّي من الله عزّ و جلّ » [2] وقال تعالى : « خلق الإنسان من عجل » [3] و قال : «وكان الإنسان عجولاً » [4] وقال لنبيّه صلى الله عليه وآله : «ولا تعجل

(١) رواه ابن الشيخ في مجالسه بنحو أبسط راجع بحار الانوار ج ١٤ ص ٦٢٠ .

(٢) أخرجه الترمذى كما فى كنوز الحقائق للمناوى باب العين هكذا « العجلة من الشيطان والاناءة من الله » .

(٣) الانبياء : ٣٧ . (٤) الاسراء : ١١ .

بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » (١) و هذا لأنّ الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة و المعرفة ، والبصيرة تحتاج إلى تأمّل ومهلة ، و العجلة تمنع منذلك ، فعند الاستعجال يروّج الشيطان شرّه من حيث لا يدرى ، روي أنّه لمّا ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالت : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها ، قال : هذا حادث قد حدث مكانكم ، فطار حتّى جال خافقي الأرض ولم يجد شيئاً ، ثمّ وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، و إذا الملائكة قد حفّت حوله فرجع إليهم فقال : إنّ نبيّاً قد ولد البارحة ما حملت اُنثى قطّ ولا وضعت إلّا وأنا بحضرتها إلّا هذا فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه اللّيلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفّة .

ومن أبوابه العظيمة الدّراهم و الدّنانير و سائر أصناف الأموال من العروض و الأثاث والدّوابّ والعقار ، و كلّ ما يزيد على قدر القوت و الحاجة فهو مستقرّ الشيطان فإنّ من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعثت من قلبه مائة شهوة يحتاج كلّ شهوة منها إلى مائة دينار ؟ فلا يكفيه مائة واحدة بل يحتاج إلى تسعمائة اُخرى ، و قد كان قبل وجود المائة مستغنياً فالآن وجد مائة و ظنّ أنّه صار غنيّاً به ، و قد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري بها داراً ويعمرها و يشتري جارية ويشتري أثاث البيت و يشتري الثياب الفاخرة ، و كلّ شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به و ذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنّم ولا آخر لها سواه .

قال ثابت : لمّا بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فانظروا ماهو ؟ فانطلقوا ، ثمّ جاؤه وقالوا : ماندري ، قال إبليس: أنا آتيكم بالخبر فذهب وجاء ، وقال : قد بعث محمّد - صلّى الله عليه وآله - فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله فينصرفون خائبين و يقولون : ماصحبنا قوماً قطّ مثل هؤلاء نصيب منهم ، ثمّ يقومون إلى صلاتهم فينمحي ذلك قال إبليس : رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدّنيا

(١) طه : ١١٤ .

فهناك تصيبون حاجتكم منهم (١).

و روي أنّ عيسى عليه السلام توسّد حجراً فمرّ به إبليس فقال : يا عيسى رغبت في الدّنيا فأخذه من تحت رأسه و رمى به ، وقال : هذا لك مع الدّنيا و على الحقيقة من يملك حجراً ليتوسّده عند النوم فقد ملك من الدّنيا ما يمكن أن يكون عدّة للشيطان عليه فإنّ القائم باللّيل مثلاً للصّلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسّده فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسّده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ولا تتحرّك رغبته للنوم ، هذا في حجر فكيف من يملك المخادّ الوثيرة والفرش الوطئة و المتنزّهات الطيّبة ، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى .

ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فإنّ ذلك هو الّذي يمنع من الإنفاق و التصدّق و يدعوا إلى الادّخار والكنز و العذاب الأليم هو الموعد للكانزين كما نطق به القرآن ، قال خيثمة بن عبد الرّحمن : إنّ الشيطان يقول : ما غلبني عليه ابن آدم فلن يغلبني على ثلاث أن آمره بأخذ المال من غير حقّه ، و إنفاقه في غير حقّه ، ومنعه من حقّه . وقيل : ليس للشيطان سلاح على الإنسان مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ، و منع من الحقّ ، وتكلّم بالهوى ، وظنّ بربّه ظنّ السّوء .

و من آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق بجمع المال ، و الأسواق هي معشّش الشيطان ، روى أبو أمامة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ إبليس لمّا اُنزل إلى الأرض قال : يا ربّ أنزلتني إلى الأرض و جعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً ، قال : الحمّام ، قال : فاجعل لي مجلساً ، قال : الأسواق و مجامع الطرق ، قال : فاجعل لي طعاماً ، قال : مالم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لي شراباً ، قال : كلّ مسكر ، قال : اجعل لي مؤذّناً ، قال : المزامير ، قال : اجعل لي قرآناً ، قال : الشعر، قال : اجعل لي كتاباً ، قال : الوشم ، قال : اجعل لي حديثاً ، قال :

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان مرسلا كما فى المغنى .

الكذب ، قال :اجعل لي مصائد ،قال النساء » (١) .

ومن أبوابه العظيمة التعصّب للمذاهب و الأهواء و الحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء و الاستحقار ، وذلك ممّا يهلك الفسّاق والعبّاد جميعاً ، فإنّ الطعن في النّاس والاشتغال بذكر نقصانهم صفة مجبولة في طبع الإنسان من الصفات السبعيّة ، فإذا خيل الشيطان إليه أنّ ذلك هو الحقّ وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه ، فاشتغل به بكلّ همّته و هو بذلك فرحان مسرورٌ يظنّ أنّه يسعى في الدّين و هو ساع في اتّباع الشيطان (٢).

ترى الواحد منهم يتعصّب لعليّ عليه السلام وكان من زهد عليّ عليه السلام و سيرته أنّه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة دراهم و قطع رأس الكمّين إلى الرسغ ، وترى الفاسق لابساً الثياب الحرير و متجمّلاً بأموال اكتسبها من الحرام و هو يتعاطى حبّ عليّ عليه السلام و يدّعيه و هو أوّل خصمائه يوم القيامة و ليت شعري من أخذ ولداً عزيزاً لإنسان و هو قرّة عينه و حياة قلبه فأخذ يضربه ويمزّقه وينتف شعره و يقطعه بالمقراض و هو مع ذلك يدّعي حبّ أبيه و ولاءه فكيف يكون حاله عنده و معلوم أنّ الدّين و الشرع كانا أحبّ إلى عليّ عليه السلام من الأهل والولد ، بل من نفسه عليه السلام ، و المقتحمون لمعاصي الشرع هم الّذين يمزّقون الشرع و يقطعونه بمقاريض الشهوات ويتودّدون به إلى إبليس عدوّ الله وعدوّ أوليائه ، فيرى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند عليّ عليه السلام و عند أولياء الله تعالى ، لا بل لو كشف الغطاء و عرف هؤلاء ما يحبّه أولياء الله في اُمّة محمد صلى الله عليه وآله لاستحيوا أن يجروا على اللّسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ، ثمّ الشيطان يخيل إليهم أنّ من مات محبّاً لعليّ عليه السلام فالنّار لا تحوم حوله ، وكلّ من ادّعى مذهب إمام و هو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه إذ يقول له :كان مذهبي العمل دون الحديث باللّسان وكان الحديث

---

(١) قال العراقي : أخرجه الطبراني في الكبير واسناده ضعيف جداً ، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٢) في بعض النسخ [في اتباع الهوى والشياطين] .

باللّسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان فمالك خالفتني في العمل والسيرة الّتي هي مسلكي ومذهبي الّذي سلكته و ذهبت فيه إلى الله ، ثمّ ادّعيت مذهبي كاذباً .

أقول: و ممّا ورد في ذلك من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال لي : ياجابر أيكتفي من انتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت ، فو الله ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله و أطاعه و ما كانوا يعرفون يا جابر إلّا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله و الصوم و الصلاة و البرّ بالوالدين و التعهّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة و الغارمين و الأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن و كفّ الألسن عن الناس إلّا من خير وكانوا اُمناء عشائرهم في الأشياء . قال جابر : يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصّفة ، فقال : يا جابر لاتذهبنّ بك المذاهب حسب الرجل أن يقول : اُحبّ عليّاً و أتولّاه ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً ، فلو قال : إنّي اُحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خيرٌ من عليّ ثمّ لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً ، فاتّقوا الله و اعملوا لما عندالله . ليس بين الله وبين أحد قرابة ، أحبّ العباد إلى الله وأكرمهم عليه تعالى أتقاهم وأعملهم بطاعته ، ياجابر : والله مايتقرّب إلى الله تعالى إلّا بالطاعة ، وما معنا براءة من النّار ، و لا على الله لأحد من حجّة ، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليٌّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوٌّ ، و ما تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع » (١) .

و قد ذكرنا هذا الحديث في كتاب العلم من ربع العبادات و في كتاب أخلاق

---

(١) المصدر ج٢ ص ٧٤ . و قوله «و ما معنا براءة من النار» : اى ليس معناصك وحكم ببراءتنا وبراءة شيعتنا من النار و ان عملوا بعمل الفجار . « ولا على الله لاحد من حجة » اى ليس لاحد على الله حجة اذالم يغفر له بان يقول كنت من شيعة على فلم لم تغفر لى ، لان الله تعالى لم يحتم بغفران من ادعى التشيع بلا عمل . او المعنى ليس لنا على الله حجة فى انقاذ من ادعى التشيع من العذاب ويؤيده ان فى المجالس « ومالنا على الله حجة » . « من كان لله مطيعاً » كانه جواب عمايتوهم فى هذا المقام انهم عليهم السلام حكموا بان شيعتهم و اولياء هم لايدخلون النار فاجاب عليه السلام بان العاصى لله ليس بولى لناولا تدرك ولايتنا الا بالعمل بالطاعات والورع عن المعاصى .

الإمامة وآداب الشيعة من ربع العادات أيضاً وإنّما أعدنا ذكره ههنا لشدّة مناسبته لهذا المقام وشدّة احتياج أكثر النّاس إليه.

و بإسناده عن حنان بن سدير قال: «قال أبو الصّباح الكناني لأبي عبد الله عليه السلام ما نلقى من النّاس فيك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: و ما الّذي تلقى من النّاس فيّ؟ فقال: لايزال يكون بيننا وبين الرّجل الكلام فيقول: جعفريّ خبيث، فقال: يعيّركم النّاس بي؟ فقال أبو الصباح: نعم، قال: فما أقلّ و الله من يتبع جعفراً منكم إنّ أصحابي من اشتدّ ورعه، و عمل لخالقه، و رجا ثوابه هؤلاء أصحابي»(١).

و بإسناده عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: «كثيراً ما كنت أسمع أبي يقول: ليس من شيعتنا من لا يتحدّث المخدّرات بورعه في خدورهنّ، وليس من أوليائنا من في قرية فيها عشرة آلاف رجل فيهم خلق الله أورع منه» (٢).

قال أبو حامد: فهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم و قد سلّمت المنابر لأقوام قلّ من الله خوفهم وضعفت في الدّين بصيرتهم و قويت في الدّنيا رغبتهم و اشتدّ على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكّنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلاّ بالتعصّب، فحسّنوا ذلك في صدورهم ولم ينهوهم على مكيدة الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته، فاستمرّ الناس عليه و نسوا مهمّات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا والله تعالى يتوب علينا وعليهم. قال بعض السّلف: بلغنا أن إبليس قال سولت لأمّة محمّد المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعون فإنّهم لا يعلمون أنّ ذلك من الأسباب الّتي تجرّ إلى المعاصي، فكيف يستغفرون منها و من عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب و الخصومات، قال

(١) المصدر ج ٢ ص ٧٧. و في ذكر الرجاء بعد العمل و الورع تنبيه على انهما سبب لرجاء الثواب لا للثواب وعلى انه لاينبغي لاحد ان يتكل بعمله، غاية مافي الباب له ان يجعله وسيلة للرجاء لان الرجاء بدونهما غرور وحمق. وفيه دلالة على انه كره ماقاله ابو الصباح لما فيه من الخشونة وسوء الادب (قاله المؤلف في وافيه).

(٢) المصدر ج ٢ ص ٧٩.

ابن مسعود : قعد قوم يذكرون الله ، فأتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم فيفرّق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة اُخرى يتحدّثون بحديث الدّنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتلون وليس إيّاهم يريد فقام الّذين يذكرون الله تعالى و اشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرّقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم .

ومن أبوابه العظيمة حمل العوام و الّذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحّروا فيه على التفكّر في ذات الله وصفاته و في اُمور لايبلغها حدّ عقولهم حتّى يشكّكهم بذلك في أصل الدّين أو يخيّل إليهم في الله خيالاً يتعالى الله عنه فيصير به كافراً أو مبتدعاً و هو به فرح مسرور متبجّح بما وقع في صدره يظنّ أنّ ذلك هو المعرفة والبصيرة و أنّه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله ، وأشدّ الناس حماقة أقويهم اعتقاداً في عقل نفسه ، وأثبت النّاس عقلاً أشدّهم إتّهاماً لنفسه وظنّه ، وأحرصهم على السؤال من العلماء ، روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنّ الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول : الله تبارك وتعالى ، فيقول : فمن خلق الله تعالى ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله تعالى و برسله ، فإنّ ذلك يذهب عنه »(١) فالنبيّ صلى الله عليه وآله لم يأمر في علاج هذا الوسواس بالبحث فإنّ هذا وسواس يجده عوام النّاس دون العلماء ، و إنّما حقّ العوام أن يؤمنوا و يسلموا و يشتغلوا بعباداتهم و بمعايشهم و يتركوا العلم إلى العلماء فالعاميّ لو زنا أو سرق كان خيراً له من أن يتكلّم في العلم فإنّه من تكلّم من غير إتقان العلم في الله و في دينه وقع في الكفر من حيث لا يدري ، كمن يركب لجّة البحر وهو لا يعرف السباحة . ومكائد الشيطان فيما يتعلّق بالعقائد و المذاهب لا حصر لها ، و إنّما قصدنا بما أوردناه المثال .

ومن أبوابه سوء الظنّ بالمسلمين ولذلك قال الله تعالى: «اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم» ومن حكم بشرّ على غيره بالظنّ بعثه الشّيطان على أن يطول فيه اللّسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتواني في إكرامه أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه وكلّ ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشّرع

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

من التعرّض للتّهم فقال رسول الله ﷺ : «اتّقوا مواضع التّهم»(١) حتّى أنّ رسول الله ﷺ كان معتكفاً فأتيته فتحدّثت عنده فلمّا أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمرّ به رجلان من الأنصار فسلّما ثمّ مضيا فدعاهما فقال : إنّها صفيّة بنت حييّ ، قالا يا رسول الله أفنظنّ بك إلّا خيراً ؟! قال : إنّ الشّيطان ليجري من بني آدم مجرى الدّم و إنّي خشيت أن يدخل عليكما »(٢) فانظر كيف أشفق على دينهما فحرسهما و كيف أشفق على اُمّته فعلّمهم طريق الاحتراز من التّهمة حتّى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدّين في أحواله فيقول : مثلي لا يظنّ به إلّا الخير إعجاباً منه بنفسه فإنّ أورع الناس و أتقاهم و أعلمهم لا ينظر النّاس كلّهم إليه بعين واحدة بل بعين الرّضا بعضهم و بعين السخط بعضهم .

و عين الرّضا عن كلّ عيب كليلة ✿ ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن السّوء وعن تهمة الأشرار فإنّ الأشرار لا يظنّون بالناس كلّهم إلّا الشرّ فمهما رأيت إنساناً يسيىء الظنّ بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنّه خبيث في الباطن وأنّ ذلك خبثه يترشّح منه ، وإنّما يرى غيره من حيث هو ، فإنّ المؤمن يطلب المعاذير ، و المنافق يطلب العيوب ، والمؤمن سليم القلب في حقّ كافّة الخلق فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه و في هذا القدر ما ينبّه على غيره ، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلّا و هي سلاح للشيطان ومدخل من مداخله .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان و هل يكفي ذكر الله تعالى و قول الإنسان «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم » ؟ فاعلم أنّ علاج ذلك سدّ هذه المداخل

(١) ذكره المولى على القارى فى الموضوعات الكبير ص٢٤ ، وقال : هو فى معنى قول عمر « من سلك مسالك التهم اتهم » رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق عن عمر موقوفاً بلفظ « من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن » .

(٢) اخرجه البخارى ومسلم ج ٧ ص ٨ وقد تقدم .

وتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة ، وذلك يطول ذكره وغرضنا في هذا الرّبع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات ، و يحتاج كلّ صفة إلى كتاب مفرد على ماسيأتي شرحه إن شاء الله ، نعم إذاقلعت من القلب اُصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأنّ حقيقة الذكر لاتتمكّن من القلب إلّا بعد عمارة القلب بالتقوى و تطهيره من الصفات المذمومة ، وإلّا فيكون الذكر حديث النفس لاسلطان له على القلب فلايدفع سلطان الشيطان ، و لذلك قال الله تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا » خصّص ذلك بالمتّقين و مثل الشيطان مثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز فإنّه يزجر عنك بأن تقول له : اخسأ فمجرّد الصوت يدفعه ، وإن كان بين يديك شيءٌ من ذلك وهو جائع فإنّه يهجم ولم يندفع بمجرّد الكلام ، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرّد الذكر ، فأمّا الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذّكر إلى حواشي القلب ، ولم يتمكّن من سويدائه فيستقرّ الشيطان في سويداء القلب ، و أمّا قلوب المتّقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنّه يطرقها الشيطان لاللشهوات بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان و دليل ذلك قوله تعالى : « فاستعذ بالله [(١)] » و سائر الأخبار و الآيات الواردة في الذكر ، فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرّد الذكر كما يندفع عنهم كان محالاً وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشحونة بغليظ الأطعمة ويطمع أن ينفع كما نفع الّذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة ، والذكر دواء و التّقوى احتماء يخلي القلب من الشهوات ، فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً من غير الذكر اندفع الشيطان عنه كماتندفع العلّة بنزول الدّواء في معدة خالية عن الأطعمة ، قال الله تعالى: « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان قلب »[(٢)] وقال تعالى : « كتب عليه أنّه من تولّيه فإنّه يضلّه و يهديه إلى عذاب السعير »[(٣)] .

---

(١) الاعراف : ١٩٩ ، (٢) ق : ٣٧ . (٣) الحج : ٤ .

و من ساعد الشيطان بعلمه فقد تولّاه وإن ذكر الله بلسانه ، و إن كنت تقول : الحديث قدورد مطلقاً بانّ الذكر يطرد الشيطان . و لم تفهم أنّ أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط يعرفها علماء الدّين ، فانظر إلى نفسك فليس الخبر كالمعاينة وتأمّل أنّ منتهى ذكرك وعبادتك صلاتك ، فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يتجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، و كيف يمرّ بك في أودية الدّنيا و مهالكها حتّى أنّك لاتتذكّر مانسيته من فضول الدّنيا إلّا في صلاتك ولاتزدحم الشياطين على قلبك إلّا إذا صلّيت و الصلاة محك القلوب فيها تظهر مساويها ومحاسنها فالصّلاة لاتقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدّنيا فلاجرم لايطرد عنك الشيطان ، بل ربما يزيد عليك الوسواس كما أنّ الدّواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر ، فإن شئت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثمّ اردفه بدواء الذكر ، وقد فرّ الشيطان منك ، ولذلك قال وهب بن منبّه : اتّق الله ولاتسبّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السرّ ، أي أنت مطيع له ، وقال بعضهم : ياعجبا لمن يعصي الله بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللّعين بعد معرفته بطغيانه ، و كما أنّ الله تعالى قال : « ادعوني أستجب لكم[1] » وأنت تدعوه فلايستجيب لك فكذلك تذكر الله ولايهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدّعاء .

قيل لابراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا و قد قال الله تعالى : « أُدعوني أستجب لكم » ؟ قال : لأنّ قلوبكم ميتة قيل : وماالّذي أماتها ؟ قال : ثمان خصال : عرفتم حقّ الله فلم تقوموا بحقّه . و قرأتم القرآن فلم تعملوا بحدوده ، و قلتم : نحبّ رسول الله ﷺ و تركتم سنّته ، و قلتم : نخشى الموت ولم تستعدّواله ، وقال الله عزّوجلّ : «إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّا »[2] فواطأتموه [3] على المعاصي ، وقلتم : نخاف النّار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم : نحبّ الجنّة ولم تعملوا لها ، و إذاقمتم من فرشكم رميتم بعيوبكم و راء ظهوركم و قدّمتم عيوب النّاس أمامكم فأسخطتم ربّكم فكيف يستجيب لكم ؟ .

---

(١) المؤمن : ٦٠ . (٢) فاطر : ٦ . (٣) أى وافقتموه .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت : فالدّاعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفة ؟ فاعلم أنّه لاحاجة بك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدوّ ولاتسأل عن صفته كما يقال : كل البقل من حيث تؤتى به ولاتسألن عن المبقلة ، ولكن الّذي يتّضح بنور الاستبصار و شواهد الأخبار أنّهم جنود مجنّدة و أنّ لكلّ نوع من المعاصي شيطاناً يخصّه ويدعو إليه ، فأمّا طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الّذي ذكرناه ، وهو أنّ اختلاف المسبّبات يدلّ على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدّخان .

و أمّا الأخبار فقد قال مجاهد : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كلّ واحد منهم على شيء من أمره ، فذكر أنّ أسماءهم ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور فأمّا ثبر فهو صاحب المصائب الّذي يأمر بالثبور و شقّ الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهليّة ، وأمّا الأعور فانّه صاحب الرّياء يأمر به ويزيّنه ، وأمّا مبسوط فهو صاحب الكذب ، وأمّا داسم فيدخل مع الرّجل إلى أهله يريه العيب فيهم و يغضبه عليهم ، وأمّا زلنبور فهو صاحب السوق و بسببه لايزالون متظلّمين ، و شيطان الصلاة يسمّى خنزب ، وشيطان الوضوء يسمّى الولهان ، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة ، و كما أنّ الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة وقد ذكرنا في كتاب الصّبر والشّكر السرّ في كثرة الملائكة واختصاص كلّ واحد منهم بعمل ينفرد به ، وقد قال أبو أمامة قال رسول الله ﷺ : «وكّل بالمؤمن مائة وستّون ملكاً يذبّون عنه مالم يقدر عليه ، من ذلك للنصر سبعة أملاك يذبّون عنه كما يذبّون عن قصعة العسل الذّباب في اليوم الصائف ، ومالو بدا لكم لرأيتموه على كلّ سهل وجبل كلّهم باسط يده فاغر فاه ، ومالو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين (١) » .

وقال أيّوب بن يونس : بلغنا أنّه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجنّ ثمّ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان ، والطبراني في المعجم الكبير باسناد ضعيف كما في المغني .

ينشئون معهم ، وقال جابر بن عبدالله : إنّ آدم عليه السلام لماهبط قال : « يارب هذا العبد الّذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لا تعينني عليه لاأقوى عليه قال الله تعالى : لايولد لك ولد إلّا وكّل به ملك ، قال : يا ربّ زدني ، قال الله عزّ وجلّ : أجزي بالسيّئة سيّئة وبالحسنة عشراً إلى ما أريد ، قال : ربّ زدني ، قال الله عزّ وجلّ : باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الرّوح ، قال إبليس: ربّ هذا العبد الّذي كرّمته عليّ إن لاتعينني عليه لاأقوى عليه ، قال الله : لا يولد له ولدٌ إلّا ويولد لك ولد ، قال : ربّ زدني ، قال : تجري منهم مجرى الدّم و تتّخذون صدورهم بيوتاً ، قال : ربّ زدني قال تعالى : « أجلب عليهم بخيلك و رجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم و ما يعدهم الشيطان إلّا غروراً » (١).

وعن أبي الدّرداء قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « خلق الله الجنّ ثلاثة أصناف صنف حيّات و عقارب و خشاش الأرض ، و صنف كالريح في الهواء ، و صنف عليهم الحساب والعقاب ، وخلق الله الانس ثلاثة أصناف صنف كالبهائم قال الله تعالى : « لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها - الآية - »(٢)، وصنف أجسادهم أجساد بني آدم و أرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه » (٣).

و قال وهيب بن الورد : بلغنا أنّ إبليس تمثّل ليحيى بن زكريّا عليهما السلام فقال له : أنصحك ، قال : لاأريد ذلك ولكن أخبرني عن بني آدم ؟ قال : هم عندنا ثلاثة أصناف ، أمّا صنف منهم فهم أشدّ الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتّى نفتنه ونتمكّن منه ، ثمّ يفزع إلى الاستغفار و التّوبة ، فيفسد علينا كلّ شيء أدركنا منه ، ثمّ نعود إليه فلا نحن نيأس منه ولانحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن منه في عناء ، وأمّا الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نتلقّفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم ، و أمّا الصنف الآخر فهم معصومون مثلك لا نقدر منهم على شيء .

(١) الاسراء : ٦٤ والخبر رواه البيهقي في الشعب كما في الدر المنثور ج ٤ ص ١٩١.
(٢) الاعراف : ١٧٩ .
(٣) أخرجه الحكيم و ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان و ابوالشيخ في العظمة و ابن مردويه في التفسير بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت كيف يتمثّل الشيطان لبعض الناس دون بعض ؟ و إذا رأى صورته فهي صورته الحقيقيّة أو هومثال له تمثّل به ؟ وإن كان صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ و كيف يرى في وقت واحد في مكانين ؟ وعلى صورتين حتّى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فاعلم أنّ الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا يدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلّا بأنوار النبوّة كما رأى النبيّ ﷺ جبرئيل عليه السلام في صورته مرّتين [١] وذلك أنّه صلّى الله عليه وآله سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده ذلك بحراء ، فطلع له جبرئيل عليه السلام فسدّ الاُفق من المشرق إلى المغرب ، و رآه مرّة اُخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنّما كان يراه في صورة الآدمي غالباً وكان يراه في صورة دحية الكلبي [٢] وكان رجلاً حسن الوجه والأكثر أنّه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته ، فيتمثّل الشيطان له في اليقظة فيراه بعينه و يسمع كلامه باُذنه و يقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصّالحين ، و إنّما المكاشف في اليقظة هو الّذي ينتهي إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواسّ بالدّنيا عن المكاشفة الّتي يكون في النّوم فيرى في اليقظة ما يراه غيره في النّوم ، كما روى أنّ رجلاً سأل ربّه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النّوم جسد رجل شبه البلّور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه و اُذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه فإذا ذكر الله خنس ، و مثل هذا يشاهد بعينه في اليقظة ، وقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة

---

(١) أخرجه البخاري ج ٦ ص ١٧٦ .

(٢) «حديث أنه كان يرى جبرئيل عليه السلام في صورة دحية الكلبي» أخرجه الشيخان من حديث اسامة بن زيد « أن جبرئيل أتى النبي صلى الله عليه و آله و عنده ام سلمة فجعل يحدث ثم قام فقال النبي صلى الله عليه وآله لام سلمة : من هذا ؟ قالت : دحية » .

يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدّنيا ، و هذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقيّة فإنّ القلب لابدّ وأن يظهر فيه حقيقة من الوجه الّذي يقابل عالم الملكوت و عند ذلك يشرق أثره على وجهه الّذي يقابل عالم الملك و الشهادة ، لأنّ أحدهما متّصل بالآخر ، و قد بيّنا أنّ القلب له وجهان وجه إلى عالم الغيب و هو مدخل الالهام والوحي ووجه إلى عالم الشهادة ، فالّذي يظهر منه في الوجه الّذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلّا صورة متخيّلة لأنّ عالم الشهادة كلّها متخيّلات إلّا أنّ الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحسّ فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتّى يرى شخص جميل الصورة و هو خبيث الباطن قبيح السرّ لأنّ عالم الشهادة عالم كثير التلبيس ، أمّا الصورة الّتي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سرّ القلب فلا يكون إلّا محاكية للصفة و موافقة لها ، لأنّ الصّورة في عالم الملكوت تابعة للصفة فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلّا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب و ضفدع و خنزير و غيره ، و يرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصّورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ، و لذلك يدلّ القرد والخنزير في النّوم على إنسان خبيث ، و يدلّ الشاة على إنسان سليم الجانب و هكذا جميع أبواب الرّؤيا و التعبير ، وهذا له أسرارٌ عجيبة وهي من عجائب علوم القلب ، ولايليق ذكرها بعلم المعاملة وإنّما المقصود أن يصدّق بأنّ الشيطان ينكشف لأرباب القلوب و كذا الملك تارة بطريق التمثّل والمحاكاة كما في النّوم ، وتارة بطريق الحقيقة ، والأكثر هو التمثّل بصورة محاكية للمعنى هي مثال المعنى لا عين المعنى إلّا أنّه يشاهد بالعين مشاهدة محقّقة ، و ينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حواليه كالنّائم .

✿(بيان ما يؤاخذ العبد به)✿
✿(من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصدها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به)✿

اعلم أنّ هذا أمرٌ غامضٌ و قد ورد فيه آيات و أخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلّا على سماسرة العلماء بالشرع فقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« عفي عن اُمّتي ما حدّثت به نفوسها »(١) .

وعنه صلى الله عليه وآله قال : « يقول الله تعالى للحفظة : إذا همّ عبدي بسيّئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيّئة ، و إن همّ بحسنة و لم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً » وقد أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين ، وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمّه بالسيّئة .

و في لفظ آخر « من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلي سبعمائة ضعف ، و من همّ بسيّئة ولم يعملها لم يكتب عليه ، وإن عملها كتبت عليه سيّئة » (٢) .

و في لفظ آخر « وإذا تحدّث بأن يعمل سيّئة فأنا أغفرها له مالم يعملها » (٣) وكلّ ذلك يدل على العفو .

أقول : ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي بإسناده عن أحدهما عليهما السلام قال : « إنّ الله تعالى جعل لآدم في ذرّيّته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيّئة ولم يعملها لم تكتب عليه ، ومن عمل بها كتبت عليه سيّئة » (٤) .

قال أبوحامد : فأمّا مايدلّ على المؤاخذة فقوله سبحانه : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء »(٥) .

وقال تعالى : « ولاتقف ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسئولاً »(٦) فدلّ على أنّ عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلايعفى عنه .

---

(١) راجع صحيح مسلم ج ١ ص ٨١ ، و أخرجه الطيالسى فى مسنده ص ٣٢٢ تحت رقم ٢٤٥٩ عن أبى هريرة هكذا « ان الله تجاوز لامتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٢٨ و مسلم ج ١ ص ٨٣ من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٢ من حديث ابوهريرة .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٥) البقرة : ٢٨٤ .

(٦) الاسراء : ٣٦ .

وقال تعالى : « ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه » (١).

وقال سبحانه : « لايؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » (٢).

فالحقُّ في هذه المسألة عندنا أنّه لايوقف عليه مالم يقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدء ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح . فنقول أوّل مايرد على القلب الخاطر كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة وأنّها وراء ظهره في الطريق لوالتفت إليها لرآها ، والثاني هيجان الرّغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة الّتي في الطبع ، وهذا يتولّد من الخاطر الأوّل ونسمّيه ميل الطبع ، والأوّل يسمّى حديث النفس ، الثالث حكم القلب بأنّ هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإنّ الطبع إذا مال لم تنبعث الهمّة والنيّة مالم يندفع الصوارف فإنّه قد يمنعه حياء أوخوف من الالتفات ، و عدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمّل وهو على كلّ حال حكم من جهة العقل ويسمّى هذا اعتقاداً ، وهو يتبع الخاطر ، و الميل الرّابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النيّة فيه وهذا نسمّيه همّاً بالفعل و نيّة و قصداً ، وهذه الهمّة قد يكون لها مبدءٌ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأوّل حتّى طالت مجاذبته للنفس تأكّدت هذه الهمّة و صارت إرادة مجزومة ، فإذا انجزمت الارادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلايعمل بها ، ولايلتفت إليه وربما يعوّقه عائق فيتعذّر عليه العمل ، فههنا أربعة أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة الخاطر ، وهو حديث النفس ، ثمّ الميل ، ثمّ الاعتقاد ، ثمّ الهمّ ، فنقول : أمّا الخاطر فلايؤخذ به لأنّه لايدخل تحت الاختيار وكذلك الميل و هيجان الشهوة لأنّهما أيضاً لايدخلان تحت الاختيار وهما المرادان بقوله ﷺ : « عفي عن اُمّتي ماحدّثت به نفوسها »(٣) فحديث النّفس عبارة عن الخواطر الّتي تهجس في النفس ولايتبعها عزم على الفعل ، فأمّا العزم والهمّ فلا يسمّى حديث النفس ، بل حديث النفس كما

(١) البقرة : ٢٨٣ . (٢) البقرة : ٢٢٥ .

(٣) تقدم آنفاً عن الطيالسى ومسلم فى صحيحه .

روي عن عثمان بن مظعون حيث قال : « يا رسول الله إنّ نفسي تحدّثني أن اُطلّق خولة ، قال : مهلاً إنّ من سنّتي النكاح ، قال : نفسي تحدّثني أن أجب نفسي ، قال : مهلاً خصاء اُمّتي دؤب الصيام ، قال : نفسي تحدّثني أن أترهّب ، قال : مهلاً رهبانيّة اُمّتي الجهاد و الحجّ ، قال : نفسي تحدّثني أن أترك اللّحم ، قال : مهلاً فإنّي اُحبّه و لوأصبته في كلّ يوم لأكلته ، ولوسألت الله لأطعمنيه »(١).

فهذه الخواطر الّتي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ، و لذلك شاور فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ لم يكن معها عزم و همّ بالفعل ، و أمّا الثالث و هو الاعتقاد و حكم القلب بأنّه ينبغي أن يفعل ، فهذا مردّد بين أن يكون اضطراراً واختياراً ، والأحوال تختلف فيه ، فالاختياريّ منه يؤاخذ به والاضطراريّ لايؤاخذ به ، وأمّا الرابع و هو الهمّ بالفعل فإنّه يؤاخذ به إلّا أنّه إن لم يفعل نُظر ، فإن تركه خوفاً من الله تعالى وندم على همّه كتبت له حسنة لانّ همّه سيّئة وامتناعه و مجاهدته نفسه حسنة ، و الهمّ على وفق الطبع لايدلّ على تمام الغفلة عن الله و الامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة ، فجدّه في مخالفة الطبع وهوالعمل لله سبحانه أشدّ من جدّه في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتبت له حسنة لأنّه رجّح جهده في الامتناع وهمّه بهعلى همّه بالفعل ، وإن تعوّق الفعل لعائق أوتركه لعذر لاخوفاً من الله تعالى كتبت عليه سيّئة ، فإنّ همّه فعل من القلب اختياريّ .

و الدليل على هذا التفصيل ما ورد في الصحيح متصّلاً في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قالت الملائكة : ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيّئة وهو أبصر ، فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنّما تركها من أجلي »(٢) وحيث قال : « لم يعملها » أرادبه تركها لله ، فأمّا إذا عزم على فاحشة وتعذّرت عليه بسبب أو بغفلة فكيف يكتب له حسنة ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

(١) ما عثرت عليه في حديث واحد و انما جاء مضمونه في احاديث عدة .

(٢) أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٢ و فيه « انما تركها من جرائي » و المعنى واحد .

« إنّما يحشر الناس على نيّاتهم »(١) و نحن نعلم أنّ من عزم ليلاً على أن يصبح ويقتل مسلماً أويزني بامرأة فمات تلك اللّيلة مات مصرّاً ويحشر على نيّته وقدهمّ بسيّئة ولم يعملها .

والدّليل القاطع فيه ماروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النّار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فمابال المقتول ؟ قال : لأنّه أراد قتل صاحبه(٢) » .

وهذانصّ في أنّه صارمن أهل النّار بمجرّد الارادة مع أنّه قتل مظلوماً فكيف يظنّ أنّ الله لايؤاخذ بالنيّة والهمّ ، بل كلّ مادخل تحت اختيار العبد فهومأخوذ به إلّا أن يكفره بحسنة ، و نقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتب حسنة ، و أمّا فوات المراد بعائق فليس بحسنة ، وأمّاالخواطر وحديث النفس وهيجان الرّغبة فكلّ ذلك لايؤاخذ به لأنّه لايدخل تحت الاختيار ، والمؤاخذة به تكليف لمالايطاق ، ولذلك لما نزل قوله تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله »(٣) جاء ناس من الصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قالوا : كلّفنا مالانطيق ، إنّ أحدنا ليتحدّث نفسه بمالايحبّ أن يثبت في قلبه ، ثمّ يحاسب بذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لعلّكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله تعالى الفرج بقوله عزّوجلّ : « لايكلّف الله نفساً إلّا وسعها »(٤) .

أقول : ومن طريق الخاصّة ما رواه في الاحتجاج(٥) عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل « أنّ هذه الآية عرضت على الأنبياء والاُمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرضها على اُمّته فقبلوها ، فلمّارأى الله عزّوجلّ منهم القبول علم أنّهم لايطيقونها .... قال : أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم مافيها و قد عرضتها على الاُمم فأبوا أن يقبلوها و قبلها اُمّتك ، فحقّ عليّ أن أرفعها عن

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٣٩ من حديث جابر .

(٢) متفق عليه . و أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٦٤ .

(٣) البقرة : ٢٨٤ .

(٤) الاية في البقرة : ٢٨٦ . و الخبر أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٠ . (٥) ص ١١٧.

أمّتك ، و قال : « لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها » - الآية - .

قال أبوحامد : فظهر به أنّ كلّ ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الّذي لا يؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس ، و كلّ من يظن أنّ كلّ ما يجري على القلب يسمّى حديث النفس ، و من لم يفرّق بين هذه الأقسام الثلاثة فلابدّ وأن يغلط ، وكيف لايؤاخذ بأعمال القلوب والكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد و جملة الخبائث من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد و كلّ أُولئك كان عنه مسؤلاً ، أي ممّا يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختياره على غير محرم لم يؤاخذ بها فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذاً بها لأنّه مختار وكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنّه الأصل قال رسول الله ﷺ : « التقوى ههنا » - و أشار إلى القلب -[1] وقال الله عزّ وجلّ : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »[2] والتقوى في القلب ، وقال ﷺ : « الإثم حوازّ القلب »[3] وقال ﷺ : « البرّ ما اطمأنّ إليه القلب و إن أفتوك و أفتوك »[4] حتّى أنّا نقول : إذا حكم قلب المفتي بإيجاب شيء و كان مخطئاً صار مثاباً على فعله ، بل من ظنّ أنّه متطهّر فعليه أن يصلّي فإن صلّى ثمّ تذكّر كان له ثواب بفعله فإن ترك ثمّ تذكّر كان معاقباً ، و من وجد على فراشه امرأة فظنّ أنّها زوجته لم يعص بوطيها وإن كانت أجنبيّة وإن ظنّ أنّها أجنبيّة عصى بوطيها وإن كانت امرأته ، كلّ ذلك نظراً إلى القلب دون الجوارح .

✲(بيان ان الوسواس هل يتصوران ينقطع بالكلية عند الذكر ام لا)✲

اعلم أنّ العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها و عجايبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق فقالت فرقة : أنّ الوسوسة تنقطع بذكر الله تعالى لأنّ

(١) أخرجه مسلم من حديث ابي هريرة في حديث كما في المغني .
(٢) الحج : ٣٧ .　　(٣) تقدم في المجلد الاول ص ٥٧ مع بيانه .
(٤) أخرجه الطبراني من حديث ابي ثعلبة ، ولا حمد نحوه في حديث عن وابصة كما في المغني .

النبيّ ﷺ قال : « إذا ذكر الله خنس الشيطان »[1] والخنوس هو السكوت فكأنّه يسكت . وقالت فرقة : لا ينعدم أصلها ولكن يجري في القلب ولا يكون لها أثر لأنّ القلب إذا صار مستوعباً بالذّكر صار محجوباً عن التأثّر بالوسوسة كالمشغول بهمّة فإنّه قد يكلّم فلا يفهم وإن كان الصّوت يمرّ على سمعه ، وقال فرقة : لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضاً ولكن يسقط غلبتها للقلب وكأنّه يوسوس من بُعد و على ضعف ، وقالت فرقة : ينعدم عند الذّكر في لحظة وينعدم الذّكر بها في لحظة و يتعاقبان في أزمنة متقاربة : فظنّ لتقاربها أنّها متساوقة ، وهو كالكرة الّتي عليها نقط متفرّقة فإنّها إذا اُديرت بسرعة رأيت النقط دوائر لسرعة تواصلها بالحركة ، واستدلّ هؤلاء بأنّ الخنس قد ورد و نحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلّا هذا ، وقالت فرقة: إنّ الوسوسة والذّكر يتساوقان في القلب على الدّوام تساوقاً لا ينقطع ، و كما أنّ الانسان قد يرى في حالة واحدة بعينه شيئين فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين وقد قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد إلّا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه »[2] وإلى هذا ذهب المحاسبيّ .

و الصحيح عندنا في هذا أنّ كلّ هذه المذاهب صحيحة ولكن كلّها قاصرة عن الاحاطة بأصناف الوساوس وإنّما نظر كلّ واحد من الفرق إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه ، والوسواس ثلاثة أصناف الأوّل أن يكون من جهة التلبيس للحقّ فإنّ الشيطان قد يلبّس الحقّ فيقول للانسان : لا تترك التنعّم و اللّذات فإنّ العمر طويل و الصبر عن الشهوات طول العمر أَلمه عظيم ، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حقّ الله تعالى و عظيم ثوابه و عقابه و قال : الصبر عن الشهوات شديد و لكنّ الصبر على النّار أشدّ منه و لابدّ من أحدهما ، فإذا ذكر العبد وعد الله

(١) هذا جزء من الخبر الذى مر ص ٥١ « ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم » .

(٢) قال العراقى : أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ « الاخرة » مكان « دينه » و فيه الحسين بن احمد بن محمد الهروى السماخى الحافظ كذ به الحاكم و الافة منه .

ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان و هرب ، إذلا يستطيع أن يقول : ليس النّار أشدّ من الصبرعن المعاصي ولايمكنه أن يقول : المعصية لاتفضي إلى النّار ، فإنّ إيمانه بكتاب الله يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه ، و كذلك يوسوس إليه بالعجب في علمه و عمله و يقول له : أيّ عبد يعرف الله كما تعرفه و يعبده كما تعبده فما أعظم مكانك عندالله فيذكر العبد أنّ معرفته و قدرته و قلبه و أعضاءه الّتي بها علمه وعمله كلّ ذلك من خلق الله فمن أين يعجب به فيخنس الشيطان ؟ إذ لا يمكنه أن يقول : ليس هذا من الله لأنّ المعرفة والإيمان يدفعه فهذا نوع من الوسوسة ينقطع بالكلّيّة عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثاني أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة و تهييجها وهذا ينقسم إلى ما يعرف العبد يقيناً أنّه معصية وإلى ما يظنّه بغالب الظنّ ، فإن علم يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثّر في التحريك و لم يخنس عن التهييج ، و إن كان مظنوناً بما يبقى مؤثّراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنّها مدفوعة غير غالبة .

الصنف الثالث أن يكون وسواسه بمجرّد الخواطر و تذكّر الأحوال الغايبة والتفكّر في الصّلاة في غير أمر الصّلاة مثلاً فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة و يعود و يندفع و يعود فيتعاقب الذّكر والوسوسة و تصوّر أن يتساوقا جميعاً حتّى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة و على تلك الخواطر كأنّهما في موضعين من القلب و بعيد جدًّا أن يندفع هذا الخنس بالكلّيّة بحيث لا يخطر ، و لكنّه ليس محالاً إذ قال ﷺ : « من صلّى ركعتين لم يحدّث فيها نفسه بشيء من أمر الدّنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر »(١) فلو لا أنّه متصوّر لما ذكره إلّا أنّه لا يتصوّر ذلك إلّا في قلب استولى عليه الحبّ حتّى صار كالمستهتر ، فإنّا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ وتأذّى به قد يتفكّر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غيره ، و كذلك المستغرق في الحبّ قد يتفكّر في محادثة محبوبه بقلبه

(١) أخرجه أحمد وقد مر فى المجلد الاول ص ٣٤٩ .

فيغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ، ولو كلّمه غيره لم يسمع ولواجتازواحدٌ بين يديهلكان كأنّه لايراه ، و إذا تصوّر هذا في خوف من عدّوهوعند الحرص على جاه و مال فكيف لا يتصوّر من خوف النّار والحرص على الجنّة ، ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله واليوم الآخر .

فإذا تأمّلت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكلّ مذهب من المذاهب وجهاً ولكن في محلّ مخصوص ، وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أوساعة غير بعيد ، ولكنّ الخلاص منه عمراً طويلاً بعيدٌ أومحال ، ولاينقطع وسوسة عروض الدّنيا ونقدها إلّا بالرّمي والمفارقة فمادام يملك شيئاًوراء حاجته ولوديناراً واحداً فلايخلّيه الشيطان في صلاته عن التفكّر في ديناره وإنّه كيف يحفظه وفيما ذاينفقه و كيف يخفيه حتّى لايعلم به أحدٌ أو كيف يظهره حتّى يتباهى به إلى غير ذلك من الوسواس ، فمن أنشب مخالبه في الدّنيا و طمع في أن يتخلّص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظنّ أنّه لايقع الذّباب عليه و هو محالٌ ، فالدّنيا باب عظيم لوسواس الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب .

قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي ، فإن امتنع أتاه منوجه النصيحة حتّى يلقيه في بدعة ، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدّة حتّى يحرم عليه ما ليس بحرام ، فإن أبى شكّكه في وضوئه وصلاته حتّى يخرجه عن العلم ، فإن أبى خفّف عليه أعمال البرّ حتّى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه ويعجب بنفسه وبه يهلكه وعندذلك تشتدّ الحاجة فإنّها آخردرجة ويعلم أنّه لوجاوزها أفلت منها إلى الجنّة .

✿ (بيان سرعة تقلب القلب) ✿
✿ (وانقسام القلوب في التغير والثبات) ✿

اعلم أنّ القلب كماذكرناه تكتنفه الصفات الّتي ذكرناها وتنصبّ إليه الآثار والأحوال من الأبواب الّتي وصفناها فكأنّه هدف يصاب على الدّوام من كلّ جانب

فإذا أصابه شيء و يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فيغير وصفه ، فإن نزل الشيطان به ودعاه إلى الهوى و التفت القلب إليه نزل الملك به وصرفه عنه ، و إن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره ، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه ملك آخر إلى غيره ، فتارة يكون متنازعاً بين ملكين ، و تارة بين شيطانين ، و تارة بين ملك و شيطان و لا يكون قط مهملاً ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « و نقلّب أفئدتهم و أبصارهم » (١) و لاطّلاع رسول الله ﷺ على عظيم صنع الله في عجائب القلب وتقلّبه كان يحلف به ويقول : « لا ، و مقلّب القلوب » (٢) .

وكان كثيراً مّا يقول ﷺ : « يامقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك . قالوا : أوتخاف يارسول الله ؟ فقال: ومايؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلّبه كيف يشاء » و في لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه » (٣).

و ضرب له رسول الله ﷺ ثلاثة أمثلة فقال : « مثل القلب مثل العصفور يتقلّب في كلّ ساعة » (٤) .

و قال ﷺ : « مثل القلب في تقلّبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً » (٥).

و قال ﷺ : « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلّبها الرّياح ظهراً لبطن » (٦) .

و هذه التقليبات من عجيب صنع الله ، وعجائب صنع الله في تقلّبها من حيث

---

(١) الانعام : ١١٠ .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٦٠ من حديث ابن عمر واخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٠٩٢ عن سالم عن أبيه وفيه « لا ومصرف القلوب » .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٩٩ . والحاكم ج ١ ص ٥٢٦ و ج ٤ ص ٣٢١ . و قد مر ، وقوله : «أقامه» اى على الحق ، و «ازاغه» اى عن الحق .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٠٧ و قال : صحيح على شرط مسلم .

(٥) أخرجه احمد ج ٦ ص ٤ من حديث المقداد وفيه « أجمعت غلياً » .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٨٨ ، والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الاشعري .

لايهتدي إليه لايعرفه إلّا المراقبون لقلوبهم و المراعون لأحوالهم مع الله تعالى .

و القلوب في الثبات على الخير والشرّ والتردّد بينهما ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكى بالرّياضة ،وطهر من خبائث الأخلاق فتنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب و مداخل الملكوت فينصرف العقل إلى التفكّر فيما خطر ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنّه لابدّ من فعله ويستحثّ عليه ويدعو إلى العمل به ،فينظر الملك إلى القلب فيجده طيّباً في جوهره ، طاهراً بتقواه ، مستنيراً بضياء العقل ، معموراً بأنوار المعرفة و يراه صالحاً لأن يكون مستقرّاً له و مهبطاً فعند ذلك يمدّه بجنود لاترى و يهديه إلى خيرات اُخرى حتّى ينجرّ الخير إلى الخير و كذلك على الدّوام لايتناهى إمداده بالترغيب في الخير وتيسير الأمر عليه و إليه الإشارة بقوله تعالى : « فأمّا من أعطى و اتّقى ۞ وصدّق بالحسنى ۞ فسنيسّره لليسرى »[1] وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكوة الرّبوبية حتّى لايخفى فيه الشرك الخفيّ الّذي هو أخفى من دبيب النملة السّوداء في اللّيلة الظلماء ، ولايخفى على هذا النور خافية ولايروّج عليه شيء من مكائد الشيطان ، بل يقف عليه الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً ولايلتفت إليه ، وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات الّتي سنذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزّهد والمحبّة و الرّضا و الشوق والتوكّل و التفكّر والمحاسبة والمراقبة و غير ذلك ، وهو القلب الّذي أقبل الله تعالى عليه بوجهه وهو القلب المطمئنّ المراد بقوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب »[2] وبقوله عزّ وجلّ : « ياأيّتها النفس المطمئنّة »[3] .

القلب الثاني القلب المخذول المشحون بالهوى المدنّس بالخبائث ، الملوّث بالأخلاق الذّميمة ، المفتّحة فيه أبواب الشياطين ، المسدودة عنه أبواب الملائكة ، و مبدء الشرّ فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل

(١) الليل : ٥ و ٦ و ٧ . (٢) الرعد : ٢٨ .
(٣) الفجر : ٢٧ .

ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قدألف خدمة الهوى وأنس به واستمرّ على استنباط الحيل له في موافقة الهوى و مساعدته فتسوّل النفس له وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى و تنبسط فيه ظلماته لانخناس جند العقل عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتّساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين و الغرور والأماني و يوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين بخوف الآخرة إذيتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتّى تنطفيء أنواره فيصير العقل كالعين الّتي ملأ الدّخان أجفانها فلايقدر على أن تنظر،وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتّى لايبقى للقلب إمكان التوقّف والاستبصار ولو بصّره واعظ و أسمعه ما هو الحقّ فيه عمي عن الفهم وصمّ عن السمع وهاجت الشهوة ونشط الشيطان وتحرّكت الجوارح على وفق الهوى وظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من خزائن الغيب بقضاء من الله وقدره وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى : «أرأيت من اتّخذ إلهه هواه - إلى آخر الآيتين -(١)» وبقوله عزّ وجلّ : « لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لايؤمنون »(٢) وبقوله تعالى : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون(٣)» [وربّ قلب هذا حاله بالإضافة إلى الشهوات] وربّ قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالّذي يتورّع عن بعض الأشياء ولكنّه إذارأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالّذي لايملك نفسه فيما فيه الجاه والرّئاسة والكبر ولايبقى معه مسكة للتثبّت عند ظهور أسبابه أو كالّذي لايملك نفسه عند الغضب مهما استحقر أوذكر عيب من عيوبه ، أو كالّذي لايملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروّة والتقوى و كلّ ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتّى يظلم و تنطفيء منه أنواره البصيرة فينطفيء منه نور الحياء و المروّة والإيمان و يسعى في تحصيل مراد الشيطان .

القلب الثالث قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشرّ فيلحقه خاطر

---

(١) الفرقان : ٤٣ . (٢) سورة يس : ٧ . (٣) يس : ١٠ .

الايمان فيدعوه إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشرّ فتقوّي الشهوة وتحسّن التمتّع والتنعّم ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير و يدفع في وجه الشهوة ويقبّح فعلها وينسبها إلى الجهل ، ويشبّهها بالبهيمة والسبع في تهجّمها على الشرّ و قلّة أكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل ، فيحمل الشيطان حملة على العقل ويقوّي داعية الهوى و يقول : ما هذا التحرّج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذّي نفسك وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه ؟ أويترك غرضه ؟ أفتترك ملاذّ الدّنيا لهم فيتمتّعون فيها ؟ و تحجر على نفسك حتّى تبقى محروماً شقيّاً متعوباً يضحك عليك أهل الزّمان أتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا ؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز عن فعل ذلك ولو كان ذلك شرّاً لامتنع عنه ، فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه فيحمل الملك حملة على الشيطان فيقول : هل هلك إلّا من اتبّع لذّة الحال ونسي العاقبة ؟ أفتقنع بلذّة يسيرة وتترك لذّة الجنّة ونعيمها أبدالآباد ؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولاتستثقل ألم النّار ؟ أتغترّ بغفلة الناس عن أنفسهم ؟ و اتّباعهم هواهم ، ومساعدتهم للشيطان ؟ مع أنّ عذاب النّار لايخفّف عنك بمعصية غيرك أرأيت لو كنت في صيف و وقف الناس كلّهم في الشمس و كان لك بيت بارداً كنت تساعد الناس ، أم تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حرّ الشمس ولاتخالفهم خوفاً من حرّ النّار ؟ فعند ذلك تميل النفس إلى قول الملك فلايزال القلب يتردّد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب من هو أولى به ، فان كانت الصفات الّتي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية الّتي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشياطين معرضاً عن حزب الله تعالى و أوليائه ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهوسبب بعده عن الله تعالى ، و إن كان الغالب على القلب الصفات الملكيّة لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان و تحريضه إيّاه على العاجلة ، و تهوينه أمر الآجلة [1] بل مال إلى حزب الله تعالى و ظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه « و قلب

(١) في الاحياء « أمر الاخرة » .

المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن » أي بين تجاذب هذين الحزبين و هو الغالب على القلوب أعني التقلّب والانتقال من حزب إلى حزب ، أمّا الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو حزب الشياطين فنادر من الجانبين .

و هذه الطاعات و المعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنّه من خزائن الملكوت ، و هي إذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء فمن خلق للجنّة يسّرت له الطاعة و أسبابها و من خلق للنار يسّرت له أسباب المعصية و سلّط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان فإنّه بأنواع الحكم يغرّ الحمقى كقوله : إنّ الله تعالى رحيم فلاتبال ، وإنّ الناس كلّهم ما يخافون الله فلاتخالفهم ،فإنّ العمر طويل فاصبر حتّى تتوب غداً « يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً » يعدهم بالتوبة و يمنّيهم بالمغفرة فيهلكهم بإذن الله بهذه الحيل و ما يجري مجراها ، فيوسّع قلبه لقبول الغرور ويضيّقه عن قبول الحقّ و كلّ ذلك بقضاء من الله وقدره « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السّماء » ، «إن ينصركم الله فلاغالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الّذي ينصركم من بعده » فهو الهادي والمضلّ يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، لارادّ لحكمه ولامعقّب لقضائه ، خلق الجنّة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة و خلق النار و خلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعصية وعرف الخلق علامات أهل النار وأهل الجنّة فقال تعالى : « إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجّار لفي جحيم» : «فتعالى الله الملك الحقّ»، « لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون » .

ولنقتصر الآن على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإنّ استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة و إنّما ذكرنا منه مايحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة و علومها وأسرارها لينتفع بها من لايقنع بالظواهر ولايجتزىء بالقشور عن اللّباب ، بل يتشوّق إلى معرفة دقائق الأسباب ، وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى .

هذا آخر كتاب شرح عجائب القلب من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ، والحمد لله أوّلاً وآخراً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كتاب رياضة النفس﴾

(وتهذيب الاخلاق و معالجة أمراض القلب)

(وهوالكتاب الثاني من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء)

الحمد لله الّذي صرّف الأمور بتدبيره ، و عدّل تركيب الخلق فأحسن في تصويره ، و زيّن صورة الإنسان بحسن تقويمه و تقديره ، و حرسه عن الزّيادة والنقصان في شكله و مقاديره ، و فوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد و تشميره ، واستحثّه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره . و سهّل على خواصّ عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه و تيسيره ، و امتنّ عليهم بتسهيل صعبه و عسيره .

والصّلاة على محمّد عبده و نبيّه و حبيبه و صفيّه و بشيره و نذيره ، الّذي كان يلوح نور النبوّة من أساريره ، و تنكشف حقيقة الحقّ من مخائله و تباشيره ، وعلى آله وأصحابه الّذين طهّروا وجه الإسلام عن ظلم الكفر و دياجيره ، وحسموا مادّة الباطل ولم يتدنّسوا لا بقليله و لا بكثيره .

أما بعد فإنّ الخُلق الحسن صفة سيد المرسلين و أفضل أعمال الصدّيقين ، و هو على التحقيق شطر الدّين ، و هو ثمرة مجاهدة المتّقين ، و رياضة المتعبّدين ، والأخلاق السيّئة هي السموم القاتلة ، والمهلكات الدّامغة ، والمخازي الفاضحة ، والرّذائل الواضحة ، والخبائث المبعّدة من جوار ربّ العالمين ، المنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان اللّعين ، و هي الأبوابّ المفتوحة من القلب إلى نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة كما أنّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرّحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس

إلّا أنّه مرض يفوت حياة الأبد ، و أين منه المرض الّذي لا يفوت إلّا حياةالجسد ؟ و مهما اشتدّت عناية الأطبّاء بضبط قوانين العلاج للأبدان و ليس في مرضها إلّا فوت حياة فانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب و فيها فوت حياة باقية أولى ، و هذا النوع من الطبّ واجبٌ تعلّمه على كلّ ذي لبّ إذ لايخلوقلبٌ من القلوب عن أسقام لو اُهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنّق في معرفة عللها و أسبابها ثمّ إلى تشمير في معالجتها و إصلاحها فمعالجتها هي المراد بقولهتعالى : « قدأفلح منزكّيها »(١)وإهمالها هوالمراد بقوله عزّوجلّ : « و قد خاب من دسّيها »(١).

و نحن في هذا الكتاب نشير إلى جمل من أمراض القلوب و كيفيّة القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل العلاج لخصوص الأمراض فإنّ ذلك يأتي في بقيّة الكتب منهذا الرّبع ، وغرضناالآن النظر الكلّيّ فيتهذيب الأخلاق وتمهيد مناهجها و نحننذكر ذلك و نجعل علاجالبدن مثالاً له ليقرّب منالأفهامدركه ، و يتّضح ذلك ببيان فضيلة حُسن الخلق ، ثمّ بيان حقيقة حسن الخلق ، ثمّ بيان قبول الأخلاق للتغيير بالرّياضة ، ثمّ بيان السببالّذي به ينال حسن الخلق ، ثمّ بيان تفصيل الطّرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النّفوس ، ثمّ بيان العلاماتالّتي بها يعرف مرض القلوب ، ثمّ بيان الطرق الّتي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثمّ بيان شواهد النقل على أنّ طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ، ثمّ بيان علامات حُسنالخلق ، ثمّ بيان الطريق في رياضة الصّبيان في أوّل النشوء ، ثمّ بيان شروط الإرادة ومقدّمات المجاهدة .

فهي أحد عشر فصلاً يجمع مقاصد هذا الكتاب إن شاء الله .

✿ (بيان فضيلة حسن الخلق و مذمة سوء الخلق)✿

قال الله تعالى لنبيّه وحبيبه ﷺ مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه : « وإنّك

---

(١) الشمس : ١٠ و ١١ .

لعلى خلق عظيم » (١).

و قالت عائشة : « كان خلق رسول الله ﷺ القرآن » (٢).

وسأل رجلٌ رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله عزَّ وجلَّ : « خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين » (٣) ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «وهو أن تصل من قطعك و تعطي من حرمك و تعفو عمن ظلمك » (٤) .

و قال ﷺ : « إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » (٥).

و قال ﷺ : « أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخلق الحسن » (٦).

و جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدّين فقال : حسن الخلق ، ثمَّ أتاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدّين ؟ فقال : حسن الخلق ، ثمَّ أتاه من قبل شماله فقال : ما الدّين فقال : حسن الخلق ، ثمَّ أتاه من ورائه فقال : ما الدّين ؟ فالتفت إليه فقال : أما تفقه هو أن لا تغضب » (٧).

و قيل : « يا رسول الله ما الشؤم ؟ فقال : سوء الخلق » (٨) .

و قال : رجلٌ : « يا رسول الله أوصني ، فقال : اتّق الله حيث كنت ، قال :

(١) القلم : ٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ج ١ القسم الثاني ص ٨٩ .

(٣) الاية في سورة الاعراف : ١٩٩ ، والخبر رواه ابن مردويه في التفسير من حديث جابر و قيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان كما في المغنى .

(٤) أخرجه البيهقى في الشعب كما في الدر المنثور ج ٣ ص ١٥٤ .

(٥) راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٣ رواه عن الطبرانى والبزار بلفظ آخر .

(٦) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٦٨ . من حديث أبى الدرداء هكذا « ما من شيء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق » و فى حديث آخر عن أبى هريرة « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق » .

(٧) رواه محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة مرسلا عن [أبى] العلاء بن الشخير بلفظ « أى العمل أفضل » كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٠٥ .

(٨) أخرجه الطبرانى فى الاوسط عن جابر بسند ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٥ .

زدني ، قال : اتّبع السيّئة الحسنة تمحها ، قال : زدني قال : خالق الناس بخلق حسن »(١).

و سئل رسول الله ﷺ : « أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : حسن الخلق »(٢).

و قال ﷺ : « ما حسّن الله خلق امرىء و خُلقه فيطعمه النّار »(٣) .

و قال الفضيل : « قيل لرسول الله ﷺ : إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم اللّيل وهي السيّئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال : لاخير فيها هي من أهل النّار »(٤).

وقال أبوالدّرداء : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسّخاء ، ولما خلق الله تعالى الإيمان قال : اللّهمّ قوّني فقوّاه بحسن الخلق والسخاء ، ولما خلق الله الكفر قال : اللّهمّ قوّني فقوّاه بالبخل وسوء الخلق »(٥).

و قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله تعالى استخلص هذا الدّين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلّا السّخاء و حسن الخلق ، ألا فزيّنوا دينكم بهما »(٦).

و قال رسول الله ﷺ : « حسن الخلق خلق الله الأعظم » (٧) .

وقيل : « يا رسول الله أيّ المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً »(٨).

و قال ﷺ : « إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه و

---

(١) أخرجه الدارمي ج٢ ص٣٢٣ من حديث أبي ذر ، وأحمد في المسند ج ٥ص٢٢٨.

(٢) مر ص ٨٩ تحت رقم ٧ .

(٣) أخرجه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة كما في الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٠٧ .

(٤) أخرجه البزار وأحمد من حديث أبي هريرة بسند صحيح كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٦٩ .

(٥) أخرج صدره الترمذي ج ٨ ص ١٦٨ ، و أبو داود ج ٢ ص ٥٥٢ و لم أجد ذيله في أصل .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير عن عمران بن حصين وهو متروك كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٠ .

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٨) أخرجه الدارمي ج ٢ ص ٣٢٣ .

حسن الخلق » (١).

و قال ﷺ أيضاً : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل » (٢).

و عن جرير بن عبدالله قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إنّك لامرؤ قد حسن الله خلقك ، فحسّن خُلقك » (٣).

وعن البراء بن عازب قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خُلقاً » (٤) .

و عن أبي مسعود البدريّ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللّهم قد حسّنت خلقي فحسّن خُلقي » (٥) .

و عن عبدالله بن عمر قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر الدّعاء فيقول : « اللّهمّ إنّي أسألك الصحّة والعافية و حسن الخلق » (٦) .

و عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ قال : « كرم المرء دينه ، و مروءته عقله ، و حسبه حسن خلقه » (٧) .

و عن اُسامة بن شريك قال : شهدت الأعاريب يسألون النبيّ ﷺ يقولون: ما خير ما اُعطي العبد ؟ قال : « حسن الخلق » (٨) .

و قال ﷺ : « إنّ أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم

---

(١) أخرجه الطبراني والبزار و أبويعلى من حديث أبي هريرة و بعض طرق البزار رجاله ثقات كما في المغني .

(٢) أخرجه الحاكم في الكنى عن ابن عمر بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الخرائطي في مكارم الاخلاق وأبوالعباس الدغولي في كتاب الاداب و فيه ضعف كما في المغني .

(٤) متفق عليه بسند صحيح عن البراء كما في الجامع الصغير باب الشمائل .

(٥) أخرجه الطيالسي في مسنده ص ٤٩ .

(٦) أخرجه الخرائطي في المكارم باسناد فيه لين كما في المغني .

(٧) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي في الكبرى بسند صحيح كما في الجامع الصغير

(٨) أخرجه الطيالسي في مسنده ص ١٧١ تحت رقم ١٢٣٣ .

أخلاقاً » (١) .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهنّ فلا يعتدّ بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكفّ به السفيه ، و خلق يعيش به في الناس » (٢) .

وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة « اللّهمّ اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلّا أنت ، واصرف عنّي سيّئها لا يصرف عنّي سيّئها إلّا أنت » (٣).

وقال أنس : بينما نحن مع رسول الله ﷺ يوماً إذ قال : « إنّ حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » (٤) .

وقال ﷺ : « من سعادة المرء حسن الخلق » (٥) .

وقال ﷺ : « اليمن حسن الخلق » (٦) .

وقال ﷺ لأبي ذرّ : « ياأباذرّ لاعقل كالتدبير ولاحسب كحسن الخلق»(٧).

و عن أنس قال : « قالت أمّ حبيبه : يارسول الله أرأيت المرأة منّا يكون لها زوجان في الدّنيا فتموت و يموتان و يدخلان الجنّة لأيّهما هي ؟ قال : لأحسنهما خلقاً كان عندها في الدّنيا ، ياأمّ حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدّنيا والآخرة »(٨).

و قال ﷺ : « إنّ المسلم المسدّد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه

(١) أخرجه أحمد فى مسند عبدالله بن عمر باسناد جيد كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢١ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير عنه ، والخرائطى فى المكارم عن ام سلمة باسناد ضعيف كما فى المغنى .

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٢ ص٣٣ من حديث على عليه السلام .

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط بسند ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٤ .

(٥) أخرجه البيهقى فى الشعب عن جابر بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٦) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث على عليه السلام كما فى المغنى .

(٧) أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ٤٢١٨ .

(٨) رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط كما فى الترغيب ج ٣ ص ٤١١ .

و كرم ضريبته » [١] . وفي رواية أخرى « درجة الظمآن في الهواجر » [٢].

و قال أنس : قال النبيّ ﷺ : « إنّ العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة و شرف المنازل و إنّه لضعيف العبادة » [٣].

و قال ﷺ : « سوء الخلق ذنب لا يغفر و سوء الظنّ خطيئة تفوح » [٤].

و قال ﷺ : « إنّ العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنّم » [٥] .

أقول : و قد ذكرنا الأخبار في فضيلة حسن الخلق و منمّة سوء الخلق من طريق الخاصّة في أوّل كتاب آداب الصحبة والمعاشرة من ربع العادات فلا نطول الكلام بإعادتها .

✿(الآثار)✿

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبه أيّ الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدّين ، قال : فإذا كانتا اثنتين ؟ قال : الدّين والمال ، قال : فإذا كانت ثلاثاً ؟ قال : الدّين والمال والحياء ، قال : فإذا كانت أربعاً ؟ قال : الدّين والمال والحياء و حسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمساً ؟ قال : الدّين والمال والحياء و حسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستّاً ؟ قال : يا بنيّ إذا اجتمعت فيه هذه الخمس فهو تقيّ نقيّ ولله وليّ و من الشيطان بريء .

و قيل : من ساء خلقه عذّب نفسه .

و قال يحيى بن معاذ : في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق .

و قال وهب بن منبّه : مثل السيّىء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لاترقع ولا تعاد طيناً .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمر ، والضريبة : الطبيعة وزناً ومعنى .

(٢) أخرجه أحمد أيضاً في مسند أبي هريرة . والطبراني كما في الترغيب ج٣ ص٤٠٤.

(٣) رواه الطبراني كما في الترغيب ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٤) ما عثرت على أصل له بهذا اللفظ .

(٥) هذا تتمة لحديث أنس ، الحديث الاسبق .

و قال الفضيل : لأن يصحبني فاجرٌ حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني عابد سيّیء الخلق .

و صحب ابن المبارك رجلٌ سيّیء الخلق في سفره فكان يحتمل منه و يداريه فلمّا أن فارقه بكى ، فقيل له في ذلك ، فقال : أترحّم عليه ، فارقته وخلقه معه لم يفارقه .

و قال الجنيد : أربع يرفع العبد إلى أعالي الدّرجات و إن قلّ علمه و عمله الحلم والتواضع والسّخاء و حسن الخلق و هو كمال الإيمان .

و قال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيّئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضرّ معها كثرة السيّئات .

وسئل ابن عبّاس ما الكرم ؟ فقال : ما بيّن الله تعالى في كتابه « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم » (١) قيل له : ما الحسب ؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً .

و قيل : لكلّ بنيان أساس و أساس الإيمان حسن الخلق .

و قال ابن عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلّا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلّا المصطفى محمّد صلّى الله عليه و آله ، وأقرب الخلق إلى الله تعالى السالكون آثاره بحسن الخلق .

✿(بيان حقيقة حسن الخلق و سوء الخلق)✿

اعلم أنّ الناس قد تكلّموا في حقيقة الخلق الحسن وأنّه ما هو ؟ وما تعرّضوا لحقيقته وإنّما تعرّضوا لثمرته ، ثمّ لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كلّ واحد من ثمراته ما خطر له وكان حاضراً في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حدّه و حقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول بعضهم : حسن الخلق بسط الوجه ، وبذل الندى ، و كفّ الأذى ، وقال الواسطي : هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدّة معرفته بالله ، وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً ، و قال أبو عثمان : هو الرّضا عن الله ، فهذا و أمثاله كثيرٌ و هو تعرّض

(١) الحجرات : ١٣ .

لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ، ثمّ ليس محيطاً بجميع الثمرات أيضاً .

و كشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة ، فنقول : الخلق والخُلق عبارتان مستعملتان معاً يقال : فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الظاهر والباطن فيراد بالخلق الصّورة الظّاهرة ، و يراد بالخلق الصّورة الباطنة ، و ذلك لأنّ الإنسان مركّبٌ من جسد مدرك بالبصر ، ومن روح و نفس مدركة بالبصيرة ، و لكلٍّ واحد منهما هيئة وصورة إمّا قبيحة وإمّا جميلة ، والرّوح المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر و لذلك عظّم الله أمره بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى : « إنّي خالق بشراً من طين فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي » (١) فنبّه على أنّ الجسد منسوب إلى الطين ☆ والرّوح منسوب إلى الله تعالى ، والمراد بالرّوح والنفس في هذا المقام واحد ، فالخلق عبارة عن هيئة للنّفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة و يسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً و شرعاً سمّيت الهيئة خلقاً حسناً ، و إن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة الّتي هي المصدر خلقاً سيّئاً و إنّما قلنا : إنّها هيئة راسخة لأنّ من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال : خلقه السّخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، و إنّما شرطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير رويّة لأنّ من تكلّف بذل المال والسّكوت عند الغضب بجهد ورويّة لا يقال : خلقه السّخاء والحلم ، فههنا أربعة أمور : أحدها فعل الجميل والقبيح ، والثاني القدرة عليهما ، والثالث المعرفة بهما ، والرابع هيئة للنفس و بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسّر عليها أحد الأمرين إمّا الحسن أو القبيح ، وليس الخلق عبارة عن الفعل فربّ شخص خلقه السّخاء ولا يبذل إمّا لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إمّا لباعث أو لرياء ، وليس هو عبارة عن القدرة إلى الإمساك والإعطاء ، بل إلى الضدّين واحدة ، و كلّ إنسان خلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك و ذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السّخاء ، و ليس هو عبارة

(٢) ص : ٧١ و ٧٢.

عن المعرفة فإنّ المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد ، بل هو عبارة عن المعنى الرّابع وهي الهيئة الّتي بها تستعدّ النفس لأن يصدر منها الإمساك والبذل فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتمّ بحسن العينين دون الأنف و الفم و الخدّ بل لابدّ من حسن الجميع ليتمّ حسن الظاهر ، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابدّ من الحسن في جميعها حتّى يتمّ حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الاربعة و اعتدلت و تناسبت حصل حسن الخلق و هي قوّة العلم و قوّة الغضب و قوّة الشهوة و قوّة العدل بين هذه القوى الثلاث ، أمّا قوّة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا تحصّلت هذه القوّة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي الّتي قال الله تعالى فيها : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » (١) وإمّا قوّة الغضب فحسنها في أن يقتصر انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمة ، و كذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل والدّين ، وأمّا قوّة العدل فهي في ضبط قوّة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع ، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير و قوّة العقل هي القدرة و منزلتها منزلة المنفذ الممضي لإشارة العقل ، والغضب هو الّذي ينفذ فيه الإشارة ، ومثال الغضب مثال كلب الصيد فإنّه يحتاج إلى أن يؤدّب حتّى يكون استرساله و توقّفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس ، والشهوة مثالها مثال الفرس الّذي يركب في طلب الصيد فإنّه تارة يكون مروضاً مؤدّباً وتارة يكون جموحاً ، فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصّة كالّذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض .

و حسن القوّة الغضبيّة و اعتدالها يعبّر عنها بالشجاعة و حسن قوّة الشهوة و اعتدالها يعبّر عنه بالعفّة ، فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

سمّي ذلك تهوّراً ، و إن مالت إلى الضعف و النقصان سمّي ذلك جبناً وخوراً ، و إن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزّيادة سمّي شرهاً ، و إن مالت إلى النقصان سمّي خموداً ، و المحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، و الطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فات فليس له طرفان زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد وهوالجور .

وأمّا الحكمة فيسمّى إفراطها عندالاستعمال في الأغراض الفاسدة خبّاً وجربزة، ويسمّى تفريطها بلهاً والوسط هو الّذي يختصّ باسم الحكمة فإذن أمّهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة و العدل ، ونعني بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ، و نعني بالعدل حالة للنفس وقوّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة و تضبطهما في الاسترسال و الانقباض على حسب مقتضاها ، و نعني بالشجاعة كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها و إحجامها ، و نعني بالعفة تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل و الشرع .

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلّها ، إذمن اعتدال قوّة العقل يصدر حسن التدبير وجودة الذّهن وثقافة الرّأي و إصابة الظنّ والتفطّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدّهاء ، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة و الحمق و الجنون ، و أعني بالغمارة قلّة التجربة في الأمور مع سلامة التخيّل ، و قديكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء ، والفرق بين الحمق والجنون أنّ الأحمق مقصوده صحيح لكن سلوكه للطريق فاسد فلايكون له رويّة صحيحة في طريق الوصول إلى الغرض . و أمّا المجنون فإنّه يختار ما لاينبغي أن يختار فيكون أصل إيثاره واختياره فاسداً .

وأمّا خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة و كسر النفس والاحتمال والحلم و الثبات و كظم الغيظ و الوقار و التؤدة و أمثالها ، وهي أخلاق محمودة وأمّا إفراطها و هو التهوّر فيصدر منه الصلف و البذخ و الاستشاطة والتكبّر و العجب ، وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلّة والجزع و الخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحقّ الواجب .

وأمّا خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصّبر والمساحة والقناعة والورع والأمانة والطلاقة والمساعدة والظرف وقلّة الطمع ، وأمّا ميلها إلى الافراط والتفريط فيصدر منه الحرص والشره والوقاحة والخبث و التبذير والتّقتير و الرّياء و الهتكة و المجانة و العبث و الملق و الحسد و الشماتة و التذلّل للأغنياء و استحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمّهات محاسن الأخلاق هذه الصفات والفضائل الأربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها ، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربعة إلّا رسول الله ﷺ والناس بعده متفاوتون في القرب و البعد منه فكلّ من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله ﷺ و كلّ من جمع كمال هذه الأخلاق استحقّ أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلّهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال ، و من انفكّ عن جميع هذه الأخلاق كلّها واتّصف بأضدادها استحقّ أن يخرج من بين العباد والبلاد فإنّه قد قرب من الشيطان المبعد اللّعين فينبغي أن يبعد كما أنّ الأوّل قريبٌ من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدى به ويتقرّب إليه ، ولم يبعث رسول الله ﷺ إلّا ليتمّ محاسن الأخلاق كما قال [1] .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : « إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصّادقون » [2] . فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوّة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الّذي يرجع إلى ضبط قوّة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة الّتي ترجع إلى استعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال ، وقد وصف الله به الصحابة فقال : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم » [3] إشارة إلى أنّ للشدّة موضعاً و للرّحمة موضعاً و ليس الكمال في الشدّة بكلّ حال ولا في الرّحمة بكلّ حال .

---

(١) راجع مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٥ ، والمصابيح للبغوى ج ٢ ص ١٣٤ .
(٢) الحجرات : ١٦ . (٣) الفتح : ٢٩ .

فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه .

(بيان قبول الاخلاق للتغيير بطريق الرياضة)

اعلم أنّ بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة و الرّياضة و الاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، ولم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره و نقصه وخبث دخلته ، وزعم أنّ الأخلاق لايتصوّر تغييرها وأنّ الطباع لاتتغيّر فاستدلّ فيه بأمرين : أحدهما أنّ الخُلق هوصورة الباطن كما أنّ الخلق هوصورة الظاهر والخلقة الظاهرة لايقدر على تغيير ها فالطويل لايقدر أن يجعل نفسه قصيراً ، ولاالقصير يقدر على أن يجعل نفسه طويلاً ، و لا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك الخُلق الباطن يجري هذا المجرى ، والثاني أنّهم قالوا : حسن الخلق بقمع الغضب والشهوّة وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة و عرفنا أنّ ذلك من مقتضى المزاج والطبع و أنّه قطّ لا ينقلع عن الآدميّ فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فإنّ المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محالٌ وجوده .

فنقول : لوكانت الأخلاق لاتقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله ﷺ : « حسّنوا أخلاقكم »[1] وكيف ينكر هذا في حقّ الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل الصيد من التوحّش إلى الأنس و الكلب من شره الأكل من الصيد إلى التأدّب والإمساك ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكلّ ذلك تغيير الأخلاق ، والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول :

أنّ الموجودات منقسمة إلى مالامدخل للآدميّ و اختياره في أصله و تفصيله كالسّماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كلّ ما هو حاصلٌ كاملٌ وقع الفراغ من وجوده و كماله ، و إلى ماوجد وجوداً ناقصاً و جعل فيه قوّة قبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإنّ النواة ليست بتفّاح ولانخل إلّا أنّها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلاً

(١) أخرج الديلمي في الفردوس من حديث معاذ كما في كنوز الحقائق للمناوى باب الياء هكذا « يا معاذ حسن خلقك للناس » .

إن انضاف إليها التربية ولاتصير تفّاحاً أصلاً ولابالتربية فإذا صارت النواة متأثّرة بالاختيار حتّى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب و الشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلّية حتّى لايبقى لهماأثرلم نقدر عليه أصلاً ولوأردنا إسلاسهما. و انقياد هما بالرّياضة و المجاهدة قدرنا عليه و قد اُمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا و وصولنا إلى الله تعالى ، نعم الجبلّات مختلفة فبعضها سريعة القبول و بعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان أحدهما قوّة الغريزة في أصل الجبلّة وامتداد مدّة الوجود فإنّ قوّة الشهوة و الغضب والتكبّر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوّة الشهوة فإنّها أقدم وجوداً إذ الصبيّ في مبدء الفطرة تخلق له الشهوة ثمّ بعدسبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعدذلك يخلق له قوّةالتميز .

والسبب الثاني أنّ الخُلق قديتأكّد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعةله وباعتقاد كونه حسناً ومرضيّاً والنّاس فيه على أربع مراتب :

الاُولى هوالإنسانالغافل الّذي لايميز بين الحقّ والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستتمّ شهوته أيضا باتّباع اللّذات فهذا سريع القبول للعلاج جدّاً فلايحتاج إلّا إلى معلّم مرشد و إلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة ، فيحسن خلقه فيأقرب زمان .

والثانية أن يكون قدعرفقبح القبيح لكنّه لميتعوّد العمل الصّالح بلزيّن له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته و إعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره فيعملهفأمره أصعب من الأوّل إذقدتضاعفت الوظيفة عليه إذعليه وظيفتان : الاُولى قلعمارسخ في نفسه من كثرة التعوّد للفساد والاُخرى أن يغرس في نفسه صفة التعوّد للصلاح ولكنّه بالجملة محلّقابلللرّياضة إن انتهض لهابجدّ وتشمير وحزم .

والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنّها الواجبة المستحسنة وأنّها حق وجميل و تربّى على ذلك ، فهذا يكادتمتنع معالجته ولايرجى صلاحه إلّا على الندور و ذلك لتضاعف أسباب الضّلال .

والرابعة أن يكون مع وقوع نشوئه على الرّأي الفاسد و تربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشرّ و استهلاك النّفوس و يباهي به ، و يظنّ أنّ ذلك يرفع من قدره وهذا هوأصعب المراتب وفي مثله قيل : و من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذّئب .

والأوّل من هؤلاء جاهل فقط ، والثاني جاهل وضالّ ، والثالث جاهل وضال وفاسق ، والرّابع جاهل وضالّ وفاسقٌ وشرير .

وأمّا الخيال الآخر الّذي استدلّوا به و هو أنّ الآدميّ مادام حيّاً فلاينقلع عنه الغضب والشهوة وحبّ الدّنيا وسائر هذه الأخلاق . فهذا غلطٌ وقع لطائفة ظنّوا أنّ المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلّيّة و محوها وهيهات فإنّ الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلّة لوانقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولوانقطعت شهوة الوقاع لانقطع النّسل ولوانعدم الغضب بالكلّية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ، ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لامحالة حبّ المال الّذي يوصل إلى الشهوة حتّى يحمل ذلك على إمساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلّيّة بل المطلوب ردّها إلى الاعتدال الّذي هو وسط بين الإفراط و التفريط ، فالمطلوب في صفة الغضب حسن الحميّة وذلك بأن يخلو عن التهوّر و عن الجبن جميعاً وبالجملة أن يكون في نفسه قويّاً ومع قوّته منقاداً للعقل ، ولذلك قال الله تعالى : «أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم » (١) و صفهم بالشدّة و إنّما تصدر الشدّة عن الغضب ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفّار و كيف يقصد قلع الغضب و الشهوة بالكلّية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكّوا عن ذلك ، قال سيّدهم رسول الله ﷺ : « إنّما أنا بشرٌ أغضب كما يغضب البشر » (٢) وكان يتكلّم بين يديه بمايكرهه فيغضب حتّى تحمرّ و جنتاه ولكن لايقول إلّا حقّاً (٣) فكان الغضب لايخرجه عن الحقّ ، قال الله تعالى :

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) أخرجه مسلم ج٨ص ٢٧ من حديث أنس .

(٣) تقدم في المجلد الرابع ابواب اخلاق النبي صلى الله عليه وآله مايدل على ذلك .

« و الكاظمين الغيظ » (١) و لم يقل : و الفاقدين الغيظ ، فردّ الغضب والشهوة إلى الاعتدال بحيث يقهر واحد منهما العقل ولايغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما و الغالب عليهما ممكن ، و هو المراد بتغيير الخلق فإنّه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لايقوى عقله على دفعها عن الانبساط إلى الفواحش ، وبالرّياضة تعود إلى حدّ الاعتدال ، فدلّ على أنّ ذلك ممكنٌ والتجربة و المشاهدة تدلّ على ذلك دلالة لايشكّ فيها ، و الّذي يدلّ على أنّ المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أنّ السخاء خلق مطلوب شرعاً وهووسط بين طرفي التبذير و التقتير وقدأثنى الله تعالى عليه .

فقال : « و الّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »(٢).

وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط »(٣)

و كذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره و الخمود قال الله تعالى : « كلوا و اشربوا ولاتسرفوا » (٤) .

و قال تعالى في الغضب : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم (٥) .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « خير الأمور أوساطها »(٦) وهذا له سرّ وتحقيقٌ وهو أنّ السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم ، قال الله تعالى : « إلّا من أتى الله بقلب سليم » (٧) والبخل من عوارض الدّنيا والجود أيضاً من عوارض الدّنيا وشرط القلب أن يكون سليماً بينهما أي لايكون ملتفتاً إلى المال ولايكون حريصاً على إنفاقه فإنّ الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أنّ الحريص على الإمساك مصروف القلب إليه ، فكان كمال القلب في أن يصفو عن الوصفين جميعاً

---

(١) آل عمران : ١٣٤ . (٢) الفرقان : ٦٧ .

(٣) الاسراء : ٢٩ . (٤) الاعراف : ٣٠ .

(٥) الفتح : ٢٩ .

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب من رواية مطرف بن عبدالله معضلا كما في المغني .

(٧) الشعراء : ٨٩ .

فإذا لم يمكن ذلك في الدّنيا طلبنا ما هو الأشبه بعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإنّ الفاتر لاحارّ ولابارد وهو وسط بينهما كأنّه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهوّر ، والعفّة بين الشره والخمود ، وكذلك سائر الاخلاق ، فكلا طرفي قصد الأمور ذميمٌ فهذا هو المطلوب وهو ممكنٌ جدّاً ، نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبّح عنده الغضب رأساً ، و يذمّ إمساك المال رأساً ولايرخّص له في شيء من ذلك لأنّه لو رخّص له في أدنى شيء منه اتّخذ ذلك عذراً في استيفاء بخله و غضبه ، وظنّ أنّه القدر المرخّص فيه ، فإذا قصد قلع الأصل و بالغ فيه لم يتيسّر له إلّا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال ، فالصّواب له أن يطلب قلع الأصل حتّى يتيسّر له القدر المقصود ، ولا يكشف هذا السرّ للمريد فإنّه موضع غرور الحمقى إذ يظنّ بنفسه أنّ غضبه بحقّ و أنّ إمساكه بحقّ .

✿ (بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة) ✿

قد عرفت أنّ حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل بكمال الحكمة وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة و كونهما مطيعين للعقل والشرع ، وهذا الاعتدال يحصل على وجهين أحدهما بجود إلهي و كمال فطريّ بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل ، حسن الخلق ، قد كفى سلطان الشهوة و الغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع ، فيصير بغير معلّم عالماً وبغير مؤدّب متأدّباً كعيسى ويحيى عليهما السلام و كذا سائر الأنبياء عليهم السلام ، ولايبعد أن يكون في الطبع و الفطرة ما قد ينال بالاكتساب فربّ صبيّ يخلق صادق اللّهجة سخيّاً جريّاً ، و ربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالتعوّد و مخالطة المتخلّقين بهذه الأخلاق ، و ربما يحصل بالتعلّم والوجه الثاني لاكتساب هذه الأخلاق المجاهدة و الرياضة ، و أعني بها حمل النفس على الأعمال الّتي يقتضيها الخلق المطلوب و من أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلّف تعاطي فعل الجواد و هو بذل المال فلايزال يواظب عليه

تكلّفاً مجاهداً لنفسه فيه حتّى يصير ذلك له طبعاً ويتيسّر عليه، فيصير نفسه جواداً، وكذلك من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع و غلب عليه التكبّر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدّة مديدة، و هو فيها مجاهدٌ نفسه و متكلّف إلى أن يصير ذلك له خلقاً وطبعاً فيتيسّر عليه، وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق وغايتها أن يصير الفعل الصّادر منه لذيذاً فالسخيّ هوالّذي يستلذّ بذل المال دون الّذي يبذله عن كراهة، و المتواضع هو الّذي يستلذّ التواضع، و لن يترسّخ الأخلاق الدّينيّة في النفس مالم تتعوّد جميع العادات الحسنة ولم يترك جميع العادات السيّئة، و مالم يواظب عليها مواظبة من يشتاق معها إلى الأفعال الجميلة ويتنعّم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألّم بها كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: « جعلت قرّة عيني في الصّلاة »(١) و مهما كانت العبادات و ترك المحظورات مع كراهية واستثقال فهو النقصان ولاينال كمال السعادة به، نعم المواظبة عليه بالمجاهدة خير ولكن بالاضافة إلى تركه لابالإضافة إلى فعله عن طوع، ولذلك قال تعالى: « إنّها لكبيرة إلّا على الخاشعين »(٢) وقال صلّى الله عليه وآله: « اعبدالله في الرّضا فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خيرٌ كثير »(٣).

ثمّ لايكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون كذلك على الدّوام، و في جملة العمر، وكلّما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ و أكمل، ولذلك لمّا سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله عن السعادة فقال: « طول العمر في طاعة الله »(٤)، و لذلك كره الأنبياء و الأولياء عليهم السلام الموت فإنّ الدّنيا مزرعة الآخرة، كلّما كانت العبادات أكثر لطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى و أطهر، و الأخلاق أقوى

(١) أخرجه النسائى وابوداود من حديث أنس وقد تقدم، وفى الكافى ج ٥ ص ٣٢١.
(٢) البقرة: ٤٥.
(٣) أخرجه الطبرانى كما فى المغنى.
(٤) أخرجه القصاعى فى مسند الشهاب وأبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف كما فى المغنى.

وأرسخ ، وإنّما مقصود العبادات تأثيرها في القلب وإنّما تتأكّد آثارها بكثرة المواظبة على العبادات ، وغاية هذه الأخلاق أن ينقلع عن النفس حبّ الدّنيا ويترسّخ فيها حبّ الله تعالى ، فلا يكون شيء أحبّ إليه من الله سبحانه و من لقاء الله ، فلا يستعمل جميع ماله إلّا على الوجه الّذي يوصله إليه ، و غضبه و شهوته من المسخّرات له فلا يستعملهما إلّا على الوجه الّذي يوصله إلى الله سبحانه ، و ذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ، ثمّ يكون مع ذلك فرحاً به و ملتذّاً ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة قرّة عين و مصير العبادات لذيذة فإنّ العادة تقتضي في النفس عجائب أعجب من ذلك ، فإنّك ترى الملوك و المتنعّمين في أحزان دائمة ، و يرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من اللّذّة و الفرح بقماره و ما هو فيه ما يستنكر معه فرح الناس بغير القمار ، مع أنّ القمار ربما سلب ماله و أخرب داره و تركه مفلساً ، ومع هذا فهو يحبّه ويلتذّ به ، وذلك لطول ألفه و ردّه نفسه إليه مدّة ، و كذلك اللّاعب بالحمام قد يقف طول نهاره في حرّ الشمس قائماً على رجليه و هو لا يحسّ بألمه لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها و تحليقها في جوّ السماء وعودها بل ترى الفاجر العيّار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع و الصبر على السياط وعلى أن يتقدّم به إلى الصلب ، وهو مع ذلك متبجّح بنفسه وبقوّته في الصبر على ذلك حتّى يرى ذلك فخراً لنفسه ، حتّى يقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقرّ بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصرّ على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجوليّة ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرّة عينه و سبب افتخاره ، بل لا حالة أخسّ و أقبح من حال المخنّث في تشبّهه بالاناث في نتف الشعر و وشم الوجه و مخالطة النساء و ترى المخنّث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنّثه حتّى يتباهى به مع المخنّثين ، حتّى يجري بين الحجّامين و الكنّاسين التفاخر و المباهاة كما يجري بين الملوك و العلماء ، وكلّ ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدّوام مدّة مديدة ، و مشاهدة ذلك من المخالطين و المعارف ، فإذا كانت النفس بالعادة تستلذّ الباطل وتميل إليه وإلى القبايح فكيف لا تستلذّ الحقّ لو ردّت إليه مدّة

و ألزمت المواظبة عليه بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين و قد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأمّا ميلها إلى الحكمة و حبّ الله تعالى و معرفته و عبادته فهو كالميل إلى الطعام و الشراب فهو مقتضى طبع القلب فإنّه أمر ربّاني ، و ميله إلى مقتضيات الشهوات غريب من ذاته ، عارض على طبعه ، و إنّما غذاء القلب الحكمة و المعرفة وحبّ الله تعالى : ولكن انصرف عن مقتضى طبعه بمرض حلّ به كما يحلّ المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببا حياتها ، فكلّ قلب مال إلى حبّ شيء سوى حبّ الله فلا ينفكّ عن مرض بقدر ميله إلّا إذا أحبّ ذلك الشيء لكونه معيناً له على حبّ الله تعالى و على دينه ، فعند ذلك لا يدلّ ذلك على المرض فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أنّ هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرّياضة و هي تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، و هذا من عجيب العلاقة بين القلب و الجوارح أعني النفس و البدن ، فإنّ كلّ صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتّى تتحرّك لا محالة على وفقها و كلّ فعل يجري على الجوارح فإنّه يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور يعرف ذلك بمثال .

و هو أنّ من أراد أن يصير الحذق في الكتابة صفة له نفسيّة حتّى يصير كاتباً بالطبع فلا طريق له إلى ذلك إلّا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق و يواظب عليه مدّة طويلة و هو حكاية الخطّ الحسن فإنّ فعل الكاتب هو الخطّ الحسن فيتشبّه بالكاتب تكلّفاً ، ثمّ لايزال يواظب عليه حتّى يصير ذلك صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخطّ الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلّفاً ، فكان الخطّ الحسن هو الّذي جعل خطّه حسناً ولكن الأوّل بتكلّف إلّا أنّه ارتفع منه أثر إلى النفس ، ثمّ انخفض من النفس أثر إلى الجارحة ، فصار يكتب الخطّ الحسن بالطبع ، و كذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلّا أن يتعاطى أفعال الفقهاء و هو التكرار للفقه حتّى ينعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس فكذلك من أراد أن يصير سخيّاً عفيفاً حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء.

تكلّفاً حتّى يصير له ذلك بالعادة طبعاً ولا علاج له إلاّ ذلك ، وكما أنّ طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرّتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة ، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأخلاق الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرمها بعصيان يوم ، وهو معنى قولنا أنّ الكبيرة الواحدة لا يوجب الشّقاء المؤبّد ، ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثمّ تتداعى قليلاً حتّى يأنس القلب بالكسل ويهجر التحصيل رأساً فيفوته فضيلة الفقه ، فكذلك صغائر المعاصي يجرّ بعضها إلى بعض حتّى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة ، وكما أنّ تكرار ليلة لا يحسّ تأثيره في تفقيه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدريج مثل نموّ البدن وارتفاع القامة ، فكذلك الطاعة الواحدة لا يحسّ تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإنّ الجملة الكثيرة منها مؤثّرة ، وإنّما اجتمعت الجملة من الآحاد فلكلّ واحد منها تأثير فما من طاعة إلاّ ولها أثر وإن خفي فلها لامحالة ثواب لأنّ الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية ، وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوّف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه ، فكذا من يستهين بصغائر المعاصي ويسوّف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذّنوب على قلبه وتتعذّر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيّداً بسلاسل الشهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها ، وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً - الآية - »(١) ولذلك قال عليّ عليه السلام : « الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء فكلّما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض ، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيضّ القلب كلّه ، وإنّ النفاق يبدو في القلب نكتة سوداء كلّما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كلّه »(٢).

---

(١) سورة يس : ٦ .

(٢) أورد الشريف الرضي - رحمه الله - صدره في النهج باب مختار غريب كلامه عليه السلام تحت رقم ٥ واللمظة - بضم اللام وسكون الميم - مثل النكتة او نحوها من البياض .

فإذن قد عرفت أنّ الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع و الفطرة و تارة باعتياد الأفعال الجميلة و تارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير و إخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشرّ والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقّه الجهات الثلاث حتّى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلّماً فهو في غاية الفضيلة ، و من كان رذلاً بالطبع واتّفق له أقران السوء فتعلّم منهم وتيسّرت له أسباب الشرّ حتّى تعوّدها فهو في غاية البعد من الله تعالى ، وبين الرّتبتين مَن اختلف به هذه الجهات ، و لكلّ درجة في القرب و البعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✿ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » (١)، « و ما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢) .

✿(بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق)✿

قد عرفت من قبل أنّ الاعتدال في الأخلاق هو صحّة النفس ، و الميل عن الاعتدال سقم و مرض فيها كما أنّ الاعتدال في مزاج البدن هو صحّة له و الميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتّخذ البدن مثالاً فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديّة عنها و كسب الفضائل والأخلاق الجميلة لها وجلبها إليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه و كسب الصحّة له وجلبها إليه ، و كما أنّ الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنّما تعتري العلّة المغيّرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كلّ مولود يولد معتدلاً صحيحاً على الفطرة ، و إنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، أي بالتعوّد والتعلّم يكتسب الرّذائل ، و كما أنّ البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً ، و إنّما يكمل ويقوى بالنشوء و التربية بالغذاء ، فكذلك النفس يخلق ناقصة قابلة للكمال ، و إنّما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، و كما أنّ البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحّة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحّة إليه فكذا النفس منك إن كانت زكيّة

---

(١) الزلزال : ٧ و ٨ .　　　(٢) النحل : ٣٣ .

طاهرة مهذّبة الأخلاق فينبغي أن تسعى لحفظها و حفظ صحّتها و جلب مزيد قوّة إليها واكتساب زيادة صفائها و إن كانت عديمة الكمال و الصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها وكما أنّ العلّة المغيّرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلّا بضدّها إن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذا الرّذيلة الّتي هي مرض القلب علاجها بضدّها فيعالج مرض الجهل بالتعلّم و مرض البخل بالتسخّي و مرض الكبر بالتواضع و مرض الشره بالكفّ عن المشتهي تكلّفاً وكما أنّه لابدّ من احتمال مرارة الدّواء وشدّة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابدّ من احتمال مرارة المجاهدة و الصبر لمداواة مرض القلب ، بل مرض القلب أولى فإنّ مرض البدن يحصل منه الموت و مرض القلب و العياذ بالله يحصل منه عذاب يدوم بعد الموت أبد الآباد ، وكما أنّ كلّ مبرّد لا يكفي لعلّة سببها الحرارة إلّا إذا كان على حدّ مخصوص ، و يختلف ذلك بالشدّة و الضعف و الدّوام وعدمه و بالكثرة و القلّة ولابدّ له من معيار يعرف به مقدار النافع منه و الضارّ ، فإن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقيض الّذي يعالج به الأخلاق لابدّ له من عيار وكما أنّ عيار الدّواء مأخوذ من عيار العلّة حتّى أنّ الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أنّ العلّة من حرارة أو برودة و إن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أو قويّة فإذا عرف ذلك التفت معه إلى أحوال البدن و أحوال الزّمان و صناعة المريض وسنّه و سائر أحواله ، ثمّ يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الّذي يطبّ نفوس المريدين و يعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرّياضة والتكاليف في فنّ مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم كما أنّ الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرّياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي سنّه وحاله ومزاجه وما يحتمله بنيته من الرّياضة و يبني عليه رياضته .

أقول: «ثمّ شرع أبو حامد في ذكر جزئيّات طريق تعليم الشيخ للمريد و لمّا

كان بناء أكثرها على إيجاب متابعة من يجوز عليه الخطأ و على بدع اُخرى تخالف طريقة أهل البيت عليهم السلام كما يأتي بيانه طويناها على أن مالا بأس به من ذلك كان ممّا تكرّر ذكره في كلامه سابقاً ولاحقاً ».

(بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده الى الصحة)

اعلم أنّ كما أنّ كلّ عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاصّ به و إنّما مرضه أن يتعذّر عليه فعله الّذي خلق له حتّى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذّر عليها البطش ، و مرض العين أن يتعذّر عليها الإبصار ، فكذلك مرض القلب هو أن يتعذّر عليه فعله الخاصّ به الّذي خلق لأجله وهو العلم و الحكمة و المعرفة وحبّ الله تعالى و عبادته ، و التلذّذ بذكره و إيثار ذلك على كلّ شهوة سواه ، و الاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه ، قال الله تعالى : « وما خلقت الجنّ و الإنس إلّا ليعبدون »(١) ففي كلّ عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة و المعرفة وخاصيّة النفس الّتي للآدمي ما يتميّز به عن البهائم ، فإنّه لم يتميّز عنها بالقوّة على الأكل والوقاع والإبصار وغيرها ، بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء و موجدها و مخترعها الّذي جعلها أشياء هو الله تعالى، فلو عرف كلّ شيء ولم يعرف الله فكأنّه لم يعرف شيئاً ، وعلامة المعرفة المحبّة فمن عرف الله أحبّه ، وعلامة المحبّة أن لايؤثر عليه الدّنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم - إلى قوله - أحبّ إليكم من الله و رسوله الآية »(٢) فمن كان عنده شيء أحبّ إليه من الله فقلبه مريض ، كما أنّ كلّ معدة صار الطين أحبّ إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة ، فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أنّ القلوب كلّها مريضة إلّا ما شاء الله إلّا أنّ من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ، و مرض القلب ممّا لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه ، و إن علمه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإنّ دواءه مخالفة الشهوات وهو

---

(١) الذاريات : ٥٦ . (٢) التوبة : ٢٤ .

نزع الرّوح من البدن ، و إن وجد من نفسه قوّة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإنّ الأطباء هم العلماء والمرض قد استولى عليهم و الطبيب المريض قلّما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الدّاء عضالاً و المرض مزمناً و اندرس هذا العلم و أنكر بالكلّيّة طبّ القلوب وأنكر مرضها و أقبل الخلق على حبّ الدّنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات و باطنها عادات و مرايات ، فهذه علامة أصل المرض .

فأمّا علامة عوده إلى الصحّة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلّةالّتي يعالجها فإن كان يعالج داء البخل و هو المهلك المبعد عن الله فإنّما علاجه ببذل المال و إنفاقه ، و لكنّه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذّراً ، فيكون التبذير أيضاً داء ، ويكون كمن يعالج البرودة بالحرارة حتّى تغلب الحرارة ، فهو أيضاً داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة و البرودة ، فكذلك المطلوب الاعتدال بين التقتير و التبذير حتّى يكون على الوسط من ذلك و في غاية البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الّذي يوجبه الخُلق المذموم ، فإن كان أسهل عليك و ألذّ من الّذي يضادّه فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساكك المال وجمعه ألذّ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقّه فاعلم أنّ الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فإن صار البذل على غير المستحقّ ألذّ عندك وأخفّ عليك من الإمساك بالحقّ فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، ولاتزال تراقب نفسك وتستدلّ على خلقك بتيسّر الأفعال و تعسّرها حتّى تنقطع علاقة قلبك عن المال فلا تميل إلى بذله و لا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب منه إلّا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجّح عندك البذل على الإمساك و لا الإمساك على البذل ، فكلّ قلب صار كذلك فقد أتى الله بقلب سليم عن هذا المقام خاصّة ، و يجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتّى لا يكون له علاقة بشيء ممّا يتعلّق بالدّنيا حتّى ترتحل النفس عن الدّنيا منقطعة العلائق عنها غير ملتفتة إليها ولا متشوّقة إلى أسبابها فعند ذلك ترجع إلى ربّها رجوع النفس المطمئنّة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله من

النبيّين و الصدّيقين و الشهداء والصالحين و حسن أولئك رفيقاً ، ولمّا كان الوسط الحقيقيّ بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدقّ من الشعر و أحدّ من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدّنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ، و قلّما ينفكّ العبد عن ميل عن الصراط المستقيم أعني الوسط حتّى لايميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلّقاً بالجانب الّذي مال إليه ، فلذلك لاينفكّ عن عذاب ما واجتياز على النار ، و إن كان مثل البرق قال الله تعالى : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ۞ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا »[1] أي الّذين كان قربهم إلي الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ، ولأجل عسر الاستقامة وجب على كلّ عبد أن يدعو الله سبحانه في كلّ يوم سبع عشر مرّة بقوله : «اهدنا الصراط المستقيم» إذ قد وجبت قراءة فاتحة الكتاب في كلّ ركعة ، فرأى بعضهم رسول الله ﷺ في المنام[2] فقال : قد قلت : يا رسول الله « قد شيّبتني سورة هود » فلم قلت ذلك ؟ قال ﷺ : لقوله تعالى : « فاستقم كما اُمرت »[3] فالاستقامة على سواء الطريق في غاية الغموض . ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقة الاستقامة ، فكلّ من أراد النجاة فلانجاة له إلّا بالعمل الصالح ولاتصدر الأعمال الصّالحة إلّا عن الأخلاق الحسنة فليتفقّد كلّ عبد صفاته وأخلاقه وليعدّدها وليشتغل بعلاج واحد واحد منها على الترتيب .

۞ (بيان الطريق الذى به يعرف الانسان عيوب نفسه) ۞

اعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه ، فمن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكنّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولايرى الجذع في عين نفسه ، فمن أراد أن يقف على عيب نفسه فله أربع طرق :

---

(١) مريم : ٧١ و ٧٢ .
(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٧ ذيل الاية .
(٣) هود : ١١٣ .

الأوّل أن يجلس بين يدي بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات ويحكّمه على نفسه ويتّبع إشارته في مجاهدته، وهذا قد عزّ في هذا الزّمان وجوده.

الثاني أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديّناً فينصبه رقيباً على نفسه ليراقب أحواله و أفعاله، فمايكرهه من أخلاقه و أفعاله وعيوبه الباطنة و الظاهرة ينبّهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمّة الدّين كان بعضهم يقول: «رحم الله امرء أهدى إليّ عيوبي» [1]، و كلّ من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقلّ إعجاباً وأعظم اتّهاماً لنفسه، إلّا أنّ هذا أيضاً قد عزّ، فقلّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أويترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب، فلايخلو أصدقاؤك عن حسود، أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك، لهذا كان داود الطائيّ قد اعتزل عن الناس فقيل له: لمَ لا تخالط الناس؟ قال: ماذا أصنع بأقوام يخفون عنّي ذنوبي.

فقد كانت شهوة ذوي الدّين أن ينبّهوا على عيوبهم بنصيحة غيرهم، وقد آل الأمر إلى أمثالنا و أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا ويكاد أن يكون هذا مفصحاً عن ضعف الإيمان فإنّ الأخلاق السيّئة حيّات و عقارب لدّاغة و لونبّهنا منبّه على أنّ تحت ثوبنا عقرباً لتقلّدنا منه منّة و فرحنا به و اشتغلنا بإبعاد العقرب وقتلها، وإنّما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوماً فمادونه، ونكاية الأخلاق الرّديّة على صميم القلب، و عسى أن يدوم بعد الموت أبداً أو آلافاً من السنين، ثمّ إنّا لانفرح بمن ينبّهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثله ونقول أنت أيضاً تصنع كيت و كيت و تشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه و يشبه أن يكون هذا من قساوة القلب الّتي أثمرته كثرة الذّنوب، وأصل كلّ ذلك من ضعف الإيمان، فنسأل الله تعالى أن يعرّفنا رشدنا، وَ يبصّرنا بعيوب أنفسنا، و يشغلنا بمداواتها ويوفّقنا للقيام بشكر من يطّلعنا على مساوينا بمنّه وفضله.

الطريق الثالث أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من لسان أعدائه فإنّ عين السخط

---

(١) راجع تحف العقول ص ٣٦٦.

تبدي المساوي ، ولعلّ انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه و يمدحه و يخفي عنه عيوبه إلاّ أنّ الطبع مجبولٌ على تكذيب العدوّ ، وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكنّ البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإنّ مساويه لابدّ وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريق الرابع أن يخالط الناس فكلّ ما يراه مذموماً فيما بين الخلق فيطالب نفسه بتركه ، و ما يراه محموداً يطالب نفسه به و ينسب نفسه إليه ، فإنّ المؤمن مرآة المؤمن فيرى في عيوب غيره عيوب نفسه ، و ليعلم أنّ الطباع متقاربة في اتّباع الهوى فما يتّصف به واحد من الأقران لا ينفكّ القرين الآخر من أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه ، فيتفقّد نفسه و يطهّرها عن كلّ ما ينمّه من غيره ، وناهيك بهذا تأديباً فلو ترك الناس كلّهم مايكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدّب ، قيل لعيسى عليه السلام : من أدّبك ؟ فقال : « ما أدّبني أحدٌ ، رأيت جهل الجاهل فجانبته » وهذا كلّه حال من فقد شيخاً زكيّاً عارفاً بصيراً بعيوب النّفس ، مشفقاً ناصحاً في الدّين ، فارغاً عن تهذيب نفسه ، مشغولاً بتهذيب عباد الله ناصحاً لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الّذي يخلّصه من مرضه ، و ينجيه من الهلاك الّذي هو بصدده .

✿(بيان شواهد النقل من أرباب البصائر)✿

و شواهد الشرع على أنّ الطريق في معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات وأنّ مادة أمراضها هي اتّباع الشهوات

اعلم أنّ ما ذكرناه إن تأمّلته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك و انكشفت لك علل القلوب وأمراضها و أدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلاينبغي أن يفوتك التصديق و الإيمان على سبيل التلقّي والتقليد لمن يستحقّ التقليد فإنّ للإيمان درجات كما أنّ للعلم درجات والعلم يحصل بعد الإيمان و هو وراءه ، قال الله تعالى : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم و الّذين اُوتوا العلم درجات » (١) فمن

(١) المجادلة : ١١.

صدّق بأنّ مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله تعالى ولم يطّلع على سببه و سرّه فهو من الّذين آمنوا ، وإذا اطّلع على ماذكرناه من أغوار الشهوات وأسرارها فهو من الّذين أُوتوا العلم و كلاًّ وعد الله الحسنى ، و الّذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنّة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصى .

قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى ✿ فإنّ الجنّة هي المأوى » [1].

و قال تعالى : « أُولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتّقوى » [2] قيل : نزع منها محبّة الشهوات .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، و كافر يقاتله ، و شيطان يضلّه ، ونفس تنازعه » [3] فبيّن أنّ النفس عدوّ منازع يجب مجاهدته .

و روي أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى داود عليه السلام : « يا داود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإنّ القلوب المتعلّقة بشهوات الدّنيا عقولها عنّي محجوبة » [4].

و قال عيسى عليه السلام : « طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره » [5].

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم لقوم قدموا من الجهاد . « مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، فقالوا : يا رسول الله و ما الجهاد الأكبر ؟ فقال : جهاد النفس » [6].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجلّ » [7] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « كفّ أذاك عن نفسك و لا تتابع هواها في معصية الله إذاً

(١) النازعات : ٤٠ و ٤١ . (٢) الحجرات : ٣ .
(٣) أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق من حديث انس بسند ضعيف كما في المغنى .
(٤) رواه المفيد - رحمه الله - في الاختصاص ص ٣٣٥ .
(٥) تنبيه الخواطر ج ١ ص ٩٦ .
(٦) تقدم آنفاً في شرح عجائب القلب .
(٧) أخرجه الترمذي و ابن حبان في صحيحه عن فضالة بن عبيد بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضاً إلّا أن يغفر الله تعالى ويستر برحمته » (١).

قال يحيى بن معاذ : جاهد النفس بأسياف الرّياضة و الرّياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، و الحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من جميع الأنام ، فيتولّد من قلّة الطعام موت الشهوات ، و من قلّة المنام صفو الإرادات ، و من قلّة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات ، وليس على العبد شيء أشدّ من الحلم عند الجفاء و الصبر على الأذى فإذا تحرّكت من النفس إرادة الشهوات و الآثام و هاجت منها حلاوة فضول الكلام جرّدت عليها سيف قلّة الطّعام من غمد التهجّد وقلّة المنام ، وضربتها بأيدي الخمول وقلّة الكلام ، حتّى ينقطع من الظلم والانتقام فتأمن بوائقها في سائر الأيّام وتصفّيها من ظلم شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك روحانيّة لطيفة و نورانيّة خفيفة فتجول في ميدان الخيرات و تسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان و كالملك المتنزّه في البستان .

و قال أيضاً : أعداء الإنسان ثلاثة :دنياه وشيطانه و نفسه فاحترس من الدّنيا بالزّهد فيها ، و من الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات .

و قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيراً في حبّ شهواتها ، مسجوناً في سجن هواها ومنعت قلبه الفوائد .

و قال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء و الحكماء على أنّ النعيم لا يدرك إلّا بترك النعيم .

و قال أبو يحيى الورّاق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات .

و قال وهيب بن الورد : من أراد شهوات الدّنيا فليتهيّأ للذّلّ .

و يروى أن أمرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد ما ملك خزائن الأرض : يا يوسف إنّ الحرص والشهوة تصيّر الملوك عبيداً وإنّ الصبر والتقوى يصيّر العبيد

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

ملوكاً ، فقال يوسف عليه السلام : قال الله تعالى : «إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » (١).

و قال علي عليه السلام : « من اشتاق إلى الجنة سلاعن الشهوات في الدنيا» (٢) .

فإذن قد اتفق العلماء و الحكماء على أن الطريق إلى سعادة الآخرة لايتم إلا بنهي النفس عن الهوى و مخالفة الشهوات ، فالإيمان بهذا واجب.

و أما علم تفصيل ما يترك من الشهوات و ما لا يترك فينكشف بما قدمناه و حاصل الرياضة وسرها أن لاتتمتع النفس بشيء مما لا يوجد معها في القبر إلا بقدر الضرورة فيكون مقتصراً من الأكل و النكاح واللباس والمسكن و كل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة فإنه لو تمتع بشيء منها أنس به و ألفه ، و إذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ، ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظ له في الآخرة بحال ، ولا خلاص عنه إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله تعالى و حبه و التفكر فيه و يقتصر من الدنيا على ما يدفع به عوائق الفكر و الذكر فقط ، فمن لايقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه ، فالناس فيه أربعة : رجل استغرق ذكر الله قلبه فلايلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة و الصبر عن الشهوات مدة مديدة ، و الثاني رجل استغرقت الدنيا قلبه فلم يبق لله عز و جل ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان ، وهذا من الهالكين ، والثالث رجل اشتغل بالدنيا والدين لكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لابد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر قوة غلبة ذكر الله على قلبه ، والرابع رجل اشتغل بهما

(١) يوسف : ٩٠ ، وروى الصدوق في الامالي ص ٤ من طريق العامة عن وهب بن منبه قال : « وجدت في بعض كتب الله عزوجل أن يوسف مرفي موكبه على امرأة العزيز وهي جالسة على مزبلة ، فقالت : الحمدلله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً ، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً الخ » .

(٢) نهج البلاغة باب الحكم والمواعظ تحت رقم ٣٠ و« سلاعنه » اى نسي وذهل ذكره .

جميعاً لكنّ الدّنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النّار لكن يخرج منها لامحالة لقوّة ذكر الله في قلبه و تمكّنه من صميم فؤاده و إن كان ذكر الدّنيا أغلب عليه .

و ربّما يقول القائل : إنّ التنعّم بالمباح مباحٌ فكيف يكون التنعّم سبب البعد من الله تعالى ؟ فهذا خيالٌ ضعيفٌ بل حبُّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة ، والمباح الخارج عن قدر الحاجة من الدّنيا أيضاً ، وسيأتي ذلك في كتاب ذمّ الدّنيا فإذن لايمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الله تعالى مالم يمتنع النفس من التنعّم من المباح فإنّ النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة و الفضول فحقّه أن يلزمه السكوت إلّا عن المهمّات حتّى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلّم إلّا بحق فيكون سكوته عبادة ، و كلامه عبادة ، ومهما اعتادالعين رمى البصر إلى كلّ شيء جميل لم تتحفّظ عن النظر إلى ما لا يحلّ ، و كذلك سائر الشهوات لأنّ الّذي يشتهي به الحلال هو بعينه يشتهي به الحرام فالشهوة واحدة ، و قد وجب على العبد منعها عن الحرام و إن لم يتعوّد الاقتصار على قدر الضّرورة في الشهوات غلبته الشهوة .

فهذه إحدى آفات المباحات ، و وراء هذه آفة أعظم من هذه وهو أنّ النّفس تفرح بالتنعّم بالدّنيا وتركن إليها و تطمئنّ بها أشراً و بطراً حتّى تصير ممتلية بها كالسكران الّذي لا يفيق من سكر . وذلك لأنّ الفرح بالدّنيا سمٌّ قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الحزن و الخوف وذكر الموت وأهوال القيامة وهذا هو موت القلب ، قال الله تعالى : « وفرحوا بالحيوة الدّنيا وما الحيوة الدّنيا في الآخرة إلّا متاع » (١).

و قال تعالى : « اعلموا أنّما الحيوة الدّنيا لعبٌ ولهو - إلى قوله - إلّا متاع الغرور » (٢) فاُولو الحزم من أرباب القلوب جرّبوا قلوبهم في حالة الفرح بمؤاتاة الدّنيا فوجدوها قاسية بطرة بعيدة من التأثّر بذكر الله تعالى و اليوم الآخر ، و جرّبوها في حالة الحزن فوجدوها ليّنة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر فعلموا

(١) الرعد : ٢٦ . (٢) الحديد: ٢٠.

أنّ النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب البطر و الفرح ففطموها عن ملاذّها و عوّدوها الصبر عن شهواتها حلالها و حرامها وعلموا أنّ حلالها حساب و هو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذّب فخلّصوا أنفسهم من عذابها و توصّلوا إلى الحريّة والملك الدائم في الدّنيا والآخرة بالخلاص عن أسر الشهوات و رقّها ، و الأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته ، وفعلوا بها ما يفعل بالبازي ، إذا قصد تأديبه ونقله عن توثّبه وتوحّشه إلى الانقياد و التأدّب ، فإنّه يحبس أوّلاً في بيت مظلم و يخاط عيناه حتّى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء ، وينسى ما كان قد ألفه من طبع الاسترسال ، ثمّ يرفق به باللّحم حتّى يأنس بصاحبه و يألفه ألفاً إذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه ، فكذلك النفس لا تألف ربّها ولا تأنس بذكره إلّا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والعزلة أوّلاً لتحفّظ السمع و البصر عن المألوفات ، ثمّ عوّدت الثناء و الذّكر والدّعاء ثانياً في الخلوة حتّى يغلب عليها الأنس بذكر الله عوضاً عن الأنس بالدّنيا و سائر الشهوات ، و ذلك يثقل عليه في البداية ، ثمّ يتنعّم به في النهاية كالصبيّ يفطم عن الثدي و هو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يكثر بكاؤه وجزعه عند الفطام ، و يشتدّ نفوره عن الطعام الّذي يقدم إليه بدلاً عن اللّبن ولكنّه إذا منع اللّبن رأساً يوماً فيوماً و عظم تعبه في الصبر وغلبه الجوع تناول الطعام تكلّفاً ، ثمّ يصير طبعاً له فلوردّ إلى الثدي لم يرجع إليه فيهجر الثدي ويعاف اللّبن ويألف الطعام ، و كذلك الدّابّة في الابتداء تنفر من السرج و اللّجام و الرّكوب ولكن تحمل عليه قهراً وتمنع عن السرج الّذي ألفته بالسلاسل و القيود أوّلاً ثمّ تأنس به بحيث يترك في موضعها فيقف فيه من غير قيد ، فكذلك تؤدّب النفس كما تؤدّب الطيور والدّوابّ وتأديبها بأن تمنع عن البطر والأشر و الفرح بنعيم الدّنيا ، بل بكلّ ما يزايلها بالموت فيقال لها : أحببي ما أحببت فإنّك مفارقه ، فإذا علم أنّه من أحبّ شيئاً يلزمه فراقه فيشقى لا محالة لفراقه ، وشغل قلبه بحبّ مالا يفارقه و هو ذكر الله تعالى ، فإنّ ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه ، و كلّ ذلك يتمّ بالصبر أيّاماً قلائل فالعمر

قليل بالاضافة إلى مدّة حياة الآخرة ، و مامن عاقل إلّا وهو راض باحتمال المشقّة في سفر و تعلّم صناعة و غير ذلك شهراً ليتنعّم به سنة ، فكلّ العمر بالإضافة إلى الأبد أقلّ من الشهر بالإضافة إلى عمر الدّنيا فلابدّ من الصبر و المجاهدة « فعند الصّباح يُحمد القوم السرى ».

وطرق المجاهدة والرّياضة لكلّ إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كلّ أحد ما به فرحه من أسباب الدّنيا فالّذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعزّ في القضاء و الولاية أو بكثرة الاتباع في التّدريس و الإفادة فينبغي أن يترك أوّلاً ما به فرحه فانّه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقّص بالمنع في الدّنيا فكره ذلك وتألّم به فهو ممّن فرح بالحياة الدّنيا و اطمأنّ بها و ذلك مهلك في حقّه ثمّ إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس و لينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتّى لا يشتغل إلّا بذكر الله و الفكر فيه ، وليترصّد لما يبدوله في نفسه من شهوة و وسواس حتّى يقمع مادّته مهما ظهر فإنّ لكلّ وسوسة سبباً ولا تزول إلّا بقطع السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقيّة العمر ، فليس للجهاد آخر إلّا الموت و السلام .

✿(بيان علامات حسن الخلق)✿

اعلم أنّ كلّ إنسان جاهلٌ بعيب نفسه و إذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتّى ترك فواحش المعاصي فربما يظنّ بنفسه أنّه قد هذّب نفسه و حسّن خلقه و استغنى عن المجاهدة ، فلابدّ من إيضاح علامات حُسن الخُلق فإنّ حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق ، وقد ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه و هي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق ، فلنورد جملة من ذلك ليعلم بها حسن الخلق .

قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون - إلى قوله - : أُولئك هم الوارثون »(١).

و قال عزّ وجلّ: « التائبون العابدون - إلى قوله - : وبشّر المؤمنين» (٢).

(١) المؤمنون : ١ الى ١٠ . (٢) التوبة : ١١٢ .

وقال عزّ وجلّ «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - إلى قوله - : اُولئك هم المؤمنون حقّاً » (١).

و قال تعالى : « و عباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً - إلى آخر السورة - » (٢).

فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حُسن الخُلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، و وجود بعضها دون بعض يدلّ على البعض دون البعض ، فليشتغل بتحصيل ما فقده و حفظ ما وجده ، وقد وصف رسول الله صلّى الله عليه وآله المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق .

فقال صلّى الله عليه وآله : «المؤمن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه » (٣).

وقال صلّى الله عليه وآله : « من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه » (٤) .

وقال صلّى الله عليه وآله : « و من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (٥).

وقال صلّى الله عليه وآله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت » (٦).

وذكر صلّى الله عليه وآله أنّ صفات المؤمنين هي حُسن الخلق فقال صلّى الله عليه وآله : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً» (٧).

و قال صلّى الله عليه وآله : « إذا رأيتم المؤمن صموتاً و قوراً فادنوا منه فإنّه يلقّن الحكمة » (٨).

---

(١) الانفال : ٢ و ٣ . (٢) الفرقان : ٦٣ .

(٣) أخرج البخارى ج ١ ص ١١ باسناده عن انس عن النبى صلى الله عليه و آله قال : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه » .

(٤) و (٥) و (٦) أخرج مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٤٩ عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فيقل خيراً اوليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم جاره ، ومن كان يومن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه» .

(٧) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٢٣ .

(٨) أخرج ابن ماجه فى السنن عن ابى خلاد قال قال : رسول الله صلى الله عليه وآله : « اذا رأيتم الرجل قد اعطى زهداً فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة» .

و قال ﷺ: « من سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو مؤمن» (١).

و قال ﷺ: « لا يحلّ لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه » (٢).

و قال ﷺ: « لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلماً »(٣).

و قال ﷺ: « إنّما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عزّ و جلّ ، فلا يحلّ لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه » (٤).

و جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو : أن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، قليل الفساد ، صدوق اللّسان ، قليل الكلام ، كثير العمل قليل الزلل ، قليل الفضول ، برّاً وصولاً وقوراً صبوراً رضيّاً شكوراً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً ، لا لعّاناً و لا سبّاباً و لا نمّاماً و لا شتّاماً و لا مغتاباً و لا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً و لا حسوداً ، هشّاشاً بشّاشاً ، يحبّ في الله و يبغض في الله ، و يرضى في الله ويغضب في الله ، فهذا هو حسن الخلق .

و سئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن و المنافق فقال : « إنّ المؤمن همّته في الصلاة و الصيام و العبادة ، و المنافق همّته في الطعام والشراب كالبهيمة » (٥).

وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، و المنافق مشغولٌ بالحرص و الأمل ، و المؤمن آيس من كلّ أحد إلّا من الله ، والمنافق راج كلّ أحد إلّا الله ، والمؤمن آمنٌ من كلّ أحد إلّا من الله ، والمنافق خائفٌ من كلّ أحد إلّا من الله ، والمؤمن يقدّم ماله دون دينه ، والمنافق يقدّم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يُسيء و يضحك ، والمؤمن يحبّ الوحدة والخلوة ، والمنافق يحبّ الخلطة و الملا ، و المؤمن يزرع و يخشى الفساد ، و المنافق يقلع و يرجو الحصاد ، و المؤمن يأمر

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابي موسى الاشعري بسند حسن كما في الجامع الصغير
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا (المغني)
(٣) أخرجه ابوداود ج٢ ص ٥٩٧ . والطبراني في الكبير ورواته ثقات ، و رواه البزار من حديث ابن عمر .
(٤) أخرجه أبوالشيخ عن ابن مسعود كما في الجامع الصغير .
(٥) قال العراقي لم أجدله اصلا .

و ينهى للسياسة فيصلح ، و المنافق يأمر وينهى للرّياسة فيفسد ، و أولى مايمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى و احتمال الجفاء ، و من شكا من سوء خلق غيره فيدلّ ذلك على سوء خلقه لأنّ حسن الخلق احتمال الأذى .

فقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابيّ فجذب رداءه صلّى الله عليه وآله جذباً شديداً وكان عليه بردٌ نجرانيّ غليظ الحاشية ، قال أنس : حتّى نظرت عنق رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أثرت فيه حاشية البرد من شدّة جذبه ثمّ قال : يا محمّد هب لي من مال الله الّذي عندك فالتفت إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله فضحك ثمّ أمر له بعطاء »[1] و لمّا أكثرت قريش إيذاءه و ضربه قال : « اللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون » فلذلك قال الله تعالى : « وإنّك لعلى خلق عظيم »[2].

و روي « أنّ عليّاً عليه السلام دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً و ثالثاً فلم يجبه فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال : أما تسمع ياغلام ، فقال : نعم قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : آمنت عقوبتك فتكاسلت ، فقال : امض فأنت حرٌّ لوجه الله »[3].

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد حكايات عن الصوفيّة زعم أنّها تدلّ على حسن أخلاقهم بتذليل أنفسهم للناس وقد عرفت من طريق أهل البيت عليهم السلام أنّ الله لم يأذن لعبده أن يذلّ نفسه ، فلا حاجة بنا إلى نقلها ، و قد ذكرنا في كتاب أخلاق الإمامة و آداب الشيعة من ربع العادات من أخلاق أهل البيت و كلماتهم عليهم السلام في محاسن الأخلاق و صفات المؤمنين ما فيه بلاغ لقوم عابدين ، و كذا في كتاب آداب الصحبة والمعاشرة من ذلك الرّبع ، وأفعال أهل البيت وأقوالهم عليهم السلام هي الحجّة والقدوة في كلّ باب ، والله الموفّق.

---

(١) أخرجه البخاري ج ٧ ص١٨٩. من حديث أنس .

(٢) القلم : ٤ . والخبر أخرجه ابن حبان والبيهقي في الدلائل من حديث سهل بن سعد (المغني) .

(٣) أورده ابن شهر آشوب في المناقب في فصل حلمه وشفقته عليه السلام .

(بيان الطريق في رياضة الصبيان)
(في أول النشوء و وجه تأديبهم و تحسين أخلاقهم)

اعلم أنّ الصبيّ أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كلّ نقش وصورة ، و هو قابل لكلّ نقش و مائل إلى كلّ ما يمال به إليه فإن عوّد الخير و علّم نشأ عليه وسعد في الدّنيا والآخرة شاركه في ثوابه أبواه ، و كلّ معلّم له ومؤدّب ، وإن عوّد الشرّ وأُهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، و كان الوزر في رقبة القيّم به و الوالي عليه ، و قد قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم ناراً » (١) و مهما كان الأب يصونه من نار الدّنيا فبأن يصونه من نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدّبه ويهذّبه و يعلّمه محاسن الأخلاق و يحفظه من القرناء السوء ولايعوّده التنعّم ولا يحبّب إليه الزّينة وأسباب الرّفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر و يهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أوّل أمره فلايستعمل في حضانته وإرضاعه إلّا امرأة صالحة متديّنة تأكل الحلال فإنّ اللّبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبيّ انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث ، ومهما بدا فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته و أوّل ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإذا كان يحتشم و يستحيي و يترك بعض الأفعال فليس ذلك إلّا لإشراق نور العقل عليه ، حتّى رأى بعض الأشياء قبيحاً و مخالفاً للبعض ، فصار يستحيي من شيء دون شيء ، وهذه هديّة من الله تعالى إليه و بشارة تدلّ على اعتدال الأخلاق و صفاء القلب ، و هو مبشّر بكمال العقل عند البلوغ فالصبيّ المستحيي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه و تمييزه ، وأوّل ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدّب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلّا بيمينه ، ويقول : « بسم الله » عند أخذه ، ويأكل ممّا يليه ، و لا يبادر إلى الطّعام قبل غيره ، ولا يحدق إلى الطعام ولا إلى من يأكل ، ولايسرع في الأكل و يمضغ -

(١) التحريم : ٦ .

الطعام مضغاً جيّداً ولايوالي بين اللّقم ولايلطخ ثوبه ولايده ، ويعوّد الخبز القفار[1] في بعض الأوقات حتّى لايصير بحيث يرى الادم حتماً ، و يقبّح عنده كثرة الأكل بأن يشبه من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذمّ بين يديه الصبيّ الّذي يكثر الأكل ، و يمدح بين يديه الصبيّ المتأدّب القليل الأكل ، و يحبّب إليه الايثار بالطعام وقلّة المبالاة به ، و القناعة بالطعام الخشن أيّ طعام كان ، و يحبّب إليه من الثياب البيض دون الملوّن والأبريسم ، و يقرّر عنده أنّ ذلك شأن النساء و المخنّثين و أنّ الرّجال يستنكفون منه ، و يكرر عليه ذلك ، و مهما رأى على صبيّ ثوباً من أبريسم أو ملوّن فينبغي أن يستنكر ويذمّ ذلك ، ويحفظ الصبيّ عن الصبيان الّذين تعوّدوا التنعّم و الترفّه ، ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كلّ من يسمعه ما يرغّبه فيه ، فإنّ الصبيّ إذا اُهمل في ابتداء نشوءه خرج في الأكثر رديّ الأخلاق ، كذّاباً حسوداً سروقاً نمّاماً لجوجاً ذا فضول و ضحك ، و كياد ، و مجانة ، وإنّما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ، ثمّ ينبغي أن يشتغل في المكتب بتعلّم القرآن و بأحاديث الأخيار و حكايات الأبرار و أحوالهم لينغرس في نفسه حبّ الصالحين ، و يحفظ عن الأشعار الّتي فيها ذكر العشق و أهله ، و يحفظ عن مخالطة الأدباء الّذين يزعمون أنّ ذلك من الظرف ورقّة الطّبع ، فإنّ ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثمّ مهما ظهر من الصبيّ خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجل ذلك بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرّة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ، ولايهتك ستره ، ولايكاشف به ، ولا يظهر له أنّه يتصوّر أن يتجاسر أحدٌ على مثله لاسيّما إذا ستره الصبيّ واجتهد في إخفائه فإنّ إظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتّى لايبالي بالمكاشفة بعد ذلك فإن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سرّاً ويعظم الأمر فيه ، و يقال له : إيّاك أن يطّلع عليك في مثل هذا أحدٌ فتفتضح بين يدي الناس ولاتكثر القول عليه بالعتاب في كلّ حين فإنّه يهوّن عليه سماع الملامة و ركوب القبايح و يسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأبُ

(١) في القاموس : خبز قفر وقفار : غير مأدوم .

حافظاًهيبة الكلام معه ولا يوبّخه إلّا أحياناً و ينبغي للأمّ أن تخوّفه بالأب وتزجره عن القبايح و ينبغي أن يمنع النوم نهاراً فانّه يورث الكسل و لايمنع النوم ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتّى يتصلّب أعضاؤه ولا يسخف بدنه ، فلا يصبر عن التنعّم بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كلّ مايفعله في خفية فانّه لايخفيه إلّاوهو يعتقد أنّه قبيح فاذا ترك تعوّد فعل القبيح ، ويعوّد في بعض النهار المشي و الحركة والرّياضة حتّى لايغلب عليه الكسل ، ويعوّد أن لايكشف أطرافه ولايسرع المشي ولايرخي يديه بل يضمّهما إلى صدره ، و يمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء ممّا يملكه والده أوبشيء من مطاعمه و ملابسه ، أولوحه أودواته ، ويعوّد التواضع والاكرام لكلّ من عاشره والتلطّف معهم في الكلام ، و يمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً فيه بذالة حشمته إن كان من أولاد المحتشمين ، بل يعلم أنّ الرفعة في العطاء لا في الأخذ ، و أنّ الأخذ لؤم و خسّة ، وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أنّ الأخذ والطمع مهانة ومذلّة وأنّ ذلك من دأب الكلب فانّه يتبصبص في انتظار لقمة .

و بالجملة يقبّح إلى الصبيان حبّ الذّهب والفضّة والطمع فيهما و يحذّر منهما أكثر ممّا يحذّر من الحيّات والعقارب فانّ آفة حبّ الذّهب والفضّة والطمع فيهما أكثر من آفة السّموم على الصّبيان بل على الأكابر أيضاً ، وينبغي أن يعوّد أن لايبصق في مجلسه ، ولايتمخّط ، ولايتمطّط ، ولايتثاءب بحضرة غيره ، ولايستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب كفّه تحت ذقنه ، ولايعمد رأسه بساعده ، فانّ ذلك دليل على الكسل ، ويعلّم كيفيّة الجلوس ، وينبغي أن يمنع كثرة الكلام ويبين له أنّ ذلك يدلّ على الوقاحة وأنّ ذلك فعل أولاد اللّئام ، ويمنع اليمين رأساً صدقاً أو كذباً حتّى لايتعوّد في الصغر ، ويمنع من أن يبتدىء بالكلام ويعوّد أن لايتكلّم إلّا جواباً و بقدر السؤال ، و أن يحسن الاستماع مهما تكلّم غيره ممّن هو أكبر منه سنّاً ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسّع المكان له ، ويجلس بين يديه ، و يمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللّعن و السبّ ، ومن مخالطة من يجري على

لسانه شيءٌ من ذلك فإنّه يسري لامحالة من القرناء السّوء ، وأصل تأديب الصّبيان الحفظ من القرناء السّوء ، وينبغي إذا ضربه المعلّم أن لا يكثر الصّراخ والشغب ، ولايستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أنّ ذلك دأب الشجعان و الرّجال و أن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان ، و ينبغي أن يؤذَن له بعد الفراغ من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الأدب بحيث لايتعب في اللّعب فإنّ منع الصّبي من اللّعب وإرهاقه إلى التعلّم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه و ينغّص العيش عليه حتّى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً ، وينبغي أن يعلم طاعة والديه و معلّمه و مؤدّبه و كلّ من هو أكبر سناً منه من قريب و أجنبيّ وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللّعب بين أيديهم ، ومهما بلغ سنّ التمييز ينبغي أن لايسامح في ترك الطهارة والصلاة و يؤمر بالصوم في بعض الأيّام من شهر رمضان ويجنّب لبس الحرير والذّهب و يعلّم كلّ ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوّف من السرقة وأكل الحرام والكذب والخيانة والفحش ، و كلّ مايغلب على الصبيان ، فإذا وقع نشوءه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أنّ الأطعمة أدوية وإنّما المقصود منها أن يقوي الإنسان بها على عبادة الله وأنّ الدّنيا كلّها لاأصل لها إذ لابقاء لها ، وأنّ الموت يقطع نعيمها ، وأنّها دار ممرّ لادار مقرّ ، وأنّ الآخرة دار مقرّ لادار ممرّ ، وأنّ الموت ينتظر في كلّ ساعة ، وأنّ الكيّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتّى تعظم عند الله درجته ، و يتّسع في الجنان نعمته ، فإذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثّراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وإن وقع النشوء بخلاف ذلك حتّى ألف الصبيّ اللّعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللّباس والتزيّن والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحقّ نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الأمور هي الّتي ينبغي أن تراعى فإنّ الصبيّ خلق بجوهره قابلاً للخير والشرّ و إنّما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلّ مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه » (١) .

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٥٢ من حديث ابى هريرة .

✿ (بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في) ✿
✿(سلوك سبيل الارادة)✿

اعلم أنّ من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة ، مشتاقاً إليه ، سالكاً سبيلها ، مستهيناً بنعيم الدّنيا و لذّاتها فإنّ من كان معه خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة ، و قويت إرادته في بيعها بالجوهرة ، فمن ليس مريداً حرث الآخرة ولا طالباً للقاء الله فهو لعدم إيمانه بالله و رسوله واليوم الآخر ، ولست أعني بالإيمان حديث القلب وحركة اللّسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص فإنّ ذلك يضاهي قول من صدّق بأنّ الجوهرة خير من الخرزة إلّا أنّه لا يدري من الجوهره إلّا لفظها فأمّا حقيقتها فلا ، و مثل هذا المصدّق إذا ألف الخرزة قد لايتركها ولايعظم اشتياقه إلى الجوهرة فإذن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان وسبب عدم الايمان عدم الهداة المذكّرين والعلماء بالله الهادين إلى طريقه والمنبّهين على حقارة الدّنيا وانقراضها و عظم أمر الآخرة و دوامها ، فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رغدتهم ، وليس في علماء الدّين من ينبّههم ، فإن تنبّه منهم متنبّه عجز عن سلوك الطريق لجهله فإنّ طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف الإرادة و الجهل بالطريق و نطق العلماء بالهوى سبباً لخلوّ طريق الله عن السالكين ، و مهما كان المطلوب محجوباً و الدليل مفقوداً والهوى غالباً و الطالب غافلاً امتنع الوصول و تعطّلت الطرق لا محالة ، فإن تنبّه متنبّه من نفسه أو من تنبيه غيره و انبعثت له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أنّ له شروطاً لابدّ من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصمٌ لابدّ من التمسّك به وله حصن لابدّ من التحصّن به ليأمن الأعداء القطّاع لطريقه و عليه وظائف لابدّ من ملازمتها في وقت سلوك الطريق ، فأمّا الشروط الّتي لابدّ من تقديمها في الإرادة فيرجع مجامعها إلى رفع السدّ و الحجاب الّذي بينه و بين الحقّ فإنّ حرمان الخلق عن الحقّ سببه تراكم الحجب و وقوع السدّ

على الطريق قال الله تعالى : « و جعلنا من بين أيديهم سدّاً و من خلفهم سدّاً - الآية - » (١)و السدّ بين المريد والحقّ أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية ، وإنّما يرتفع حجاب المال بأن يفرّقه ويخرجه عن ملكه حتّى لا يبقى له إلّا قدر ضرورته ، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيّد به محجوب عن الله تعالى ، و إنّما يرتفع حجاب الجاه بالبعد من موضع الجاه وبالتواضع و إيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر و تعاطي أعمال تنفّر قلوب الخلق عنه ، وإنّما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصّب للمذاهب وأن يصدّق بمعنى قوله : « لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» تصديق إيمان و يخوض في تحقيق صدقه بأن يرفع كلّ معبود له سوى الله ، و أعظم معبود له الهوى حتّى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الّذي تلقّفه تقليداً فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة ، فإن غلب عليه التعصّب لعقيدة ولم يبق في قلبه متّسع لغيرها صار ذلك قيداً له و حجاباً إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معيّن أصلاً(٢) .

أقول: هذا إنّما يصحّ على مذاهب العامّة حيث يتعصّبون في الأصول للأشعري والمعتزليّ ونحوهما من أهل الآراء و في الفروع لأبي حنيفة و الشافعي وشبههما من أصحاب الأهواء ، وأمّا على مذهبنا الحقّ من وجوب التمسّك بحبل أهل البيت عليهم السلام الّذين هم مشايخنا وحصوننا فالانتماء إليهم شرط الاهتداء لأحكام الدّين و التعصّب لهم يزيد السالك في سلوكه يقيناً إلى يقين .

قال : و أمّا المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلّا التوبة و الخروج عن المظالم و تصميم العزم على ترك العود و تحقيق الندم على ما مضى و ردّ المظالم و إرضاء الخصوم ، فإنّ من لم يصحّح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة ، و أراد أن يقف على أسرار الدّين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو لايعلم لغة العرب ، فإنّ ترجمة عربيّة القرآن لابدّ من تقديمها أوّلاً ، ثم الترقّي منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابدّ من تصحيح ظاهر الشريعة بامتثال

(١) سورة يس : ١٠. (٢) الانتماء الى الشيء : الانتساب اليه .

الأوامر و الانزجار عن النّواهي ، ثمّ الترقّي إلى أغوارها وأسرارها ، فإذا قدّم هذه الشروط الأربعة كان حينئذ كمن تطهّر وتوضّأ و رفع الحدث ، صارصالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به ، وكذلك المريد يحتاج إلي شيخ واستاذ يقتدي به لامحالة ليهديه إلى سواء السّبيل ، فإنّ سبيل الدّين غامضٌ وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ومن لم يكن له شيخٌ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة فمن سلك البوادي المهلكة من غير خفير (١) و دليل فقد خاطر بنفسه و ربما أهلكها ويكون المستقلّ بنفسه كالشجرة الّتي تنبت بنفسها فإنّها تجفّ على القرب وإن بقيت مدّة وأورقت لم تثمر ، فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسّك به تمسّك الأعمى على شاطيء النهر بالقائد بحيث يفوّض إليه أمره بالكليّة ، ولا يخالفه في ورده ولاصدره ، ولايبقى في متابعته شيئاً ولايذر ، وليعلم أنّ نفعه في خطأشيخه لوأخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لوأصاب .

أقول : إذا جاز على الشيخ الخطأ فربما يكون إفساده أكثر من إصلاحه بل الحقّ أنّه لايجوز الاعتماد في الاعتقاد والعمل إلّاعلى معصوم من الخطأ والزّلل عرف عصمته من الله عزّ وجلّ وليس إلّا أئمّتنا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ثمّ من أذنوا لنا في الأخذ عنه من شيعتهم الآخذين عنهم وعن محكماتهم ، قال الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إيّاك وأن تنصب رجلاً دون الحجّة فتصدّقه في كلّ ماقال » (٢) وقد ورد عنهم في الآداب والسّنن وكيفيّة السلوك في كلّ أمر مايغني عن كثير ممّاسرده أبوحامد ولله الحمد .

قال : فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه و يعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أُمور : الخلوة و الصمت والجوع

(١) الخفير ـ بالخاء المعجمة : الحامي ، والمحافظ ، والمجير .

(٢) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في معاني الاخبار ص ١٦٩ في حديث عن ابي حمزة قال : قال ابو عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ : « اياك و الرئاسة و اياك أن تطأ أعقاب الرجال . فقلت : جعلت فداك أما الرئاسة فقد عرفتها ، واما أن أطأ أعقاب الرجال فما ثلثا ما في يدي الاّمما وطأت أعقاب الرجال ؟ فقال : ليس حيث تذهب اياك أن تنصب رجلا دون الحجة فتصدقه في كل ماقال » .

و السهر فهذا تحصن من القواطع ، فإنّ مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربّه ويصلح لقربه ، أمّا الجوع فإنّه ينقص دم القلب فيبيّضه و في بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقّته وفي رقّته مفتاح المكاشفة كما أنّ قسوته سبب الحجاب ، ومهما نقص دم القلب ضاق منه مسلك العدوّ فإنّ مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات ، قال عيسى عليه السلام : « يامعشر الحواريّين جوّعوا بطونكم لعلّ قلوبكم ترى ربّكم » .

قال سهل : ماصار الأبدال أبدالاً إلّا بأربع خصال إخماص البطون والسهر و الصمت و الاعتزال عن الناس ، ففائدة الجوع في تنوير القلب أمرٌ ظاهر يشهد له التجربة ، وسيأتي بيان وجه التدريج فيه « في كتاب كسر الشهوتين » وأمّا السهر فإنّه يجلو القلب ويصفيه وينوّره وينضاف إلى الصفاء الّذي حصل من الجوع ويصير القلب كالكوكب الدّريّ و المرآة المجلوّة ، فيلوح فيه جمال الحقّ ويشاهد فيه رفيع الدّرجات في الآخرة و حقارة الدّنيا و آفاتها ، فيتمّ به رغبته عن الدّنيا و إقباله على الآخرة .

والسّهر أيضاً نتيجه الجوع فإنّ السهر مع الشبع غير ممكن ، والنوم يقسي القلب ويميته إلّا إذا كان بقدر الضرورة ، فيكون حينئذ سبب المكاشفة لأسرار الغيب ، فقد قيل في صفة الأبدال : إنّ أكلهم فاقة ، و نومهم غلبة ، و كلامهم ضرورة ، و قال إبراهيم الخوّاص : اجتمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

و أمّا الصمت فإنّه يسهله العزلة ولكن المعتزل لايخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه أو تدبير أمره فينبغي أن لايتكلّم إلّا بقدر الضرورة فإنّ الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنّه يستروح إليه ويستثقل التجرّد للذكر والفكر ويستريح إليه ، فالصمت يلقح العقل ، ويجلب الورع ، ويعلم التقوى .

وأمّا الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر ، فإنّهما دهليز القلب و القلب في حكم حوض انصبّ إليه مياه كدرة قذرة من أنهار الحواسّ و مقصود الرّياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر فكيف يصحّ أن ينزح الماء من الحوض و الأنهار

مفتوحة إليه ،فيتجدّد في كلّ حالةأكثر ممّا ينقص ، فلابدّ من ضبط الحواسّ إلّا عن قدر الضرورة وليس يتمّ ذلك إلّا بالخلوة في مكان مظلم ، فإن لم يكن له مكان مظلم فليلفّ رأسه في جيبه أويتدثّر بكساء أو إزار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحقّ ويشاهد جمال الحضرة الرّبوبيّة ، أما ترى أنّ نداء رسول الله صلى الله عليه وآله بلغه و هو على هذه الصفة ، فقيل له : « ياأيّها المدّثّر » « يا أيّها المزّمّل »[1] فهذه الأربعة جنّة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق ، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وإنّما سلوكه بقطع العقبات ، ولاعقبة على طريق الله إلّا صفات القلب الّتي سببها الالتفات إلى الدّنيا ، وبعض تلك العقبات أعظم من بعض ، والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل و هي - أعني تلك الصّفات - أسرار العلائق الّتي قطعها في أوّل الارادة وآثارها أعني آثار المال والجاه وحبّ الدّنيا والالتفات إلى الخلق و التشوّف إلى المعاصي فلابدّ وأن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلى الظّاهر عن أسبابها الظاهرة و فيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال فربّ شخص مكفي قد كفي أكثر الصّفات فلايطول عليه المجاهدة ، و قد ذكرنا أنّ طريق المجاهدة هو مضادّة الشهوة و مخالفة الهوى في كلّ صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره و إذا كفي ذلك أو ضعف بالمجاهدة فلم يبق في قلبه علاقة تشغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدّوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة بل

---

(١) أخرج البخارى ج ٦ ص ٢٠٠ من حديث جابر بن عبدالله عن النبى صلى الله عليه و آله قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم ارشيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أرشيئاً ، ونظرت أمامى فلم أرشيئاً : ونظرت خلفى فلم ارشيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على ماء بارداً ، قال : فد ثرونى وصبوا على ماء بارداً ، قال : فنزلت : يا ايها المدثر - الايات - » . وفى بعض الروايات « فقلت : زملونى زملونى ، فزملونى - الحديث » .

أقول : من نظر فى هذه الروايات وماذكره المؤرخون والمفسرون فى مبدء الوحى و شأن نزول هذه الايات علم جداً أن النبى صلى الله عليه و آله بعد مشاهدة تلك الاثار عرضت عليه حالة وحشة عجيبة ورهبة شديدة. عالجها بالتزمل والتدثر ولم يجعل ذلك نوع رياضة لنفسه صلى الله عليه وآله حتى يمكن أن يستدل بذلك على مااستدل به أبوحامد .

يقتصر على الفرائض والرّواتب ويكون ورده ورداً واحداً وهو لباب الأوراد وثمرتها أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلوّ عن ذكر غيره ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتاً إلى علائقه .

قال الشبلي للحصريّ : إن كان يخطر على قلبك من الجمعة إلى الجمعة الّتي تأتيني شيءٌ غير الله فحرامٌ عليك أن تأتيني ، و هذا التجرّد لا يحصل إلّا مع صدق الإرادة واستيلاء حبّ الله على القلب حتّى يكون في صورة العاشق المستهتر الّذي ليس له إلّا همّ واحد فإذا صار كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد فيها ويوكّل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال ، فإنّ أصل طريق الدّين القوت الحلال ، وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار حتّى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً « لا إله إلّا الله ، أو الله الله ، أو سبحان الله أو ما يأمره الشيخ من الكلمات ولا يزال يواظب عليه حتّى يسقط حركة لسانه ويكون الكلمة كأنّها جارية على اللّسان من غير تحريك ثمّ لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللّسان ويبقى صورة اللّفظ في القلب ، ثمّ لا يزال كذلك حتّى ينمحي عن القلب حروف اللّفظ و صورته و يبقى حقيقة معناه لازماً للقلب ، حاضراً معه ، غالباً عليه ، قد فرغ القلب عن كلّ ماسواه ، لأنّ القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره أيّ شيء كان فإذا شغل بذكر الله وهو المقصود خلا عن غيره لامحالة ، و عند ذلك يلزمه أن يراقب و سواس القلب و الخواطر الّتي يتعلّق بالدّنيا ومايتذكّر فيه ممّا قد مضى من أحواله وأحوال غيره ، فإنّه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذّكر في تلك اللّحظة وكان ذلك نقصاناً فليجتهد في دفع ذلك و مهما دفع الوسواس كلّها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة ، وأنّها ماهي وما معنى قولنا الله ؟ ولايّ معنى كان إلهاً و كان معبوداً ؟ ويعتريه عند ذلك خواطر يفتح عليه باب الفكر ، وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ماهو كفر أو بدعة ، و مهما كان كارهاً لذلك ومتشمّراً لإماطته عن القلب لم يضرّه ذلك ، والخواطر منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أنّ الله منزّه عنه ولكنّ الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره ، فشرطه أن لايبالي به ويفزع إلى ذكر الله و يبتهل إليه

ليدفعه عنه كما قال تعالى : «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم» (١) و قال تعالى : «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون» (٢) وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه بل كل مايجد في قلبه من الأحوال من فترة أونشاط أو التفات إلى علقة أوصدق في إرادة ، فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه و يستره عن غيره فلايطلع عليه أحداً ، ثم إن شيخه ينبغي أن ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته فإن علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه لحقيقة الحق فينبغي أن يحمله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما ينكشف له حقيقته ، و إن علم أن ذلك مما لايقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد الصحيح القاطع بمايحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به . فإن هذه مهالك الطريق ومواقع أخطارها ، فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد ، فلم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه ، واشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر فإن سلم كان من ملوك الدين و إن أخطأ كان من الهالكين ، ولذلك قال ﷺ : «عليكم بدين العجائز» (٣) وهو تلقي أصل الإيمان

(١) الاعراف : ١٩٩ . (٢) الاعراف : ٢٠١ .

(٣) قال العراقي : «قال ابن طاهر في كتاب التذكرة : هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة الخ» انتهى . أقول : نسبه جماعة من الاكابر إلى سفيان الثوري منهم الشيخ البهائي و الفاضل الجواد في غاية المأمول و ظاهر المازندراني في شرحه على الزبدة حيث نقل ما يدل على أنه من كلام سفيان على نحو ما نقله صاحب القوانين في الباب السابع منه حيث قال : والمستفاد من كلام المحقق البهائي في حاشية الزبدة أن هذا هو حكاية دولابها و كف اليد عن تحريكها لاظهار اعتقادها بوجود الصانع المحرك للافلاك المدبر للعالم والذي ذكره القوشجي و تبعه الفاضل الجواد - رحمه الله - هو ماروى أن عمرو بن عبيد لما أثبت منزلة بين الكفر والايمان فقالت عجوزة قال الله تعالى «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» فلم يجعل الله من عباده الا الكافر والمؤمن ، فقال سفيان : عليكم بدين العجائز انتهى . ولايخفى أن صدور هذا الكلام عن سفيان لاينافي صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله ، لكن قال السخاوي لا أصل له .

و ظاهر الاعتقاد بطريق التقليد و الاشتغال بأعمال الخير فإنّ الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك يجب على الشيخ أن يتفرّس في المريد فإن لم يكن ذكيّاً فطناً متمكّناً من الاعتقاد الظاهر لم يشغله بالذّكر و الفكر بل يردّه إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجرّدين للفكر ليشمله بركتهم فإنّ العاجز على المجاهدة في صفّ القتال ينبغي أن يسقي القوم و يتعهّد دوابّهم ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمّه بركتهم ، وإن كان لايبلغ درجتهم ، ثمّ المريد المتجرّد للذّكر و الفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب و الرّياء و الفرح بما ينكشف له من الأحوال و ما يبدو من أوائل الكرامات ، ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقوفاً ، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الّذي لاترويه البحار ولو أُفيضت عليه ويدوم على ذلك ورأس ماله الانقطاع عن الخلق والخلوة ، قال بعض السياحين : قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق : كيف الطريق إلى التحقيق قال : أن تكون في الدّنيا كأنّك عابر طريق ، و قال : قلت له مرّة أُخرى : دلّني على عمل أعمله أجد فيه قلبي مع الله في كلّ وقت على الدّوام فقال لي : لاتنظر إلى الخلق فإنّ النظر إليهم ظلمة ، قلت : لابدّ لي منهم ، قال : فلا تسمع كلامهم فإنّ كلامهم قسوة ، قلت : لابدّ لي من ذلك ، قال: فلا تعاملهم فإنّ معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم و لابدّ لي من معاملتهم ، قال : فلا تسكن إليهم فإنّ السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعلّه ، قال : يا هذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطّالين وتريد أن تجد قلبك مع الله على الدّوام وهذا ممّا لايكون أبداً (١).

---

(١) لايخفى أن امثال هذه التعاليم ينجر الى تعطيل الجمعة والجماعات والحج والتزاور و التواخي والاجتماعات و الضيافات ، و يؤول الى الانزواء عن الناس و الاعتزال عنهم و ترك المعاشرة معهم و المؤانسة بهم ، ومعلوم أن الاعتزال و الانقطاع همامنبت النفاق و مغرس الوسواس و الحرمان عن المشرب الاتم المحمدى صلى الله عليه و آله والمقام المحمود الجمعى وموجب لترك كثير من الفضائل والخيرات وفوت السنن الشرعية .

أقول: قد أطال أبو حامد في كلامه الخوض في أودية الضلال وادّعى جوازما هو من قبيل المحال على أنّه إبداء شريعة وإحداث بدعة شنيعة مع اشتماله باعترافه على المهالك والمفاسد الّتي لا ينجو منها من ألف ألف واحد ، و لو كان طريق إلى الحقّ أهدى ممّا أُرسل به نبيّنا ﷺ لجاء به دونه ، لأنّ شرعه خير الشرائع كما أنّه خير الأنبياء وقدورد في التنزيل : «وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله» [1] فلا محالة فيما جاء به كفاية للاهتداء ، و ليس فيما جاء به شيء ممّا تكلّفوه ، بل إنّما ورد النصوص على خلاف ما وضعوه ، أمّا رفضهم المال و الجاه بالمرّة فقد ورد الحثّ الأكيد على طلب الحلال و إحراز قدر قوت السنة من المال ، وأنّ من ألقى كلّه على الناس فهو ملعون [2] ، « و من أذلّ نفسه فهو ملوم مطعون » [3] و إنّما المذموم حبّ المال و الجاه لا إحرازهما بقدر الضرورة من دون حبّ ، وترك التعصّب ، فقد ورد « أنّ أفضل القربات الحبّ في الله والبغض في الله » [4] « و أنّ الدّين إنّما هو الحبّ و البغض » [5] و ما في معناه ، و أمّا البيتوتة في بيت وحده فقد ورد « أنّ الشيطان أجرأ ما يكون على الإنسان و أشدّ ما يهمّ به إذا كان وحده » [6] و أمّا الاقتصار في الأوراد على كلمة واحدة فقد ورد في فضل تلاوة القرآن والدّعاء ما ورد و« أنّ مخّ العبادة الدّعاء »[7] وطلب -

(١) الانعام : ١٥٣ .

(٢) رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ٧٢ تحت رقم ٧ . و رواه الشيخ في التهذيب ج ٢ ص ٩٩ .

(٣) راجع وسائل الشيعة ج ٢ ص ٤١٤ باب كراهة التعرض للذل .

(٤) و رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢٦ بادنى اختلاف في اللفظ . وأخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٠٤ . (٥) روى البرقي في المحاسن في حديث ص ٢٦٣ نحوه .

(٦) رواه الكليني في الكافي ج ٦ ص ٥٣٣ .

(٧) أخرجه الترمذي ج ١٢ ص ٢٦٦ من حديث أنس ، والمخ خالص كل شيء و انما كان الدعاء كذلك لان حقيقة العبادة هو الخضوع والتذلل و هو حاصل في الدعاء أشد الحصول وفي الكافي ج ٢ ص ٤٦٧ « ان الدعاء هو العبادة » وهكذا رواه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٢٨ .

الحاجة إلى الله هذا مع ما ورد في فضل الجمعة والجماعات وبركة التزاور والاجتماعات و في الحديث المتّفق عليه بين الخاصّة و العامّة «لارهبانيّة في الإسلام» (١) و أنّ «من رهبانيّة أمّتي الصيام» (٢) وفي حديث آخر «أنّ رهبانيّة أمّتي الجلوس في المساجد» (٣) إلى غير ذلك ممّا يباين طريقة هؤلاء فهؤلاء المبتدعون جمعوا بين الجهل وسوء الأدب مع الله ورسوله، أمّا الجهل فلكونهم ماعرفوا وجوه الحكمة فيما كلّف الله به عباده من الأوامر و النواهي على حسب ما يليق بهم و بما هو أوفق لأفهامهم وأمزجتهم، وأمّا سوء أدبهم فمعارضتهم له سبحانه ولرسوله بما وضعوه من عند أنفسهم ممّا زعموه طريقاً إلى معرفة الله و هم الّذين رووا عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من أحدث في ديننا ماليس فيه فهو ردّ» (٤) وفي حديث آخر «من غشّ أمّتي فعليه لعنة الله و الملائكة والناس أجمعين، قيل يا رسول الله: و ما غشّ أمّتك؟ قال: أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها» (٥) وفي آخر «إنّ لله ملكاً ينادي كلّ يوم من خالف سنّة رسول الله لم تنله شفاعته» (٦) وهم الّذين قالوا: مثال الجاني على الدّين بإبداع مايخالف السنّة بالنسبة إلى من يذنب ذنباً مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معيّنة، وذلك قد يغفر، فأمّا قلب الدّولة فلا، ثمّ ما يقولونه لايتمّ إلّا برفع الخواطر وهذا شيء ليس في وسع البشر ولا سيّما العوامّ منهم، قيل لمولانا الصادق عليه السلام: «إنّ لي أهل بيت قدريّة يقولون نستطيع أن نعمل كذا وكذا و نستطيع أن لا نعمل فقال عليه السلام: قل له هل تستطيع أن لا تذكر ما تكره و أن لاتنسى ماتحبّ؟ فإن قال: لا فقد ترك قوله، و إن قال: نعم فلا تكلّمه أبداً فقد ادّعى الرّبوبيّة» ولا يتمّ أيضاً إلّا بمتابعة شيخ لايخالفه في شيء ممّا يأتي به ويذر كما

(١) راجع بحارالانوار ج ١٥ الجزء الثاني ص ٥٢ واخرجه احمد في المسند ج ٦ ص ٢٢٦ هكذا «أن الرهبانية لم تكتب علينا».

(٢) ماعثرت على اصل له الابهذا للفظ «خصي امتي الصيام والقيام» رواه احمد.

(٣) أخرجه البغوي في المصابيح ج ١ ص ٤٩ من حديث عثمان بن مظعون.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن تحت رقم ١٤، وأحمد ج ٦ ص ٢٧٠.

(٥) و (٦) ماعثرت على اصل لهما.

قالوه ، و الشيخ جائز الخطأ باعترافهم فإنّهم لايشترطون العصمة فيه و على هذا فيجوز أن يكلّف المريد بما فيه هلاكه في دينه أو دنياه كما اعترفوا به أيضاً و نحن قد رأينا ذلك فمنهم من مات من رياضته ومنهم من فسد دينه ، ولهذا قال مولانا الصادق عليه السلام « إيّاك أن تنصب رجلاً دون الحجّة فتصدّقه في كلّ ما قال » (١) وهذا أحد معاني قوله سبحانه : « والّذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» (٢) فإنّ متابعة مثل هذا الشيخ المبتدع الّذي لايقول عن الله ، و جاز عليه الخطأ عبادة الطاغوت ، على أنّا نرى أكثر مشايخهم الّذين سلكوا هذه الطريقة الشنعاء (٣) وحملوا الناس عليها كانوا في حيرة وعمى من معرفة الإمام ، مع أنّ بناء معرفة الدّين علماً وعملاً على معرفة الإمام المنصوب من الله سبحانه بالوحي .

و قد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله في الحديث المتّفق عليه بين الخاصّة و العامّة : «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهليّة » (٤) « ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين» (٥).

و عن الباقر عليه السلام « كلّ من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه و لا إمام له من الله فسعيه غير مقبول ، وهو ضالّ متحيّر ، والله شانىء لأعماله (٦) ، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها وقطيعها ، فهجمت ذاهبة (٧) و جائية يومها ، فلمّا جنّها اللّيل بصرت بقطيع من غير راعيها ، فحنّت إليها (٨) واغترّت بها ، و باتت معها في مربضها ، فلمّا أن ساق الرّاعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها ، فهجمت متحيّرة تطلب راعيها

(١) رواه الصدوق فى معانى الاخبار ص ١٦٩.

(٢) الزمر : ١٩ . والطاغوت فعلوت من الطغيان .

(٣) أى الطريقة القبيحة المستهجنة .

(٤) تقدم فى مجلد الرابع ص ١٧٤.

(٥) القصص : ٥٠ . (٦) أى مبغض لا فعاله .

(٧) أى دخلت بلاروية .

(٨) أى اشتاقت ، والحنن الشوق وتوقان النفس كما فى القاموس .

و قطيعها ، فبصرت بغنم مع راعيها فحنّت إليها ، واغترّت بها ، فصاح بها الرّاعي الحقي براعيك وقطيعك فانّك تائهة متحيّرة عن راعيك وقطيعك ، فهجمت ذعرةً متحيّرة نادّة (١) لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها و يردّها ، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها ، و كذلك والله من أصبح من هذه الاُمّة لا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهراً عادلاً أصبح ضالّاً تائهاً ، و إن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق ، واعلم أنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا فأعمالهم الّتي يعملونها كرماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (٢).

و عن الصادق عليه السلام : «والله لو أنّ إبليس سجد لله تعالى بعد المعصية والتكبّر عمر الدّنيا ما نفعه ذلك ولا قبله الله تعالى مالم يسجد لآدم كما أمره الله أن يسجد له و كذلك هذه الاُمّة العاصية المفتونة بعد نبيّها صلّى الله عليه وآله وبعد تركهم الإمام الّذي نصبه نبيّهم صلّى الله عليه وآله ، فلن يقبل الله لهم عملاً ، ولن يرفع لهم حسنة حتّى يأتوا الله من حيث أمرهم و يتولّوا الإمام الّذي اُمروا بولايته ، ويدخلوا في الباب الّذي فتحه الله و رسوله لهم » .

فإن قلت : فما الطريق إلى معرفة أسرار الدّين وتحصيل اليقين ؟ فاعلم أنّ الله سبحانه جعلنا أزواجاً وجعل لكلّ منّا شرعة ومنهاجاً ، و ليس لعامّة الناس أن يسلكوا مسلك الحكماء الألبّاء أو ينهجوا منهج الرّبّانيّين من العلماء فإنّ جناب الحقّ جلّ أن يكون شريعة لكلّ وارد أو يطلع عليه إلّا واحد بعد واحد ، والمؤمن الموقن أعزّ من الكبريت الأحمر ، ثمّ لابدّ لمن أراد الشروع في تحصيل العلم المكنون عند أهله المضنون به عن غير أهله أن يكون شابّاً صحيح المزاج ، ذكيّاً أميناً عفيفاً صدوقاً ، مهذّب الأخلاق ، مبرّا عن الرّياء و النفاق ، مبغضاً لفضول الدّنيا ، معرضاً عن المكر والغدر والخيانة ونحوها ، معظّماً للعلم والعلماء ، مقبلاً

(١) « ذعرة » كوجلة وزناً ومعنى . وند البعير نداً ونديداً ونداداً : شرد ونفر .

(٢) الكافي ج١ ص ٣٧٥ .

على الوظائف الشرعيّة فرائضها ونوافلها بعدأن تعلّم أحكامها وعرف حلالها وحرامها وكان قدأخذها عن أهلها وإمامها ، قال الصادق عليه السلام : « إنّ آية الكذّاب أن يخبرك بخبر السماء و الأرض فإذا سئل عن شيء من مسائل الحلال و الحرام لم يكن عنده شيء » [١] ثمّ بعد ذلك كلّه اشتغل بتحصيل هذا العلم من طريقه وعلى وجهه بتقديم الإتيان بالفرائض ، ثمّ النوافل ، ثمّ مراعاة الآداب والسنن ، ثمّ الصبر على البلايا و المحن وملازمة الذكر و مداومة الفكر حسب الميسور ، و التخلّي عن الشهوات النّفسانيّة و الخواطر الشيطانيّة بالمقدور ، و جعل الهموم همّاً واحداً مع إخلاص النيّة وصفاء الطويّة والعمل بما يتعلّمه شيئاً فشيئاً ، و مراقبة النفس آناً فآناً حتّى يصير العلم عياناً له بعد يقين ويترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حقّ اليقين ، و العمدة فيه الزّهد في الدّنيا و متابعة الشرع من طريق أئمّة الهدى و ملازمة التقوى ، قال الله تعالى : « و اتّقوا الله و يعلّمكم الله » [٢] .

و قال : « إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً » [٣].

و قال : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض » [٤].

و قال : « و من يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب» [٥].

و قال : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »[٦].

و قال أمير المؤمنين عليه السلام : [٧]« إنّ من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه [٨] ، فاستشعر الحزن و تجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه ـ إلى إن قال : ـ قد خلع سرابيل الشهوات و تخلّى من الهموم إلّا همّاً واحداً انفرد به ،

---

(١) الكافى ج ٢ ص ٣٤٠ . (٢) البقرة : ٢٨٢ .
(٣) الانفال : ٢٩ . (٤) الاعراف : ٩٦ .
(٥) الطلاق : ٢ . (٦) العنكبوت : ٦٩ .
(٧) نهج البلاغة فى باب الخطب تحت رقم ٨٥ .
(٨) أى قواه وظاهره حتى غلب .

فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى ، ومغاليق أبواب الرّدى ،[١] قد أبصر طريقه ، و سلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره[٢] ، و استمسك من العرى بأوثقها ، و من الحبال بأمتنها ، [٣] ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » .

قال أبو حامد : فإذن منتهى الرّياضة أن يجد المريد قلبه مع الله أبداً ، و لايمكن ذلك إلّا بأن يخلو عن غيره و لا يخلو عن غيره إلّا بطول المجاهدة فإذا حصل قلبه مع الله انكشف له جلال الحضرة الرّبوبية وتجلّى له الحقّ ، و ظهر له من لطائف رحمة الله مالا يجوز أن يوصف بل لا يحيط الوصف به أصلاً و إذا انكشف للمريد شيء من ذلك ، فأعظم القواطع عليه أن يتكلّم به وعظاً أو نصحاً أو يتصدّى للتذكير فيجد للنفس فيه لذّة ليس وراءها لذّة ، فتدعوه تلك اللّذّة إلى أن يتفكّر في كيفيّة إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبّرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات و شواهد القرآن و الأخبار و تحسين صورة الكلام لتميل إليه القلوب و الأسماع و الشيطان ربما يخيّل إليه أنّ هذا منك إحياء لقلوب الموتى الغافلين عن الله ، وإنّما أنت واسطة بين الله وبين الخلق لدعوة عباده إليه ، ومالك فيه نصيب، ولا لنفسك فيه لذّة ويتّضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه ، وأجزل لفظاً ، و أقدر على جلب قلوب العوامّ ، فإنّه يتحرّك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محرّكه لذّة القبول ، و إن كان محرّكه هو الحقّ حرصاً على دعوة عباد الله عزّ وجلّ إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول : الحمد لله الّذي عضدني و أيّدني بمن يوازرني على إصلاح عباده كالّذي وجب عليه مثلاً أن

(١) المغلاق ـ وزان المفتاح ـ ضده يعنى ما يغلق به الباب .

(٢) بكسر الغين جمع غمر بالفتح و هو معظم البحر والماء الكثير ، ولعل المراد بقطع الغمار خروجه عن فتن الدنيا و مضلاتها بسفن النجاة والهدايات خاصة . (بهجة الحدائق) .

(٣) لعل المراد بأوثقها الايمان و بامتن الحبال اتباع أوامر الله و متابعة سبيل الهدى (البهجة) .

يحمل ميتاً ليدفنه إذا وجده ضائعاً ، و تعين عليه ذلك شرعاً ، فجاء من أعانه عليه فإنّه يفرح به ولايحسد معينه ، فالغافلون موتى و الوعّاظ هم المنبّهون و المحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر ، فينبغي أن يعظم الفرح بهم ، وهذا عزيز الوجود جدّاً فينبغي أن يكون المريد على حذر منه فإنّه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإنّ إيثار الحياة الدّنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى : « بل تؤثرون الحيوة الدنيا » (١) ثمّ بيّن سبحانه أنّ الشرّ قديم في الطباع ، غالب على الإنسان وأنّ ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال سبحانه : « إنّ هذا لفي الصحف الأُولى صحف إبراهيم وموسى» (٢).

فهذا منهاج رياضة المريدين وترتيبه في التدريج إلى لقاء الله سبحانه أمّا تفصيل الرّياضة في كلّ صفة فسيأتي بيانه فإنّ أغلب الصفات على الإنسان بطنه و فرجه ولسانه أعني به الشهوات المتعلّقة بها ، ثمّ الغضب الّذي هو كالجند لحماية الشهوات ثمّ مهما أحبّ الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بها أحبّ الدنيا ولم يتمكن منها إلّا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه العجب والكبر والرئاسة ، و إذا ظهر ذلك ولم تسمح نفسه بترك الدين رأساً تمسّك من الدين بما فيه الرئاسة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب :

كتاب في كسر شهوة البطن والفرج ؛ و كتاب في آفة اللّسان ؛ و كتاب في كسر الغضب و الحسد و الحقد ؛ و كتاب في ذمّ الدنيا و تفصيل خدعها ؛ و كتاب في كسر حبّ المال وذمّ البخل ، و كتاب في ذمّ الرّياء و حبّ الجاه ؛ و كتاب في الكبر والعجب ؛ و كتاب في بيان مواقع الغرور .

و بذكر هذه المهلكات و تعليم طرق المعالجة فيها يتمّ غرضنا من هذا الرّبع ربع المهلكات إن شاء الله فإنّ ما ذكرناه في الكتاب الأوّل هو شرح لصفات القلب الّذي هو معدن المهلكات والمنجيات ، وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلّيّة

(١) الاعلى : ١٦ . (٢) الاعلى : ١٨ و ١٩ .

إلى طريق تهذيب الأخلاق و معالجة أمراض القلوب ، أمّا تفصيلها فإنّه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله والحمد لله ربّ العالمين .

هذا آخر كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق و معالجة أمراض القلب من المحجّةالبيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين شهوة البطن و الفرج .

و الحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً و باطناً .

كتاب كسر الشهوتين شهوة البطن والفرج

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرّد بالجلال في كبريائه و تعاليه، المستحقّ للتحميد والتقديس و التسبيح و التنزيه، القائم بالعدل فيما يبرمه و يقضيه، (١) المتطوّل (٢) بالفضل فيما ينعم به و يسديه، المتكفّل بحفظ عبده في جميع موارده و مجاريه، و المنعم عليه بما يزيد على مهمّات مقاصده بل بما يفي بأمانيه، فهو الّذي يرشده و يهديه، و هو الّذي يميته ويحييه، و إذا مرض فهو يشفيه، و إذا ضعف فهو يقويه، و هو الّذي يوفّقه للطاعة ثمّ يرتضيه، و هو الّذي يطعمه ويسقيه، و هو الّذي يحفظه عن الهلاك و يحميه، ويحرسه بالطعام والشراب عمّا يهلكه ويرديه، ويمكّنه من القناعة بقليل القوت ويقويه، (٤) حتّى يضيق بمجاري الشيطان الّذي يناويه، (٥) ويكسر به سطوة النفس الّتي تعاديه، فيدفع شرّهما ثمّ يعبد ربّه و يتّقيه، هذا بعد أن يوسّع عليه ما يلتذّ به و يشتهيه، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه و دواعيه، و كلّ ذلك ليمتحنه و يبتليه، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه ويبتغيه (٦)؟ و كيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه، ويواظب على طاعته، وينزجر عن معاصيه.

(١) ابرم الامر: أحكمه.

(٢) من الطول - بالفتح - و هو السعة.

(٣) اسدى فلان الى فلان معروفاً أى صنعه اليه.

(٤) كذا و فى بعض النسخ [يقريه] من قرى الضيف قرى - بالكسر - و قراء - بالفتح والمد - أى أضافه.

(٥) أى الذى يبغضه و يعاديه.

(٦) أى يطلبه و فى بعض النسخ [ينتحيه] من نحاه ينحو أى يقصده.

و الصلاة على محمد عبده النبيه ، [١] و رسوله الوجيه ، صلاة تزلفه و تحظيه [٢]، و ترفع منزلته و تعليه ، وعلى الأبرار من عترته و أقربيه ، و الأخيار من صحابته و تابعيه .

أما بعد فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحوّاء من دار القرار إلى دار الذّلّ والافتقار ، إذنهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتّى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، و البطن على التحقيق ينبوع الشهوات و منبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدّة الشبق إلى المنكوحات ، [٣] ثمّ تتبع شهوة المطعم و المنكح شدّة الرّغبة في المال والجاه اللّذين هما الوسيلة إلى التوسّع في المطعومات و المنكوحات ، ثمّ يتبع استكثار المال و الجاه أنواع الرّعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثمّ يتولّد من ذلك آفة الرّياء و غائلة التفاخر و التكاثر والكبرياء ، ثمّ يتداعى ذلك إلى الحسد و الحقد و العداوة و البغضاء ، ثمّ يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء .

و كلّ ذلك ثمرة إهمال المعدة ومايتولّد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع وضيّق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله و لم تسلك سبيل البطر و الطغيان و لم ينجرّ به ذلك إلى الانهماك في الدّنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كلّ هذا التكالب على الدّنيا [٤] .

و إذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحدّ وجب شرح غوائلها و آفاتها تحذيراً منها ، و وجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها ،

(١) أى الشريف ، و فى الصحاح نبه الرجل شرف واشتهر ، ينبه نباهة فهو نبيه و نابه و هو خلاف الخامل .

(٢) تزلفه أى تقربه ، وتحظيه أى جعله ذاحظوة ، وفى الصحاح رجل حظى اذاكان ذا حظوة و منزلة .

(٣) الشبق : شدة شهوة الجماع .

(٤) تكالب القوم : تجاهروا بالعداوة ، وتكالبوا على كذا أى تواثبوا عليه ، وتكالب الناس على الدنيا أى اشتد حرصهم عليها .

و كذلك شرح شهوة الفرج فإنّها تابعة لها ، ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى ونبيّنه في فصول تجمعها و هي بيان فضيلة الجوع ، ثمّ فوائد الجوع ، ثمّ طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام و التأخير ، ثمّ بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ، ثمّ بيان الرّياضة في ترك الشهوة ، ثمّ بيان القول في شهوة الفرج ، ثمّ بيان ما على المريد من ترك التزويج وفعله ، ثمّ بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

✡(بيان فضيلة الجوع وذم الشبع)✡

قال رسول الله ﷺ : « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش ، فإنّ الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله ، و إنّه ليس من عمل أحبّ إلى الله تعالى من جوع و عطش » (١).

قال : ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « لايدخل ملكوت السماوات قلب من ملأ بطنه » (٢).

و قيل : يا رسول الله أيّ الناس أفضل ؟ قال : « من قلّ طعمه وضحكه و رضي بما يستر به عورته » (٣).

و قال ﷺ : « سيّد الأعمال الجوع و ذلّ النفس لباس الصّوف » (٤).

و قال أبو سعيد الخدري : قال النبيّ ﷺ : « ألبسوا [الصوف و شمّرو] و كلوا في أنصاف البطون فإنّه جزء من النبوّة » (٥).

و قال الحسن : قال النبيّ ﷺ : « الفكر نصف العبادة ، وقلّة الطّعام هي العبادة » (٦) .

و قال رسول الله ﷺ : « أفضلكم منزلة عند الله تعالى يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكّراً ، وأبغضكم إلى الله تعالى كلّ نؤم أكول شروب» (٧).

(١) الى (٧) قال العراقى : لم أجد لهذه الاحاديث أصلا . أقول قد ورد مضمون بعضه فى حديث المعراجية الذى أورده الديلمى فى ارشاده مرسلا . وهو حديث طويل طبع مسنداً بضميمة تحف العقول الطبع الحجرى ص١٢٨ .

و في الخبر «أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان يجوع من غير عوز»[١] أي مختاراً لذلك .

و قال صلى الله عليه و آله : « إنّ الله يباهي الملائكة بمن قلّ طعمه في الدّنيا يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطّعام و الشراب في الدّنيا فتركهما لأجلي اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة تركها لأجلي إلّا أبدلته بها درجات في الجنّة »[٢].

و قال صلى الله عليه و آله : «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإنّ القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء »[٣].

و قال صلى الله عليه و آله : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان هو فاعلاً لامحالة فثلث لطعامه و ثلث لشرابه و ثلث لنفسه »[٤].

و في حديث أسامة بن زيد[٥] « إنّ أقرب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه و عطشه وحزنه في الدّنيا ، هم الأحفياء الأتقياء الّذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الأرض وتحفّ بهم ملائكة السّماء ، نعّم

---

(١) في القاموس : العوز بالتحريك - : الحاجة ، عوز الشيء - كفرح - لم يوجد والرجل افتقر كأعوز ، وماعثرت على لفظ الخبر في أصل الا أن البيهقي روى في الشعب عن عائشة قالت : « لوشئنا ان نشبع لشبعنا ولكن محمداً صلى الله عليه وآله كان يؤثر على نفسه » و قال العراقي بعد نقله : واسناده معضل .

(٢) قال العراقي : أخرجه ابن عدي في الكامل .

(٣) ماعثرت على اصل مسند له . الا أن أورده الطبرسي في المكارم في باب آداب الاكل ص ١٧١ مرسلا من كتاب روضة الواعظين للفتال .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٩ ص٢٢٤ وفيه «اكلات يقمن» و ابن ماجه وابن حبان في صحيحه الا أن ابن ماجه قال : فان غلبت الادمي نفسه فثلث للطعام الحديث . راجع الترغيب والترهيب ج٣ ص١٣٦ .

(٥) قال العراقي : أخرجه الخطيب في الزهد بطوله من حديث سعيدبن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وأقبل على اسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات و فيه حباب بن عبدالله بن جبلة أحد الكذابين و فيه من لايعرف وهومنقطع أيضاً ورواه الحارث بن ابي اسامة من هذا الوجه .

الناس بالدّنيا ونعّموا بطاعة الله ؛ افترش الناس الفرش الوثيرة (١) ، وافترشوا الجباه و الركب ، ضيّعوا الناس فعل النبيّين وأخلاقهم وحفظوها هم ، تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الله تعالى على كلّ بلدة ليس فيها منهم أحدٌ ، لم يتكالبوا على الدّنيا تكالب الكلاب على الجيف ، أكلوا العلق و لبسوا الخرق شعثاً غبراً يراهم النّاس فيظنّون أنّ بهم داء ومابهم داء و يقال : قد خولطوا وذهبت عقولهم وماذهبت عقولهم ولا خولطوا ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الّذي أذهب عنهم الدّنيا فهم عند أهل الدّنيا يمشون بلاعقول ، عقلوا حيث ذهبت عقول الناس ، لهم الشرف في الدّنيا ولهم الشرف في الآخرة ، يا اُسامة إذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنّهم أمان لأهل تلك البلدة ، ولا يعذّب الله تعالى قوماً هم فيهم ، الأرض بهم فرحة ، والجبّار عنهم راض ، اتّخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجوبهم وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع و كبدك ظمآن فافعل فإنّك تدرك بذلك شرف المنازل و تحلّ مع النبيّين و يفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلّي عليك الجبّار » .

و قال عيسى عليه السلام : «أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم فلعلّ قلوبكم ترى الله عزّ وجلّ ، وروي ذلك أيضاً عن نبيّنا صلّى الله عليه وآله» (٢) .

و في التورية مكتوب « انّ الله ليبغض الحبر السمين » لأنّ السمن يدلّ على الغفلة و كثرة الأكل و ذلك قبيح خصوصاً بالحبر ، ولأجله قال ابن مسعود : إنّ الله يبغض القارىء السمين ، وفي حديث مرسل « أنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدّم فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش » (٣) .

و في الخبر « إنّ الأكل على الشبع يورث البرص » (٤) .

---

(١) الوثيرة أى الكثيرة اللحم .

(٢) ماعثرت على أصل له .

(٣) تقدم كراراً .

(٤) رواه الشيخ فى اماليه باسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبى صلى الله عليه و آله كما فى الوسائل كتاب الاطعمة باب آداب المائدة الباب الثانى تحت رقم ٨ .

وقال ﷺ : « المؤمن يأكل في معى واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء »(١) إي يأكل سبعة أضعاف ما يأكله المؤمن وتكون شهوته سبعة أضعاف شهوته ، ويكون المعى كناية عن الشهوة لأنّ الشهوة هي الّتي تقبل الطعام و تأخذه كما يأخذ المعى وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن .

و عنه ﷺ : « أديموا قرع باب الجنّة يفتح ، قيل : و كيف نديم قرع باب الجنّة ؟ قال : بالجوع والظماء »(٢) .

وروي « أنّ أباجحيفة تجشّأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال له : « أقصر من جشائك فإنّ أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدّنيا » (٣) .

و كانت عائشة تقول : إنّ رسول الله ﷺ لم يمتل شبعاً قطّ و ربّما بكيت رحمة ممّا أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي و أقول : نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدّنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ، فيقول : «يا عائشة إخواني من اُولي العزم من الرّسل قد صبروا على ماهو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم ، فأجدني أستحي إن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم فإن أصبر أيّاماً يسيرة أحبّ إليّ من أن ينقص حظّي غداً في الآخرة ومامن شيء أحبّ إليّ من اللّحوق بإخواني وأخلّائي» قالت : فوالله مااستكملت بعد ذلك جمعة حتّى قبضه الله تعالى (٤) .

وعن أنس قال : جاءت فاطمة بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال : ماهذه الكسرة ؟ قالت : قرص خبزته ولم تطب لنفسي حتّى أتيتك منه بهذه الكسرة ،

(١) أخرجه البخاری ج ٧ ص ٩٢ . و فيه «والكافر» مكان «المنافق» . و أخرجه مسلم ج٦ ص ١٣٢ هكذا و رواه الصدوق فی الخصال ج ٢ ص٧ باسناده عن ابی عبدالله عليه السلام عن النبی صلی الله عليه وآله كمافی الصحيحين .

(٢) قال العراقی : لم أجدله اصلا .

(٣) حديث ابیجحيفة رواه الطبرانی فی الاوسط و الكبير باسانيد راجع مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣١ .

(٤) أخرجه أبوموسى المدينی المتوفی سنة ٥٨١ فی كتاب استحلاء الموت .

فقال صلى الله عليه وآله : «أما والله إنّه أوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيّام»(١).

و قال صلى الله عليه وآله : «أهل الجوع في الدّنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإنّ أبغض النّاس إلى الله تعالى المتّخمون الملأى ، وماترك عبد أكلة فيشتهيها إلّا كانت له درجة في الجنّة»(٢).

أقول: روى في الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : «كثرة الأكل مكروه»(٣).

و عنه عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله : بئس العون على الدّين قلب نخيب ، وبطن رغيب ، ونعظ شديد»(٤).

و عنه عليه السلام قال : «إنّ البطن ليطغى من أكله و أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا جفّ بطنه ، وأبغض ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا امتلاء بطنه»(٥).

و عنه عليه السلام قال أبوذر رحمه الله : «أطولكم جشاء في الدّنيا أطولكم جوعاً في الآخرة ، أوقال : يوم القيامة»(٦)

و عنه عليه السلام قال : «الأكل على الشبع يورث البرص»(٧).

و عنه عليه السلام قال : «كل داء من التخمة ماخلا الحمّى فإنّها ترد وروداً»(٨).

و عنه عليه السلام قال : «ليس لابن آدم بدّ من اُكلة يقيم بها صلبه ، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام ، و ثلث بطنه للشراب ، وثلثه للنفس ولاتسمّنوا سمن الخنازير للذّبح»(٩).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : «إذا شبع البطن طغى»(١٠).

و عنه عليه السلام قال : «ما من شيء أبغض إلى الله من بطن مملوء»(١١).

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي اسامة في مسنده بسند ضعيف كما في المغنى .

(٢) أخرجه الطبراني وابونعيم في الحلية من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٣) و (٤) و(٥) الكافي ج ٦ ص ٢٦٩ والنخيب : الجبان الذى لافؤاد له ، وقيل الفاسد العقل ، والرغيب : الواسع ويكنى به عن كثرة الاكل . وانعظ الرجل اذا اشتهى الجماع والانعاظ : الشبق يعنى انه أمرشديد .

(٦) الى (١١) الكافي ج ٦ ص ٢٦٩ و ٢٧٠ .

و في مصباح الشريعة (١) عن الصّادق عليه السلام قال : « قلّة الأكل محمودٌ على كلّ حال و عند كلّ قوم ، لأنّ فيه المصلحة للباطن والظاهر ، والمحمود من المأكول أربعة : ضرورة وعدّة وفتوح وقوت ، فالضرورة للأصفياء ، والعدّة لقوام الأتقياء ، والفتوح للمتوكّلين ، و القوت للمؤمنين . و ليس شيء أضرّ لقلب المؤمن من كثرة الأكل وهي مورثة شيئين قسوة القلب وهيجان الشهوة ، والجوع إدام للمؤمن ، وغذاء للرّوح ، وطعام للقلب ، و صحّة للبدن ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ماملأ ابن آدم وعاء أشرّ من بطنه » .

و قال داود عليه السلام : ترك لقمة مع الضرورة إليها أحبّ إليّ من قيام عشرين ليلة ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « المؤمن يأكل بمعى واحدة والمنافق يأكل بسبعة أمعاء » ، و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ويل للناس من القبقبين فقيل : وما هما يا رسول الله ؟ قال : الحلق والفرج » وقال عيسى ابن مريم عليهما السلام : « ما أمرض القلب بأشدّ من القسوة ، وما اعتلّت نفس بأصعب من نغض الجوع وهما ذماما الطرد والخذلان » .

قال أبو حامد : وأمّا الآثار قال لقمان لابنه : « يا بنيّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة و خرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة » .

و قال شقيق : العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة .

و قال الفضيل : إلهي أجعتني وأجعت عيالي و تركتني في ظلم اللّيالي بلا مصباح ، و إنّما تفعل هذا بأوليائك فبأيّ منزلة نلت هذا منك .

وقال يحيى بن معاذ : جوع الرّاغبين منبّهة ، وجوع التائبين تجربة ، وجوع المجتهدين كرامة ، وجوع الصابرين سياسة ، وجوع الزّاهدين حكمة ، وفي التورية إتّق الله وإذا شبعت فاذكر الجياع .

و قال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليّ من قيام ليلتي إلى الصّبح » .

و قال أيضاً : الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلّا لمن أحبّ .

(١) المصدر باب ٤١ باب الاكل .

وكان سهل التستري : يطوي نيفاً وعشرين يوماً لايأكل وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لايوافي يوم القيامة عمل بر أكبر من ترك فضل الطعام والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله في أكله .

و قال : لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا .

و قال : لاأعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل الكثير .

و قال : وضعت الحكمة والعلم في الجوع و جعل الجهل والمعصية في الشبع .

و قال : ما عبدالله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال .

و قال في الحديث : ثلث للطعام فمن زاد عليه فانما يأكل من حسناته .

و سئل عن الزيادة فقال : لايجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل فيكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين ، فإذا كان ذلك وجد الزيادة .

و قال أيضاً : ما صار الأبدال أبدالاً إلا باخماص البطون و الصمت و السهر و الخلوة .

و قال : رأس كل بر بين السماء والأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع ، وقال من جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس .

و قال : إذا أقبل الله على العبد ابتلاه بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله .

و قال : اعلموا أن هذا زمان لاينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه و قتلها بالصبر والجوع والجهد .

و قال : ما أظن أحداً على وجه الأرض شرب من هذا الماء حتى يروي فسلم من المعصية و إن شكر الله فكيف الشبع من الطعام .

و سئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي ؟ قال : بالجوع والعطش و ذللها باخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها و أصحبها بخلاف هواها.

و كان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أن الله عز وجل ما صافى عبداً إلا بالجوع ولا والاهم الله إلا بالجوع ، ولامشوا على الماء إلا بالجوع ولاطويت لهم

الأرض إلّا بالجوع .

وقال أبوطالب المكّي : مثل البطن مثل المزمار و هوالعود المجوّف ذوالاوتار إنّما حسن صوته لخفّته ورقّته ولأنّه أجوف غير ممتلىء فكذلك الجوف إذا خلى كان أعذب للتلاوة و أدوم للقيام وأقلّ للمنام .

و قال بكر بن عبدالله : ثلاثة يحبّهم الله : رجلٌ قليل الأكل قليل النّوم قليل الرّاحة .

و روي أنّ عيسى عليه السلام مكث يناجي ربّه ستّين صباحاً لم يأكل و لم يخطر بباله الأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فإذا رغيف موضوع فقعد يبكي لفقد المناجاة ، فإذا شيخ قد أظلّه فقال له عيسى : يا وليّ الله بارك الله فيك ادع الله تعالى لي فإنّي كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عنّي ، فقال الشيخ : اللّهمّ إن كان الخبز خطر ببالي منذ عرفتك ، فلا تغفر لي ، بل كان إذا حضره شيء أكله من غير فكر و خاطر ، وروي أنّ موسى عليه السلام لما قرّبه الله نجيّاً كان قد ترك الأكل أربعين يوماً ، ثلاثين ثمّ عشراً على ما ورد في القرآن وأنّه استاك بعد ثلاثين يوماً فزيد عشرة أيّام لأجل ذلك .

✿(بيان فوائد الجوع و آفات الشبع)✿

لعلّك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو وما سببه ؟ و ليس فيه إلّا إيلام المعدة و مقاساة الأذى فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الفضل في كلّ ما يتأذّى به الإنسان من ضربه نفسه و قطعه لحمه و تناوله الأشياء الكريهة و مايجري مجراها .

فاعلم أنّ هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به فظنّ أنّ منفعته لمرارة الدّواء و كراهيته فأخذ يتناول كلّ ماهو مكروهٌ مرّ المذاق وهو غلطٌ منه بل نفعه في خاصّيته في الدّواء و ليس لكونه مرّاً و إنّما يقف على تلك الخاصّية الأطبّاء فكذلك لايقف على علّة نفع الجوع إلّا سماسرة العلماء ، و من أجاع نفسه مصدّقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علّة المنفعة كما أنّ من شرب

الدّواء انتفع به و إن لم يعرف عين المنفعة وعلّتها ووجه كونه نافعاً ولكنّا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الايمان إلى درجة العلم قال الله تعالى : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات »(١) فنقول : في الجوع عشر فوائد :

الاولى صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإنفاذ البصيرة ، فإنّ الشبع يورث البلادة ، ويعمي القلب و يكثر البخار في الدّماغ كشبه السكر حتّى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار فيحرمه عن سرعة الإدراك بل الصبيّ إذا أكثر الأكل بطل حفظه و فسد ذهنه وصار بطيء الفهم و الإدراك ، قال أبو سليمان . عليك بالجوع فإنّه مذلّة للنفس ، ورقّة للقلب ، و يورث العلم السّماوي .

و قال صلى الله عليه وآله : « أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك و الشبع ، وطهّروها بالجوع تصفو وترق » (٢) .

و يقال : مثل الجوع مثل الرّعد ، والقناعة كالسحاب ، والحكمة كالمطر .

و قال صلى الله عليه وآله : « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه » .

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من شبع ونام قسا قلبه ، ثمّ قال : إنّ لكلّ شيء زكاة وزكاة البدن الجوع » (٣) .

و قال الشبلي : ماجعت لله يوماً إلّا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة مارأيته قطّ ، وليس يخفى أنّ غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحقّ ، و الشبع يمنع منه و الجوع يفتح بابه ، و المعرفة باب من أبواب الجنّة ، فبالحريّ أن يكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنّة و لهذا قال لقمان لابنه : يابنيّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، و خرست الحكمة ، وقعدت

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلا . و كذلك الخبر الآتي .
(٣) حديث من شبع ونام أخرج ابن ماجه ذيله من حديث ابي هريرة تحت رقم ١٧٤٥ هكذا « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم ».

الأعضاء عن العبادة .

و قال أبويزيد : الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « نور الحكمة الجوع ، والبعد من الله الشبع ، و القربة إلى الله حبّ المساكين والدّنوّ منهم . لاتشبعوا فينطفي نور المعرفة من قلوبكم و من بات يصلّي في خفّة من الطعام باتت الحور العين حتى يصبح » (١) .

الفائدة الثانية رقّة القلب و صفاؤه الّذي به يتهيّأ لإدراك لذّة المناجاة والتأثّر بالذّكر فكم من ذكر يجري على اللّسان مع حضور القلب و لكن القلب لايلتذّ به ولايتأثّر عنه حتى كأنّ بينه و بينه حجاباً من قساوة القلب ، و قد يرقّ في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذّذه بالمناجاة ، و خلوّ المعدة هو السبب الأظهر فيه ، قال أبوسليمان : أحلى ماتكون إليّ العبادة إذالصق بطني بظهري .

و قال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين الله مخلاة من الطعام و يريد أن يجد حلاوة المناجاة .

و قال أبو سليمان : القلب إذا جاع وعطش صفى ورقّ ، فإذا شبع و روى عمي وغلظ ، فإذاً تأثّر القلب بلذّة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة ، فهذه فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة الانكسار و الذّل و زوال البطر و الفرح والأشر الّذي هو مبدء الطغيان و الغفلة عن الله ، ولا تنكسر النفس ولا تذلّ بشيء كما تذلّ بالجوع فعنده تستكين لربّها و تخشع له وتقف على عجزها و ذلّها إذضعفت منّتها (٢) وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدّنيا بشربة ماء تأخّرت عنها ، ومالم يشاهد الإنسان ذلّ نفسه وعجزه لايرى عزّة مولاه و لاقهره ، وإنّما سعادته في

(١) ذكره ابومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة و كتب عليه انه مسند وهي علامة مارواه باسناده (المغني) . «أقول: أورده الطبرسي في الكلام ص ١٧١ من كتاب روضة الواعظين للفتال .

(٢) المنة - بضم الميم - القوة .

أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذّل والعجز ومولاه بعين العزّ والقدرة والقهر فليكن دائماً جائعاً ذليلاً مضطرّاً إلى مولاه، مشاهد للاضطرار بالذوق، ولذلك لما عرض على رسول الله ﷺ الدّنيا و خزائنها فقال: « لابل أجوع يوماً و أشبع يوماً فإذا جعت صبرت و تضرّعت و إذا شبعت شكرت [1] » أو كما قال.

والبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذّل والانكسار باب من أبواب الجنّة و أصله الجوع و من أغلق باباً من أبواب النار فقد فتح له باب من أبواب الجنّة بالضرورة لانّهما متقابلان كالمشرق والمغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر [2].

الفائدة الرابعة أن لاينسى بلاء الله وعذابه ولاينسى أهل البلاء، فإنّ الشبعان ينسى الجائعين وينسى الجوع، والعبد الفطن لايشاهد بلاء إلّا و يتذكّر بلاء الآخرة فيتذكّر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، و من جوعه جوع أهل النّار حين يجوعون فيطعمون الزّقّوم والضريع ويسقون الغسّاق والمهل، ولا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنّه هوالّذي يهيّج الخوف ومن لم يكن في قلّة ولا علّة ولا ذلّة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثّل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، و أولى ما يقاسيه من البلاء بلاء الجوع فإنّ فيه فوائد جمّة سوى تذكّر عذاب الآخرة، و هذا أحد الأسباب الّتي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء و الأولياء والأمثل فالأمثل، ولذلك لمّا قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإنّ ذلك يدعوه إلى الرّحمة و الإطعام والشفقة على خلق الله والشبعان في غفلة من ألم الجائع.

(١) أخرجه الترمذي وقد تقدم.

(٢) كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام « الدنيا والاخرة عدوان متعاديان وسبيلان مختلفان، من احب الدنيا و والاها أبغض الاخرة وعاداها مثلهما مثل المشرق و المغرب والماشي بينهما لايزداد من احدهما قرباً الاازداد من الاخر بعداً ». رواه ابن شعبة فى التحف ص ٢١٢.

الفائدة الخامسة - وهي من كبار الفوائد - كسر شهوات المعاصي كلّها والاستيلاء على النفس الأمّارة بالسّوء ، فإنّ منشأ المعاصي كلّها الشهوات والقوى و مادّة القوى والشهوات لامحالة الأطعمة ، فتقليلها يضعّف كلّ شهوة وقوّة ، وإنّما السّعادة كلّها في أن يملك الرّجل نفسه و الشقاوة كلّها في أن يملكه نفسه ، وكما أنّك لاتملك الدّابة الجموح إلّا بضعف الجوع وتضميرها [1] فإذا شبعت قويت و شردت وجمحت فكذلك النفس .

و قيل لبعضهم : ما بالك مع كبرك لاتتعهّد بدنك و قد انهدّ؟ ، فقال : لأنّه سريع المرح ، فاحش الأشر ، فأخاف أن يجمح بي فيورّطني ولئن أحمله على الشدائد أحبّ إليّ من أن يحملني على الفواحش .

و قال ذوالنون : ماشبعت قطّ إلّا وقد عصيت الله أوهممت بمعصيته .

وقالت عائشة : إنّ أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله الشبع ، إنّ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدّنيا . وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد ولذلك قيل : الجوع خزانة من خزائن الله تعالى .

وأقلّ ما يندفع بالجوع شهوة الفرج و شهوة الكلام فإنّ الجائع لايتحرّك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلّص به من آفات اللّسان كالغيبة و الفحش و النميمة والكذب وغيرها ، فيمنعه الجوع عن كلّ ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكّه لامحالة بأعراض الناس « ولايكبّ الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم »[3]

و أمّا شهوة الفرج فلاتخفى غائلتها والجوع يكفي شرّها فإذا شبع الرّجل لايملك فرجه و إن منعه التقوى فلايملك عينيه و العين تزني كما يزني الفرج فإن ملك عينيه بغطاء التقوى فلا يملك فكره فيخطر له من الأفكار الرديّة و حديث النفس

---

(١) تضمير الخيل هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن ثم لاتعلف الاقوتاً لتخف (النهاية)

(٢) راجع الكافي ج ٢ ص ١١٥ تحت رقم ١٤ .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١١٥ و« حصائد ألسنتهم » يعني مايقطعون من الكلام الذي لاخير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبيهاً بما يحصل من الزرع و تشبيهاً للسان و ما يقطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به . (قاله المؤلف في الوافي) .

بأسباب الشهوة ما يتشوّش به مناجاته و ربّما عرض له ذلك في أثناء الصلاة و إنّما ذكرنا آفة الفرج واللّسان مثالاً وإلّا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوّة بالشبع ، قال حكيم : كلّ مريد صبّر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لايخلط معه شيئاً من الشهوات و يأكل بنصف بطنه رفع الله عنه مؤونة النساء .

الفائدة السادسة دفع النوم و دوام السهر فإنّ من شبع شرب كثيراً و من كثر شربه كثر نومه ، فلذلك كان يقول بعض المشايخ لأصحابه على رأس السفرة : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً ، وأجمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب و في كثرة النوم ضياع العمر ، وفوت التهجّد ، وبلادة الطبع ، وقساوة القلب . والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتّجر ، والنوم موت فتكثيره ينقص من العمر ، ثمّ فضيلة التهجّد لاتخفى و في النوم فواته ، ومهما غلبه النوم فإن تهجّد لم يجد حلاوة العبادة ، ثمّ المتعزّب إذا نام على الشبع احتلم و يمنعه ذلك أيضاً من التهجّد ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذّى به أو يحتاج إلى الحمام ، و ربّما لايقدر عليه باللّيل فيفوته صلاة اللّيل ثمّ يحتاج إلى مؤونة الحمام وربّما يقع عينه على عورة في الحمام فإنّ فيه أيضاً أخطاراً قد ذكرناها في كتاب الطهارة ، وكلّ ذلك أثر الشبع ، و قد قال أبوسليمان : الاحتلام عقوبة . وإنّما قال ذلك لأنّه يمنع عن عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كلّ حال ، فالنوم منبع الآفات و الشبع مجلبة له والجوع مقطعة له .

الفائدة السابعة تيسّر المواظبة على العبادة فإنّ الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنّه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل و ربّما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثمّ يحتاج إلى غسل اليد والخلال ثمّ يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة إلى هذه لو صرفها إلى الذكّر و المناجاة و ساير العبادات لكثر ربحه ، قال السري : رأيت مع عليّ الجرجانيّ سويقاً يستفّ منه (١) فقلت له : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنّي حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين

(١) استف الدواء والسويق ونحوهما : قمحه وقيل : أخذه غير ملتوت .

تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة [١] فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيّعه في المضغ ، و كلّ نفس من العمر جوهر نفيس لاقيمة له فينبغي أن يستوفى منه خزانة باقية في الآخرة لاآخر لها وذلك بأن يصرفه إلى ذكر الله تعالى و طاعته .

و من جملة ما يتعذّر بكثرة الأكل الدّوام على الطّهارة و ملازمة المسجد فإنّه يحتاج إلى الخروج لشرب الماء وإراقته وفيه ضرر .

و من جملة الفوائد الصوم فإنّه يتيسّر لمن تعوّد الجوع ، فالصوم و دوام الاعتكاف و دوام الطهارة وصرف أوقات شغل الأكل و أسبابه إلى العبادة فيه أرباح عظيمة إنّما يستحقرها الغافلون الّذين لم يعرفوا قدر الدّين لكن رضوا بالحياة الدّنيا واطمأنّوا بها « يعلمون ظاهراً من الحيوة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » وقد أشار أبوسليمان الدّاراني إلى ستّ آفات في الشبع ، فقال : من شبع دخل عليه ستّ آفات : فقد حلاوة العبادة ، وتعذّر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنّه إذا شبع ظنّ الخلق كلّهم شباعاً ، و ثقل العبادة ، و زيادة الشهوات ، و إنّ سائر المؤمنين الجياع يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة يستفيد من قلّة الأكل صحّة البدن و دفع الأمراض فإنّ سببها كثرة الأكل و حصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق ثمّ المرض يمنع من العبادات و يشوّش القلب و يمنع من الفكر والذكر و ينغّص العيش و يحوج إلى الفصد والحجامة والدّواء و الطبيب و كلّ ذلك يحتاج إلى مؤن و نفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب من أنواع من المعاصي و اقتحام الشبهات و في الجوع مايدفع عنه كلّ ذلك .

---

(١) يالله من هذا الرأى التافه ، والفكرة الضئيلة ، والنسج المزور ، والنسك الفارغ الخلق البالي والزهد المزهود عنه وليس هذا الامر الا الاستبداد بالرأى ، والبعد عن الرسول واهل بيته صلى الله عليه وعليهم وعن علومهم وحكمهم ، وذنب التقاعس عن الاقتداء بهم والاخذ عنهم كيف لاوقد ورد عنهم آلاف ماهو خلاف هذا الفقه المزيف والعرفان النعيم المخالف للعقل السليم ، و ما خلق الله سبحانه شيئاً من الاعضاء عبثاً ولاباطلا ، أعاذنا الله من هذا المجون .

حكي أنّ الرّشيد جمع أربعة أطبّاء هندياً و رومياً وعراقياً وسوادياً فقال : ليصف كلّ واحد منكم الدّواء الّذي لاداء فيه ، فقال الهندي : الدّواء الّذي لاداء فيه عندي الاهليلج الأسود ، وقال الرّومي : هو حبّ الرّشاد الأبيض ، وقال العراقيّ : هو الماء الحارّ ، وقال السوادي وكان أعلمهم : الإهليلج يعفص المعدة وهذاداء ، وحبّ الرّشاد يزلق المعدة وهذاداء ، والماء الحارّ يرخي المعدة وهذاداء ، قالوا : فما عندك ؟ قال : الدّواء الّذي لاداء معه عندي أن لاتأكل طعاماً حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه ، فقالوا : صدقت .

و ذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبيّ ﷺ : « ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس » فتعجّب منه ، وقال : ما سمعت كلاماً في قلّة الأكل أحكم من هذا وإنّه لكلام حكيم .

و قال ﷺ : « البطنة أصل الدّاء والحمية أصل الدّواء وعوّدوا كلّ بدن ما اعتاد » [1] وأظن أنّ تعجّب الطبيب من هذا الخبر لامن ذلك .

و قال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتلّ إلّا علّة الموت ، قيل له : و ماالأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع و ترفع قبل الشبع .

و قال بعض أفاضل الأطباء في ذمّ الاستكثار من الأكل : إنّ أنفع ماأدخل الانسان معدته الرّمّان ، وإنّ أضرّ ماأدخل معدته المالح ولأن يقلّل من المالح خيرٌ له من أن يستكثر من الرّمّان .

و في الخبر المشهور « صوموا تصحّوا » ففي الصوم والجوع وقلّة الأكل صحّة الأجسام من الأسقام و صحّة القلوب من سقم الطّغيان والبطر وغيرهما .

الفائدة التاسعة خفّة المؤونة فإنّ من تعوّد قلّة الأكل كفاه من المال قدر

---

(١) قال العراقى : لم أجده له أصلا .أقول : نقله صاحب مكارم الاخلاق فى باب آداب المريض ص ٤١٩ من حديث موسى بن جعفر عليهما السلام .

(٢) أخرجه ابن السنى و ابونعيم فى الطب عن ابى هريرة . بسند حسن . كما فى الجامع الصغير .

يسير ، والّذي تعوّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له يأخذ بمخنقه كلّ يوم فيقول : ماذا تأ كل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذلّ ويتعب ، وربّما احتاج إلى أن يمدّ عين الطمع إلى الخلق و هو غاية الذّلّ ، والمؤمن خفيف المؤونة .

قال بعض الحكماء : إنّي لأقضي عامّة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لنفسي .

و قال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الزيادة فهو خير غريم لي .

و كان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن الشيء من المأكول فيقال له : إنّه غال ، فيقول : أرخصوه بالترك .

قال سهل : الأكول مذموم في ثلاث خصال : إن كان من أهل العبادة فيكسل ، و إن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات ، و إن كان ممّن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله من نفسه ، وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدّنيا ، و سبب حرصهم البطن والفرج ، و سبب شهوة الفرج شهوة البطن وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأبواب كلّها وهي أبواب النار ، و في حسمها فتح أبواب الجنّة ، كما قال ﷺ : « أديموا قرع باب الجنة بالجوع (١) » فمن قنع برغيف في كلّ يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حرّاً واستغنى عن الناس و استراح من التعب و تخلّى لعبادة الله و تجارة الآخرة فيكون من الرّجال الّذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فإنّه لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة فأمّا المحتاج فتلهيه لا محالة .

الفائدة العاشرة أن يتمكّن به من الإيثار و التصدّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين و يكون يوم القيامة في ظلّ صدقته كما جاء في الخبر (٢) فما يأكله فخزانته الكنيف وما يتصدّق به فخزانته فضل الله فليس للعبد من ماله إلّا ما تصدّق

(١) تقدم سابقاً .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٤١٦ من حديث عقبة بن عامر .

فأبقى ، أوأكل فأفنى ، أولبس فأبلى ، فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع ، ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ بأصبعه إلى بطنه وقال : « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك » (١) .

أي لو قدّمته لآخرتك وآثرت به غيرك .

و عن الحسن قال : والله لقد أدركنا رجالاً كان الرّجل منهم ليمسي وعنده من الطعام مايكفيه فلوشاء لأكله كلّه فيقول : والله لأجعل هذا كلّه في بطني حتّى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعّب عن كلّ فائدة فوائد لاتنحصر حدودها ولا تتناهى فروعها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ، ولهذا قال بعض السّلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدّنيا وباب الرغبة ، وكلّ ذلك صريح في الأخبار الّتي رويناها ، وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم و بصيرة ، وإذا لم تعرف هذا و صدّقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلّدين في الايمان .

✿(بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن)✿

اعلم أنّ على المريد في مأكوله وبطنه أربع وظائف : الأولى إن لا يأكل إلّا حلالاً ، فالعبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحر وقد ذكرما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصّة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلّة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة و تعيين الجنس المأكول في تناول المشتهيات و تركها .

اما الوظيفة الأولى في تقليل الطعام فسبيل الرّياضة فيه التدريج فمن تعوّد الأكل الكثير و انتقل دفعة إلى الأكل القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقّته ، فينبغي أن يتدرّج إليه قليلاً قليلاً و ذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده ص ١٧١ تحت رقم ١٢٣٥ من حديث جعدة الجشمي .

المعتاد، فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يردّ نفسه إلى واحد فينقص كلّ يوم ربع سبع رغيف وهو ينقص منه جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً أوجزءاً من ثلاثين جزءاً فيرجع إلى رغيف في شهر ولا يتضرّر به ولا يظهر أثره فإن شاء فعل ذلك بالوزن و إن شاء بالمشاهدة، فيترك كلّ يوم مقدار لقمة و ينقصه عمّا أكله بالأمس، ثمّ هذا فيه أربع درجات أقصاها أن يرد نفسه إلى قدر القوام الّذي لا يبقى دونه و هو عادة الصدّيقين وهو اختيار سهل التستري إذ قال: استعبدالله الخلق بثلاث بالحياة والعقل والقوّة، فإن خاف العبد على اثنتين منها وهي الحياة والعقل أكل و أفطر إن كان صائماً وتكلّف الطلب إن كان فقيراً، وإن لم يخف عليهما بل على القوّة، قال: فينبغي أن لا يبالي ولو ضعف حتّى يصلّي قاعداً ورأى أنّ صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل.

أقول: هذا ليس بشيء لأنّه خلاف ما يظهر من آثار أهل البيت عليهم السلام، فالصّواب أن يحافظ السالك على قوّتهما أمكنه كما يحافظ على حياته وعقله، قال الله عزّ وجلّ: «كلوا من الطيّبات واعملوا صالحاً»(١) وقال تعالى: «قل من حرّم زينة الله الّتي أخرج لعباده و الطيّبات من الرّزق قل هي للّذين آمنوا في الحيوة الدّنيا خالصة يوم القيمة»(٢) ويأتي تمام الكلام فيه.

قال: الدرجة الثّانية أن يردّ نفسه بالرّياضة في اليوم و اللّيلة إلى نصف مدّ و هو رغيف وشيء ممّا يكون الاربعة منه منّاً ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حقّ الأكثرين كما ذكره رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو فوق اللّقيمات(٣) لأنّ هذه الصيغة في الجمع للقلّة وهو لما دون العشرة.

الدّرجة الثّالثة أن يردّ نفسه إلى مقدار المدّ وهو رغيفان ونصف وهذا يزيد

---

(١) تمام الاية في سورة المؤمنون: ٥٢ «ياايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً انى بما تعملون عليم».

(٢) الاعراف: ٣١.

(٣) تقدم سابقاً قوله صلى الله عليه وآله «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

على ثلث البطن في حقّ الأكثرين ويكاد ينتهي إلى ثلثي البطن ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر وفي بعض الألفاظ «ثلث للذّكر» بدل قوله ﷺ: «ثلث للنفس».

الدرجة الرابعة أن يزيد على مقدار المدّ إلى المنّ و يشبه أن يكون ما وراء المنّ إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى: «ولا تسرفوا» (١) أعني في حقّ الأكثرين فإنّ مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالشخص والسنّ والعمل الّذي يشتغل به، و ههنا طريق خامس لاتقدير فيه، ولكنّه موضع غلط وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده عن الطعام وهو على شهوة صادقة بعد، ولكن الغالب أنّ من لم يقدر مع نفسه رغيفاً أو رغيفين فإنّه لايتبيّن له حدّ الجوع الصادق و يشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة.

و قد ذكر للجوع الصّادق علامات إحداها أن لايطلب النفس الإدام بل تأكل الخبز وحده بشهوة أيّ خبز كان فمهما طلبت نفسه خبزاً بعينه أوطلبت اُدماً فليس ذلك بجوع، وقيل: من علامته أن يبصق فلايقع الذّباب عليه أي لايبقى فيه دهنية ولادسومة فيدلّ ذلك على خلوّ المعدة، و معرفة ذلك غامض فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الّذي لايضعفه عن العبادة الّتي هو بصددها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته.

وعلى الجملة فتقدير الطعام لايمكن لأنّه يختلف بالأحوال والأشخاص نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كلّ جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً، وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون في كلّ يوم قريباً من نصف مدّ وهو ماذكرنا أنّه قدر ثلث البطن و في التمر اُحتيج إلى زيادة لسقوط النوى منه، و قد كان أبوذرّ - رضي الله عنه - يقول: طعامي في كلّ جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله ﷺ و الله لا أزيد عليه حتّى ألقاه، فإنّي سمعته ﷺ يقول: «أقربكم منّي مجلساً يوم القيامة وأحبّكم إليّ من مات على ما هو عليه اليوم» (٢) و كان يقول في

(١) الاعراف: ٣٠.
(٢) أخرجه احمد في كتاب الزهد ومن طريقه ابونعيم في الحلية دون قوله «واحبكم الي» وهو منقطع كما في المغني.

إنكاره على بعض الصحابة قدغيّرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، و خبزتم المرقق ، و جمعتم بين إدامين ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ، ولم تكونوا كذا في عهد رسول الله ﷺ و قد كان قوت أهل الصّفة مدّاً من تمر بين اثنين في كلّ يوم[١] والمدّ رطل و ثلث ويسقط منه النوى .

وقال بعض السلف : المؤمن مثل القبّرة يكفيه الكفّ من الحشف ، والقبضة من السويق ، و الجرعة من الماء ، و المنافق مثل السبع الضاري بلعاً بلعاً ، و سرطاً سرطاً[٢]، لايطوى بطنه لجاره ولايؤثر أخاه بفضله وجّهوا هذه الفضول أمامكم .

و قال سهل : لو كانت الدّنيا دماً عبيطاً كان قوت المؤمن منها حلالاً لأنّ أكل المؤمن عند الضّرورة بقدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية في وقت الأكل ومقدار تأخيره وفيه أيضاً درجات .

الدرجة العليا أن يطوى[٣] ثلاثة أيّام فمافوقها ، وفي المريدين من ردّ الرّياضة إلى الطّي لا إلى المقدار حتّى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً أوأربعين يوماً وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة ، و قال بعض العلماء من أطوى أربعين يوماً من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت . أي كوشف ببعض الأسرار الإلهيّة ، وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهب فذاكر في حاله وطمع في إسلامه و ترك ماهو عليه من الغرور ، فكلّمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب : كان المسيح يطوى أربعين يوماً وإنّه معجزة لاتكون إلّا لنبيّ صادق ، فقال له الصوفي : فإن طويت خمسين يوماً تترك ماأنت عليه ؟ و تدخل في دين الإسلام ؟ وتعلم أنه حقّ وأنّك على باطل ؟ قال : نعم فقعد لايبرح إلّا حيث يراه حتّى طوي خمسين يوماً قال : وأزيدك أيضاً فطوي على تمام السّتين ، فتعجّب الراهب منه وقال : ما كنت أظنّ أحداً أن يجاوز المسيح وكان ذلك سبب إسلامه ؛ فهذه درجة عظيمة قلّ من يبلغها إلّا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ماقطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٥ من حديث طلحة البصرى .

(٢) سرطه سرطاً واسترطه : ابتلعه . (٣) طوى كعلم اى جاع .

لذّته وأنساه جوعته وحاجته (١).

الدّرجة الثانية أن يطوي يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجدّ والمجاهدة.

الدّرجة الثالثة وهي أدناها أن يقتصر في اليوم واللّيلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقلّ وما جاوز ذلك فهو إسراف ومداومة للشبع حتّى لا يكون له حالة جوع و ذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنّة.

روى أبو سعيد الخدريّ «أنّه كان ﷺ إذا تغدّى لم يتعشّ وإذا تعشّى لم يتغدّ» (٢) وكان السلف يأكلون في كلّ يوم أكلة.

و قال ﷺ لعائشة: «إيّاك والإسراف فإنّ أكلتين في يوم من السرف» (٣)، فكان أكلتان في يوم سرفاً وأكلة واحدة في يومين إقتاراً وأكلة في كلّ يوم قوام بين ذلك وهو المحمود في كتاب الله (٤). ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحبّ له أن يأكلها في السحر قبل طلوع الصبح فيكون أكله بعد التهجّد قبل الصبح ويحصل له جوع النهار للصّيام، وجوع اللّيل للقيام، وخلوّ القلب لفراغ المعدة ورقّة الفكر، واجتماع الهمّ وسكون النفس إلى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته.

وفي حديث عائشة «كان ﷺ يواصل إلى السحر» (٥).

---

(١) ان صح ذلك وكان هذا من أعلى الدرجات فنبينا الاعظم صلى الله عليه و آله لم يبلغ الى هذه الدرجة لعدم نقل مثله في سيرته ولا سنته في المأكل و المشرب، وقد نهى صلى الله عليه وآله امته عن صوم الوصال كما يأتي عنقريب، نعم الوصال في يومين من خصائصه لكن لم يعهد عنه غيرهذا. والحق أن أمثال هذه الخرافات من مخاريق الصوفية ومنسوجاتهم المزورة و الا فالقرآن ينادي بأعلى صوته « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحاً ».

(٢) أخرجه ابو نعيم في الحلية بسند صحيح كما في الجامع الصغير باب الشمائل.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب كما في الدر المنثور ج ٣ ص ٨٠.

(٤) في قوله تعالى: « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ».

(٥) قال العراقي: لم أجده من فعله و انما هو من قوله « فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » رواه البخاري ج ٣ ص ٤٧ من حديث ابي سعيد و اما هو فكان يواصل وهو من خصائصه. وأخرجه مسلم ج ٣ ص ١٣٣.

أقول : وذلك بشرط أن لايجعل ذلك صوم وصال بل أفطر بعدالمغرب فإنّ الوصال من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وهوحرامٌ على اُمّته كما رويناه عن أهل البيت عليهم السلام (١).

قال : و إن كان يلتفت قلب الصائم إلى الطعام بعد المغرب وكان يشغله عن حضور القلب في التهجّد أيضاً فالأولى أن يقسم طعامه بنصفين فإن كان رغيفين مثلاً أكل رغيفاً عندالفطر ورغيفاً عند السحر لتسكن نفسه ويخفّ عندالتهجّد بدنه ولا يشتدّ بالنهار جوعه لأجل تسحّره ، فيستعين بالرغيف الأوّل على التهجّد وبالثاني على الصوم ، ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلابأس أن يأكل يوم فطره قبل الظهر و يوم صومه وقت السحر ، فهذه هي الطرق في مواقيت الأكل وتقاربه و تباعده .

أقول: روى في الكافي بإسناده عن ابن أخي شهاب بن عبدربّه قال : « شكوت إلى أبي عبدالله عليه السلام ماألقى من الأوجاع والتخم ، فقال لي : تغدّ وتعشّ ولا تأكل بينهما شيئاً فإنّ فيه فساد البدن . أما سمعت الله تعالى يقول : « لهم رزقهم فيها بكرة و عشيّاً » (٢) .

و عنه عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام : عشاء الأنبياء عليهم السلام بعد العتمة فلا تدعوه فإنّ ترك العشاء خراب البدن »(٣) .

و عنه عليه السلام قال : « ترك العشاء مهرمة(٤) وينبغي للرّجل إذا أسنّ أن لايبيت إلّا وجوفه من الطعام ممتل »(٥).

وعن الرّضا عليه السلام « إنّ في الجسد عرقاً يقال له : العشاء فإذا ترك الرّجل العشاء لم يزل يدعو عليه ذلك العرق إلى أن يصبح يقول : أجاعك الله كما أجعتني،

(١) راجع من لايحضره الفقيه ص ١٩٧ باب النوادر من كتاب الصوم و كتاب الوسائل ج ٢ باب صوم الوصال و صحيح البخاري ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المصدر ج ٦ ص ٢٨٨ والاية في سورة مريم : ٦٢ .

(٣) المصدر ج ٦ ص ٢٨٨ .

(٤) اى مظنة للضعف و الهرم ذكره الجزري في النهاية والزمخشري في الفائق .

(٥) المصدر ج ٦ ص ٢٨٨ .

و أظمأك الله كما أظمأتني ، فلا يدعنّ أحدكم العشاء ولو بلقمة من خبز أو بشربة من ماء »(١).

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما بال أصحابي لا يأكلون اللّحم ، ولا يشمّون الطيب ، ولا يأتون النساء ؟ أما إنّي آكل اللّحم وأشمّ الطيب وآتي النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «من أتى عليه أربعون يوماً ولم يأكل اللّحم فليستقرض على الله وليأكله »(٣).

و لقد بالغ أبو حامد في التقشّف في هذا الباب سابقاً ولا حقاً ولم نتعرّض له في كلّ كلّ من أقواله بل اكتفينا بما ذكرنا ، وحذفنا بعض حكاياته عن الصوفيّة ممّا تمجّه الطباع السليمة كنقله عن سهل بن عبدالله أنّه أكل دقاق التين ثلاث سنين ثمّ اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين إلى غير ذلك .

قال : الوظيفة الثالثة في نوع الطعام وترك الإدام وأعلى الطعام مخّ البرّ فإن نخل فهو غاية الترفّه ، و أوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل ، وأعلى الإدام اللّحم والحلاوة ، وأدناه الملح والخلّ ، وأوسطه المزوّرات بالأدهان من غير لحم ، و عادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدّوام ، بل الامتناع عن الشهوات ، فإنّ كلّ لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وأُنساً لقلبه بلذائذ الدّنيا حتّى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدّنيا جنّة في حقّه ، ويكون الموت سجناً له ، وإذا منع نفسه من شهواتها و ضيّق عليها ، و حرّمها لذّاتها صارت الدّنيا عليه سجناً ومضيقاً له واشتهت نفسه الانفلات منها ، و يكون الموت إطلاقها وإليه أشار يحيى بن معاذ حيث قال : معاشر الصدّيقين جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس ، فإنّ شهوة الطعام على قدر تجويع النفس ، و كلّ ما ذكرناه

(١) الكافى ج٦ ص ٢٨٩

(٢) الكافى ج ٥ ص٤٩٦ . وأخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٢٩ .

(٣) الكافى ج ٦ ص ٣٠٩ .

من آفات الشبع فإنّها تجري في أكل الشهوات و تناول اللّذّات فلانطول بإعادته، فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات و يعظم الخطر في تناولها حتّى قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « شرار أمّتي الّذين يأكلون مخّ الحنطة »(١) وليس هذا بتحريم بل هو مباح على معنى أنّه من أكله مرّة أو مرّتين لم يعص ، و من داوم عليه فلايعصي أيضاً بتناوله ولكن تتربّي نفسه في التنعّم وتأنس بالدّنيا وتألف اللّذات و يسعى في طلبها فيجرّه ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمّة لأنّ مخّ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور تلك الأمور معاص .

و قال صلى الله عليه وآله : « شرار أمّتي الّذين غذّوا بالنعيم ونبتت عليها أجسامهم وإنّما همّتهم ألوان الطعام وأنواع اللّباس ويتشدّقون في الكلام »(٢).

و أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «اذكر أنّك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات » وقد اشتدّ خوف السّلف من تناول لذائذ الأطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أنّ ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله ذلك عنهم غاية السعادة ، حتّى روي أنّ وهب بن منبّه قال : التقى ملكان في السّماء الرّابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهوديّ لعنه الله ، وقال الآخر: أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد . وهذا تنبيه على أنّ تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير .

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله « أيّما امرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته و آثربها على نفسه غفر الله له »(٣) .

---

(١) لم أجدله أصلا .

(٢) اورده ابن ابى الدنيا فى ذم الغيبة هكذا « شرار امتى الذى غذوا بالنعيم الذين يأكلون من الطعام ألواناً ويلبسون الوان الثياب و يتشدقون فى الكلام و رواه البيهقى فى الشعب بسندضعيف عن فاطمة عليها السلام . وروى الحاكم فى المستدرك عن عبدالله بن جعفرمثله بسند صحيح راجع الجامع الصغير باب الشين .

(٣) أخرجه ابن حبان فى كتاب الثواب . وقال المقدسى فى تذكرة الموضوعات ص٥٠ فيه عمرو بن خالد الواسطى كذاب .

وعنه ﷺ : « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من ماء القراح فعلى الدُّنيا وأهلها الدمار » [1] أشار به إلى أنّ المقصود ردُّ ألم الجوع ودفع ضرره دون التنعّم بلذّات الدُّنيا ، وقد امتنع السلف من أكل الشهوات ومن الشبع من الأقوات و كان امتناعُهم للفوائد الّتي ذكرناها ، و في بعض الأوقات لأنّه كان لايصفو لهم حلال فلم يرخّصوا لأنفسهم إلّا في قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتّى قال بعضهم : الملح شهوة لأنّه زيادة على الخبز ، و ما وراء الخبز شهوة و هذه هي النهاية فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لايغفل عن نفسه ولاينهمك في الشهوات، فكفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كلّ مايشتهيه ويفعل كلّ مايهواه ، فينبغي أن لايواظب على أكل اللّحم .

قال عليٌّ عليه السلام : «من ترك اللّحم أربعين يوماً ساء خلقه ، ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه » [2] .

و قيل : إنّ للمداومة على اللّحم ضراوة كضراوة الخمر [3] ومهما كان جايعاً و تاقت نفسه إلى الجماع فلاينبغي أن يأكل ويجامع فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط على الجماع ، ويستحبُّ أن لاينام على الشبع فيجمع بين غفلتين يعتاده الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصلِّ أوليجلس فيذكر الله تعالى فهو أقرب للشكر .

و في الحديث « أذيبوا طعامكم بالصلاة و الذّكر و لاتناموا عليه فتقسوا قلوبكم » [4] ومهما اشتهى شيئاً من طيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكل الفاكهة بدلاً عن الخبز ليكون قوتاً ولا يكون تفكّهاً ولئلّا يجمع للنفس بين عادة

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابي هريرة باسناد ضعيف (المغنى)

(٢) مروى صدره في الكافي ج ٦ ص ٣٠٩ والمحاسن ص ٤٦٦ عن الصادق والرضا عليهما السلام وما عثرت على ذيله في كتب الاحاديث .

(٣) في النهاية : في حديث عمر « ان للحم ضرواة كضراوة الخمر» اى ان له عادة ينزع اليها كعادة الخمر .

(٤) أخرجه ابن السني في اليوم والليلة ص ١٣١ .

و شهوة ، ومهما وجدطعاماً لطيفاًوغليظاً فليقدم اللّطيف فا نّه لايشتهي الغليظبعده ، ولو قدّم الغليظ لأكل اللّطيف أيضاً للطفه ، وكان بعضهم يقول لأصحابه : لا تأكلوا الشهوات فا ن أكلتم فلاتطلبوها فا ن طلبتموها فلاتحبّوها . وطلب بعض أنواع الخبز شهوة .

و على الجملة لاسبيل إلى إهمال النفس في الشهوات في المباحات و اتّباعها بكلّ حال وبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة : « أذهبتم طيّباتكم في حيوتكم الدّنيا واستمتعتم بها »(١) وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتّع في الآخرة بشهواته .

و قال تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية » (٢) وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات لأكلها ولهذا قيل : ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها .

✿(بيان اختلاف حكم الجوع و فضيلته باختلاف أحوال الناس)✿

أعلم أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأحوال والأخلاق الوسط إذ خير الأمور أوساطها ، و كلا طرفي قصد الأمور ذميم وما أوردناه في فضائل الجوع ربّما يومي إلى أنّ الا فراط فيه مطلوب وهيهات ولكن من أسرار حكمة الشريعة أنّ كلّ مايطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومي عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادّة ما يقتضيه الطّبع بغاية الا مكان ، والعالم يدرك أنّ المقصود هو الوسط لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يطلب غاية الجوع حتّى يكون الطّبع باعثاً و الشرع مانعاً فيتقاومان و يحصل الاعتدال ، فا نّ من يقدر على قمع الطّبع بالكلّية بعيد فيعلم أنّه لاينتهي إلى الغاية فا نّه إن أسرف مسرفٌ في مضادّة الطبع كان في الشرّع أيضاً ما يدلّ على إساءته ، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام اللّيل و صيام النهار ثمّ لما علم النبيّ ﷺ

(١) الاحقاف : ٢٠ .
(٢) الحاقة : ٢٤ .

من حال بعضهم أنّه يصوم الدّهر كلّه ويقوم اللّيل كلّه نهى عنه ، فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحسّ بثقل المعدة ولا يحسّ بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثّر فيه الجوع أصلاً فإنّ مقصود الأكل بقاء الحياة وقوّة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها، فالمقصود أن يأكل أكلاً معتدلاً بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر ليكون متشبّهاً بالملائكة ، فإنّهم مقدّسون عن ثقل الطعام وألم الجوع ، وغاية الإنسان الاقتداء بهم ، وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطّرفين الوسط و هو الاعتدال .

و مثال طلب الآدميّ البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة اُلقيت في وسط حلقة محماة على النار ، مطروحة على الأرض ، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج فلا تزال تهرب حتّى تستقرّ على المركز الّذي هو الوسط ولو ماتت ماتت على الوسط لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة الّتي في الحلقة المحيطة ، فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبّه بالملائكة في الخلاص فأشبه أحواله بهم البعد و أبعد المواضع عن الأطراف الوسط فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة ، وعنه عبّر بقوله ﷺ : «خير الاُمور أوساطها»(١) وإليه إشارة بقوله تعالى: « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » و مهما لم يحسّ الإنسان بجوع ولا شبع تيسّرت له العبادة والفكر وخفّ في نفسه وقوي على العمل مع خفّته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع أمّا في بداية الأمر إذا كانت النّفس جموحاً ، متشوّقة إلى الشهوات ، مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابدّ من المبالغة في إيلامها بالجوع كما يبالغ في إيلام الدّابة الّتي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت و استوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها و إيلامها ولأجل هذا السرّ يأمر الشيخ مريده بما

(١) أخرجه البيهقي في الشعب مرسلا وقد تقدم .

لايتعاطاه هو بنفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع و يمنعه الفواكه و الشهوات و قد لايمتنع هومنها ، لأنّه قد فرغ عن تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ، ولمّا كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع الّذي تحسّ بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر ، و المقصود أن تنكسر حتّى تعتدل ، فتردّ بعد ذلك في الغذاء أيضاً إلى الاعتدال ، وإنّما يمتنع عن ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة إمّا صدّيق و إمّا مغرور أحمق ، أمّا الصدّيق فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحقّ ، وأمّا المغرور فلظنّه بنفسه أنّه الصدّيق المستغني عن تأديب نفسه ، الظّان بنفسه خيراً ، وهذا غرور عظيم وهو الغالب ، فإنّ النفس قلّما تتأدّب تأدّباً كاملاً ، و كثيراً ماتغترّ ، فينظر المغرور إلى الصدّيق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه كالمريض ينظر إلى من قد صحّ من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظنّ بنفسه الصحّة حتّى يهلك والّذي يدلّ على أنّ تقدير الطعام بمقدار يسير و وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصوداً في نفسه و إنّما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحقّ غير بالغة رتبة الكمال ، إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يكن له تقدير وتأقيت في طعامه ، قالت عائشة : « كان صلّى الله عليه وآله يصوم حتّى نقول : لايفطر ، ويفطر حتّى نقول : لايصوم » (١) .

وكان يدخل على أهله فيقول : « أعندكم من شيء فإن قالوا : نعم أكل وإن قالوا لا ، قال : إنّي إذن أصوم ، و قد كان يقدم إليه الشيء فيقول : أما إنّي كنت أردت الصوم ثمّ يأكل » (٢) .

وخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً وقال : « إنّي صائم ، فقالت له عائشة : قد اُهدي إلينا حيس ، فقال : كنت أردت الصوم ولكن قرّبيه » (٣) .

و قد كان معروف الكرخي يهدى إليه طيّبات الطعام فيأكل فيقال له : إنّ

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٢ والبخاري ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) أخرجه ابوداود ج ١ ص ٥٧١ والترمذي ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٥٩ من حديث عائشة .

أخاك بشراً لا يأكل من هذا ، فيقول : أخي بشراً قبضه الورع ، وأنا بسطتني المعرفة ، ثمّ قال : إنّما أنا ضيف في دار مولاي إذا أطعمني أكلت وإذا جوّعني صبرت ، مالي وللاعتراض و التمييز .

و دفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم فقال خذ لنا بهذه زبداً وعسلا و خبزاً حواريا ، فقال : يا أبا إسحق بهذا كلّه ، فقال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرّجال و إذا عدمنا صبرنا صبر الرّجال . وأصلح ذات يوم طعاماً كثيراً ودعا نفراً يسيراً ، فقيل له : أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف إنّما الإسراف في الثياب والأثاث . فالبصير بأسرار المعرفة يعلم أنّ كلّ ذلك حقّ ولكن بالاضافة إلى اختلاف الأحوال .

☼(بيان آفة الرياء المتطرق الى من يترك أكل الشهوات أو يقلل الاكل)☼

أعلم أنّه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان ، هما أعظم من أكل الشهوات : إحداهما أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بأنّه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة مالا يأكله في الجماعة وهذا هو الشرك الخفيّ وهذه آفة عظيمة ، بل حقّ العبد إذا ابتلي بالشهوات وحبّها أنّه يظهره فإنّ هذا صدق الحال وهو يدلّ على فوات المجاهدة في الأعمال ، فإنّ إخفاء النقص وإظهار ضدّه من الكمال هما نقصانان متضاعفان والكذب مع الإخفاء كذبان فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضى منه الا بتوبتين صادقتين ، ولذلك شدّ الله أمر المنافقين فقال : « إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار »[1] لأنّ الكافر كفر و أظهر و هذا كفر وستر فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنّه استخفّ بنظر الله إلى قلبه وعظم أعين المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره وأثبته في باطنه ، فالعارفون يبتلون بالشهوات بل المعاصي ولا يبتلون بالرّياء والغشّ والإخفاء ، بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق و قد كان بعضهم يشتري

---

(١) النساء : ١٤٤ .

الشهوات فيعلّقها في بيته وهو فيها من الزّاهدين ، و لكن يبتغي به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتّى لايشوّشون عليه حاله ، فنهاية الزّهد الزهد في الزّهد باظهار ضدّه وهذا عمل الصدّيقين ، فانّه جمع بين صدقين كما أنّ الاوّل جمع بين كذبين ، فهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرّتين : مرّة بشربه ومرّة بقذفه ، فلاجرم اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا و هذه تضاهي طريق من يأخذ مايعطى جهراً ويردّ سرّاً ليكسر نفسه بالذّل جهراً وبالفقر سرّاً .

أقول: لاأرى صدقاً في تلبيس الحال ولا خيراً في مثل هذه الفعال ، بل أري كذباً بحتاً ورياء صرفاً ونظراً إلى الناس وإظهاراً لما ليس .

قال : فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته و نقصانه و الصدق فيه ولاينبغي أن يغرّه قول الشيطان : إنّك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك لأنّه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهمّ عليه من غيره فهو إنّما يقصد الرياء المجرّد ويروّجه عليه الشيطان في معرض إصلاح غيره ولذلك يثقل عليه ظهور ذلك منه ، وإن علم أنّ من اطّلع عليه ليس يقتدي به في الفعل أولا ينزجر باعتقاده أنّه تارك للشهوات .

الآفة الثانية أن يقدر على ترك الشهوات ولكنّه يفرح أن يعرف به و يشتهر بالتعفّف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة و هي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شرّ منها و هي شهوة الجاه و تلك هي الشهوة الخفيّة ، فمهما أحسّ بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أهمّ من كسر شهوة الطعام فليأكل وهو أولى به .

قال أبوسليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك مناها فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة و تكون قد نغّصت على نفسك إذلم تعطها شهوتها .

وقال جعفر بن محمّد الصّادق عليهما السلام : « إذا قدمت إليّ شهوة نظرت إلى نفسي فان أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها ، و إنّ أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً » و هذا طريق في عقوبة

النفس على هذه الشهوة الخفيّة .

أقول : لايشبه هذا بكلام مولانا الصّادق عليه السلام بل هوبكلام الصوفية أشبه .

قال : وبالجملة من ترك شهوة الطعام و وقع في شهوة الرّياء كان كمن هرب من عقرب و فزع إلى حيّة لأنّ شهوة الرّياء أضرّ كثيراً من شهوة الطعام .

✡(القول في شهوة الفرج)✡

اعلم أنّ شهوة الوقاع سلّطت على الإنسان لفائدتين: إحداهما أن يدرك لذّاته فيقيس بها لذّات الآخرة فإنّ لذّة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذّات الأجساد كما أنّ النّار وآلمها أعظم آلام الجسد ، فالترهيب والترغيب يسوقان الخلق إلى سعاداتهم وليس ذلك إلّا بألم محسوس ولذّة مدركة فإنّ مالايدرك بالذّوق لايعظم إليه الشّوق .

الفائدة الثّانية بقاء النسل ودوام الوجود ، فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفة مايهلك الدّين والدّنيا إن لم يضبط ولم يقهر ولم يرد إلى حدّ الاعتدال ، وقد قيل في قوله تعالى : « ربّنا ولاتحمّلنا مالاطاقة لنا به »(١) معناه شدّة الغلمة .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « ومن شرّ غاسق إذا وقب » (٢) قال : هو قيام الذكر ، وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّه قال في تفسيره الذكر إذا دخل .(٣) و قد قيل : إذا قام ذكر الرّجل ذهب ثلثا عقله ، وكان صلى الله عليه وآله يقول : « اللّهم إنّي أعوذبك من شرّ سمعي وبصري وقلبي ومنيّي » (٤) .

و قال صلى الله عليه وآله : «النساء حبائل الشيطان ، ولولا هذه الشهوة لماكان للنساء سلطنة على الرّجال» (٥).

(١) البقرة : ٢٨٠ . (٢) الفلق : ٣ .

(٣) قال العراقي هذا حديث لااصل له .

(٤) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٥٥ و «منيي» هو الماء المعروف مضافاً الى ياء المتكلم .

(٥) أخرجه الاصفهاني في الترغيب و الترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني باسناد فيه جهالة كما في المغني .

و روي أنّ موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل عليه إبليس وعليه برنس يتلوّن فيه ألوان ، فلمّا دنامنه خلع البرنس فوضعه ، ثمّ أتاه فقال : السّلام عليك فقال موسى : من أنت ؟ قال : أنا إبليس قال : فلاحيّاك الله ماجاء بك ؟ قال : جئتك لاُسلّم عليك لمنزلتك من الله ومكانك منه ، قال : فما الّذي رأيت عليك؟ قال : به أختطف قلوب بني آدم ، قال : فماالّذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟ قال : إذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه ، واُحذّرك ثلاثاً : لاتخل بامرأة لاتحلّ لك ، فإنّما خلارجل بامرأة لاتحلّ له إلّا كنت صاحبه دون أصحابه حتّى أفتنه بها وأفتنها به ، ولاتعاهدالله عهداً إلّا وفيت به ، ولاتخرجنّ صدقة إلّا أمضيتها فإنّما أخرج رجلٌ صدقة فلم يمضها إلّا كنت صاحبه دون أصحابه حتّى أحول بينه و بين الوفاء بها ، ثمّ ولي و هو يقول : يا ويلتا علم موسى مايحذّر به بني آدم .

وعن سعيد بن المسيّب قال : ما بعث الله نبيّاً فيما خلا ، إلّا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولاشيء أخوف عندي منهنّ ، وما بالمدينة بيت أدخله إلّا بيتي وبيت ابنتي ، أغتسل فيه يوم الجمعة ثمّ أروح .

وقال بعضهم : إنّ الشيطان قال للمرأة : أنت نصف جندي ، وأنت سهمي الّذي أرمي به فلاأخطيء ، وأنت موضع سرّي ، وأنت رسولي في حاجتي .

فنصف جنده الشهوة ، و نصفه الغضب ، وأعظم الشهوة شهوة النساء و هذه الشهوة لها أيضاً إفراط و تفريط واعتدالٌ فالإفراط مايقهر العقل حتّى يصرف همّة الرّجال إلى التمتّع بالنساء و الجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدّين حتّى يجرّ إلى اقتحام الفواحش وقدينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين أحدهما أن يتناولوا ما يقوّي شهواتهم ليستكثروا من الوقاع كما قديتناول بعض الناس أدوية تقوّي المعدة لتعظم شهوتها للطعام و ما مثال ذلك إلّا كمن ابتلي بسباع ضارية وبهائم عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لأثارتها وتهييجها ، ثمّ يشتغل بعلاجها و إصلاحها ، فإنّ شهوة الطّعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذّة بسبب الخلاص .

فإن قلت : فقد روي في غرائب الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « شكوت إلى جبرئيل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة » (١).

فاعلم أنّه كان تحته صلى الله عليه وآله وسلم تسع نسوة و وجب عليه تحصينهنّ بالإمتاع و حرّم على غيره نكاحهنّ وإن طلّقهنّ ، فكان طلبه القوّة لهذا لا للتمتّع .

أقول : هذا الحديث من طريق الخاصّة هكذا « شكوت إلى جبرئيل كثرة الأزواج فأمرني بالهريسة »(٢) وعلى هذا سقط السّؤال .

قال: والأمر الثاني أنّه قد ينتهي هذه الشهوة ببعض الضّلّال و الجهّال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع وهومجاوزة في النهمة لحدّ البهائم لأنّ المتعشّق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهي أقبح الشهوات و أجدرها بأن يستحي منها حيث ما اتّفق حتّى اعتقد أنّ الشهوة لا تنقضي إلاّ من محلّ واحد ، والبهيمة تقضي الشّهوة أين اتّفق فيكتفي به وهذا لا يكتفي إلّا بواحد معيّن حتّى يزداد به ذلا إلى ذلّة وعبوديّة إلى عبوديّة ، وحتّى يستسخر العقل لخدمة الشهوة ، و قد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة محتالاً لأجلها ، وما العشق إلّا منبعه إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا همّة له وإنّما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر و الفكر وإلّا فإذا استحكم عسر دفعه ، فكذلك عشق الجاه و المال و العقار والأولاد حتّى حبّ اللّعب بالطنبور و النرد و الشطرنج ، فإنّ هذه الأمور قد يستولي على طائفة بحيث تنغص عليهم الدّين والدّنيا ولا يصبرون عنها ألبتّة ، ومثال من يكسر سورة العشق في أوّل انبعاثه مثال من يصرف عنان الدّابّة عند توجّهها إلى باب لتدخله ، وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال علاجها بعد استحكامها مثال من يترك الدّابّة حتّى تدخل وتجاوز الباب ثمّ يأخذ بذنبها ويجرّها إلى ورائها ، و ما أعظم

---

(١) و (٢) في الكافي ج ٦ ص ٣٢٠ عن الصادق عليه السلام قال : « ان نبياً من الانبياء شكا الى الله عزوجل الضعف وقلة الجماع فأمره بأكل الهريسة » وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام « انه صلى الله عليه وآله شكا الى ربه وجع الظهر فأمره بأكل الحب باللحم يعني الهريسة ».

وقال العراقي أخرجه العقيلي في الضعفاء والطبراني في الاوسط من حديث حذيفة وهو موضوع .

التفاوت بين الأمرين في العسر واليسر ، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأمّا أواخرها فلا تقبل العلاج إلاّ بجهد شديد يكاد يوازي نزع الرّوح .

فإذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحدّ و هو مذموم جدّاً و تفريطها بالعنت أو بالضعف عن امتاع المنكوحة وهو أيضاً مذموم ، وإنّما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انبساطها و انقباضها ومهما أفرطت فكسرها بالجوع وبالنكاح قال ﷺ : « معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم له وجاء » (١) .

(بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله)

اعلم أنّ المريد في ابتداء أمره لاينبغي أن يشغل نفسه بالتزويج ، فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه عن السلوك ويستجرّه إلى الأنس بالزّوجة ومن أنس بغير الله شغل عن الله ، ولا يغرّنّه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنّه كان لايشغل قلبه جميع ما في الدّنيا عن الله تعالى فلايقاس الملائكة بالحدّادين و كيف يقاس غير رسول الله به وكان استغراقه بحبّ الله بحيث كان يخاف إحتراقه فيه إلى حدّ كان يخشى في بعض الأحوال أن يسري ذلك إلى قالبه فيهدمه ، فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحياناً ويقول : « كلّميني يا عائشة » (٢) تشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه و قد كان ﷺ طبعه الأنس بالله ، وكان اُنسه بالخلق عارضاً رفقاً ببدنه ، ثمّ كان لايطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال : «أرحنا يا بلال » (٣) حتّى يعود إلى ما هو قرّة عينه . فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذا فهو مغرور لأنّ الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله ، فشرط المريد

---

(١) أخرجه مسلم والبخارى ج ٧ ص٣ وابن ماجه وأبو داود من حديث ابن عباس .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا . أقول : المعروف هكذا « كلمينى ياحميراء » و قال المولى على القارى : قال المزى : كل حديث فيه باحميراء فهو موضوع . الموضوعات الكبير ص ١٤٣ .

(٣) تقدم فى المجلد الاول ص ٣٧٧ .

العزوبة في الابتداء إلى أن يقوي في المعرفة وهذا إذا لم تغلبه الشهوة ، فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصّوم الدّائم ، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك و كان بحيث لايقدر على حفظ العين مثلاً و إن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلّا فمهما لم يتحفّظ عينه لم يتحفّظ فكره وتفرّق همّه ، و ربّما وقع في بليّة لايطيقها .

أقول : الحاجة إلى النكاح في الابتداء أكثر منها في الانتهاء فينبغي لمن أراد المعرفة أن يتزوّج تزوّجاً لايشغله عنها كالمتعة ونحوها ، وقد مضى تحقيق هذه المباحث مفصّلاً في كتاب آداب النكاح .

قال : وزنى العين من كبار الصغاير ، و هي تؤدّي على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهي زنى الفرج ومن لم يقدر على غضّ بصره لم يقدر على حفظ فرجه .

قال عيسى عليه السلام : « إيّاكم و النظرة فإنّها تزرع في القلب شهوة و كفى بها فتنة » .

و قال داود لابنه عليهما السلام : « يا بنيّ امش خلف الأسد و الأسود ، ولا تمش خلف المرأة » .

و قيل ليحيى بن زكريّا عليهما السلام : ما بدء الزّنى قال : النظر والتمنّي .

و قال الفضيل : يقول إبليس : هي قوسي القديمة وسهمي الّذي لا أُخطىء به، يعني النظر .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه » (١) .

و قال صلى الله عليه وآله : « ماتركت بعدي فتنة أضرّ على الرّجال من النساء » (٢) .

و قال صلى الله عليه وآله : « اتّقوا فتنة الدّنيا و فتنة النساء فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل

---

(١) رواه الطبراني والحاكم في المستدرك من حديث حذيفة ، وقال : صحيح الاسناد كما في الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٤ .

(٢) اخرجه البخاري ومسلم والترمذي واحمد والنسائي وابن ماجه تحت رقم ٣٩٩٨ من حديث اسامة بن زيد .

كانت من قبل النساء» [١] .

و قال تعالى : «قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم» [٢] .

و قال ﷺ : « لكلّ ابن آدم حظّ من الزنى ، فالعينان تزنيان و زناهما النظر . واليدان تزنيان وزناهما البطش ، و الرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والفم يزني وزناه القبلة ، والقلب يهمّ ويتمنّى و يصدّق ذلك الفرج أويكذّبه »[٣] .

و قالت أمّ سلمة : استأذن ابن امّ مكتوم الأعمى على رسول الله ﷺ و أنا وميمونة جالستان ، فقال النبيّ ﷺ : « احتجبا عنه ، فقلنا : أو ليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال : و أنتما لا تبصرانه » [٤] .

و هذا يدلّ على أنّه لايجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت العادة به في المآتم والولائم فيحرم على الأعمى الخلوة بالنّساء ويحرم على المرأة مجالسةالأعمى و تحديق النظر إليه بغيرحاجة و إنّما جوّز للنّساء محادثة الرّجال و النظر إليهم لأجلعموم الحاجة . وإن قدر على حفظ عينيه عن النّساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به فإنّ الشرّ في الصّبيانأكثر فإنّه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح والنظر بالشهوة إلى وجه الصبيّ حرام بل كلّ من يتأثّر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه و بينالملتحي لم يحلّ له النظر إليه .

فإن قلت : كلّ ذي حسّ يدرك التفرقة بينالجميل والقبيح لامحالة ولمتزل وجوه الصبيان مكشوفة لامحالة .

فأقول : فلست أعني تفرقة العين فقط بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكهالتفرقة بين شجرة خضراء ويابسةوماء صاف وماء كدر وشجرة عليهاأزهارها

(١) أخرجه مسلم من حديث ابى سعيد الخدرى كمافى المغنى .

(٢) النور : ٣١ .

(٣) رواه البخارى ومسلمباختصار ، والنسائى . وابوداود ج ١ ص ٤٩٦ ، وراجع الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٦ .

(٤) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٣٨٤ بادنى تغيير فىاللفظ .

و أنوارها ، وشجرة تساقطت أوراقها فإنّه يميل إلى إحديها بعينه وطبعه ولكن ميلاً خالياً عن الشهوة ولذلك لايشتهي ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ولا تقبيل الماء الصّافي ، و كذلك البشرة الحسنة قد تميل العين إليها و تدرك التفرقة بينها و بين الوجه القبيح و لكنّها تفرقة لاشهوة فيها ، و يعرف ذلك بميل النفس إلى القرب و الملامسة ، فمهما وجد ذلك الميل في قلبه و أدرك تفرقة بين الوجه الجميل و بين النبات الحسن و بين الأثواب المنقّشة و السقوف المزخرفة فنظره نظر شهوة و هو حرام ، وهذا ممّا يتهاون به الناس ويجرّهم ذلك إلى المعاطب وهم لايشعرون .

و قال بعض التابعين : ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشابّ الناسك من غلام أمرد يجلس إليه ، و عن بعض السّلف قال : سيكون في هذه الأمّة ثلاثة أصناف لوطيّون ، صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، و صنف يعملون ، فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة فمهما عجز المريد عن غضّ بصره و ضبط فكره فالصواب له أن يكسّر شهوته بالنكاح فربّ نفس لايسكن توقانها بالجوع ، و قال بعضهم : غلبت عليّ شهوتي في بدء إرادتي بمالم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصاً في المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدّم إليّ فتقدّمت إليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فأصبحت و قد زال مابي و بقيت معافى سنة ثمّ عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة فجاءني شخص في المنام فقال : أتحبّ أن يذهب ماتجد وأضرب عنقك ؟ قلت : نعم ، قال : مدّ رقبتك فمددتها فجرّد سيفاً من نور وضرب به عنقي فأصبحت وقد زال مابي ، فبقيت معافى سنة ثمّ عاودني ذلك أو أشدّ منه فرأيت شخصاً في المنام يخاطبني فيما بين صدري و جنبي ويقول : ويحك كم تسأل الله رفع مالايحبّ رفعه تزوّج ، قال : فتزوّجت فانقطع ذلك عنّي وولدلي . ومهما احتاج إلى النكاح فلاينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه أمّا في ابتدائه فبالنيّة الحسنة و دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما قد فصّلنا جميع ذلك في آداب النكاح ، فلانطول بإعادته ، وأمارة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متديّنة ولا يطلب الغنيّة قال بعضهم : من تزوّج

غنيّة كان له منها خمس خصال : مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة، و كثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً من ذهاب مالها ، والفقيرة بخلاف ذلك ، وقد قال بعضهم : ينبغي أن يكون المرأة دون الرّجل بأربع وإلّا استحقرته : بالسنّ والطول والمال والحسب وأن يكون فوقه بأربع بالجمال و الأدب و الخلق والورع ، وعلامة صدق الارادة في دوام النكاح الخلق ، تزوّج بعض المريدين امرأة فلم يزل يخدمها حتّى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيّرت في هذا الرجل أنا في منزله منذسنين ما ذهبت إلى الخلاء قطّ إلّا و حمل الماء معي أو قبلي إليه ، وتزوّج بعض الصوفية امرأة سيّئة الخلق و كان يصبر عليها فقيل له لم لاتطلّقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوّجها من لايصبر على خلقها فيتأذّى بها ، فإن نكح المريد فهكذا ينبغي أن يكون ، و إن قدر على الترك فهو له أولى إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أنّ ذلك يشغله عن حاله ، كما روي أنّ محمّد بن سليمان الهاشمي يملك غلّته ثمانين ألف درهم في كلّ يوم فكتب إلى كبراء أهل البصرة و علمائهم في امرأة يتزوّجها فأجمعوا كلّهم على رابعة العدوية فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرّحيم أمّا بعد فإنّ الله تبارك و تعالى قد ملكني من غلّة الدّنيا في كلّ يوم ثمانين ألف درهم و ليس تمضي اللّيالي والأيّام حتّى أتمّها مائة ألف درهم وأنا أصير لك مثلها ومثلها فاجيبيني إلى ماسألت فكتبت إليه بسم الله الرحمن الرّحيم أمّا بعد فإنّ الزّهد في الد نيا راحة البدن والرّغبة فيها تورث الهمّ والحزن فإذا أتاك كتابي فهيّىء زادك و قدّم لمعادك و كن وصيّ نفسك ولا تجعل الرّجال أوصياءك فيقسموا ميراثك ، وصم الدّهر واجعل فطرك الموت ، وأمّا أنا فلو أنّ الله عزّ وجلّ خوّلني أمثال الّذي خوّلك وأضعافه ماسرّني أن أشتغل عن الله طرفة عين . وهذه إشارة إلى أنّ كلّ ما يشغل عن الله فهو نقصان فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده في العزوبة خالياً عن الشهوات بحيث لم يشوش حاله فهو الأقرب وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ، ودواء هذه العلّة ثلاثة اُمور : الجوع وغضّ البصر والاشتغال بشغل يستولي على القلب فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الّذي يستأصل مادّتها فقط

ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات .

قال سعيد بن المسيّب : مايئس الشيطان من قلب إلّا أتاه من قبل النساء وقال سعيد و هو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالاُخرى : ما من شيء أخوف عندي من النساء .

وعن عبدالله بن أبي وداعة قال : كنت اُجالس سعيد بن المسيّب ففقدني أيّاماً فلمّا جئته قال : أين كنت فقلت : توفّيت أهلي فاشتغلت بها قال : هلّا أخبرتنا فشهدنا، قال : ثمّ أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة فقلت : يرحمك الله ومن يزوّجني وما أملك إلّا درهمين أو ثلاثة قال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، ثمّ حمدالله وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وزوّجني ابنته بمحضر من كان على درهمين أو ثلاثة ، قال : فقمت ما أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي وجعلت أفكّر ممّن آخذ وممن أستدين فصلّيت المغرب وانصرفت إلى منزلي و أسرجت و كنت وحدي صائماً فقدمت عشائي حتّى أفطر به و كان خبزاً وزيتاً فإذا بابي يقرع ، فقلت : من هذا ؟ فقال : سعيد فأفكرت في كلّ إنسان اسمه سعيد بالمدينة إلّا سعيد بن المسيّب فإنّه لم ير منذ أربعين سنة إلّا بين بيته والمسجد فقمت و خرجت فإذا أنا به ، فظننت أنّه قد بداله فقلت : ياأبامحمّد ألّا أرسلت إليّ فأتيتك ؟ قال : لا أنت أحقّ أن تؤتى ، فقلت : فما تأمرني قال : إنّك كنت رجلاً عزباً فتزوّجت فكرهت أن أبيتك اللّيلة وحدك وهذه امرأتك فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثمّ أخذ بيدها فدفعها في الباب و ردّ الباب فسقطت المرأة من الحياء ، وقال : بارك الله فيكما ولكما برحمته فانصرف فاستوثقت من الباب ثمّ تقدّمت إلى القصعة الّتي فيها الزّيت والخبز فوضعتها في ظلّ السراج لكيلا تراه ثمّ صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاؤني فقالوا : ماشأنك ؟ قلت : ويحكم زوّجني سعيد بن المسيّب ابنته اليوم وقد جاء بها اللّيلة على غفلة ، فقالوا : أو سعيد زوّجك ؟ فقلت : نعم قالوا : وهي في الدّار ؟ قلت : نعم فنزلوا إليها و بلغ اُمّي الخبر فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن اُصلحها إلى ثلاثة أيّام ، قال : فأقمت ثلاثة أيّام ثمّ دخلت بها فإذا هي من أجمل النّاس

و أحفظ النّاس لكتاب الله و أعلمهم بسنّة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحقّ الزّوج ، قال : فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلمّا كان بعد الشّهر أتيت سعيداً و هو في حلقته فسلّمت عليه فردّ السلام عليّ ولم يكلّمني حتّى تفرّق أهل المجلس ، فقال : ماحال ذلك الإنسان فقلت : خيراً ياأبامحمّد على مايحبّ الصّديق ويكره العدوّ فقال : إن رابك شيء فدونك والعصا ، فانصرفت إلى منزلي فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم .

قال عبدالله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيّب قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولّاه العهد فأبى سعيد أن يزوّجه فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتّى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصبّ عليه جرّة ماء بارد وألبسه جبّة صوف . فاستعجال سعيد في الزفاف تلك اللّيلة يعرفك غائلة الشهوة و وجوب المبادرة في الدّين إلى تطفئة نارها بالنكاح .

✿(بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين)✿

اعلم أنّ هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان و أعصاها عند الهيجان على العقل إلّا أنّ مقتضاها قبيح يستحيى منه ويخشى من اقتحامه و امتناع أكثر النّاس عن مقتضاها إمّا لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس في شيء من ذلك ثواب فإنّه إيثار حظّ من حظوظ النفس على حظّ آخر ، نعم من العصمة أن لا يقدر ففي هذه العوائق فائدة و هي دفع الاثم فإنّ من ترك الزّنى اندفع عنه إثمه بأيّ سبب كان تركه ، وإنّما الفضل و الثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة عليه وارتفاع الموانع و تيسّر الأسباب لاسيّما عند صدق الشهوة و هذه درجة الصديقين و لذلك قال رسول الله ﷺ : « من عشق فعفّ فكتم فمات فهو شهيد » (١) .

قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلّهم الله يوم لاظلّ إلّا ظلّه و عدّ منهم رجلاً

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

دعته امرأة ذات حسب وجمال إلى نفسها فقال : إنّي أخاف الله ربّ العالمين » [١] .

وقصّة يوسف عليه السلام وامتناعه عن زليخا مع القدرة و رغبتها معروفة و قد أثنى الله تعالى بذلك عليه في كتابه و هو إمام كلّ من وفّق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

روي عن عبدالله بن عمر قال : [٢] « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار ، فقالوا : إنّه لاينجيكم من هذه الصخرة إلّا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم قال رجل منهم : اللّهم إنّك تعلم أنّه كان لي أبوان شيخان كبيران و كنت لا أغبق قبلها أهلاً ولا ولداً ولا مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتّى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما [٣] فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً و ولداً أومالاً ، فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر و الصبية يتضاغون بين قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لايستطيعون الخروج ، وقال الآخر : اللّهمّ إنّه كانت لي ابنة عمّ و كانت من أحبّ النّاس إليّ ، فراودتها عن نفسها فامتنعت منّي حتّى ألمّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها مائة و عشرين ديناراً على أن تخلّي بيني و بين نفسها ففعلت حتّى إذا قدرت عليها قالت : اتّق الله يا عبدالله ، لايحلّ لك أن تفضّ الخاتم إلّا بحقّه ، فتحرّجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحبّ الناس إليّ وتركت الذّهب الّذي أعطيتها ، اللّهمّ إن كنت تعلم أنّي فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنّهم لايستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللّهمّ إنّك تعلم أنّي استأجرت

(١) أخرجه ابن زنجويه عن الحسن مرسلا وابن عساكر عن ابى هريرة والبيهقى فى الاسماء عن ابى هريرة أيضاً بسند حسن ورواه البخارى ومسلم وقد تقدم فى كتاب النكاح .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٣ بطوله .

(٣) الغبوق - بفتح الغين - : مايشرب بالعشى وأيضاً اسم مايحلب بالعشى .

اُجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحدتركَ الّذي له و ذهب فثمرت أجرته حتّى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبدالله هات أجري فقلت: كلُّ ما ترى من أجرك من الابل و البقر والغنم و الرّقيق، فقال: ياعبدالله لاتستهزىء بي فقلت: إنّي لاأستهزىء بك، فأخذه كلّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللّهمّ فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنّا مانحن فيه فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون».

فهذا فضل من تمكّن من قضاء هذه الشهوة فعفّ ويقرب منه من تمكّن من قضاء شهوةالعين فإنّ النظر مبدء الزّنى فحفظه مهمّ وهوعسير من حيث أنّهقديستهان به ولا يعظم الخوف فيه و الآفات كلّها منه تنشأ، فالنظرة الاُولى إذا لم يقصدها لايؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها، قال ﷺ: «لك الاُولى و عليك الثانية»(١) أي النظرة.

و قال العلا بن زياد: لاتتبع بصرك رداء المرأة فإنّ النظرة تزرع في القلب شهوة، و قلّما يخلو الإنسان في تردّداته عن وقوع البصر على النساء و الصبيان، ومهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة، وعنده ينبغي أن يقرّر على نفسه أنّ هذه المعاودة عين الجهل لأنّه إن حقّق النظر و استحسن ثارت الشهوة و عجز عن الوصول ولا يحصل له إلّا التحسّر، و إن استقبح لم يتلذذ به و يأثم لأنّه قصد التلذّذ فقد فعل ما آلمه فلايخلو في كلتي حالتيه عن معصية وعن تألّم وتحسّر، ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات وإن أخطأت عينيه و حفظ الفرج مع التمكّن فذلك يستدعي غاية القوّة و نهاية التوفيق.

روي عن [أبي] بكر بن عبدالله المزني أنّ قصّاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية اُخرى فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت له: لاتفعل

(١) رواه الدارمي ج ٢ ص ٢٩٨ و احمد في مسند علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ياعلي ان لك كنزاً في الجنة وانك ذوقرنيها فلاتتبع النظرة النظرة فانما لك الاولى وليست لك الاخرة. وروى الترمذي وابوداود من حديث بريدة نحوه وقدم تقدم.

لأنا أشدّ حبّاً لك منك لي ولكنّي أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه و أنا لا أخافه فرجع تائباً فأصابه العطش حتّى كاد ينقطع عنقه فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله ، فقال : مالك ؟ فقال : العطش قال : تعال ندعو الله حتّى تظلّنا سحابة حتّى ندخل القرية ، قال : مالي من عمل فأدعو ، قال : فأنا أدعو وأمّن أنت ، فدعا الرّسول وأمّن هو فأظلّتهما سحابة حتّى انتهيا إلى القرية فأخذ القصاب إلى مكانه و مالت السحابة معه ، فقال له صاحبه : زعمت أن ليس لك عمل وأنا الّذي دعوت و أنت الّذي أمّنت فأظلّتنا سحابة ثمّ تبعتك لتخبرني بأمرك فأخبره بالقصّة فقال الرسول إنّ التائب من الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه .

و عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شابٌّ متعبّد ملازم لمسجد الجامع لايكاد يخلو منه ، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال ذلك عليها ، فلمّا كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجد فقالت له : يافتى اسمع منّي كلمة اُكلّمك بها ثمّ اصنع ما شئت ، فمضى ولم يكلّمها ثمّ وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله و قالت له : يافتى اسمع مني كلمة اُكلّمك بها ، قال : فأطرق مليّاً و قال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً ، فقالت له : والله ما وقفت موقفي هذا جهالة منّي بأمرك ولكن معاذ الله أن يشرف العبّاد إلى مثل هذا منّي و الّذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أنّ القليل من هذا عند الناس كثير وأنتم معاشر العبّاد في مثال القوارير أدنى شيء يعيبها وجملة ما اُكلّمك به أنّ جوارحي كلّها مشغوفة بك فالله الله في أمري و أمرك ، قال : فمضى الشابّ إلى منزله فأراد أن يصلّي فلم يعقل كيف يصلّي ، فأخذ قرطاساً و كتب كتاباً ، ثمّ خرج من منزله فإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى إليها الكتاب و رجع إلى منزله وكان في الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم اعلمي أيّتها المرأة أنّ الله تبارك و تعالى إذا عصي حلم فإذا عاد العبد في المعصية ستره فإذا لبس لها ملابسها غضب الله عزّ و جلّ لنفسه غضبة تضيق منها السّماوات والأرض والجبال والشجر والدّوابّ فمن ذا يطيق

غضبه فإن كان ما ذكرت باطلاً فإنّي أذكرك يوم تكون السماء كالمهل و تكون الجبال كالعهن ، و تجثوا الأُمم لصولة الجبّار العظيم ، فإنّي والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري ، وإن كان ما ذكرته حقّاً فإنّي أدلّك على طبيب يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة ، ذلك الله ربّ العالمين ، فاقصديه على صدق المسئلة ، وارجعي إليه فإنّي متشاغل عنك بقوله : « و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ✿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » [1] فأين المهرب عن هذه الآية ؟ ، ثمّ جاءت بعد ذلك بأيّام فوقفت له على طريقه فلمّا رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها ، فقالت : يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلّا بين يدي الله عزّ وجلّ وبكت بكاءً شديداً ، وقالت : أسأل الله الّذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهّل عليّ ما قد عسر من أمرك ، ثمّ تبعته فقالت : امنن عليّ بموعظة أحملها عنك و أوصني بوصيّة أعمل عليها ، فقال لها الفتى : أُوصيك بحفظ نفسك من نفسك و أذكّرك قوله عزّ وجلّ : « و هو الّذي يتوفّيكم باللّيل و يعلم ماجرحتم بالنهار » [2]، قال : فأطرقت الجارية و بكت بكاءً شديداً أشدّ من بكائها الأوّل ، ثم أفاقت ولزمت بيتها وأخذت في العبادة ، فلم تزل على ذلك حتّى ماتت كمداً [3]، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثمّ يبكي عليها ، فقيل له : ممّ بكاؤك و أنت قد آيستها من نفسك فيقول : إنّي قد ذبحت طمعها منّي في أوّل أمرها وجعلت قطعها ذخيرة لي عند الله عزّ وجلّ و أنا أستحي من الله أن أسترد ذخيرة ادّخرتها عنده والحكم لله .

هذا آخر كتاب كسر الشهوتين من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه إن شاء الله كتاب آفات اللّسان و الحمد لله أوّلاً وآخراً و ظاهراً و باطناً وصلّى الله على محمّد وآله وسلم .

---

(١) المؤمن : ١٨ و ١٩ . (٢) الانعام : ٦٠ .

(٣) الكمد ـ بالتحريك ـ تغير اللون و ذهاب صفائه والحزن الشديد .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرّابع من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي أحسن خلق الإنسان وعدّله ، وألهمه نور الإيمان فزيّنه به وجمّله ، وعلّمه البيان فتقدّمه به وفضّله ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثمّ أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ، ثمّ أمدّه بلسان يترجم عمّا حواه القلب ويقبله ، و يكشف عنه سرّه الّذي أرسله . فأطلق بالحمد مقوله ، و أفصح بالشكر عمّا أولاه وخوّله ، من علم حصّله ونطق سهّله ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، و أنّ محمّداً عبده و رسوله الّذي أكرمه وبجّله ، ونبيّه الّذي أرسله بكتاب أنزله ، وتبيان فصّله ، ودين سهّله .

صلّى الله عليه و على آله و أصحابه ومن قبله ، ما كبّره عبدٌ وهلّله .

أما بعد فإنّ اللّسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنّه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلّا بشهادة اللّسان ، وهما غاية الطاعة والطغيان ، ثمّ إنّه ما من موجود أو معدوم ، خالق أو مخلوق ، متخيّل أو معلوم ، مظنون أو موهوم إلّا واللّسان يتناوله و يتعرض له بإثبات أونفي ، فإنّ كلّ مايتناوله العلم يعرب عنه اللّسان إمّا بحقّ أوباطل ، ولاشيء إلّا والعلم متناول له ، وهذه خاصيّة لا توجد في سائر الأعضاء ، فإنّ العين لاتصل إلى غير الألوان والصّور ، والأذن لاتصل إلى غير الأصوات ، واليد لاتصل إلى غير الأجسام و كذا سائر الأعضاء ، واللّسان رحب الميدان ليس له مردٌّ ولا لمجاله منتهى ولاحدٌّ فله في الخير مجال رحب ، وله في الشرّ مجرى سحب فمن أطلق عذبة اللّسان وأهمله مرخى العنان

سلك به الشيطان في كلّ ميدان ، و ساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطرّه إلى البوار « ولايكبّ النّاس على مناخرهم إلّاحصائد ألسنتهم »ولاينجي من شرّ اللّسان إلّا أن يقيّد بلجام الشرع فلايطلقه إلّا فيما ينفعه في الدّنيا و الآخرة و يكفّ عن كلّ ما يخشى غائلته في عاجله وآجله ، وعلم ما يحمد إطلاق اللّسان فيه أو يذمّ غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللّسان فإنّه لاتعب في تحريكه ولامؤونة في إطلاقه ، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله وإنّه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان ونحن بتوفيق الله و حسن تيسيره نفصّل مجامع آفات اللّسان و نذكرها واحدة واحدة بحدودها و أسبابها و غوائلها و نعرف طريق الاحتراز منها وإيراد ماورد من الأخبار والآثار في ذمّها .

فنذكر أوّلاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفات الكلام فيما لايعني ، ثمّ آفة فضول الكلام ، ثمّ آفة الخوض في الباطل ، ثمّ آفة المراء والمجادلة ، ثمّ آفة الخصومة ، ثمّ آفة التقعّر في الكلام بالتشدّق و تكلّف السجع والفصاحة والتصنّع فيه وغيره ذلك ممّا جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة ، ثمّ آفة الفحش والسبّ وبذاءة اللّسان ، ثمّ آفة اللّعن إمّا لحيوان أولجماد أولإنسان ، ثمّ آفة الغناء و الشعر ، ثمّ آفة المزاح ، ثمّ آفة السخريّة والاستهزاء ، ثمّ آفة إفشاء السرّ ، ثمّ آفة الوعد الكاذب ، ثمّ آفة الكذب في القول و اليمين و غوائله ، ثمّ بيان ما يرخّص فيه من الكذب ، ثمّ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض ، ثمّ بيان آفة الغيبة ، ثمّ بيان معنى الغيبة وحدّها ، ثمّ بيان أنّ الغيبة لايقتصر على اللّسان ، ثمّ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة ، ثمّ بيان العلاج الّذي يمنع اللّسان من الغيبة ، ثمّ بيان تحريم الغيبة بالقلب ، ثمّ بيان الأعذار المرخّصة في الغيبة ، ثمّ بيان كفّارة الغيبة ، ثم آفة النميمة وما يجب في ردّها ، ثمّ آفة ذي اللّسانين الّذي يتردّد بين المتعادين و يكلّم كلّ واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثمّ آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام ، لاسيّما فيما يتعلّق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدّين ، ثمّ آفة سؤال العوام

عن صفات الله عزّ وجلّ وعن كلامه و عن الحروف وأنّها قديمة أو محدثة و مايتعلّق بذلك ، وهي تمام الآفات وجملتها عشرون آفة .

(بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت)

إعلم أنّ خطر اللّسان عظيم ولانجاة من خطره إلّابالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحثّ عليه فقال ﷺ : « من صمت نجا »(١) .

و قال ﷺ أيضاً : « الصمت حكم وقليل فاعله » (٢) أي هو حكمة وحزم .

وروى عبدالله بن سفيان ، عن أبيه قال : قلت لرسول الله ﷺ : « أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسئل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثمّ استقم ، قلت : فما أتّقي ؟ فأومأ بيده إلى لسانه »(٣) .

و قال عقبة بن عامر : « قلت لرسول ﷺ : ما النجاة ؟ قال : أملك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وأبك على خطيئتك » (٤) .

و قال سهل بن سعد السّاعدي : قال رسول الله ﷺ : « من يتكفّل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفّل له بالجنّة »(٥) .

و قال ﷺ : «من وقي شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه فقدوقي »(٦) والقبقب البطن ، والذبذب الفرج ، و اللّقلق اللّسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللّسان لمّا فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج .

وقد سئل رسول الله ﷺ « عن أكثر مايدخل النّاس الجنّة ، فقال : تقوى

(١) أخرجه احمد ج ٢ ص ١٧٧ من حديث ابن عمر بسند ضعيف والدارمي ج٢ ص٢٩٩.
(٢) أخرجه القضاعي عن أنس والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .
(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٢ عن سفيان بن عبدالله الثقفي .
(٤) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٤٧ وقال : هذا حديث حسن .
(٥) أخرجه البخاري والترمذي ج ٩ ص ٢٤٨ وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .
(٦) أخرجه البيهقي في الشعب عن انس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثرما يدخل الناس النّار ، قال : الأجوفان : الفم والفرج » (١) فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفة اللّسان لأنّه محلّه ، و يحتمل أن يكون المراد به البطن لأنّه منفذه .

و قال معاذ : قلت لرسول الله ﷺ : أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : « ثكلتك أمّك ياابن جبل ، وهل يكبّ الناس على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم »(٢) .

و قال عبدالله الثقفيّ : «قلت لرسول الله ﷺ : حدّثني بأمر أعتصم به ، قال: قل : ربي الله ثمّ استقم ، وقال : قلت : يا رسول الله ما أخوف ماتخاف عليّ ؟ فأخذ بلسانه ثمّ قال : هذا » (٣) .

و قال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ : « لايستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنّة رجل لا يأمن جاره بوائقه »(٤).

و قال ﷺ : «من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت » (٥) .

وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ : أنّه قال : «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلّها تستكفي اللّسان أي تقول اتق الله فينا فإنّك إن استقمت

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٤٦ من حديث ابي هريرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٣ في حديث طويل من حديث معاذ وقوله صلى الله عليه و آله « يكب » من كبه ، اذا صرعه . « حصائد السنتهم » اى محصوداتهم ، على تشبيه مايتكلم به الانسان بالزرع المحصود بالمنجل فكما ان المنجل يقطع من غير تمييز بين رطب و يابس وجيد وردى كذلك المكثار فى الكلام بكل فن من الكلام من غير تمييز بين مايحسن ومايقبح (كذافى هامش السنن) .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٤٩ وقد تقدم والدارمى ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) رواه احمدوابن ابى الدنيا فى الصمت و كلاهما من رواية على بن مسعدة الباهلى عن قتادة عن أنس كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٥٢٨ .

(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الاعمال وغيرهما كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٦ .

استقمنا وإن اعوججت أعوججنا » (١) .

و عن ابن مسعود أنّه كان على الصفا يلبّي و هو يقول : يا لسان قل خيراً تغنم أو اصمت تسلم من قبل أن تندم ، قيل له : يا أبا عبدالرّحمن أهذا شيءٌ تقوله : أوشيء سمعته ؟ قال : لابل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه » (٢) .

و قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « من كفّ لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (٣) .

وروي « أنّ معاذ بن جبل قال لرسول الله ﷺ : أوصني قال : اعبدالله كأنّك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كلّه وأشار بيده إلى لسانه » (٤) .

وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا اُخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٥) .

وقال أبوهريرة : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٦) .

وقال الحسن : ذكر لنا أنّ النبيّ ﷺ قال : « رحم الله عبداً تكلّم خيراً فغنم ، أو سكت فسلم » (٧) .

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٤٧ وفيه « تكفر اللسان » من باب التفعيل اى تذكره أن يخشى الله فلايقول هجراً .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن كما فى المغنى ورواه الطبرانى بسند صحيح كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٤ .

(٣) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت بسند حسن كما فى المغنى .

(٤) أخرجه ابن ابى الدنيا أيضاً فى الصمت بسند جيد كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٢ .

(٥) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت مرسلا كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٣ ورواه ابو الشيخ فى طبقات المحدثين من حديث ابى ذر وأبى الدرداء مرفوعاً .

(٦) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٩ فى حديث .

(٧) أخرجه ابو الشيخ عن ابى امامة بسند ضعيف ونحوه البيهقى فى الشعب عن أنس وعن الحسن مرسلا بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

و قال سفيان : قالوا لعيسى عليه السلام : دلّنا على عمل ندخل به الجنّة ، قال : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لانستطيع على ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلّا بخير .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : «إن كان الكلام من فضّة فالصمت من ذهب» .

وعن البراء بن عازب قال : « جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : دلّني على عمل يدخلني الجنّة ، قال : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، و أمر بالمعروف ، و انه عن المنكر ، فإن لم تطق فكفَّ لسانك إلّا من خير » [1].

وقال صلى الله عليه وآله : « اخزن لسانك إلّا من خير فإنّك بذلك تغلب الشيطان »[2].

وقال صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله عند لسان كلّ قائل فليتّق الله امرءٌ على ما يقول »[3].

وقال صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنّه يلقي الحكمة » [4].

وقال ابن مسعود : قال صلى الله عليه وآله : « الناس ثلاثة غانمٌ وسالمٌ و شاجبٌ : فالغانم الّذي يذكر الله ، والسالم الساكت ، والشاجب الّذي يخوض في الباطل » [5].

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلّم بشيء تدبّره بقلبه ، ثمّ أمضاه بلسانه ، وإنَّ لسان المنافق أمام قلبه فإذا همَّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبّره بقلبه » [6].

---

(١) أخرجه الطيالسى فى مسند البراء تحت رقم ٧٣٩ فى حديث .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٢ .

(٣) أخرجه ابن ابى شيبة واحمد فى الزهد والحكيم الترمذى عن عمر بن ذر عن ابيه عنه صلى الله عليه وآله كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٠٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠١ هكذا « اذا رأيتم الرجل قد اعطى زهداً فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة » .

(٥) قال العراقى : أخرجه الطبرانى وابو يعلى من حديث ابى سعيد الخدرى و فيه «المجالس ثلاثة وضعفه ابن عدى ولم اجده من حديث ابن مسعود .

(٦) قال العراقى لم أجده مرفوعاً وانما رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من رواية الحسن البصرى قال : كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار عن الناس».

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله : «من كثر كلامه كثر سقطه، و من كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به»[1].

أقول: وروي في كتاب مصباح الشريعة عن مولانا الصادق عليه السلام أنّه قال: «الصمت شعار المحقّقين بحقائق ما سبق، وجفّ به القلم، و هو مفتاح كلّ راحة من الدّنيا والآخرة، و فيه رضا الرّبّ، و تخفيف الحساب، والصون من الخطايا والزّلل، قد جعله الله ستراً على الجاهل، وزيناً للعالم، ومعه عزل الهوى، ورياضة النّفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروّة والظرف، فأغلق باب لسانك عمّا لك منه بدلاً سيّما إذا لم تجد أهلاً للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله، وكان الربيع بن خثيم يضع قرطاساً بين يديه فيكتب كلّ ما يتكلّم به، و يحاسب نفسه عشيّته، ماله وما عليه، ويقول: آوه نجا الصامتون و بقينا، و كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يضع حصاة في فمه فإذا أراد أن يتكلّم بما علم أنّه لله و في الله و لوجه الله أخرجها فإنّ كثيراً أصحابه - رضي الله عنهم - كانوا يتنفّسون تنفّس الغرقى و يتكلّمون شبه المرضى و إنّما سبب هلاك الخلق و نجاتهم الكلام والصمت، فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وصوابه و علم الصمت و فوائده فإنّ ذلك من أخلاق الأنبياء و شعار الأصفياء و من علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت و من أشرف على ما في لطايف الصمت وائتمنه على خزائنه كان كلامه و صمته كلّه عبادة ولا يطلع على عبادته هذه إلّا الملك الجبّار»[2].

وفي الكتاب المذكور عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «الكلام إظهار ما في القلب من الصفا و الكدر، و العلم و الجهل، قال أمير المؤمنين عليه السلام : المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك وأعرضه على العقل والمعرفة، فإن كان لله وفي الله فتكلّموا به،

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط عن ابن عمر كما في الجامع الصغير.
(٢) المصدر الباب السابع والعشرون في الصمت.

وإن كان غير ذلك فالسكوت خيرٌ منه و ليس على الجوارح عبادة أخفُّ مؤونة و أفضل منزلة و أعظم قدراً عند الله من الكلام فيه رضاالله ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده ، ألا ترى أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل فيما بينه و بين رسله معنى يكشف ما أسرّ إليهم من مكنونات علمه و مخزونات وحيه غير الكلام ، و كذلك بين الرّسل والأُمم ، فثبت بهذا أنّه أفضل الوسائل وألطف العبادة ، و كذلك لامعصية أثقل على العبد و أسرع عقوبة عند الله ، و أشدّها ملامة ، و أعجلها سآمة عند الخلق منه ، و اللّسان ترجمان الضمير ، وصاحب خبر القلب ، و به ينكشف ما في سرّ الباطن وعليه يحاسب الخلق يوم القيامة ، والكلام خمرٌ يسكر العقول ماكان منه لغير الله ، وليس شيء أحقّ بطول السجن من اللّسان ، قال بعض الحكماء : احفظ لسانك عن خبث الكلام وفي غيره لا تسكت إن استطعت فأمّا السكينة فهو هيئة حسنة رفيعة من الله عزّ وجلّ لأهلها وهم أمناء أسراره في أرضه » (١) .

﴿ فصل ﴾

قال : أبوحامد : وأما الآثار - قال طاؤوس : لساني سبع إن أطلقته أكلني .

و قال وهب بن منبّه : في حكمة آل داود « حقّ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه » (٢).

وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه .

وقال الأوزاعي : كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز : أمّا بعد فإنّ من أكثر ذكر الموت رضي من الدّنيا باليسير ، و من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه فيما لايعنيه .

وقال بعضهم : الصّمت يجمع للرّجل خصلتين : السّلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه .

وقال محمّد بن الواسع لمالك بن دينار : يا أبايحيى حفظ اللّسان أشدّ على الناس من حفظ الدّنانير والدّراهم .

(١) المصدر الباب السادس والاربعون في الكلام .

(٢) راجع الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٥٣١ .

و قال يونس بن عبيد : ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلّا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله .

و قال الحسن : كانوا يتكلّمون عند معاوية والأحنف ساكت فقالوا : مالك لاتتكلّم يا أبابحر ؟ فقال : أخشى الله إن كذبت وأخشاكم إن صدقت .

وقال أبوبكر بن عيّاش : اجتمع أربعة ملوك على ذمّ الكلام ملك الهند و ملك الصّين و كسرى و قيصر ، فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل ، و قال الآخر : إنّي إذا تكلّمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلّم بها ملكتها ولم تملكني ، و قال الثالث : عجبت للمتكلّم إن رجعت عليه كلمته ضرّته وإن لم ترجع لم تنفعه ، و قال الرابع : أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منّي على ردّ ما قلت .

و قيل : إنّ المنصور بن المعتزّ لم يتكلّم بعدالعشاء الآخرة أربعين عاماً .

وقيل : ما تكلّم الرّبيع بن خثيم بكلام الدّنيا عشرين سنة و كان إذا أصبح وضع دواتاً وقرطاساً وقلماً كلّ ما تكلّم به كتبه ثمّ يحاسب نفسه عند المساء .

﴿ فصل ﴾

فإن قلت : فهذا الفضل الكثير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أنّ سببه كثرة آفات اللّسان من الخطأ و الكذب و النميمة و الغيبة و الرّياء والنفاق والفحش والمراء و تزكيةالنّفس والخصومة والفضول والخوض فيالباطل والتحريف والزّيادةوالنقصان وإيذاء الخلق و هتك العورات ، فهذه آفات كثيرة وهي سباقه إلى اللّسان لاتثقل على اللّسان و لها حلاوة في القلب و عليها بواعث من الطبع ومن الشيطان فالخائض فيها قلّما يقدر على أن يزمّ اللّسان فيطلقه بما يجب و يكفّه عمّا لا يجب فإنّ ذلك من غوامض العلم كما سيأتي تفضيله و في الخوض خطر وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظم فضل هذا مع مافيه منجمع الهمّ ودوام الوقار والفراغ للفكر والعبادة والذّكر والسلامة من تبعات القول في الدّنيا و من حسابه في الآخرة ، وقد قال تعالى : « ما

يلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيد »[١] و يدلّك على فضل لزوم الصمت أمر و هو أنّ الكلام أربعة أقسام قسم هو ضررٌ محض و قسم هونفع محض ، و قسم فيه ضرر و منفعة ، و قسم ليس فيه ضرر ولامنفعة أمّا الّذي هو ضررٌ محض فلابدّ من السكوت عنه و كذلك ما فيه ضررٌ ومنفعة لا تفي بالضرر المنفعة وأمّا الّذي لا منفعة فيه و لا ضرر فهو فضول و الاشتغال به تضييع زمان و هو عين الخسران فلا يبقى إلّا القسم الرّابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام و بقي ربع و هذا الرّبع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقايق الرّياء والتصنّع والغيبة و تزكية النفس و فضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه فيكون الانسان به مخاطراً ، و من عرف دقائق آفات اللّسان على ما سنذكره علم قطعاً أنّ ماذكره رسول الله صلى الله عليه وآله هوفصل الخطاب حيث قال : « من صمت نجا »[٢] فلقد أوتي والله جواهر الحكم وجوامع الكلم و لا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلّا خواصّ العلماء و فيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاءالله و نحن الآن نعدّ آفات اللّسان ونبتدىء بأخفّها و نترقّى إلى الأغلظ قليلاً قليلاً ونؤخّر الكلام في الفسق والنميمة والكذب فإنّ النظر فيها أطول و هي عشرون آفة .

✿(الافة الاولى الكلام فيما لايعنيك)✿

اعلم أنّ أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات الّتي ذكرناها من الغيبة والكذب والمراء والنفاق وغيره و تتكلّم بما هو مباح لاضرر فيه عليك ولا على مسلم أصلاً إلّا أنّك تتكلّم بما أنت مستغن عنه ولاحاجة بك إليه ، فإنّك به تضيّع زمانك وتحاسب على عمل لسانك ، و تستبدل الّذي هو أدنى بالّذي هو خير لأنّك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربّما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عندالفكرة مايعظم جدواه إذلو هلّلت الله وسبّحته وذكرته لكان خيراً لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنّة و من قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ بدله

(١) ق : ١٨ .
(٢) تقدم عن الدارمي وأحمد .

مدة لاينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً ، و هذا مثال من ترك ذكر الله و اشتغل بمباح لايعنيه فإنّه وإن لم يأثم فقد خسر من حيث فاته الرّبح العظيم بذكر الله فإنّ المؤمن لايكون صمته إلّا فكراً ونظره إلّا اعتباراً ونطقه إلّا ذكراً ، هكذا قاله النبيّ صلى الله عليه وآله (١) ، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى مالايعنيه ولم يدّخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيّع رأس ماله ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه » (٢) بل ورد ماهو أشدّ من هذا .

قال أنس : استشهد غلامٌ منّا يوم اُحد و وجدنا على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت اُمّه التراب عن وجهه و قالت : هنيئاً لك الجنّة يا بنيّ ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : وما يدريك لعلّه كان يتكلّم بمالايعنيه ويمنع مالايضرّه » (٣).

و في حديث آخر « أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتّى أتاه فلمّا دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت اُمّه : هنيئاً لك الجنّة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وآله من هذه المتألّية (٤) على الله قال هي امّي يارسول الله قال : وما يدريك ياامّ كعب لعلّ كعباً قال مالايعنيه أو منع مالا يغنيه » (٥) و معناه أنّه إنّما تتهنّأ الجنّة لمن لايحاسب و من يتكلّم فيما لايعنيه حوسب عليه و إن كان كلامه مباحاً فلاتتهنّأ له الجنّة مع المناقشة في الحساب فإنّه نوع من العذاب .

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا . لكن رواه الكليني في الكافي ج٢ص٢٣٧ في حديث عن الصادق عن النبي صلى الله عليه وآله « ان اولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً ، ونظروا فكان نظرهم عبرة ، ونطقوا فكان نطقهم حكمة ، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة ... الحديث ».

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٦ .

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ١٩٦ و قال : هذا حديث غريب وفيه « فلعله تكلم فيما لايعنيه أو بخل بمالاينقصه » و رواه ابن ابي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف .

(٤) أي الحاكمة على الله الذي يحلف به ، من الالية أي اليمين ، يقال : آلى يولي ايلاء وتألى يتألى تألياً .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد الا أن الظاهر انقطاعه بين صحابي وبين الراوي عنه كما في المغني .

و عن محمد بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أوّل من يدخل من هذا الباب رجلٌ من أهل الجنّة فدخل رجلٌ اسمه عبدالله بن سلام فقام إليه ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك و قالوا : أخبرنا بأوثق عملك في نفسك ترجوبه ، فقال : إنّي لضعيف و إنّ أوثق ما أرجوبه الله سلامة الصدر وترك مالا يعنيني (١) .

و قال أبوذرّ - رضي الله عنه - قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أُعلّمك بعمل خفيف على البدن ، ثقيل في الميزان ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : هو الصمت و حسن الخلق وترك مالايعنيك » (٢) .

و قال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول خمسٌ لهنّ أحسن من الدّهم (٣) المونقة : لاتتكلّم فيما لايعنيك فانّه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلّم فيما يعنيك (٤) حتّى تجدله موضعاً ، فانّه ربّ متكلّم في أمر يعنيه قدوضعه في غيرموضعه ففتن (٥)، ولاتمار حليماً ولا سفيهاً فانّ الحليم يقليك (٦) بصمته ، و إنّ السّفيه يؤذيك بمنطقه ، و اذكر أخاك إذا تغيّب عنك بما تحبّ أن يذكرك به إذا غبت عنه ، وأعفه ممّا تحبّ أن يعفيك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنّه مجازى بالإحسان

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت كما فى المغنى .

(٢) رواه البزاروالطبرانى وابويعلى دون قوله : « وترك مالايعنيك » والبيهقى فى الشعب معه . كمافى الترغيب ج ٣ ص ٥٣٣ .

(٣) اى العدد الكثيرمن النوق الواقفة بذخاً وترفاً ونعيماً .

(٤) كذا ، و معناه اذا تحادثت فى مهام امورك فأصب المرمى وابحث عن الاجادة واختر الموقع الذى ينجحك .

(٥) فى بعض المصادر « فعيب » موضع « ففتن » و فى بعضها « فعتب » و قوله « ولاتمار » اى لاتجادل ولا تخاصم . ولصلاح الدين الصفدى :

ولاتمار سفيهاً فى محاورة … ولا حليماً لكى تنجو من الزلل

ولا يغرنك من تبدو بشاشته … اليك مكرا فان السم فى العسل

(٦) اى يبغضك ويكرهك .

مأخوذٌ بالإجرام (١) .

و قيل للقمان الحكيم : ما حكمتك قال : لاأسئل عمّا كفيت ولا أتكلّف مالا يعنيني .

وقال المورق العجلّي : أمرأنا في طلبه منذعشرين سنةلمأقدر عليه ولستبتارك طلبه ، قالوا : وماهو ؟ قال : الصمت عمّالايعنيني .

و قال آخر: لاتتعرّض لما لايعنيك، واعتزل عدوّك، واحذرصديقك منالقوم إلّا الأمين ولاأمين إلّا منيخشىالله ولاتصحب الفاجر فتتعلّم منفجوره ولاتطلعهعلى سرّك واستشر في أمرك الّذين يخشون الله تعالى . و حدُّ مالايعنيك أن تتكلّم مالو سكتّعنه لم تأثم ولمتتضرّر في حال أومآل ، مثالهاأنتجلس مع قوم فتحكي معهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنها روما وقع لك من الوقائع و ما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجّبت منه من مشايخ البلاد و وقايعهم ، فهذه أُمورلوسكتّ عنها لم تأثم ولم تتصرّر وإذا بالغت في الاجتهاد حتّى لم يمتزج بحكاياتك زيادة ولا نقصانولاتزكية نفسمن حيث التفاخربمشاهدةالأحوال العظيمة ولا اغتيابلشخص ولامذمّة لشيء ممّاخلقهالله فإنّك مع ذلك كلّه مضيّع زمانك فأنّى تسلممنالآفات الّتي ذكرناها ، ومن جملتها أن تسأل غيرك عمّالايعنيك وأنت بالسؤال مضيّعوقتك وقد ألجات أيضاً صاحبك بالجواب إلى التضييع هذا إذا كان الشيء ممّالايتطرّقإلى السّؤال عنه آفة ، و أكثر الأسولة فيها آفات فإنّك تسأل غيرك مثلاً عن عبادته فتقول : هلأنتصائمٌ ؟ فإن قال : نعم ،كان مظهراً عبادته فيدخل عليهالرياء ، و إن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان عبادة السرّ و عبادة السرّ تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ،كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً إيّاك وتأذّيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرّضته بالسّؤال إمّا للرياء أو الكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدّفع ، و كذلك سؤالك عنسائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن كلّ ما يخفيه و يستحي منه ، و سؤالك عمّا يحدث

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت كمافى الترغيب و الترهيب ج ٣ ص ٥٣٥ .

به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيم أنت ، وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول :من أين وربما يمنع مانع من ذكره فإن ذكره تأذّى واستحيى وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السّبب فيه ، وكذلك تسأل عن مسئلة لاحاجة بك إليها فالمسئول ربّما لايسمح نفسه بأن يقول : لاأدري فيجيب عن غير بصيرة ولست أعني بالتكلّم بمالا يعني هذه الأجناس فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أوضرر ، وإنّما مثال مالايعني مايروى أنّ لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدّرع ولم يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجّب ممّا يرى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة ، فأمسك نفسه ولم يسأله فلمّا فرغ قام داود ولبسها فقال : نعم الدّرع للحرب ، فقال لقمان : الصّمت حكم وقليلٌ فاعله ، أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . و قيل : كان قديتردّد إليه سنة وهويريد أن يعلم ذلك ولم يسأل . فهذا وأمثاله من الأسولة إذا لم يكن فيها ضررٌ و هتك ستر و توريط في رياء وكذب فهو ممّا لايعني و تركه من حسن الإسلام .

فهذا حدّه وأمّا سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة مالا حاجة به إليه أوالمباسطة بالكلام على سبيل التودّد أو تزجية الوقت بحكايات أحوال لافائدة فيها، وعلاج ذلك كلّه أن يعلم أنّ الموت بين يديه و أنّه مسئول عن كلّ كلمة ، و أنّ أنفاسه رأس ماله ، و أنّ لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فإهماله وتضييعه خسران ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأمّاعلاجه من حيث العمل فالعزلة وأن يضع في فيه حجراً وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ليتعوّد اللّسان ترك مالايعنيه ، وضبط اللّسان في هذا على غير المعتزل شديدٌ جدّاً .

✿(الآفة الثانية فضول الكلام)✿

و هو أيضاً مذمومٌ وهذا يتناول الخوض في مالايعني والزيادة في ما يعني على قدر الحاجة ، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسّمه و يقرّره و يكرّره و مهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول أي فضل على الحاجة وهو أيضاً مذمومٌ لما سبق ، و إن لم يكن فيه إثم و لا ضرر ،

و قال عطاء بن أبي رباح : إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام و كانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوأمراً بمعروف أونهياً عن منكر أو نطقاً بحاجتك في معيشتك الّتي لابدّ لك منها أتنكرون « أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين ، عن اليمين و عن الشّمال قعيد ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد » أمايستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفة الّتي أملاها صدرنهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولادنياه ، و عن بعض الصحابة أنّه قال : إنّ الرّجل ليكلّمني بالكلام اجوابه أشهى إليّ من الماء البارد على الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً ، وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار اللّهمّ اخزه .

وأعلم أنّ فضول الكلام لاينحصر بل المهمّ محصور في كتاب الله تعالى قال الله تبارك و تعالى : « لاخير في كثير من نجويهم إلّا من أمر بصدقة أومعروف أو إصلاح بين الناس »(١) .

و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه و أنفق الفضل من ماله » (٢) فانظر كيف قلّب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال و أطلقوا فضل اللّسان .

و عن مطرف بن عبدالله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رهط من بني عامر فقالوا : أنت و الدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلاً ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت الجفنة الغرّاء ، و أنت و أنت ، فقال : « قولوا قولكم ولا يستهوينّكم الشيطان » (٣) إشارة إلى أنّ اللّسان إذا أُطلق في الثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزّيادة المستغنى عنها .

و قال ابن مسعود : أُنذركم فضول الكلام فحسب امرىء مابلغ به حاجته .

---

(١) النساء : ١١٣ .

(٢) رواه ابن شعبة في التحف ص ٣٠ مرسلا و البيهقي عن ركب المصري كما في الدر المنثور ج ٢ ص ٢٢١ بنحوه .

(٣) أخرجه ابن ابي الدنيا في الصمت كما في المغني .

و عن مجاهد قال : إنّ الكلام ليكتب حتّى أنّ الرجل يسكت ابنه فيقول له : سأبتاع لك كذا و كذا فيكتب عليه كذبة .

أقول : قدجاء من طريق الخاصّة الرُّخصة في مثل هذه الكذبة [1] .

قال : وقال الحسن : ياابن آدم بسطت لك صحيفة و وكّل بها ملكان كريمان يكتبان عملك فاعمل ماشئت وأكثر أو أقلّ .

و روي أنّ سليمان بن داود عليهما السلام بعث بعض عفاريته و بعث نفراً ينظرون ما يقول و يخبرونه قال : فأخبروه أنّه مرّ على السوق رافعاً رأسه إلى السّماء ثمّ نظر إلى الناس و هزّ رأسه ، فسأله سليمان فقال : عجبت من الملائكة على رؤس الناس ما أسرع ما يكتبون و من الّذين أسفل منهم ماأسرع مايملون .

و قال إبراهيم التيمي : المؤمن من إذا أراد أن يتكلّم نظر فإن كان له خيراً تكلّم وإلّا أمسك ، والفاجر إنّما يرسل لسانه رسلاً رسلاً .

و قال عمرو بن دينار : تكلّم رجل عند النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فأكثر فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كم دون لسانك من باب ؟ فقال : شفتاي وأسناني قال : أما كان في ذلك ما يردّ كلامك » [2] .

و في رواية اُخرى أنّه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ، ثمّ قال : « ما اُوتي رجل شرّاً من فضل في لسان » .

و قال بعض الحكماء : إذا كان المرء في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلّم .

و قال يزيد بن أبي حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع ، وإن وجد من يكفيه فلايتكلّم فإنّ في الاستماع سلامة وفي الكلام تزيّن

(١) روى الكليني في الكافي ج٢ص ٣٤٢ تحت رقم ١٨ حديثاً عن الصادق عليه السلام قال : كل كذب مسئول عنه صاحبه يوماً الا في ثلاثة : رجل كائد في حربه فهو موضوع عنه ، او رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير مايلقى به هذا يريد بذلك الاصلاح مابينهما ، او رجل وعد أهله شيئاً وهولايريد أن يتم لهم » .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مرسلا كما في المغني .

و زيادة ونقصان .

و رأى أبو الدّرداء امرأة سليطة اللّسان فقال : لو كانت هذه خرساء لكان خيراً لها .

و قال إبراهيم : يهلك الناس في خصلتين : فضول المال و فضول الكلام أي مالايعنيه .

فهذه مذمّة كثرة الكلام و فضوله و سببه الباعث عليه و علاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني .

✿(الافة الثالثة الخوض في الباطل)✿

و هو الكلام في المعاصي كحكايات أحوال النساء و مجالس الخمر ، ومقامات الفسّاق ، و تنعّم الأغنياء ، و تجبّر الملوك ، و مراسمهم المذمومة ، و أحوالهم المكروهة ، فإنّ كلّ ذلك ممّا لايحلّ الخوض فيه فهذا حرامٌ ، و أمّا الكلام فيما لايعني أو أكثر ممّايعني فهوترك الأولى ولا تحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لايعني فلابدّ من أن يغلب عليه الخوض في الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرّج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكّه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لايمكن أن تحصى لكثرتها و تفنّنها فلذلك لا مخلص منه إلّا بالاقتصار على مايعني من مهمّات الدّين والدّنيا و في هذا الجنس يقع من الكلمة ما تهلك صاحبها و هو مستحقرٌ لها .

و قد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله مايظنّ أنّها تبلغ به مابلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من سخط الله مايظنّ أنّها تبلغ به ما بلغت فكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث (١) .

(١) أخرجه ابن ماجه في حديث تحت رقم ٣٩٦٩ من حديث علقمة بن وقاص قال سمعت بلال بن حارث المزني صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ... الحديث ، وأخرجه احمد ج ٣ ص ٤٦٩ أيضاً .

و قال النبيّ ﷺ : « إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريّا » (١) .

و قال ﷺ : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وكنّا نخوض مع الخائضين » (٢) و بقوله « فلا تقعدوا معهم حتّى يخوضوا في حديث غيره » (٣) .

وقال سلمان : إنّ أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله (٤) .

و قال ابن سيرين : كان رجلٌ من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول : توضّأوا فإنّ بعض ما تقولون شرّ من الحدث ، فهذا هو الخوض في الباطل و هو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر في الوصول إليها من غير حاجة دعته إلى ذكرها ، و يدخل فيه أيضاً الخوض في حكايات البدع والمذاهب الفاسدة فإنّ الحديث في ذلك كلّه خوض في الباطل .

✿(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)✿

و ذلك منهيّ عنه فقد قال ﷺ : « لا تمار أخاك ، ولا تمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » (٥) .

و قال ﷺ : « ذروا المراء فإنّه لا تفهم حكمته ، ولا تؤمن فتنته » (٦) .

(١) أخرجه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١٥٣ بنحوه وابن ابى الدنيا من حديث ابى هريرة بسند حسن كما فى المغنى .

(٢) المدثر : ٤٥ .

(٣) النساء : ١٣٩ . والخبر أخرجه احمد من حديث ابن مسعود كما فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد عنه رضى الله عنه كما فى الدر المنثور ج٢ ص ٢٢١ .

(٥) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٦٠ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) أخرجه ابن الدنيا فى الصمت موقوفاً على ابن مسعود كما فى المغنى .

و قال ﷺ : « من ترك المراء وهو محقّ بني له بيت في أعلى الجنّة ، و من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنّة » (١) .

و عن اُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أوّل ما عهد إليّ ربّي و نهاني عنه عبادة الأوثان وشرب الخمر وملاحاة الرّجال »(٢) .

و قال ﷺ أيضاً :« ماضلّ قوم بعد هدى إلّا اُوتوا الجدل »(٣).

و قال ﷺ أيضاً : « لايستكمل عبد حقيقة الإيمان حتّى يدع المراء والجدل و إن كان محقاً » (٤) .

و قال ﷺ أيضاً : « ستّ من كنّ فيه بلغ حقيقة الإيمان : الصّيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، و تعجيل الصلاة في يوم الدّجن ، و الصبر على المصائب ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو صادق » (٥).

و قال لقمان لابنه : « يابنيّ لاتجادل العلماء فيمقتوك » .

و قال بلال بن أبي سعيد : إذا رأيت الرّجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمّت خسارته .

و قال أبوالدرداء : كفى بك إثماً أن لاتزال ممارياً .

و قال عيسى ﷺ : « من كثر كذبه ذهب جماله ، ومن لاحى الرّجال سقطت مروّته ، ومن كثر همّه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ».

و قيل لميمون بن مهران : مالك لاتفارق أخاً لك عن قلى فقال : لأنّي لا اُشاريه ولا اُماريه . وماورد في ذمّ الجدال والمراء كثير .

(١) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٥٩ وقد تقدم .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى والطبرانى بسند ضعيف كما فى المغنى ومجمع الزوائد ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٨ من حديث ابى أمامة . وأحمد ج ٥ ص ٢٥٢ .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند ضعيف كمافى المغنى .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابى مالك الاشعرى بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

و قال ﷺ : « تكفير كلّ لحاء ركعتان »[1] و حدّ المراء هو كلّ اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إمّا في اللّفظ و إمّا في المعنى وإمّا في قصد المتكلّم. وترك المراء بترك الإنكار و الاعتراض، فكلّ كلام سمعته فان كان حقّاً فصدّق به وإن كان باطلاً ولم يكن متعلقاً بأُمور الدّين فاسكت عنه، و الطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللّغة أو العربيّة، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم و تأخير، وذلك تارة يكون من قصور المعرفة و تارة يكون بطغيان اللّسان و كيفما كان فلاوجه لإظهار خلله، وأمّا في المعنى بأن يقول: ليس كما تقول وقد أخطأت فيه لكذا و كذا، و أمّا في قصده مثل أن يقول: هذا الكلام حقّ ولكن ليس قصدك منه الحقّ، وإنّما أنت فيه صاحب غرض و ما يجري مجراه وهذا الجنس إن جرى في مسئلة علميّة ربّما خصّ باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السّكوت عنه أو السّؤال في معرض الاستفادة لاعلى صيغة العناد والنكارة، أو التلطّف في التعريف لا في معرض الطعن فانّما المجادلة عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه و تنقيصه من جهة القدح في كلامه و نسبته إلى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحقّ من جهة اُخرى مكروهة عند المجادل، بل يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبيّن به فضل نفسه و نقصان صاحبه ولانجاة من هذا إلّا بالسّكوت عن كلّ مالا يأثم به لو سكت، وأمّا الباعث على هذا فهو الترفّع باظهار الفضل والتهجّم على الغير باظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويّتان، و أمّا إظهار الفضل فهو من تزكية النفس و هي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلوّ و الكبرياء و هي من صفات الرّبوبيّة، وأمّا تنقيص الآخر من مقتضى طبع السبعيّة فانّه يقتضي أن يمزّق غيره و يقصمه و يصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان و إنّما قوّتهما بالمراء و الجدال فالمواظب عليهما مقوّ لهذه الصّفات المهلكة، وهذا مجاوز حدّ الكراهية، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير، ولا تنفكّ المماراة عن الإيذاء و تهييج الغضب و حمل المعترض عليه على أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابي امامة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حقّ أو باطل ويقدح في قائله بكلّ ما يتصوّر له ، فيثور التشاجر بين المتمارين كما يثور التهارش بين الكلبين يقصد كلّ واحد منها أن يعضّ صاحبه بما هو أعظم نكاية و أقوى في إفحامه وإلجامه ، وأمّا علاجه فبأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله والسّبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذمّ الكبر والعجب و كتاب ذمّ الغضب ، فإنّ علاج كلّ علّة بإماطة سببها و سبب المراء ما ذكرناه ثمّ المواظبة عليه تجعله عادة و طبعاً حتّى يتمكّن من النفس و يعسر الصبر عنه ، و قيل لداود الطائي : لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال فقيل : احضر المجالس واسمع ما يقال ولاتتكلّم قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ عليّ منها و هو كما قال ، لانّ من يسمع من غيره خطأً و هو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عنه جدّاً و لذلك قال رسول الله ﷺ : « من ترك المراء و هو محقّ بني له بيت في أعلى الجنّة » لشدّة ذلك على النفس ، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد ، فإنّ المراء طبع فإذا ظنّ أنّ له عليه ثواباً اشتدّ عليه حرصه و تعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض بل ينبغي للإنسان أن يكفّ لسانه عن أهل القبلة وإذا رأى مبتدعاً تلطّف في نصحه على خلوة لابطريق المجادلة فإنّ المجادلة يخيّل إليه أنّه حيلة منه في التلبيس وإنّ ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوافتستمرّ البدعة في قلبه بالجدل وتتأكّد فإذا عرف أنّ النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه ، قال رسول الله ﷺ : « رحم الله من كفّ لسانه عن أهل القبلة إلّا بأحسن مايقدر عليه (١) » قال هشام بن عروة : كان ﷺ يردّد قوله هذاسبع مرّات .

و كلّ من تعوّد المجادلة مدّة و أثنى الناس عليه لنفسه بسببها عزّاً و قبولاً قويت فيه هذه المهلكات فلايستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الكبر والغضب والرياء وحبّ الجاه والتعزّز بالفضل و آحاد هذه الصفات تشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها .

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف . و رواه ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث هشام ابن عروة عن عائشة بنحوه وهو منقطع وضعيف جداً كما في المغني .

﴿الآفة الخامسة الخصومة﴾

وهي أيضاً مذمومة و هي وراء المراء و الجدال ، فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرضٌ سوى تحقير الغير وإظهار مزيد الكياسة، و الجدال عبارة عن مراء يتعلّق بإظهار المذاهب و تقريرها ، و الخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حقّ مقصود وذلك تارة يكون ابتداء و تارة يكون اعتراضاً و المراء لايكون إلّا اعتراضاً على كلام سبق فقد قالت عائشة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إنّ أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصم » (١) .

و قال أبوهريرة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتّى ينزع » (٢) .

و قال بعضهم : إيّاك و الخصومة فإنّها تمحق الدّين و يقال : ما خاصم قطّ ورع في الدّين . وقال ابن قتيبة : مرّ بي بشر بن عبدالله بن أبي بكر فقال : مايجلسك ؟ فقلت : خصومة بيني وبين ابن عمّ لي فقال : إنّ لأبيك عندي يداً و إنّي اُريد أن اُجازيك بها و إنّي والله ما رأيت شيئاً أذهب للدّين ، ولاأنقص للمروّة ، و لا أضيع للّذّة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة ، قال : فقمت لأرجع ، فقال خصمي : مالك ؟ قلت : لا اُخاصمك أبداً ، قال : عرفت أنّه حقّي ، قلت : لا ولكنّي أكرم نفسي عن هذا ، قال : فإنّي لاأطلب منك شيئاً هولك .

فإن قلت : إذا كان للإنسان حقّ فلا بدّ له من الخصومة في طلبه أوفي حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه و كيف تذمّ خصومته ؟ فاعلم أنّ هذا الذّمّ يتناول الّذي يخاصم بالباطل والّذي يخاصم بالحقّ بغير علم مثل وكيل القاضي فإنّه قبل أن يعرف أنّ الحقّ في أيّ جانب هو يتوكّل في الخصومة من أيّ جانب هي تكون فيخاصم من غير علم ويتناول الّذي يطلب حقّه و لكنّه لايقتصر على قدر الحاجة

(١) أخرجه وكيع واحمد والبخاري و مسلم والترمذي والنسائي و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عنها عن النبي صلى الله عليه وآله كما في الدر المنثور ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) أخرجه ابن ابي الدنيا في ذم الغيبة عن ابي هريرة بسند حسن كما في الجامع الصغير .

بل يظهر اللّدد في الخصومة على قصد التسلّط أوعلى قصد الإيذاء ، و يتناول الّذي يمزج بالخصومة كلمة مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجّة و إظهار الحقّ و يتناول الّذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم و كسره مع أنّه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، ومن الناس من يصرح به فيقول : إنّما قصدي عناده وكسرعرضه ، وإنّي إذا أخذت منه هذا المال رميته في البئر ولا اُبالي ، فهذامقصوده اللّدد واللّجاج و هو مذموم جدًّا ، أمّا المظلوم الّذي ينصر حجّته بطريق الشرع من غيرلدد وإسراف وزيادة لجاج على الحاجة ، و من غيرقصدعناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ولكنّ الأولى تركهما وجد إليه سبيلاً ، فإنّ ضبط اللّسان في الخصومة على حدّ الاعتدال متعذّر ، والخصومة توغر الصدر وتهيّج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه و بقي الحقد بين المتخاصمين حتّى يفرح كلّ واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرّته و يطلق اللّسان في عرضه ، فمن ابتدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات و أقلّ ما فيه تشويش خاطره حتّى أنّه في صلاته يشتغل بمحاجّة خصمه فلا يبقى الأمر على حدّ الواجب ، فالخصومة مبدأ كلّ شرّ ، و كذلك الجدال والمراء ، فينبغي أن لايفتح بابه إلّا لضرورة وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللّسان والقلب عن تبعات الخصومة ، و ذلك متعذّر جدًّا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم عن الإثم ، ولاتذمّ خصومة إلّا أنّه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيه لأنّ معه مايكفيه فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً ، نعم أقلّ ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب إذ أقلّ درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ولاخشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الّذي حاصله إمّا تجهيل و إمّا تكذيب فإنّ من جادل غيره أوماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام .

وقدقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «يمكّنكم من الجنّة طيب الكلام و إطعام الطعام»(١)

---

(١) قال العراقي : أخرجه الطبراني من حديث جابر وفيه من لاأعرفه وله من حديث هاني ابن شريح باسناد جيد « يوجب الجنة اطعام الطعام ، وحسن الكلام ».

و قد قال تعالى : «وقولوا للناس حسناً »(١).

و قال ابن عباس : من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه و إن كان مجوسيّاً لأنّ الله تعالى يقول : « وإذا حييتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أوردّوها »(٢). وقال أيضاً : لوقال لي فرعون خيراً لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : «إنّ في الجنّة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام »(٣) .

و روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ به خنزير فقال : مر بسلام ، فقيل : يا روح الله تقول هذا للخنزير ؟ فقال : أكره أن اُعوّد لساني الشرّ .

و قال نبيّنا ﷺ : « الكلمة الطيّبة صدقة » (٤) .

و قال ﷺ : «اتّقوا النّار ولوبشقّ تمرة فإن لم تكن فبكلمة طيّبة »(٥) .

و قيل : البرّ شيء هيّن : وجهٌ طليق ، و كلام لين .

وقال بعض الحكماء : كلّ كلام لا يسخط ربّك إلّا أنّك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً فلعلّه يعوّضك منه ثواب المحسنين .

و قال بعض الحكماء : الكلام اللّين يغسل الضغائن المستكنّة في الجوارح ، و هذا كلّه في فضل الكلام الطيب و تضادّه الخصومة و المراء و اللّجاج والجدال فإنّه الكلام المستنكر الموحش المؤذي للقلب المنغّص للعيش ، المهيّج للغضب ، الموغر للصدر .

✿ (الآفة السادسة) ✿

التقعّر في الكلام بالتشدّق وتكلّف السجع والفصاحة والتصنّع فيه بالتشبيبات والمقدّمات و ماجرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة و كلّ ذلك من التصنّع

---

(١) البقرة : ٨٣ . (٢) النساء : ٨٦ .

(٣) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٥ من حديث أميرالمؤمنين عليه السلام عن النبى (ص) .

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٨٣ فى حديث عن أبى هريرة .

(٥) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٤ من حديث عدى بن حاتم .

المذموم ومن التكلّف الممقوت الّذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا والأتقياء من أمّتي براء من التكلّف»[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون»[2].

وقالت فاطمة عليها السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «شرار أمّتي الّذين غذّوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدّقون في الكلام»[3].

وقال صلى الله عليه وآله: «ألا هلك المتنطّعون - ثلاث مرات -»[4] والتنطّع هو التعمّق والاستقصاء.

وهذا أيضاً من آفات اللّسان ويدخل فيه أيضاً كلّ سجع متكلّف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة وكذلك تكلّف السجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وآله لغرّة الجنين فقال بعض قوم الجاني: كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهلّ ومثل ذلك يطلّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أسجعاً كسجع الكهان»[5] فأنكر ذلك لأنّ أثر التكلّف والتصنّع بيّن عليه، فينبغي أن يقتصر في كلّ شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض فما وراء ذلك تصنّع مذموم ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، لأنّ المقصود منهما تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، ولرشاقة اللّفظ تأثير فيه فهو لائق به،

---

(١) أخرجه الديلمي وابن عساكر عن الزبير أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «انى لأألى من التكلف وصالحوا امتى». الدر المنثور ج ٥ ص ٣٢١.

(٢) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٧٥، وتقدم ج ٣ ص ٨٦. وفي النهاية: هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق والثرثرة كثرة الكلام وترديده.

(٣) تقدم آنفاً.

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٥٨ وقال النووي المتنطعون: المتعمقون الغالون المتجاوزن الحدود في اقوالهم وافعالهم.

(٥) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١١٠. وقوله «ندى» من ودى يدى دية. وقوله «يطل» اى يهدر ولا يضمن، يقال: «طل دمه» بضم الطاء اذا هدر دمه.

وأمّا المحاورات الّتي تجري في قضاء الحاجات فلايليق بها التسجّع والتشدّق فالاشتغال به من التكلّف المذموم ولاباعث عليه إلّا الرّياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة و كلّ ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

(الآفة السابعة الفحش والسب و بذاءة اللسان)

و هومنهيّ عنه مذموم ومصدره الخبث واللّؤم ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إيّاكم والفحش فإنّ الله لايحبّ الفحش ولاالتفحّش»[1].

ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن أن تسبّ قتلى بدر من المشركين و قال : «لاتسبّوا هؤلاء فانّه لايخلص إليهم شيء ممّا تقولون ، وتؤذون الأحياء ألا إنّ البذاء لؤم»[2].

و قال صلى الله عليه وآله : «ليس المؤمن بالطّعان ولا الفاحش ولاالبذيّ»[3].

و قال صلى الله عليه وآله : «الجنّة حرام على كلّ فاحش أن يدخلها»[4].

و قال صلى الله عليه وآله : «أربعة يؤذون أهل النّار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحاً ودماً فيقال له : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ، فيقول : إنّ الأبعد كان ينظر إلى كلّ كلمة فزعة خبيثة فيستلذّها كما يستلذّ الرّفث»[5].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ١٢ في حديث عن ابي هريرة . وروى احمد والطبراني في الكبير من حديث اسامة بن زيد عنه صلى الله عليه وآله يقول : « ان الله لايحب كل فاحش متفحش » . راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن على الباقر عليهما السلام مرسلا و رجاله ثقات (المغنى) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١ ص ١٢ من حديث عبدالله ، والترمذى ج ٨ ص ١٤٩ وحسنه .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابو نعيم في الحلية من حديث عبدالله بن عمر بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع واختلف في صحبته فذكره أبونعيم في الصحابة ، وابن حبان والبخارى من التابعين . (المغنى) .

و قال ﷺ : « يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء » (١) .

و قال ﷺ : « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » (٢) و يحتمل أن يكون المراد بالبيان هو كشف مالايجوز كشفه ، ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتّى ينتهي إلى حدّ التكلّف ، و يحتمل أيضاً البيان في اُمور الدّين في صفات الله تعالى فإنّ إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه إذقد يثور من غاية البيان فيه شكوك و وساوس ، و إذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول و لم يضطرب ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فإنّ الأولى في مثله الإغماض والتّغافل دون الكشف والبيان .

و قال ﷺ : « إنّ الله تعالى لايحبّ الفاحش المتفحّش الصياح في الأسواق » (٣) .

وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ وأبي وأمّي فقال ﷺ : « إنّ الفحش و التفحّش ليسا من الإسلام في شيء ، و إنّ أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً » (٤) .

فهذه مذمّة الفحش ، فأمّا حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة ويجري أكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وما يتعلّق به ، فإنّ لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون من التعرّض لها بل يكنون عنها ويدلّون عليها بالرّموز ويذكرون مايقارب بها ويتعلّق بها ، قال ابن عبّاس : إنّ الله حييّ كريم يعفو و يكني كني باللّمس عن الجماع فالمسّ واللّمس والدّخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٣٢٥ تحت رقم ١٢ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٨٣ . والحاكم في المستدرك ج ١ ص ٩ .

(٣) أخرجه البخاري في الادب المفرد من حديث جابر بسند حسن كما في الجامع الصغير .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا وأحمد باسناد صحيح كما في المغني .

أفحش من بعض وربّما اختلفت بعادة البلاد وأوائلها مكروهة و أواخرها محظورات و بينهما درجات يتردّد فيها وليس تخصّ هذا بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول و التغوّط أولى من لفظ التغوّط و الخراء وغيرها ، فإنّ هذا أيضاً ممّا يخفى فكلّ ما يخفى ويستحيى منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنّه فحش ولذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجك كذا بل يقال : قيل في الحجرة وقيل من وراء السّتر كذا ، أوقالت أم الأولاد كذا والتلطّف في هذه الألفاظ محمود والتصريح يفضي إلى الفحش و كذلك من به عيوب يستحي منه فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص و القرع و البواسير بل يقال العارض الّذي يشكوه و مايجري مجراه ، فالتصريح في ذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللّسان .

والباعث على الفحش إمّا قصد الايذاء وإمّا الاعتياد الحاصل من مخالطة الفسّاق وأهل الخبث و اللّؤم و من عادتهم السّبّ .

و قال أعرابيّ لرسول الله ﷺ : أوصني فقال : «عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيّره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبنّ شيئاً من خلق الله » قال : فما سببت شيئاً بعده [1] .

و قال عياض بن حمار [2] قلت : يا رسول الله الرّجل من قومي يسبّني وهو دوني هل عليّ من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال : « المتسابّان شيطانان يتعاونان و يتهاتران» [3].

و قال ﷺ : « المتسابّان ماقالا فعلى البادىء حتّى يعتدي المظلوم» [4] .

(١) أخرجه أحمد والطبراني باسناد جيد من حديث أبي جرى الجمحى و قيل اسمه جابر بن سليم و قيل سليم بن جابر . (المغنى)

(٢) بكسر الحاء المهملة وتخفيف الميم التيمي المجاشعي صحابي سكن البصر وعاش الى حدود الخمسين .

(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده ص ١٤٦ تحت رقم ١٠٨٠ في حديث .

(٤) أخرجه احمد ج ٢ ص ٥١٧ ورواه مسلم ج ٨ ص ٢١ هكذا «المستبان ماقالا فعلى البادى مالم يعتدى المظلوم » .

و قال ﷺ : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر »[١] .

و قال ﷺ : « ملعونٌ من سبّ والديه »[٢] .

وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسبّ الرّجل والديه ، قالوا : يا رسول الله و كيف يسبّ والديه ؟ فقال : يسبّ الرّجل فيسبّ أباه فيسبّ الآخر أباه »[٣].

أقول: و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي [٤] عن أبي جعفر عليه السلام قال : « خرج رسول الله ﷺ لعرض الخيل فمر بقبر أبي اُحيحة [٥] . فقال أبوبكر : لعن الله صاحب هذا القبر فوالله إن كان ليصدّ عن سبيل الله و يكذّب رسول الله ، فقال خالد ابنه : بل لعن الله أبا قحافة فوالله ما كان يقري الضيف ولايقابل العدوّ ، فلعن الله أهونهما على العشيرة فقداً ، فألقى رسول الله ﷺ خطام[٦] راحلته على غاربها ، ثمّ قال : إذا أنتم تناولتم المشركين فعمّوا ولاتخصّوا ثمّ وقف فعرضت عليه الخيل ثمّ ساق الحديث إلى أن ذكر طائفة لعنهم رسول الله ﷺ و عدّ منهم و من لعن أبويه ، قال : فقال رجلٌ : يا رسول الله ، أيوجد رجل يلعن أبويه فقال : نعم يلعن آباء الرّجال واُمّهاتهم فيلعنون أبويه »[٧].

أقول: و يدخل في قوله : « و من لعن أبويه » أبوبكر بن أبي قحافة لأنّه لعن أباأحيحة فلعن ابنه أباه ومعلوم أنّه من لعنه رسول الله ﷺ لايصلح لخلافته .

---

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٨ من حديث ابن مسعود .

(٢) أخرجه احمد ج ١ ص ٢١٧ هكذا « ملعون من سب أباه » .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥ وفيه «من الكبائر شتم الرجل والديه ... الحديث » .

(٤) المصدر ج ٨ ص ٧٠ .

(٥) بضم الهمزة والمهملتين بينهمامثناة تحتانية مصغر يسمى بها ويكنى .

(٦) بالخاء المعجمة والطاء المهملة اى زمامها .

(٧) هذه من رواية عمرو بن شمر ولايحتج بحديثه لانه ضعيف جداً زيد احاديث فى كتب جابر الجعفى ينسب بعضها اليه والامر ملتبس كما قال النجاشي - رحمه الله - .

(الافة الثامنة اللعن اما لحيوان اولجماد اولانسان)

و ذلك مذموم قال النّبي ﷺ : « المؤمن ليس بلعّان »(١) .

و قال ﷺ : «لاتلاعنوا بلعنةالله ولابغضبه ولابجهنّم »(٢).

و قال حذيفة : « ماتلا عن قوم قطّ إلّا حقّ عليهم القول ».

و قال عمران بن حصين : بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصارعلى ناقةلها فضجرت منها فلعنتهافقال ﷺ : «خذواما عليهاوأعروهافا نّها ملعونة ، قال : فكانّي أرى تلك الناقة تمشي في الناس لايتعرّض لها أحد» (٣) .

و قال أبوالدّرداء : ما لعن أحدٌ الأرض إلّا قالت : لعن الله أعصانالله .

و قال ﷺ :« إنّ اللّعّانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »(٤) .

و قال أنس : كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال النبيّ ﷺ : « يا عبدالله لاتسر معنا على بعير ملعون » (٥) قال : ذلك إنكاراً عليه .

واللّعن عبارة عن الطرد و الابعاد من الله تعالى ، و ذلك غير جائز إلّا على من يتّصف بصفة تبعّده من الله تعالى و هي الكفر و الظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين و على الكافرين ، و ينبغي أن يتّبع فيه لفظ الشرع فانّ في اللّعنة خطراً عظيماً لأنّه حكم على الله بأنّه أبعد الملعون ، وذلك غيبٌ لايطلّع عليه غيرالله ويطلّع عليه رسوله إذا اطلّعه الله عليه ، والصفات المقتضية للّعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق واللّعن في كلّ واحدة ثلاث مراتب الأولى اللّعن بالوصف الأعم كقولك : لعنةالله على الكافرين و المبتدعة والفسقة ، و الثاني اللّعن بأوصاف أخصّ منها كقولك :

---

(١) أخرج الترمذى ج ٨ ص ١٤٩ فى حديث « ليس المؤمن بالطعان ولااللعان » .

(٢) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٥ بادنى اختلاف فى اللفظ .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٣ من حديث عمران .

(٤) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٥ ومسلم ج ٨ ص ٢٤ .

(٥) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت وابويعلى باسناد جيد كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٧٤ .

لعنةالله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدريّة و الخوارج و على الزنادقة و الظلمة وآكل الرّبا ، وكلّ ذلكجايز و لكن في لعن أصناف المبتدعة خطرٌ لأنّ معرفة البدعة غامضة فما لم يجيء فيه لفظ مأثور فينبغي أن يمنع منه العوام لأنّ ذلك يستدعي المعارضة بمثله و يثير نزاعاً بين الناس وفساداً ، و الثالث اللّعن على الشخص و هذا فيه نظرٌ كقولك زيد لعنه الله و هوكافر أوفاسق أو مبتدعٌ والتفصيل فيه أنّ كلّ شخص ثبت لعنته شرعاً فيجوز لعنه كقولك فرعون لعنه الله وأبوجهل لعنهالله لأنّه ثبت أنّ هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً ، وأمّا شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنهالله وهو يهوديٌّ فهذا فيه خطرٌ لأنّه ربّما يسلم فيموت مقرّباً عندالله فكيف يحكم بكونه ملعوناً .

أقول: قد ثبت عن أهل البيت عليهم السلام جواز لعن المتأمّرين على أميرالمؤمنين عليه السلام ظلماً وعدواناً والمتسمّين بخلفاء رسول الله زوراً وبهتاناً ومن والاهم على ذلك من أعوانهم وأنصارهم بأشخاصهم و أعيانهم ، و ما ثبت عنهم عليهم السلام فقد ثبت عن الله و عن رسوله صلى الله عليه وآله عندنا و على هذا فقد ثبت جواز لعنهم لنا بأشخاصهم على ما ذكره أبوحامد ، ثمّ أقول : قد تكرّر ذكر اللّعن في كلام الله سبحانه و كلام رسوله صلى الله عليه وآله و كلام أهل البيت عليهم السلام على وجه أفاد أنّه من جملة العبادات المقرّبة إلى الله سبحانه و أنّه يجوز أن ينسب إلى الشخص المعيّن إذا عرف بكفر أونفاق أوفسق قال الله سبحانه : « أولئك عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين » (١) و هذا في معنى الأمر .

و قال عزّ وجلّ : « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون »(٢) وجعلهالله وسيلة إلى اثبات دعوى النّبوة وحجّة على الجاحدين لها في المباهلة لنصارى نجران حيث قال سبحانه : «ثمّ نبتهل فنجعل لعنةالله على الكاذبين »(٣) ولذلك انقطعوا ولجاؤا إلى الصّلح وبذل الجزية ولم يجدوا إلى ترداد القول سبيلا . و كذا اللّعان بين الزّوجين

---

(١) البقرة : ١٦١ . (٢) البقرة : ١٥٩ .

(٣) آل عمران : ٦١ .

مسقط للحدّ عنهما و موجب لنفي الولد بحيث لاينسب إلى الملاعن أبداً و ربّما أوجب الحدّ على المرأة إذا نكلت من غيرشهود ولابيّنة ، وقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً » (١) و قال في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت «اللّهمّ إنّي لاأحسن الشعر ولاينبغي لي اللّهمّ العنه بكلّ حرف ألف لعنة »(٢) إلى غير ذلك .

و قد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة و روي أنّه عليه السلام كان يقنت في الصّلاة المفروضة بلعن معاوية وعمروبن العاص وأبي موسى وأبي أعور السّلمي (٣) مع أنّه عليه السلام أحلم الناس عن ذنب وأعظم قدراً من أن يخرج نفسه النفيسة زلّة بشر ، فلولا أنّه كان يرى لعنهم من أقرب القربات لما كان يتخيّر محلّه في الصلوات المفروضات.

و قد روى العامّة أنّ عائشة لعنت عثمان و لعنها و خرجت غضبى عليه إلى مكّة (٤) .

---

(١) ماعثرت على لفظه انماأخرج احمد فى مسنده من طريق ابى هريرة ج ٢ ص ٣٥٢ « لايؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة » الحديث و فى جامع الاخبار عن انس عن على عن النبى صلى الله عليه وآله « المؤمن اذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش ويلعنه حملة العرش وكتب الله عليه لتلك الكذبة سبعين زنية أهونها كمن يزنى مع امه» .

(٢) انما ذكرذلك فى عمرو بن العاص كما رواه الطبرسى فى الاحتجاج ص١٤٩ عن الحسن بن على عليهما السلام قال لعمروبن العاص : قد هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من شعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم أنى لا احسن الشعر ولاينبغى لى ان أقوله فالعن عمرو بن العاص بكل بيت ألف لعنة » . وفيه ص١٤٧ أن النبى صلى الله عليه وآله لعن أباسفيان فى سبعة مواطن ... الخ و راجع الخصال ابواب السبعة .

(٣) رواه محمدبن المثنى فى كتابه مسنداً عن ابامعقل المزنى راجع بحارالانوار ج ٨ ص ٥٦٦ وفى كتاب نصربن مزاحم كان على عليه السلام بعدالحكومة اذاصلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة وسلم قال : « اللهم العن معاوية وعمراً وابا موسى وحبيب بن مسلمة » راجع سفينة البحار ج٢ ص ٥١٤ .

(٤) ذكره الثقفى فى تاريخه عن الحسن بن سعيد راجع بحارالانوار ج ٨ ص ٣٤١ .

و قد روى أصحابنا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقنت في بعض نوافله بلعن صنمي قريش يعني بهما أبابكر وعمر (١).

و قد روى الشيخ الطوسي - رحمه الله - في التهذيب (٢) أنّ الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال منهم أبوبكر وعمر، ومن نظر إلى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية و أصحابه و كيف لعنهم وقذفهم بالفحش على ما رواه العامّة ويتتبّع ماورد من الآثار عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام في الكافي للكليني - رحمه الله - و غيره من كتب الحديث والأدعية في لعنهم من يستحقّ اللّعن من رؤساء الضّلال و التصريح بأسماء هؤلاء علم أنّ ذلك من شعب الدّين و شعائره بحيث لا يتخالجه شكّ ولا يعتريه مرية.

و في الكافي (٣) عن أبي الحسن موسى عليه السلام أنّه قال: «لعن الله أبا حنيفة كان يقول: قال عليّ وقلت - وفي رواية - وقالت الصحابة وقلت».

و أمّا حديث «لا تكونوا لعّانين» فلعلّه نهي عن أن يكون السبّ خلقاً لهم بسبب المبالغة فيه والإفراط في ارتكابه بحيث يلعنون كلّ أحد كما يدلّ عليه قوله «لعّانين» لا أنّه نهى عن لعن المستحقين وإلّا لقال: لاتكونوا لاعنين، فإنّ بينهما فرقاً يعلمه من أحاط بدقائق لسان العرب.

و أمّا ما روي «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن لعن أهل الشّام» فإن صحّ فلعلّه عليه السلام كان يرجو إسلامهم و رجوعهم إليه، كما هو شأن الرّئيس المشفق على الرّعيّة.

و لذلك قال: «ولكن قولوا اللّهمّ أصلح ذات بيننا وهذا قريبٌ من قوله تعالى في قصّة فرعون «فقولا له قولاً ليّناً» (٤).

---

(١) راجع مصباح الكفعمي دعاء صنمي قريش.
(٢) المصدر ج ١ ص ٢٢٧. (٣) المصدر ج ١ ص ٥٧.
(٤) أقول نهى اميرالمؤمنين عليه السلام أصحابه عن لعن اهل الشأم مذكور في النهج تحت عنوان «ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشأم أيام حربهم بصفين» وقال ابن ابي الحديد في شرحه ج ٣ ص ٤: والذي كرهه عليه السلام منهم أنهم كانوا يشتمون ←

وأمّا ماذكره أبوحامد في هذا الباب من الكلام في لعن يزيد ـ لعنه الله ـ فينبغي أن يطوى ولايروى .

→ أهل الشأم ولم يكن يكره منهم لعنهم اياهم ، والبداءة منهم لا كما يتوهمه قوم من الحشوية فيقولون : لايجوز لعن أحد ممن عليه اسم الاسلام و ينكرون على من يلعن ومنهم من يغالى في ذلك فيقول : لا ألعن الكافر ولا ألعن ابليس وان الله تعالى لايقول لاحد يوم القيامة لم لم تلعن ؟ وانما يقول : لم لعنت ؟ .

و اعلم أن هذا خلاف نص الكتاب لانه تعالى قال : « ان الله لعن الكافرين واعدلهم سعيراً »(الاحزاب ٦٤) وقال : « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» (البقرة ١٥٩) و قال فى ابليس : « ان عليك لعنتى الى يوم الدين » (ص ٧٨) وقال : « ملعونين أينما ثقفوا » (الاحزاب ٦١) و فى الكتاب من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرى ممن يجب التبرى منه ؟ ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : « لقد كان لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذقالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً»(الممتحنة ٤) وانما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ، فان كان قدقارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن والبراءة فلاضير على من يلعنه ويبرأ منه ، وان لم يكن قدقارف كبيرة لم يجز لعنه ولا البراءة منه .

ومما يدل على أن من عليه اسم الاسلام اذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه ، بل يجب فى وقت ، قول الله تعالى فى قصة اللعان « فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ۞ والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الصادقين » (النور ٦ و ٧) وقال تعالى فى القاذف : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم » (النور ٢٣) .

فهاتان الايتان فى المكلفين من أهل القبلة والايات قبلهما فى الكافرين و المنافقين ولهذا قنت أمير المؤمنين ﷺ على معاوية وجماعة من أصحابه ، ولعنهم فى أدبار الصلوات .

فان قلت : فما صورة السب الذى نهى عنه امير المؤمنين ﷺ ؟ قلت : كانوا يشتمونهم بالاباء والامهات ومنهم من يطعن فى نسب قوم منهم ، ومنهم من يذكرهم باللؤم ، و منهم من يعيرهم بالجبن والبخل وبانواع الاهاجى التى يتهاجى بها الشعراء وأساليبها معلومة ، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال : انى اكره لكم ان تكونوا سبابين ولكن الاصوب أن تصفوا لهم اعمالهم وتذكروا احالهم الخ .

قال : ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق و كفر من غير تحقيق ، قال ﷺ : « لايرمي رجلٌ رجلاً بالكفر ولايرميه بالفسق إلّا ارتدّت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك »[1].

و قال ﷺ : « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلّا باء به أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال ، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إيّاه »[2]. و هذا معناه أن يكفّره و هو يعلم أنّه مسلم فإن ظنّ أنّه كافر ببدعة أوغيرها كان مخطئاً كافراً .

والتعرّض للأموات أشدّ قال ﷺ : « لاتسبّوا الأموات فإنّهم قد أفضوا إلى ماقدّموا »[3].

و يقرب من اللّعن الدّعاء على الإنسان بالشرّ حتّى الدّعاء على الظالم كقول الإنسان : لاصحّح الله جسمه ولا سلّمه الله ، و مايجري مجراه فكلّ ذلك مذموم ، و في الخبر : « أنّ المظلوم ليدعو على الظالم حتّى يكافيه ثمّ يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة »[4].

✿(الآفة التاسعة الغناء و الشعر)✿

و قد ذكرنا في كتاب السماع مايحرم من الغناء مايحلّ فلانعيده .

أقول: حاصل ماذكره هناك ما أورده في آخر ذلك الكتاب من أنّ السماع قد يكون حراماً محضاً ، و قد يكون مباحاً ، و قد يكون مستحبّاً ، و قد يكون مكروهاً .

أمّا الحرام فهو لأكثر الناس من الشبّان ومن غلبهم شهوة الدّنيا فلايتحرّك السماع منهم إلّا ماهو الغالب على قلوبهم من الصّفات المذمومة .

(١) رواه مسلم ج ١ص ٥٧ والبخاري ج٨ص ١٨ واللفظ له بادنى تقديم وتأخير و رواه احمد والبزار ورجاله رجال الصحيح من حديث ابى ذر راجع مجمع الزوائد ج٨ ص٧٣.

(٢) أخرجه ابومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابى سعيد الخدرى بسند ضعيف كما في المغني وروى نحوه مسلم ج ١ ص ٥٧ من صحيحه .

(٣) أخرجه البخارى والنسائي وأحمد من حديث عائشة بسند صحيح كما في الجامع الصغير.

(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٣٤ نحوه .

و أمّا المكروه فهولمن لاينزّله على صورةالمخلوقين ولكن يتّخذه عادة له في أكثر الأوقات علىسبيل اللّهو .

و أمّا المباح فهولمن لاحظّ له منه إلّا التلذّذ بالصّوت الحسن .

وأمّا المندوب فهو لمن غلب عليه حبّ الله تعالى و لم يحرّك السماع منه إلّا الصفاتُ المحمودة . هذا كلامه .

و في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « فاجتنبوا الرّجس منالأوثان و اجتنبوا قول الزّور » قال الغناء (١) .

و عنه عليه السلام في قوله عزّوجلّ : « لايشهدون الزّور » قال : الغناء (٢).

و عنه عليه السلام قال : « الغناء عشرالنفاق »(٣).

و عنالباقر عليه السلام : الغناء ممّا وعدالله عزّوجلّ عليهالنّار وتلاهذه الآية «ومن النّاس منيشتري لهوالحديث ليضلّ عن سبيل الله » (٤) .

و عنه عليه السلام : « إذا ميّز الله بين الحقّ والباطل فأينيكون الغناء »(٥) .

و فيالتهذيب (٦) عن الصّادق عليه السلام أنّه سئل عن بيع جواري القينات قال : « شراؤهنّ وبيعهنّ حرامٌ ، و تعليمهنّ كفرٌ ، و استماعهنّ نفاقٌ » .

و عنه عليه السلام « المغنّية ملعونة ملعون من أكل من كسبها »(٧) .

و عنه عليه السلام : « أجر المغنّية الّتي تزفّ العرائس ليس به بأس ليست بالّتي يدخلعليها الرّجال » (٨) .

و عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن كسب المغنّيات فقال : الّتي يدخل عليها

---

(١) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ والاية فيسورة الحج : ٣٠ .

(٢) المصدر ج ٦ ص٤٣١ والاية فيالفرقان : ٧٢ .

(٣) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ وفيه « عش النفاق » .

(٤) المصدر ج ٦ ص ٤٣١ والاية في لقمان : ٦ .

(٥) المصدر ج ٦ ص ٤٣٥ .

(٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ١٠٧ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ١٠٨ .

الرّجال حرامٌ والّتي يدعى إلى الأعراس ليس به بأس و هو قول الله عزّ و جلّ : « من الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله »[١] .

و في كتاب من لايحضره الفقيه « سأل رجل عليّ بن الحسين عليهما السلام عن شراء جارية لها صوت فقال : ما عليك لو اشتريتها فذكّرتك الجنّة »[٢] يعني بقراءة القرآن والزّهد والفضائل الّتي ليست بغناء فأمّا الغناء فمحظورٌ . انتهى .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : « رجّع بالقرآن صوتك فإنّ الله تعالى يحبّ الصوت الحسن ترجّع به ترجيعاً »[٣] .

وعن الصّادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها ، وإيّاكم ولحون أهل الفسق والكبائر فإنّه سيجيىء بعدي أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية لاتجوز تراقيهم ، قلوبهم مقلوبة و قلوب من يعجبه شأنهم »[٤] .

و قد ذكرنا في كتاب آداب تلاوة القرآن من ربع العبادات[٥] أخباراً اُخر في هذا الباب ويستفاد من مجموعها اختصاص حرمة الغناء وما يتعلّق به من الاستماع والأجر والتعليم وغيرها بماكان على النحو المتعارف في زمن بني اُميّة وبني العباس من دخول الرّجال عليهنّ و تكلّمهنّ بالأباطيل ولعبهنّ بالملاهي والعيدان والقضيب و أمّا ماسوى ذلك فإمّا مندوب إليه كالترجيع بالقرآن و ما يكون منه وسيلة إلى ذكر الله والدّار الآخرة ، و إمّا مباح أو مكروه كما ذكرهما أبوحامد ولايبعد أن

---

(١) التهذيب ج ٢ ص١٠٨ .

(٢) الفقيه ص ٤٨٢ تحت رقم ٩ .

(٣) الكافي ج ٢ ص ٦١٦ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ٦١٤ ولحن في قراءته اذاطرب بهاوغرد و هوألحن الناس اذا كان أحسنهم قراءة او غناء . وترجيع الصوت ترديده في الحلق كقراءة اصحاب الالحان قاله الجوهري . وفي النهاية : التراقي جمع ترقوة والمعنى أن قراءتهم لايرفع الى الله ولا يقبله .

(٥) راجع ج ٢ ص ٢٣٢ من هذا الكتاب .

يختلف الحكم في بعض أفراده بالإضافة إلى تفاوت درجات الناس فإنّه لايليق بذوي المروّات مايليق بمن دونهم .

قال أبو حامد : وأمّا الشعر فكلام حسنه حسنٌ وقبيحه قبيحٌ إلّا أنّ التجرّد له منمومٌ ، قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلي بطن أحدكم قيحاً و دماً حتّى يراه خيرٌ له من أن يمتلي شعراً » (١) .

و سئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : اجعل مكان هذا ذكراً فإنّ ذكر الله خيرٌ من الشعر . وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام يكره ، قال ﷺ : « إنّ من الشعر لحكمة » (٢) نعم مقصود الشعر المدح والذمّ والتشبيب وقد يدخلها الكذب و قد أمر رسول الله ﷺ حسّاناً بهجاء الكفار (٣) ، و التوسّع في المدح و إن كان كذباً فإنّه لايلتحق في التحريم بالكذب كقول حبيب الشاعر :

ولولم يكن في كفّه غير روحه لجاد بها فليتّق الله سائله

فإنّ هذه عبارة عن الوصف بنهاية السّخاء فإن لم يكن صاحبه سخيّاً كان كذباً و إن كان سخيّاً فالمبالغة من صنعة الشعر ولايقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ أشعار لو تتبّعت لوجد فيها مثل ذلك ولم يمنع منها قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يخصف نعله و كنت أغزل ، قالت : فنظرتُ إلى رسول الله ﷺ فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولّد نوراً قالت : فبهتُّ فنظر إليّ فقال : مالك بهتّ ؟ فقلت : يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق ، و جعل عرقك يتولّد نوراً ولو رآك أبو كثير الهذلي لعلم أنّك أحقّ بشعره ، قال : وما يقول يا عائشة أبو كثير الهذلي؟ فقلت : يقول :

---

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح والطبراني وفيه يزيد بن سفيان وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٢٠ . (٢) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٨ .

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٤٥ من حديث البراء انه (ص) قال لحسان أهجو و جبرئيل معك .

ومبرّأ من كلّ غبّر حيضة و فساد مرضعة وداء مغيل
و إذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلّل

قالت : فوضع رسول الله ﷺ ماكان بيده وقام إليّ فقبّل ما بين عينيّ وقال: جزاك الله يا عائشة خيراً ما سررت منّي كسروري منك اليوم » (١).

و لمّا قسّم الغنائم أمر للعبّاس بن مرداس بأربع قلائص من الإبل فانبعث العبّاس يشكو في شعر له و في آخر :

و ما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
و ما كنت دون امرىء منهما و من تضع اليوم لا يرفع
وقد كنت في الحرب ذاتُدرَإ ولم أعط شيئاً ولم أمنع

فقال ﷺ : اقطعوا عنّي لسانه فذهب به أبوبكر حتّى اختار مائة من الإبل ثمّ رجع وهو من أرضى الناس فقال له رسول الله ﷺ : أتقول الشعر فيّ فجعل يعتذر و يقول : بأبي أنت واُمّي إنّي لأجد للشعر دبيباً على لساني مثل من دبيب النمل، ثمّ يقرضني كما يقرض النمل فلا أجد بدّاً من أن أقول ، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال : « لاتدع العرب الشعر حتّى تدع الإبل الحنين »(٢).

أقول: لم يبيّن أبوحامد معنى الشعر و أنّه على أيّ كلام يطلق كما كان يبيّن نظائره من الآفات .

فاعلم أنّ الشعر يطلق على معنين أحدهما الكلام الموزون المقفّى سواء كان حقّاً أوباطلاً وعلى حقّه يحمل حديث « إنّ من الشعر لحكمة » وحديث « أنّ لله كنوزاً تحت عرشه و مفاتيحه في ألسنة الشعراء » و كذا كلّ ما ورد في مدح الشعر و نفي البأس عنه كما سنذكره فإنّ المراد منه ماكان حقّاً من الموزون المقفّى ليس فيه تمويه و كذب ، والمعني الثاني الكلام المشتمل على التخييلات المؤذية والتمويهات

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل كما فى المغنى .

(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٠٨ من حديث رافع بن خديج وقد تقدم . و أورده الطبرى فى الحوادث السنة الثامنة .

المزخرفة الّتي لاأصل لها ولا حقيقة سواء كان لها وزن و قافية أم لا و عليه يحمل ما ورد في ذمّه وهو المراد من قول قريش حيث نسبوا القرآن إلى الشعر و قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وآله : إنّه شاعر فإنّ القرآن ليس بموزون ومن هذا القبيل مجادلات المتكلّمين في المذاهب وشبهاتهم المزخرفة المضلّة ، قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون » : هل رأيت شاعراً يتبعه أحد إنّماهم قوم تفقّهوا لغير الله فضلّوا وأضلّوا »(١). و قال الصّادق عليه السلام : « هم قوم تعلّموا و تفقّهوا بغير العلم فضلّوا و أضلّوا »(٢) . و قال بعض علمائنا(٣) طاب ثراهم : إنّها نزلت في الّذين غيّروا دين الله وخالفوا أمر الله عزّ وجلّ هل رأيتم شاعراً قطّ يتبعه أحد وإنّما عنى بذلك الّذين وضعوا ديناً بآرائهم فيتّبعهم النّاس على ذلك قال : « ألم تر أنّهم في كلّ و اديهيمون » يعني يناظرون بالأباطيل و يجادلون بالحجج المضلّين وفي كلّ مذهب يذهبون يعني بهم المغيّرين دين الله « وأنّهم يقولون مالا يفعلون » يعني يعظون الناس ولايتّعظون وينهون عن المنكر ولاينتهون و يأمرون بالمعرف ولايعملون قال : وهم الّذين غصبوا آل محمّد حقّهم ».

فأمّا ماورد في مدح الشعر بالمعنى الأوّل ماكان منه حقّاً من طريق الخاصّة فمنه ماروا الصدوق - رحمه الله - في كتاب عيون أخبار الرّضا عليه السلام بإسناد حسن عن عبدالله بن الفضل الهاشمي قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : « من قال فينا بيت شعر بنى الله له بيتاً في الجنّة » (٤) .

و بإسناده عنه عليه السلام قال : « ما قال فينا قائل بيت شعر حتّى يؤيّد بروح القدس » (٥) .

وبإسناده عن الحسن بن الجهم قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : « ماقال فينا

(١) رواه ابن بابويه كما في تفسير البرهان ج ٣ ص ١٩٤ . و الاية في سورة الشعراء ٢٢٤ :

(٢) رواه العياشي في تفسيره كما في مجمع البيان ذيل الاية .

(٣) المراد علي بن ابراهيم القمي في تفسيره المشهور .

(٤) و (٥) المصدر ص ٥ .

مؤمن شعراً يمدحنا به إلّا بنى الله له مدينة في الجنّة أوسع من الدّنيا سبع مرّات يزوره فيها كلّ ملك مقرّب وكلّ نبيّ مرسل »[1].

وبإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سأله رجل عن أوّل من قال الشّعر فقال: آدم، قال: وما كان شعره؟ قال: لمّا اُنزل إلى الأرض من السّماء فرأى تربتها وسعتها وهواها، وقتل هابيل فقال عليه السلام:

تغيّرت البلاد ومن عليها ✿ فوجه الأرض مغبرّ قبيح

تغيّر كلّ ذي لون وطعم ✿ وقلّ بشاشة الوجه المليح

الحديث[2].

وفي التّهذيب[3] بإسناده عن خلف بن حمّاد عن الرّضا عليه السلام قال: قلت: « إنّ أصحابنا يروون عن آبائك عليهم السلام أنّ الشعر ليلة الجمعة ويوم الجمعة وفي شهر رمضان وفي اللّيل مكروه وقد هممت أن أرثي أبا الحسن عليه السلام وهذا شهر رمضان فقال رثّ أبا الحسن عليه السلام في ليلة الجمعة وفي شهر رمضان وفي اللّيل وفي سائر الأيّام فإنّ الله عزّ وجل يكافيك على ذلك ».

وفي الصحيح عن عليّ بن يقطين عن الكاظم عليه السلام قال: « سألته عن إنشاد الشعر في الطواف فقال: ما كان من الشعر لابأس به فلا بأس به »[4].

وفي الصحيح عن عليّ بن جعفر عن أخيه الكاظم عليه السلام قال: « سألته عن الشعر أيصلح أن ينشد في المسجد؟ قال: لا بأس »[5].

وأمّا ماورد في ذمّ الشعر بالمعنى الأوّل ما كان منه باطلاً فمنه ما رواه جعفر ابن إبراهيم في الصحيح عن زين العابدين عليه السلام قال: « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: « من سمعتموه ينشد الشعر في المسجد فقولوا: فضّ الله فاك، إنّما نصبت المساجد

---

(١) المصدر ص ٥.

(٢) عيون اخبار الرضا ص ١٤٣.　　(٣) وقع هنا في النسخ اشتباه والصواب كتاب الاداب الدينية وهو مخطوط وأورده صاحب الوسائل آخر كتاب المزار منه.

(٤) التهذيب ج ١ ص ٤٨٥.　　(٥) التهذيب ج ١ ص ٣٣٠ باب فضل المساجد.

للقرآن » (١) فإنّه محمول على الشعر الباطل .

و كذا ما رواه سماعة في الموثّق قال : « سألته عن نشيد الشعر هل ينقض الوضوء أوظلم الرّجل صاحبه أوالكذب فقال : نعم إلّا أن يكون شعراً يصدّق فيه أو يكون يسيراً من الشعر ، الأبيات الثلاثة و الأربعة . فأمّا أن يكثر من الشعر الباطل فهو ينقض الوضوء » (٢) .

ولعل المراد نقصان ثواب الوضوء به واستحباب إعادته لاوجوب ذلك .

وأمّا ما رواه حمّادبن‌عثمان وغيره في‌الصحيح عن‌الصادق عليه السلام قال : « لاينشد الشعر بليل ولاينشد في شهررمضان بليل ولانهار ، فقال‌له إسماعيل : ياأبتاه وإن‌كان فينا ، قال : وإن‌كان فينا » (٣) .

و ما رواه حماد أيضاً في الصحيح عنه عليه السلام قال : «يكره رواية الشعر للصائم والمحرم و في‌الحرم و في يوم الجمعة وأن يروى باللّيل ، قال : قلت : وإن كان شعر حقّ ؟ قال : وإن كان شعر حقّ »(٤) فمحمول على الموزون المشتمل على التخيلات المزخرفة والكاذبة وذلك لأنّ كون موضوعه حقّاً كحكمة أو موعظة أو كونه‌فيهم عليهم السلام لايخرجه عن المبالغات الشعرية الكاذبة فإن لم يكن مشتملاً على شيء منها فلا بأس بالوزن .

✿(الافة العاشرة المزاح)✿

و أصله مذموم منهيّ عنه إلّا قدراً يسيراً يستثنى منه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لاتمارأخاك ولاتمازحه»(٥) فإن‌قلت : المماراة إيذاء لأنّ‌فيه‌تكذيباًللأخ أوالصديق أو تجهيلاً ، و أمّا المزاح فمطايبة و فيه انبساط وطيبة قلب‌فلم ينهى‌عنه ؟ فاعلم أنّ

(١) التهذيب ج ١ ص ٣٣٣ .
(٢) الاستبصار ج ١ ص ٨٧ ، والتهذيب ج ١ ص ٥ .
(٣) التهذيب ج ١ ص ٤٠٧ باب ٤٨ سنن الصيام وفى الكافى ج ٤ ص ٨٨ .
(٤) التهذيب ج ١ ص ٤٠٧ باب سنن الصيام .
(٥) تقدم عن الترمذى وغيره .

المنهيّ عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه أمّا المداومة فلأنّه اشتغال باللّعب والهزل واللّعب مباح و لكن المواظبة عليه مذمومة ، و أمّا الإفراط فيه فإنّه يورث كثرة الضحك و كثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذمّ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « إنّي لأمزح ولا أقول إلّا حقّاً »[1] ومثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلّا حقّاً ، وأمّا غيره فإذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيف كان و قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة فيضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريّا »[2] وقال بعضهم : من كثر ضحكه قلّت هيبته و من مزح استخفّ به ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه و من قلّ حياؤه قلّ ورعه ، و من قلّ ورعه مات قلبه ، و لأنّ الضحك يدلّ على الغفلة عن الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً »[3] .

وقال رجل لأخيه : يا أخي هل أتاك أنّك وارد النّار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنّك خارج منها ؟ فقال : لا ، فقال : ففيم الضحك ؟ قال : فما رُئي ضاحكاً حتّى مات . ونظر بعضهم إلى قوم يضحكون في يوم فطر فقال : إنّ كان هؤلاء غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين و إن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين .

و قال آخر لنفسه : أتضحك ولعلّ أكفانك قد خرجت من عند القصّار .

وقال ابن عباس : من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي .

فهذه آفات الضحك فالمذموم منه أن يستغرق ضحكاً والمحمود التبسّم الّذي ينكشف فيه السنّ ولا يسمع الصوت ، و كذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله[4] .

---

(١) اخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عمر كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٩.

(٢) تقدم آنفاً .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩١ عن أنس واحمد ج ٢ ص ٢٥٧ عن أبي هريرة .

(٤) أخرج الترمذي في الشمائل ص ١٦ عن عبدالله بن حارث قال : « لما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله الا تبسماً » .

و قال القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص له صعب فسلّم فجعل كلّما دنى إلى النّبي ﷺ ليسأله نفر به وجعل أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون به ففعل ذلك ثلاث مرّات ثمّ وقصه فقتله ، فقيل : يا رسول إنّ الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك ، قال : نعم وأفواهكم ملأى من دمه » (١) .

و أمّا إذا أدّى المزاح إلى إسقاط الوقار فقد قيل : من مزح استخفّ به . وقال بعضهم لابنه : يابنيّ لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا تمازح الدّني فيجترىء عليك وقال آخر : إيّاكم والممازحة فإنّها تورث الضغينة وتجرّ القبيحة تحدّثوا بالقرآن و تخالطوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من أحاديث الرّجال . و قيل : أتدرون لم سمّي المزاح مزاحاً ؟ قالوا : لا ، قال : لأنّه أزاح صاحبه عن الحقّ ، و يقال : لكلّ شيء بذر وبذر العداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للأصدقاء .

فإن قلت : فقد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فنقول : إن قدرت على ما قدر رسول الله ﷺ وهو أن تمزح ولا تقول إلّا حقّاً ولا تؤذي قلباً ولاتفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً وعلى الندور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتّخذ الإنسان المزاح حرفته و يواظب عليه ويفرط ثمّ يتمسّك بفعل رسول الله ﷺ و هو خطأ إذ من الصّغائر ما يصير كبيرة بالإصرار و من المباحات مايصير صغيرة بالإصرار ، فلاينبغي أن يغفل عن هذا نعم روى أبو هريرة أنّهم قالوا : « يا رسول الله إنّك تداعبنا فقال : إنّي وإن داعبتكم فلا أقول : إلّا حقّاً » (٢) .

و قال عطاء : إنّ رجلاً سأل ابن عباس فقال : أكان رسول الله ﷺ يمزح ؟ قال : نعم ، فقال الرّجل : فما كان مزاحه ؟ فقال ابن عباس : إنّه ﷺ كسى ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها : ألبسيه و احلفي و أحمدي و جري منه ذيلاً كذيل العروس » (٣). وروى أنس « أنّ النبي ﷺ كان من إفكه الناس » (٤) وروي

(١) أخرجه ابن مبارك في الزهد والرقائق كما في المغني .
(٢) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٥٧ وحسنه .
(٣) قال العراقي : لم أقف عليه . (٤) تقدم .

« أنّه كان كثير التبسّم »(١). و عن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله لها : لاتدخل الجنّة عجوز فبكت ، فقال : إنّك لستِ يومئذ بعجوز قال الله تعالى : «إنّا أنشأنا هنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكاراً »(٢).

و روى زيد بن أسلم أنّ امرأة يقال لها : امُّ أيمن جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقالت : إنّ زوجي يدعوك فقال : ومن هو أهو الّذي بعينه بياض ؟ فقالت : لا والله ما بعينه بياض فقال : بلى إنّ بعينه بياضاً ، قالت : لا والله فقال صلى الله عليه وآله : ما من أحد إلّا بعينه بياض » (٣) أراد به البياض المحيط بالحدقة .

و جاءته امرأة اُخرى فقالت : « يا رسول الله : احملني على بعير فقال صلى الله عليه وآله : بل نحملك على ابن البعير ، فقالت : ما أصنع به إنّه لايحملني فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : هل من بعير إلّا وهو ابن بعير ؟ »(٤) وكان يمزح به .

و روى علقمة عن أبي سلمة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدلع لسانه للحسين ابن عليّ عليهما السلام فيرى الصبيّ لسانه فيهشّ له وقال عيينة بن بدر الفزاري : والله ليكون لي الابن رجلاً قد تزوّج وبقل وجهه وما قبّلته قطّ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ من لم يرحم لم يرحم » (٥) .

فأكثر هذه المطائبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وآله لصهيب و به رمد وهو يأكل التمر : أتأكل التمر وأنت أرمد ؟ فقال : إنّما آكل بالشقّ الآخر فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله قال بعض الرواة : حتّى نظرت إلى نواجذه (٦).

(١) تقدم . (٢) أخرجه الترمذي في كتاب الشمائل ص ١٦ مرسلا .

(٣) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة و المزاح ، و رواه ابن ابي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف (المغني) .

(٤) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٦ بادنى اختلاف في اللفظ .

(٥) أخرجه ابويعلى من هذا الوجه دونما في آخره من قول عيينة و أخرج مسلم ذيله من قول الاقرع بن حابس بادنى تغيير (المغني) .

(٦) أخرجه الحاكم ج ٣ ص ٣٩٩ وقال : صحيح ولم يخرجا وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢ و ٣٤ .

و روي أنّ خوّات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكّة فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال : يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ قال : يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود ، قال : فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثمّ طلع فقال : يا أباعبدالله أمّاترك ذلك الجمل الشرادبعد ؟ قال : فسكتّ واستحييت ، قال : فكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلّما رأيته حياء منه حتّى قدمت المدينة و بعد ما قدمت المدينة حتّى طلع عليّ يوماً و أنّا اُصلّي في المسجد فجلس إليّ فطوّلت فقال : لا تطول فإنّي أنتظرك فلمّا فرغت قال : ياأبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ قال فسكتّ واستحييت فقام فكنت أتفرّر منه حتّى لقيني وهو على حمار وقد جعل رجليه في شقّ واحد فقال : أباعبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ قال : قلت : والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما شرد منذ أسلمت فقال : الله أكبر الله أكبر اللّهمّ اهد أباعبدالله قال : فحسن إسلامه و هداه الله »[1] و كان نعيمان الأنصاريّ مزّاحاً و كان يشرب فيؤتى به إلى النبيّ ﷺ فيضربه بنعله و يأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلمّا كثر ذلك منه قال له رجل من الأصحاب : لعنك الله فقال النبيّ ﷺ : لاتفعل فإنّه يحبّ الله ورسوله وكان لايدخل المدينة رسل ولاطرفة إلّا اشترى منها ثمّ جاء بها إلى رسول الله ﷺ و يقول : هذا أهديته لك فإذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه جاء به إلى النبيّ ﷺ و قال : يا رسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول رسول الله ﷺ : أولم تهده لنا فيقول : يارسول الله إنّه لم يكن والله عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك رسول الله ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه [2] .

فهذه مطائبات يباح مثلها على الندور لا على الدّوام و المواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب .

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير من رواية زيد بن اسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات كما فى المغنى .

(٢) أخرجه الزبير بن بكار فى الفكاهة ومن طريقه ابن عبدالبر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا كما فى المغنى .

✿(الآفة الحادية عشر السخرية والاستهزاء)✿

و هذا محرّم مهما كان مؤذياً قال الله تعالى : « لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » (١) ومعنى السخريّة الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء و إذا كان بحضرة المستهزء به لم يسمّ ذلك غيبة و فيه معنى الغيبة قالت عائشة : حاكيت إنساناً فقال ﷺ : « ما اُحبُّ أنّي حكيت إنساناً وأنّ لي كذا و كذا »(٢) و قال ابن عباس في قوله تعالى : « يا ويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيها » (٣) الصّغيره التبسّم بالاستهزاء بالمؤمن و الكبيرة القهقهة بذلك وهو إشارة إلى أنّ الضحك على الناس من الجرائم والذّنوب .

وعن عبدالله بن زمعة أنّه سمع النبيّ ﷺ يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة ، وقال : علي مَ يضحك أحدكم ممّا يفعل »(٤).

و قال ﷺ : « إنّ المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم من باب الجنّة فيقال: هلمّ هلمّ فيجيىء بكربه وغمّه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثمّ يفتح له بابٌ آخر فيقال: هلمّ هلمّ فيجيىء بكربه وغمّه فإذا أتاه أغلق دونه فمايزال كذلك حتّى أنّ الرّجل ليفتح له الباب فيقال : هلمّ هلمّ فما يأتيه »(٥) و قال معاذ بن جبل : قال رسول الله ﷺ : « من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتّى يعمله » (٦) و كلّ هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له ، وعليه نبّه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيراً منهم »(٧) أي لم تسخر به استصغاراً ولعلّه خير منك

(١) الحجرات : ١١ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٣١٠ و قال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الكهف : ٤٩ .

(٤) متفق عليه من حديث عبدالله بن زمعة .

(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا كما فى الترغيب ج ٣ ص ٦١١ .

(٦) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٣١١ .

(٧) الحجرات : ١١ .

و هذا إنّما يحرم في حقّ من يتأذّى فأمّامن جعل نفسه مسخرة ويظلّ فرحاً من أن يسخر به كان السخريّة به من جملة المزاح و قد سبق مايذمّ منه و مايمدح ، و إنّما المحرّم منه استصغار يتأذّى به المستهزء به لما فيه من التحقير والتهاون و ذلك تارة يجري بأن يضحك على كلامه إذا تخبّط ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوّشة كالضحك على خطّه و على صنعته أوعلى صورته وخلقته إذا كان قصيراً أوناقصاً لعيب من العيوب ، فالضحك من جملة ذلك داخل في السخرية المنهيّ عنها المذموم أمثالها .

✡(الآفة الثانية عشر افشاء السر)✡

و هو منهيّ عنه لما فيه من الإيذاء و التهاون بحقّ المعارف والأصدقاء قال رسول الله ﷺ : « إذا حدّث الرجل الحديث ثمّ التفت فهي أمانة » (١) و قال مطلقا : « الحديث بينكم أمانة »(٢) وقال الحسن : إنّ من الخيانة أن تحدّث بسرّ أخيك . وقد ذكرنا ما يتعلّق بكتمان السرّ في كتاب آداب الصّحبة فلانعيده .

✡(الآفة الثالثة عشر الوعد الكاذب)✡

فإنّ اللّسان سباق إلى الوعد ثمّ إنّ النفس ربّما لاتسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق وقد قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » (٣) وقال ﷺ : « العدة دين »(٤) وقال ﷺ : «العدة عطيّة »(٥) وقال ﷺ : «الوأي مثل الدّين أوأفضل »(٦) والوأي الوعد وقد أثنى الله تعالى على نبيّه إسماعيل صلوات الله عليه فقال : « إنّه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيّاً » فيقال إنّه واعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه فبقي اثنين و عشرين يوماً في انتظاره .

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا كما في المغني .
(٣) المائدة : ١ .
(٤) أخرجه ابن عساكر من حديث علي عليه السلام في حديث . وقد تقدم .
(٥) أخرجه ابونعيم في الحلية عن ابن مسعود بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .
(٦) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس كما في كنوز الحقايق للمناوي .

أقول: ومن طريق الخاصّة عن الصادق عليه السلام « إنّما سمّي إسماعيل صادق الوعد لأنّه وعد رجلاً في مكان فانتظره في ذلك المكان سنة فسمّاه الله صادق الوعد ثمّ إنّ الرّجل أتاه بعدذلك فقال له إسماعيل : مازلت منتظراً لك » (١) .

قال أبوحامد : وعن عبدالله بن أبي الحمساء قال : بايعت النبيّ صلّى الله عليه وآله فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك ، فنسيت يومي والغد فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ، و قال : يافتى قدشققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » (٢) .

و قيل لإبراهيم : الرّجل يواعد الرّجل الميعاد فلايجيىء ، قال : ينتظره ما بينه و بين أن يدخل وقت الصلاة الّتي تجيىء ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إذا وعد وعداً قال : عسى » (٣) و كان ابن مسعود لايعد وعداً إلّا و يقول : إن شاء الله . و هو الأولى ثمّ إذا فهم معنى ذلك الجزم في الوعد فلا بدّ من الوفاء إلّا أن يتعذّر فإن كان عند الوعد عازماً على أن لايفي فهذا هو النفاق .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم : إذاحدّث كذب وإذا وعد أخلف ، و إذا ائتمن خان » (٤) .

و قال عبدالله بن عمر : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « أربع من كنّ فيه كان منافقاً و من كانت فيه خلّة منهنّ كانت فيه خلّة من خلال النفاق حتّى يدعها : إذاحدّث كذب ، وإذا وعدأخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» (٥) وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أوترك الوفاء فأمّا من عزم على الوفاء و عنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً و إن جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز أيضاً من حقيقته ، ولاينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة فقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان وعد أباالهيثم بن تيهان خادماً فأتي بثلاث من السبي فأعطى اثنتين وبقي واحدة فجاءت فاطمة بنت رسول الله

(١) رواه الصدوق في العلل باب ٦٧ عن الرضا عليه السلام . والاية في سورة مريم : ٥٤ .

(٢) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٥ . والبغوي في المصابيح ٢ ص ١٥٤ .

(٣) قال العراقي : لم أجد له اصلا .

(٤) و (٥) أخرجهما مسلم ج ١ ص ٥٦ وقد تقدما .

صلى الله عليه وآله وسلم تطلب منه خادماً وهي تقول: ألاترى أثر الرّحا يا رسول الله في يدي، فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول: كيف موعدي لأبي الهيثم فآثره به على فاطمة لما سبق من وعده له مع أنّها كانت تدير الرّحا بيدها الضعيفة (١).

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً بقبا يقسّم غنايم هوازن بحنين فوقف عليه رجلٌ من الناس فقال: إنّ لي عندك موعداً يارسول الله، فقال: صدقت فاحتكم ما شئت فقال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هي لك ولقد احتكمت يسيراً ولصاحبة موسى الّتي دلّته على عظام يوسف كانت أحزم وأجزل حكماً منك حين حكّمها موسى فقالت: حكمي أن تردّني شابّة و أدخل معك الجنّة قيل: فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتّى جعل مثلاً يقولون: أشحّ من صاحب الثمانين والرّاعي (٢).

و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الخلف أن يعد الرجل الرّجل ومن في نيّته أن يفي» و في لفظ آخر «إذا وعد الرّجل أخاه وفي نيّته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه» (٣).

أقول: قد سبق جواز خلف وعد النساء و الصّبيان إذا وعدوا في تطييب نفوسهنّ.

﴿الآفة الرابعة عشر الكذب في القول واليمين﴾

و هو من قبائح الذّنوب و فواحش العيوب قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هولك مصدّق وأنت له به كاذب» (٤).

و قال ابن مسعود: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لايزال العبد يكذب و يتحرّى الكذب حتّى يكتب عند الله كذّاباً» (٥).

---

(١) ماعثرت على تمام الحديث فى أى أصل.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك مع اختلاف ج ٢ ص ٥٧٠ وقال اسناده صحيح وفيه نظر.

(٣) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٩٥.

(٤) أخرجه البخارى فى الادب المفرد وابو داود من حديث سفيان بن اسيد.

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٩.

ومرّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لأنقصك من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لأزيدك على كذا وكذا، فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال: أوجب أحدهما بالإثم والكفّارة.» [(١)].

و قال النبيّ ﷺ: «الكذب ينقص الرزق» [(٢)].

و قال ﷺ: «إنّ التجّار هم الفجّار، فقيل: يا رسول الله أليس الله قد أحلّ البيع؟ فقال: نعم ولكنّهم يحلفون فيأثمون و يحدّثون فيكذبون» [(٣)].

و قال ﷺ: «ثلاث نفر لا يكلّمهم الله يوم القيامة، و لا ينظر إليهم، و لا يزكّيهم: المنّان بعطيّته، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره» [(٤)].

و قال ﷺ: «ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلّا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة» [(٥)].

وقال أبوذرّ: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبّهم الله: رجل كان في فئة فنصب نحره حتّى يقتل أو يفتح الله عليه و على أصحابه، و رجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهم موت أوظعن، ورجل كان مع قوم في سفر أوسريّة فأطالوا السُرى حتّى أعجبهم أن يمسّوا الأرض للراحة فنزلوا فتنحّى يصلّي حتّى يوقظ أصحابه للرحيل؛ وثلاثة يشنأهم الله: التاجر أوالبايع الحلّاف والفقير المختال والبخيل المنّان» [(٦)].

و قال ﷺ: «ويلٌ للّذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له» [(٧)].

(١) قال العراقى: أخرجه ابوالفتح الازدى فى كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى.

(٢) رواه الاصبهانى كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٩٦.

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى ج ٥ ص ٢٦٦. من حديث عبدالرحمن بن شبل.

(٤) السنن الكبرى ج ٦ ص ٢٦٥ من صحيح مسلم من حديث غندر بن شعبة وقد تقدم.

(٥) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث عبدالله بن انيس.

(٦) أخرجه احمد ج ٥ ص ١٥١.

(٧) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٤.

و قال ﷺ : « رأيت كان رجلاً جاءني فقال : قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم و الآخر جالس ، بيد القائم كلّوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتّى يبلغ كاهله ، ثمّ يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فإذا مدّه رجع الآخر كما كان فقلت للّذي أقامني : ماهذا ؟ فقال : هذا رجل كذّاب يعذّب في قبره إلى يوم القيامة »(١) .

و عن عبدالله بن جراد أنّه سأل النبيّ ﷺ فقال : « يا نبيّ الله هل يزني المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك ، قال : يا رسول الله هل يكذب المؤمن ؟ فقال : لا ، ثمّ أتبعها رسول الله ﷺ بقول الله تعالى : «إنّما يفتري الكذب الّذين لا يؤمنون »(٢) .

و قال أبوسعيد : سمعت رسول الله ﷺ يدعو ويقول : « اللّهمّ طهّر قلبي من النفاق وفرجي من الزّنى ولساني من الكذب »(٣) .

وقال ﷺ : «ثلاثة لا يكلّمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذّاب ، وعائل مستكبر »(٤) .

و قال عبدالله بن عامر : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير فذهبت لألعب ، فقالت أمّي : يا عبدالله تعال أعطيك ، فقال رسول الله ﷺ : وما أردت أن تعطيه ؟ فقالت : تمراً ، فقال : أما إنّك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة »(٥) .

و قال ﷺ : « لو أفاء الله تعالى عليّ نعماً عدد هذه الحصى لقسّمتها بينكم ثمّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذّاباً ولا جباناً » (٦) .

(١) أخرجه البخاری فی حديث طويل ج ٩ ص ٥٦ عن سمرة بن جندب .

(٢) أخرجه الخرائطی فی مساوی الاخلاق و ابن عساكر ، و الخطيب فی تاريخهما كما فی الدر المنثور ج ٤ ص ١٣١ ، والاية فی سورة النحل : ١٠٥ .

(٣) قال العراقی هكذا فی نسخ الاحياء عن ابی سعيد وانما هو عن ام معبد كذا رواه الخطيب فی التاريخ دون قوله « وفرجی من الزنی » وزاد « وعملی من الرياء وعينی من الخيانة » واسناده ضعيف .

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ٧٢ عن ابوهريرة .

(٥) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٤ .

(٦) أخرجه البخاری ج ٤ ص ١١٥ من حديث جبير بن مطعم وقد تقدم ج ٤ ص ١٥٠ .

و قال ﷺ وكان متكئاً : «ألا أُخبركم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، ثم قعد فقال : ألاوقول الزور » (١) .

و قال ابن عمر : قال النبيّ ﷺ : « إنّ العبد ليكذب الكذب فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به » (٢).

و قال النبيّ ﷺ : « تقبّلوا لي بستّ أتقبّل لكم بالجنّة فقالوا : و ما هنّ يا رسول الله ؟ قال : إذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلايخلف ، وإذا ائتمن فلا يخن ، و غضّوا أبصاركم ، و كفّوا أيديكم ، و احفظوافروجكم » (٣) .

و قال ﷺ : « إنّ للشيطان كحلاً ولعوقاً و نشوقاً ، فأمّا لعوقه فالكذب وأمّا نشوقه فالغضب ، وأمّا كحله فالنوم » (٤) .

و قال ﷺ : « من حدّث عنّي بحديث و هو يرى أنّه كذب فهو أحد الكاذبين » (٥).

و قال ﷺ : « من حلف على يمين مؤثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حقّ لقي الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان » (٦) .

و يروى « أنّ النبيّ ﷺ ردّ شهادة رجل في كذبة كذبها » (٧) .

و قال ﷺ : « على كلّ خصلة يطبع أويطوى عليها المؤمن إلّا الخيانة

---

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٤ من حديث ابي بكرة .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٤٧ وحسنه .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب عن أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٤) أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف عن انس كما فى الجامع الصغير ، ورواه الصدوق فى المعانى ص ١٣٨ هكذا « ان لابليس كحلا و لعوقاً و سعوطاً فكحله النعاس و لعوقه الكذب وسعوطه الكبر ».

(٥) أخرجه مسلم ج ١ ص ٧ من حديث سمرة بن جندب .

(٦) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٦٧ من حديث عبدالله . ومسلم ج ١ ص ٨٥ .

(٧) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت من حديث موسى بن شيبة مرسلا كما فى المغنى .

والكذب »[١] .

و قالت عائشة : ماكان من خلق أشدّ عند أصحاب الرسول ﷺ من الكذب ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرّجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتّى يعلم أنّه قد أحدث لله عزّ وجلّ منها توبة » [٢] .

و قال موسى عليه السلام : « يا ربّ أيّ عبادك خير عملاً ؟ قال : من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه » . وقال لقمان لابنه : « يا بنيّ إيّاك و الكذب فإنّه شهيّ كلحم العصفور عمّا قليل يقلاه صاحبه » .

وقال ﷺ في مدح الصدق : « أربع إذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدّنيا صدق حديث و حفظ أمانة و حسن خليقة وعفّة في طعمة » [٣].

و قال معاذ : قال لي رسول الله ﷺ : « إنّي اُوصيك بتقوى الله و صدق الحديث ، و أداء الأمانة ، و وفاء العهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح » [٤].

و قال عليّ عليه السلام : « أعظم الخطايا عند الله اللّسان الكذوب ، و شرّ الندامة ندامة يوم القيامة » .

وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب « ما من خطيب إلّا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقاً صدّق و إن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقراض من نار ، كلّما قرضتا نبتتا » .

و قال ابن السماك : ما أراني أوجر على ترك الكذب لأنّي إنّما أدعه أنفة .

(بيان ما رخص فيه من الكذب)

اعلم أنّ الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على

(١) أخرجه ابويعلى والبزار كما فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٢) أخرج نحوه الترمذى ج ٨ ص ١٤٨ و راجع الترغيب و الترهيب ج ٣ ص ٥٩٧ رواه عن الحاكم و قال صحيح الاسناد .

(٣) أخرجه احمد و ابن ابى الدنيا و الطبرانى و البيهقى باسانيد حسنة كما فى الترغيب ج ٣ ص ٥٨٩ .

(٤) أخرجه ابو نعيم فى الحلية كما فى المغنى .

غيره(*) فإنّ أقلّ درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً و قد يتعلّق به ضرر غيره، وربّ جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب تحصيل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه و ربّما كان واجباً كما لو كان في الصدق قتل نفس بغير حقّ، فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد فكلّ مقصود محمود يمكن التوصّل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصّل بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً و واجب إن كان المقصود واجباً كما أنّ عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصدق سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب و مهما كان لايتمّ مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه إلّا بالكذب فالكذب مباح إلّا أنّه ينبغي أن يحترز عنه ما يمكن لأنّه إذا فتح على نفسه باب الكذب فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه و إلى ما لايقتصر فيه على حدّ الواجب و مقدار الضرورة فكان الكذب حراماً في الأصل إلّا لضرورة ، و الّذي يدلّ على الاستثناء ما روي عن امّ كلثوم قالت: «ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يرخّص في شيء من الكذب إلّا في ثلاث: الرّجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرّجل يحدّث امرأة والمرأة تحدّث زوجها»(١).

و قالت أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال: خيراً أو نمى خيراً» (٢).

(*) فيه نظر لان الكذب اظهار ما هو خلاف الواقع عمداً سواء كان يضر أو ينفع وهذا خروج عن الحق وميل عن الصراط السوى الى الباطل الذى يشمئز عنه الفطرة السليمة والعقل و هذا حرام فى الشرع وقبيح عند العقل الاأن يقال بعدم وجود الحسن والقبح العقليين وهوخلاف ماعليه اصحابنا ، وجواز الشرع الكذب فى بعض الموارد لاختيار اقل المحذورين لمصلحة لاينافى حرمته لنفسه ويؤيد ذلك ظاهر الروايات .

(١) أخرجه البخارى ومسلم واحمد والترمذى عن ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٨ .

و قالت أسماء بنت يزيد : إنّ رسول الله ﷺ قال : « كلّ الكذب يكتب على ابن آدم إلّا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما » (١).

و روي عن أبي كاهل قال : وقع بين رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ كلام حتّى تصاد ما ، فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعته يحسن الثناء عليك، ولقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتّى اصطلحا ، ثمّ قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبيّ ﷺ فقال : ياأباكاهل أصلح بين الناس » (٢) أي ولو بالكذب .

و قال عطاء بن يسار : قال رجل للنبيّ ﷺ : أكذب أهلي ؟ قال : « لاخير في الكذب ، قال : أعدها وأقول لها ؟ قال : لاجناح عليك » (٣).

عن النواس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله ﷺ : « مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النّار ، كلّ الكذب مكتوب كذباً لامحالة إلّا أن يكذب الرّجل في الحرب فإنّ الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدّث امرأته يرضيها » (٤).

و قال عليّ عليه السلام : « إذا حدّثتكم عن رسول الله ﷺ فلان أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أكذب عليه ، و إذا حدّثتكم فيما بيني و بينكم فالحرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء و في معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره ، و أمّا ما له فمثل أن يأخذه ظالم و يسأله عن ماله فله أن ينكر أو يأخذه السلطان فيسأله عن فاحشة بينه و بين الله ارتكبها فله أن ينكرها ويقول: ما زنيت ولاشربت قال رسول الله ﷺ « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر

---

(١) أخرجه احمد ج ٦ ص ٤٥٥ بزيادة فيه واختلاف في اللفظ .

(٢) أخرجه الطبراني ولم يصح كما في المغني .

(٣) رواه مالك في الموطأ ج ٢ ص ٢٥٤ . عن صفوان بن سيلم . و قال العراقي رواه ابن عبدالبر في التمهيد من رواية صفوان عن عطاء .

(٤) أخرجه ابوبكر بن لال في المكارم بلفظ « تتبا يعون - الى قوله - في النار » دون مابعده فرواه الطبراني و فيهما شهر بن حوشب . (المغني)

بستر الله »[1] وذلك لأنّ إظهار الفاحشة فاحشة أُخرى فللرجل أن يحفظ دمه و ماله الّذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً ، وأمّا عرض غيره فبأن يسأل عن سرّ أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرّات من نسائه بأن يظهر لكلّ واحدة أنّها أحبّ إليه ، وكانت امرأته لا تطاوعه إلّا بوعد لايقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان بالكذب و كان لا يطيب قلبه إلاّ بإنكار ذنب و زيارة تودّد فلا بأس به ولكن الحدّ فيه أنّ الكذب محذور ولكن لو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر و يزن بالميزان القسط ، فإذا علم أنّ المحذور الّذي يحصل بالصدق أشدّ وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب و إن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، و قد يتقابل الأمران بحيث يتردّد فيهما وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأنّ الكذب يباح بضرورة أو حاجة مهمّة فإذا شكّ في كون الحاجة مهمّة فالأصل التحريم فيرجع إليه .

و لأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه و كذلك مهما كانت الحاجة له فيستحبّ له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأمّا إذا تعلّق بغرض غيره فلا يجوز المسامحة بحقّ الغير و الإضرار به ، و أكثر كذب الناس إنّما هو لحظوظ أنفسهم ثمّ هو لزيادات المال و الجاه و لأُمور ليس فواتها محذوراً حتّى أنّ المرأة لتحكي عن زوجها ما تتفاخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرّات وذلك حرام قالت أسماء : سمعت امرأة سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله قالت : إنّ لي ضرّة و أنا أتكثّر من زوجي بما لم يفعل أضارّها بذلك فهل عليّ فيه شيء ؟ فقال : المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »[2].

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ « اجتنبوا هذا القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله » واسناده حسن .

(٢) أخرج نحوه ابوداود ج ٢ ص ٥٩٥ ، واحمد ج ٦ ص ٣٤٥ وقال النورى معناه المتكثر بماليس عنده بأن يظهر أن عنده ماليس عنده ويتكثر بذلك عند الناس و يتزين بالباطل فهو مذموم ، كما يذم من لبس ثوبي زور ، وقال ابوعبيدة وغيره : الذى يلبس ثوبي زور هو الذى ←

وقال النبيّ ﷺ : « من تطعم بما لا يطعم ، أو قال: لي وليس له ، أو أعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة »(١) ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحقّقه و روايته الحديث الّذي لا يتثبّته ، إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدري ، وهذا حرامٌ و ممّا يلتحق بالنساء الصبيان ، فإنّ الصبيّ إذا كان لا يرغب في المكتب إلّا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحاً نعم روّينا في الأخبار أنّ ذلك يكتب كذباً ولكنّ الكذب المباح أيضاً يكتب ويحاسب عليه و يطالب بتصحيح قصده فيه ثمّ يعفى عنه لأنّه إنّما اُبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرّق إليه غرور كثير فإنّه قد يكون الباعث له حظّه وغرضه الّذي هو مستغنى عنه و إنّما يتعلّل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب ، و كلّ من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أنّ المقصود الّذي كذب لأجله هل هو أهمّ في الشرع من الصدق أولا ؟ وذلك غامض جدّاً ، فالحزم في تركه إلّا أن يصير واجباً بحيث لا يجوز تركه كما لو أدّى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظنّ ظانّون أنّه يجوز وضع الأخبار في فضائل الأعمال و في التشديد في المعاصي و زعموا أنّ القصد منه صحيح وهو خطأ محض إذ قال ﷺ : « من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّء مقعده من النار »(٢) و هذا لا يرتكب إلّا بضرورة و لا ضرورة ههنا إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إنّ ذلك قد تكرّر على الأسماع و سقط وقعه و ما هو جديد على الأسماع فوقعه أعظم فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض الّتي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ و على الله تعالى و يؤدّي فتح بابه إلى اُمور تشوّش الشريعة فلا يقاوم خير هذا بشرّه أصلاً ، فالكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر الّتي لا يقاومها شيء .

← يلبس ثياب اهل الزهد والورع ومقصوده أن يظهر للناس من التخشع والزهد اكثر مما في قلبه فهذه ثياب زور ورياء . ا هـ .

(١) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ .

✿(بيان الحذر من الكذب بالمعاريض)✿

قد نقل عن السّلف أنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، و عن ابن عبّاس و غيره « أمّا في المعاريض ما يغني الرّجل عن الكذب » و إنّما أرادوا من ذلك إذا اضطرّ الإنسان إلى الكذب فأمّا إذا لم تكن حاجة و ضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً ولكنّ التعريض أهون .

و مثال المعاريض ما روي أنّ مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلّل بمرض فقال : ما رفعت جنبي منذ فارقت الأمير إلّا رفعني الله .

وقال إبراهيم : إذا بلغ الرّجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إنّ الله ليعلم ما قلت من ذلك من شيء ، فيكون قوله : « ما » حرف النفي عند المستمع وعنده للإبهام .

و كان النخعيّ لا يقول لابنته أشتري لك سكّراً بل يقول : أرأيت لو اشتريت لك سكّراً فإنّه ربّما لايتّفق .

وكان إبراهيم إذا طلبه في الدّار من يكرهه قال للجارية : قولي له : اطلبه في المسجد ، وكان لا يقول ليس ههنا لئلاّ يكون كاذباً .

وكان الشعبيّ إذا طلب في البيت وهو يكرهه فيخطّ دائرة و يقول للجارية : ضعي الأصبع فيها و قولي ليس ههنا .

و هذا كلّه في موضع الحاجة ، و أمّا في غير موضع الحاجة فلا ، لأنّ هذا تفهيم للكذب و إن لم يكن اللّفظ كذباً و هو مكروه على الجملة كما روى عن عبدالله بن عتبة قال : دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز فخرجت و عليّ ثوب فجعل الناس يقولون : هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، فقال لي أبي : يا بنيّ اتّق الكذب إيّاك والكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأنّ فيه تقريراً لهم على ظنّ كاذب لأجل غرض المفاخرة و هو غرض باطل فلا فائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

« لا تدخل الجنّة عجوز ، و في عين زوجك بياضٌ ، و نحملك على ولد البعير » (١) فأمّا الكذب الصريح فكما يعتاده الناس من مداعبة الحمقاء بتغريرهم بأنّ امرأة قد رغبت في تزويجك فإن كان فيه ضررٌ يؤدّي إلى إيذاء قلب فهو حرامٌ ، وإن لم يكن إلّا لمطائبة فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه ، و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يستكمل المرء الايمان حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ، و حتّى يجتنب الكذب في مزاحه » (٢).

و أمّا قوله صلى الله عليه وآله . « إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوي بها أبعد من الثريّا » (٣) أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

و من الكذب الّذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله : قلت لك كذا مائة مرّة ، وطلبتك مائة مرّة ، فإنّه لا يراد بها تفهيم المرّات بعددها بل تفهيم المبالغة فإن لم يكن طلبه إلّا مرّة واحدة كان كاذباً و إن كان طلبه مرّات لا يعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم و إن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرّض مطلق اللّسان بالمبالغة فيها الخطر الكذب ، و ممّا يعتاد الكذب فيه و يتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول لا أشتهيه ، وذلك منهيٌّ عنه و هو حرامٌ وإن لم يكن فيه غرض صحيحٌ .

قال مجاهد قالت : أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة في اللّيلة الّتي هيّأتها و أدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي نسوة ، قالت : فوالله ما وجدنا عنده قرى إلّا قدحاً من لبن فشرب ثمّ ناوله عائشة قالت : فاستحيت الجارية فقلت : لا تردّي يد رسول الله صلى الله عليه وآله خذي منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ، ثمّ قال : ناولي صواحبك ،

(١) تقدم الثلاثة في الافة العاشرة .

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب من حديث ابي مليكة الذماري دون قوله « وحتى يجتنب الكذب في مزاحه » وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث ابي هريرة « لا يؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه » . وتقدم عن احمد في مسنده ج ٢ ص ٣٥٢ « لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة الحديث » .

(٣) تقدم في الافة الثالثة .

فقلن لانشتهيه فقال : لا تجمعن جوعاً و كذباً ، قالت : فقلت : يارسول الله إن قالت أحدٌ منّا لشيء نشتهيه لا أشتهيه أيعدٌ ذلك كذباً ؟ قال : إنّ الكذب ليكتب حتّى تكتب الكذيبة كذيبة » (١).

و قد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب ، قال اللّيث ابن سعد :كانت ترمص عينا سعيد بن المسيّب حتّى يبلغ الرّمص خارج عينيه فيقال له : لو مسحت هذا الرّمص ، فيقول : فأين قول الطبيب و هو يقول لي : لا تمسّ عينيك فأقول : لا أفعل ، وهذه من مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسلّ لسانه في الكذب عن حدّ اختياره فيكذب ولا يشعره وعن خوات التيميّ قال : جاءت اُخت الرّبيع بن خثيم عائدة إلى بنيّ لي فانكبت عليه فقالت : كيف أنت يا بنيّ فجلس الرّبيع فقال : أرضعتيه ؟ فقالت : لا ، قال : ما عليك لوقلت يا ابن أخي فصدقت .

و من العادة أن يقول : يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : « إنّ من أعظم الذّنوب عند الله أن يقول العبد : إنّ الله يعلم لما لا يعلم و ربّما يكذب في حكاية المنام والإثم فيه عظيم إذ قال رسول الله ﷺ : « إنّ من أعظم الفرى أن يدعي الرّجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أويقول عليّ ما لم أقل » (٢).

وقال ﷺ : «من كذب في حلمه كلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين» (٣).

✲(الآفة الخامس عشر الغيبة)✲

و النظر فيها طويل فنذكر أوّلاً مذمّة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد وهو الصواب فان اسماء بنت عميس كانت اذذاك بالحبشة لكن في طبقات الاصبهانيين لابي الشيخ من رواية عطاء بن ابي رباح عن اسماء بنت عميس « زففنا الى النبي صلى الله عليه وآله بعض نسائه الحديث » فاذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلامانع من ذلك (المغني) .

(٢) أخرجه البخاري ج ٩ ص ٥٤ من حديث ابن عمر .

(٣) أخرجه البخاري ج ٩ ص ٥٤ من حديث ابن عباس .

و قد نصّ الله سبحانه على ذمّها في كتابه و شبّه صاحبها بآكل لحم الميتة ، و قال : « و لا تجسّسوا و لا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » (١).

وقال رسول الله ﷺ : « كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » (٢) و الغيبة تناول العرض و قد جمع بينه و بين الدّم والمال .

و قال ﷺ : « لاتحاسدوا ، ولاتباغضوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، و كونوا عباد الله إخواناً » (٣).

و عن جابر وأبي سعيد قالا : قال النبيّ ﷺ : « إيّاكم و الغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزّنا ، فإنّ الرّجل قديزني فيتوب فيتوب الله عليه ، وإنّ صاحب الغيبة لايغفر له حتّى يغفر له صاحبه » (٤).

و قال أنس : قال رسول الله ﷺ : « مررت ليلة أُسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فقلت : يا جبرئيل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الّذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم » (٥).

و قال سليم بن جابر أتيت رسول الله ﷺ فقلت : علّمني خيراً ينفعني الله به ، فقال : « لاتحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أنّ تصبّ من ذلوك في إناء المستقي ، و أن تلقى أخاك ببشر حسن وإذا أدبر فلا تغتبه » (٦).

و قال البراء خطبنا رسول الله ﷺ حتّى أسمع العواتق في بيوتهنّ فقال :

---

(١) الحجرات : ١٢ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١١ من حديث ابي‌هريرة .

(٣) متفق عليه دون قوله « لايغتب بعضكم بعضاً » راجع صحيح البخاري ج ٨ ص ٢٥ ، ومسلم ج ٨ ص ١١ .

(٤) رواه الطبراني في الاوسط وفيه عباد بن كثير وهو متروك كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٩٢ . وفي الحاوي للفتاوى رسالة خاصة في ذلك وهي بذل الهمة في طلب براءة الذمة .

(٥) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٨ مسنداً ومرسلا .

(٦) أخرجه ابن ابي الدنيا في الصمت واللفظ له وأحمد في المسند نحوه كما في المغني .

« يا معشر من آمن بلسانه و لم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته و من تتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته » (١).

و أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة و من مات مصرّاً عليها فهو أوّل من يدخل النار » .

و قال أنس : أمر النبيّ صلى الله عليه وآله الناس بصوم يوم وقال : لا يفطرنّ أحدٌ حتّى آذن له ، فصام الناس حتّى إذا أمسوا جعل الرّجل يجيء فيقول : يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر فيأذن له ، ثمّ الرّجل والرّجل حتّى جاء رجل فقال : يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلّتا صائمتين و إنّهما تستحييان أن تأتياك فأذن لهما فلتفطرا فأعرض عنه ، ثمّ عاوده فأعرض عنه ثمّ عاوده فقال : إنّهما لم تصوما و كيف صام من ظلّ هذا اليوم يأكل لحوم الناس إذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا فقاءت كلّ واحدة منهما علقة من دم فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأخبره فقال : و الّذي نفس محمّد بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار » (٢).

و في رواية « أنّه لما أعرض عنه جاءه بعد ذلك و قال : يا رسول الله : إنّهما و الله لقد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ائتوني بهما فجاءتا فدعا بعسّ أو قدح فقال لأحدهما : قيئي فقاءت من قيح و دم و صديد حتّى ملأت القدح . وقال للأخرى : قيئي فقاءت كذلك فقال : إنّ هاتين صامتا عمّا أحلّ الله لهما وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم النّاس » (٣).

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٨ .

(٢) أخرجه ابن مردويه و البيهقى فى الشعب كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٦ . والحديث من رواية يزيد الرقاشي وهوابوعمرالبصرى القاص زاهد ضعيف .

(٣) أخرجه احمد ج ٥ ص٤٣١ من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وفيه من لم يسم .

و قال أنس : خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الزّنا و عظم شأنه فقال : « إنّ الدّرهم يصيبه الرّجل من الرّبوا أعظم عند الله في الخطيئة من ستّ و ثلاثين زنية يزنيها الرّجل وأربى الرّبوا عرض الرّجل المسلم » (١).

و قال جابر : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذّب صاحباهما فقال : « أما إنّهما ليعذّبان و ما يعذّبان في كبيرة ، أمّا أحدهما فكان يغتاب النّاس ، وأمّا الآخر فكان يستنزه من بوله ، و دعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسّرهما ثمّ أمربكلّ كسرة فغرست على قبرفقال النبيّ ﷺ : أمّا إنّه سيهوّن من عذابها ماكانتا رطبتين أو ما لم ييبسا » (٢).

ولمّا رجم رسول الله ﷺ ما عزاً في الزّنى قال رجلٌ لصاحبه : هذا أقعص الكلب فمرّ النّبيّ ﷺ معهما بجيفة فقال : انهشا منها ، فقال : يارسول الله ننهش جيفة ؟ فقال : ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه » (٣).

و سمع عليّ بن الحسين عليهما السلام رجلاً يغتاب آخر فقال : « إيّاك والغيبة فإنّها إدام كلاب النار» (٤).

و عن مجاهد في قوله تعالى : « ويلٌ لكلّ همزة لمزة » (٥) فإنّ الهمزة الطعّان في الناس ، و اللّمزة الّذي يأكل لحوم الناس ، وكان الصحابة يتلاقون بالبشر ولايغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين، وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصّوم ولا في الصّلاة ولكن في

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الغيبة كما في الترغيب و الترهيب ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٢) أخرجه البخارى في الادب المفرد ، وابن ابى الدنيا كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٦ .

(٣) أخرجه النسائي و ابوداود ج ٢ ص ٤٥٩ نحوه باسناد جيد .

(٤) رواه الطبرسي فى الاحتجاج ص ١٧٢ ، ومروى نحوه عن اميرالمؤمنين عليه السلام كما فى الوسائل ج ٢ ص ٢٣٨ كتاب الحج باب١٥٢ تحريم الغيبة .

(٥) الهمزة : ٢.

الكفّ عن أعراض الناس .

و قال ابن عبّاس إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك ، و قال بعضهم : يبصر أحدكم القذا في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وقال آخر يا ابن آدم إنّك لن تصيب حقيقة الإيمان حتّى لاتعيب الناس بعيب هو فيك وحتّى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، وإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصّة نفسك ، و أحبّ العباد إلى الله من كان هكذا .

وقال مالك بن دينار : مرّ عيسى ابن مريم عليه السلام ومعه الحواريّون على جيفة كلب فقال الحواريّون : ما أنتن ريح هذا الكلب فقال عيسى : ما أشدّ بياض أسنانه كأنّه نهاهم عن غيبة الكلب ونبّههم على أنّه لايذكر شيء من خلق الله إلّا أحسنه .

أقول: قال بعض علمائنا : إنّه ليس المقتضي لما قاله عيسى عليه السلام كون كلام الحواريّين غيبة بل الوجه فيه أنّ نتن الجيفة و نحوه ممّا لا يلائم الطباع غير مستند إلى فعل من يحسن إنكار فعله و كلام الحواريّين ظاهر في الإنكار كما لايخفى وكأنّ عيسى عليه السلام نظر إلى أنّ الأمور الملائمة وغيرها ممّا هو من هذا القبيل كلّها من فعل الله تعالى على مقتضى حكمته ، و قد أمر بالشكر على الأولى و الصبر على الثانية ، وفي إظهار الحواريّين لانكار نتن الرائحة دلالة على عدم الصبر أو الغفلة عن حقيقة الأمر فصرفهم عنه إلى أمر يلائم طباعهم و هو شدّة بياض أسنان الكلب و جعله مقابلاً للأمر الّذي لايلائم وشاغلاً لهم عنه وهذا معنى لطيف تبيّن لي من الكلام .

و من طريق الخاصّة ما رواه الصدوق رحمه الله - بإسناده إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « من مشى في غيبة أخيه و كشف عورته كانت أوّل خطوة خطاها وضعها في جهنّم ، و كشف الله عورته على رؤوس الخلائق ، و من اغتاب مسلماً بطل صومه و نقض وضوءه . فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحلّ لما حرّم الله » (١).

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الغيبة أسرع في دين

(١) اورده في آخر كتاب عقاب الاعمال في خطبة النبي صلى الله عليه وآله وهي آخر خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة .

الرّجل المسلم من الاُكلة في جوفه » (١).

قال : « وقال رسول الله ﷺ : الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة عبادة ما لم يحدث ، فقيل : يا رسول الله و ما الحدث ؟ قال : الاغتياب » (٢).

و روى ابن أبي عمير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته اُذناه فهو من الّذين قال الله عزّ و جلّ : إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذاب أليم » (٣).

و عن المفضّل بن عمر قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط عن أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان » (٤).

وعن الصادق عليه السلام قال : « الغيبة حرامٌ على كلّ مسلم ، وإنّها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (٥).

(بيان معنى الغيبة وحدها)

اعلم أنّ حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه أو في نسبه أو خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه وحتّى في ثوبه و في داره ودابّته ، أمّا البدن فكذكرك العمش و الحول و القرع و القصر و الطول و السواد و الصفرة وجميع ما يتصوّر أن يوصف به ممّا يكرهه ، وأمّا النسب فبأن تقول : إنّ أباه نبطيٌّ أو هنديٌّ أو فاسقٌ أو خسيسٌ أو إسكاف أو زبّالٌ أو جزّارٌ أو شيءٌ ممّا يكرهه كيف ما كان ، وأمّا الخلق فبأن تقول : إنّه سيّىء الخلق بخيل متكبّر مرائي شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر ، و ما يجري مجراه ، وأمّا في أفعاله المتعلّقة بالدّين كقولك سارق أو كذّاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة والزكاة ، لا يحسن الركوع و السجود أو لا يحترز عن

---

(١) و (٢) و (٣) الكافي ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥) راجع مصباح الشريعة الباب التاسع والاربعين .

النجاسات أوليس بارًّا بوالديه أولايضع الزكاة مواضعها أولايحسن قسمتها أولايحرس صومه من الرفث و الغيبة و التعرّض لأعراض النّاس ، و أمّا فعله المتعلّق بالدُّنيا كقولك : إنّه قليل الأدب متهاونٌ بالناس ولا يرى لأحد على نفسه حقّاً و يرى لنفسه حقّاً ، أوإنّه كثير الكلام كثير الأكل ، أوإنّه نؤوم ينام في غير وقته ويجلس في غيرموضعه ، و أمّا في ثوبه بأنه واسعُ الكمّ طويل الذّيل وسخ الثياب كبير العمامة .
و قد قال قوم لاغيبة في الدِّين لأنّه ذمٌّ ما ذمّه الله فذكره بالمعاصي وذمّه يجوز بدليل ما روي أنّه ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وآله امرأة و كثرة صومها و صلاتها ولكنّها تؤذي جيرانها بلسانها ؟ فقال : هي في النار»(١). وذكرت امرأة اُخرى بأنّها بخيلة فقال : « فما خيرها إذاً » (٢).

و هذا فاسد لأنّهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرُّف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولايحتاج إليه في غير مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله و الدَّليل عليه إجماع الاُمّة على أنَّ من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنّه داخلٌ فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله في حدّ الغيبة فكلُّ هذا وإن كنت صادقاً فيه فأنت به مغتاب عاص لربّك وآكل لحم أخيك بدليل ما روي أن النبيَّ صلى الله عليه وآله قال : « هل تدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بمايكره ، قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقوله ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، فإن لم يكن فيه فقد بهتّه»(٣).

و قال معاذبن جبل : ذكر رجلٌ عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : ما أعجزه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اغتبتم صاحبكم ، قالوا : يا رسول الله قلنا مافيه ، قال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه » (٤).

و عن حذيفة عن عائشة أنّها ذكرت امرأة فقالت : إنّها قصيرة فقال النبيُّ

(١) أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابي هريرة . (المغنى) .
(٢) أخرجه الخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث ابي جعفر محمد بن علي عليهما السلام مرسلا .
(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وابوداود ج ٢ ص ٥٦٧ من حديث أبي هريرة .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير بسند فيه علي بن عاصم و هو ضعيف كمافي مجمع الزوائد ج ٨ ص ٩٤ .

صلى الله عليه وآله : « اغتبتها »[1].

و قال الحسن : ذكر الغير بالسوء ثلاثة أقسام : الغيبة والبهتان والإفك ، و الكلّ في كتاب الله ، و الغيبة أن تقول ما فيه ، و البهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك .

و ذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذلك الرّجل الأسود ، ثمّ قال : أستغفر الله إنّي أراني قد اغتبته ، و ذكر ابن سيرين إبراهيم فقال : النّخعي ولم يقل الأعور .

و قالت عائشة : لا تغتابنّ منكنّ أحداً فإنّي قلت لامرأة مرّة و أنا عند النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّ هذه لطويلة الذّيل فقال : الفظي الفظي ، فلفظت بضعة من لحم »[2].

أقول: هذه الأخبار العامّية لا تصلح لإثبات حكم شرعيّ ولاسيّما مع وجود الدّاعي لهم إلى اختلاق مثلها ، فإنّ كثرة عيوب أئمّتهم ونقائص رؤسائهم تحوّج إلى سدّ باب إظهارها بكلّ وجه ليروّج حالهم و يأمنوا نفرة الرّعية عنهم ، و كما أنّ في التعرّض لإظهار عيوب الناس خطراً و محذوراً فكذا في حسم مادّته و سدّ بابه فإنّه تقرير لأهل النقائص و مرتكبي المعاصي على ما هم عليه ، كذا قال : بعض علمائنا .

و في مصباح الشريعة[3] عن الصّادق عليه السلام : صفة الغيبة أن يذكر أحدٌ بما ليس هو عند الله عيب و يذمّ ما يحمده العلم فيه ، و أمّا الخوض في ذكر غائب بما هو عند الله مذموم و صاحبه فيه ملوم فليس بغيبة . و إن كره صاحبه إذا سمع به و كنت أنت معافى عنه خالياً منه و تكون مبيّناً للحقّ من الباطل ببيان الله ورسوله ولكن على شرط أن لا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحقّ والباطل في دين الله

(١) أخرجه احمد و ابو داود ج ٢ ص ٥٦٧ والترمذى عن ابى حذيفة عن عائشة وفى الاحياء عن حذيفة عن عائشة كمافى المتن وهكذا أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت عن حذيفة وهو خطأ والصواب « ابى حذيفة » واسمه سلمة بن صهيب .

(٢) أخرجه ابن مردويه والبيهقى فى الشعب والخرائطى فى مساوى الاخلاق كمافى الدر المنثور ج ٦ ص ٩٥ وفى اسناده امرأة مجهولة .

(٣) الباب التاسع والاربعون .

و أمّا إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى فهو مأخوذ بفساد مراده و إن كان صواباً .

و عنه صلى الله عليه وآله « الغيبة أن تقول في أخيك ما ستر الله عليه وأمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة و العجلة فلا » (١) و في خبر آخر « هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل (٢) وتبثّ عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حدّ »(٣).

وخصّ بعض علمائنا تحريم الغيبة بمن يعتقد الحقّ لأنّ أدلّة الحكم غير متناولة لأهل الضلال لأنّ الحكم فيها منوط بالمؤمنين أو بالأخ و المراد إخوة الإيمان فلا يتناول من لا يعتقد الحقّ .

✿(بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان)✿

إعلم أنّ الذكر باللّسان إنّما حرّم لأنّ فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض فيه كالتصريح و الفعل فيه كالقول و الإشارة والايماء و الغمز و الرّمز و الكتابة والحركة وكلّ ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة و هو حرام و من ذلك قول عائشة : دخلت علينا امرأة فلمّا ولّت أومأت بيدي أنّها قصيرة فقال صلى الله عليه وآله : « قداغتبتها »(٤)و من ذلك المحاكاة بأن تمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشدّ من الغيبة لأنّه أعظم في التصوير و التفهيم و كذلك الغيبة بالكتاب ، فإنّ القلم أحد اللّسانين ، و ذكر المصنّف شخصاً معيناً و تهجين كلامه في الكتاب غيبة إلّا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوّجة إلى ذكره كما سيأتي بيانه ، و أمّا قوله قال قوم كذا فليس ذلك بغيبة إنّما الغيبة التعريض لشخص

---

(١) الحدة ـ بالكسر ـ : مايعترى الانسان من الغضب والنزق ، والعجلة : السرعة .

(٢) المراد بما لم يفعل العيب الذى لم يكن باختياره وفعله الله فيه كالعيوب البدنية ، فيختص بما اذا كان مستوراً وهذا بناء على أن « فى دينه » صفة « لاخيك » اى الذى اخوته بسبب دينه ، ويمكن أن يكون « فى دينه » متعلق بالقول اى كان ذلك القول طعناً فى دينه بنسبة كفر او معصية اليه ويدل على ان الغيبة تشمل البهتان .

(٣) الكافى ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٤) أخرجه الخرائطى و ابن مردويه والبيهقى كما فى الدر المنثور ج٦ ص ٩٤ .

معيّن ، إمّا حيّ أو ميّت ، و من الغيبة أن تقول : بعض من مرّ بنا اليوم أو بعض من رأيناه ، إذاكان المخاطب يفهم منه شخصاً معيّناً لأنّ المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم ، فأمّا إذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كره من إنسان شيئاًقال : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا »[1] وكان لايعيّن .

فقولك : بعض من قدم من السفر وبعض من يدّعي العلم إذا كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهوغيبة ، وأخبث أنواع الغيبة غيبة القرّاء المرائين فإنّهم يفهمون المقصود على صنيعة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفّف عن الغيبة و يفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنّهم جمعوا بين فاحشتين الرّياء والغيبة ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد الله الّذي لم يبتلنا بالدّخول على السلطان والتبذّل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلّة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها وإنّما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدّعاء ، وكذلك قد يقدّم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان ماكان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلّنا وهو قلّة الصبر ، فيذكر نفسه ومقصوده أنّ يذمّ غيره و يمدح نفسه بالتشبّه بالصالحين في ذمّ أنفسهم فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكّياً نفسه و يجمع بين ثلاث فواحش وهو يظنّ بجهله أنّه من الصالحين المتعفّفين عن الغيبة وكذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادات من غير علم فإنّه يتعبهم و يحبط بمكائده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم ، ومن ذلك يذكر عيب إنسان فلا يتنبّه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتّى يصغى إلى المغتاب و يعلم ما يقوله فيذكر الله و يستعمل اسمه آلة في تحقيق خبثه و هو يمنّ على الله بذكره جهلاً منه وغروراً وكذلك يقول : لقد ساءني ما جرى على صديقنا فلان من الاستخفاف فنسأل الله أن يروّح سرّه ويكون كاذباً في دعوي الاغتمام وفي إظهار الدّعاء له ، بل لو قصد الدّعاء لأخفاه في خلوة عقيب صلاته ولو كان يغتمّ به لاغتمّ أيضاً باظهار مايكرهه ، وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في

---

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٥٠ من حديث عائشة .

كلّ ذلك يظهر الدّعاء و الله تعالى مطّلع عن خبث ضميره وخفيّ قصده وهو لجهله لا يدري أنّه قد تعرّض لمقت أعظم ممّا يتعرّض له الجهّال إذا جاهروا ، ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجّب به فإنّه إنّما يظهر التعجّب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيه فكأنّه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجبٌ ما علمت أنّه كذلك ، ما عرفته إلى الآن إلّا بالخير و كنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه ، فإنّ كلّ ذلك تصديق للمغتاب و التصديق للغيبة غيبة بل الساكت شريك القائل قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « المستمع أحد المغتابين» (١).

و قد روي عن أبي بكر وعمر أنّ أحدهما قال لصاحبه : إنّ فلاناً لنؤوم ثمّ طلبا اُدماً من رسول الله صلى الله عليه وآله ليأكلا مع الخبز فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قد ائتدمتما ، فقالا : لانعلمه ، فقال : بلى إنّكما أكلتما من لحم صاحبكما » (٢).

فانظر كيف جمعهما و كان القائل أحدهما و الآخر مستمعٌ و قال للرّجلين اللّذين قال أحدهما لصاحبه : أقعص الرّجل كما يقعص الكلب :(٣)« انهشا من هذه الجيفة » فجمع بينهما ، فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة إلّا بأن ينكر لسانه وإن خاف فبقلبه و إن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعله لزمه الإثم ، وإن قال بلسانه : اُسكت و هو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق و لا يخرجه عن الإثم ما لم يكرهه بقلبه ،ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اُسكت أو يشير بحاجبه وجبينه فإنّ ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذبّ عنه صريحاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق » (٤).

و قال أبو الدّرداء : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان

---

(١) أخرج الطبراني عن ابن عمر قال نهى رسول الله صلى الله عليه و آله عن الغيبة وعن الاستماع الى الغيبة راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٩١ .

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة عن أنس كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٩٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي كما تقدم .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ج ٣ ص ٤٨٧ من حديث سهل بن حنيف .

حقاً على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة »(١) .

وقال ﷺ أيضاً: « من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقّاً على الله أن يعتقه من النار »(٢) .

و قد ورد في نصرة المسلم في الغيبة و فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة و حقوق المسلمين فلا نطول بالإعادة .

❁(بيان الاسباب الباعثة على الغيبة)❁

إعلم أنّ البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سبباً ثمانية تطّرد في حقّ العامّة ، وثلاثة تختصّ بأهل الدّين والخاصّة .

أمّا الثمانية فالأوّل يشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب يغضب به عليه فإنّه إذا هاج غضبه يشفي الغيظ بذكر مساويه فيسبق اللّسان إليه بالطبع إن لم يكن ثمّة دين وازع وقد يمنع تشفّي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن ويصير حقداً ثابتاً ويكون سبباً دائماً لذكر المساوي فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثاني موافقة الأقران و مجاملة الرفقاء و مساعدتهم على الكلام فإنّهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنّه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه و نفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة و يظنّ أنّه مجاملة في الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب بغضبهم اظهاراً للمساهمة في السرّاء والضرّاء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي فيهلك معهم .

الثالث أن يستشعر من إنسان أنّه سيقصده و يطول لسانه فيه أو يقبّح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح هو حاله و يطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدي بذكر ما هو فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروّج كذبه بالصدق

---

(١) رواه ابن ابي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبراني بلفظ آخر (المغني)

(٢) رواه أحمد ج ٦ ص ٤٦١ عن اسماء بنت يزيد باسناد حسن بنحوه والطبراني ايضاً ، وابن ابي الدنيا في الصمت عن ابي الدرداء كما في المتن .

الأوّل و يستشهد به ويقول : ما من عادتي الكذب فإنّي أخبرتكم بكذا و كذا من أحواله فكان كما قلت .

الرّابع أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرّأ منه بذكر الّذي فعله ، و كان من حقّه أن يبرّئ نفسه ولا يذكر الّذي فعله فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنّه كان مشاركاً له في الفعل ليمهّد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس إرادة التصنّع و المباهاة و هو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول : فلانٌ جاهلٌ ، وفهمه ركيك ، و كلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه و يريهم أنّه أفضل منه أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس الحسد وهو أنّه ربّما يحسد من يثني الناس عليه ويحبّونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلاّ بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتّى يكفّوا عن إكرامه و الثناء عليه لأنّه يثقل عليه أن يسمع ثناء الناس عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فإنّ ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والقرين الموافق .

السابع اللّعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجّب والتعجيب .

الثامن السخريّة و الاستهزاء استحقاراً له فإنّ ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة و منشاؤه التكبر و استصغار المستهزأ به .

و أمّا الأسباب الثلاثة الّتي في الخاصّة فهي أغمضها وأدقّها لأنّها شرور خبّأها الشيطان في معرض الخيرات ، وفيها خيرٌ ولكن شاب الشيطان بها الشرّ .

الأوّل أن ينبعث من الدّين داعية التعجّب من إنكار المنكر و الخطأ في الدّين فيقول : ما أعجب ما رأيت من فلان فإنّه قد يكون به صادقاً و يكون تعجّبه من المنكر ولكن كان حقّه أن يتعجّب ولا يذكر اسمه فيسهّل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجّبه فصار به مغتاباً من حيث لا يدري و آثماً من حيث لا يدري ،

و ذلك قول الرّجل تعجّبت من فلان كيف يحبّ جاريته وهي قبيحة و كيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل .

الثاني الرّحمة وهو أن يغتمّ بسبب ما يبتلي به فيقول : مسكين فلان قد غمّني أمره و ما ابتلي به فيكون صادقاً في اغتمامه و يلهيه الغمّ عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمّه ورحمته خيراً و كذا تعجّبه ولكنّه ساقه الشيطان إلى شرّ من حيث لا يدري ، والترحّم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيّجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل بذلك ثواب اغتمامه وترحّمه .

الثالث الغضب لله فإنّه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه و يذكر اسمه ، و كان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ولا يظهر على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسّوء ، فهذه الثلاثة ممّا يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام فإنّهم يظنّون أنّ التعجّب والرّحمة و الغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم و هو خطأ ، بل المرخّص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ، روي عن عامر بن واثلة أنّ رجلاً مرّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلّم عليهم فردّوا السلام عليه ، فلمّا جاوزهم قال رجل منهم : إنّي لأبغض هذا لله ، فقال أهل المجلس : و الله لبئس ما قلت و الله لننبّئنّه ، قم يا فلان ـ لرجل منهم ـ فأدركه فأخبره بما قال ، قال : فأدركه رسولهم فأخبره ، فأتى الرّجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال و سأله أن يدعوه ، فدعاه فسأله ، فقال : قد قلت ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : لم تبغضه ؟ قال : أنا جاره وأنا به خبير و الله ما رأيته يصلّي صلاة قطّ إلّا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني أخّرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الرّكوع أو السجود ؟ فسأله فقال : لا ، قال : و الله ما رأيته يصوم شهراً قطّ إلّا هذا الشهر الّذي يصومه البرّ و الفاجر ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني قطّ أفطرت فيه أو نقصت من حقّه شيئاً؟ فسأله ، فقال : لا ، قال : والله ما رأيته يعطي سائلاً قطّ ولا مسكيناً ، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في سبيل الخير إلّا هذه الزكاة الّتي يؤدّيها البرّ و الفاجر ، قال:

فأسأله هل رآني نقصت منها شيئاً أوما كست فيها طالبها الّذي يسألها ؟ فسأله ، فقال: لا ، فقال للرّجل : قم فلعلّه خيرٌ منك »[1].

أقول: و في مصباح الشريعة [2] عن الصّادق عليه السلام « انّ أصل الغيبة متنوّع بعشرة أنواع : شفاء غيظ و مساعدة قوم و تهمة و تصديق خبر بلا كشفه و سوء ظنّ و حسد و سخريّة و تعجّب و تبرّم و تزيّن ، قال : فإن أردت السّلامة فاذكر الخالق لا المخلوق فيصير لك مكان الغيبة عبرة ومكان الإثم ثواباً » .

✿ (بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة) ✿

إعلم أنّ مساوي الأخلاق كلّها إنّما تعالج بمعجون العلم و العمل و إنّما علاج كلّ علّة بمضادّة سببها فلنفحص عن سببها ، و علاج كفّ اللّسان عن الغيبة على وجهين أحدهما على الجملة و الآخر على التفصيل ، أمّا على الجملة فهو أن يعلم تعرّضه لسخط الله بغيبته بهذه الأخبار الّتي رويناها أن يعلم أنّها محبطة لحسناته فانّه تنقل يوم القيامة حسناته إلى من اغتابه بدلاً ممّا استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنة نقل إليه من سيّئاته و هو مع ذلك متعرّض لسخط الله و مشبه عنده بآكل الميتة بل العبد يدخل النار بأن تترجّح كفّة سيّئاته ، وربّما تنقل إليه سيّئة واحدة ممّن اغتابه فيحصل به الرّجحان و يدخل به النّار وإنّما أقلّ الدّرجات أن ينقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة و السّؤال و الجواب والحساب قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « ما النّار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنة العبد » [3] وروي أنّ رجلاً قال لآخر : بلغني أنّك تغتابني ، فقال : ما بلغ من قدرك عندي أنّي اُحكّمك في حسناتي ، فمهما آمن العبد بما وردت به الأخبار لم ينطلق لسانه بالغيبة خوفاً من ذلك وينفعه أيضاً أن يتدبّر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه، و ذكر قوله صلّى الله عليه وآله : «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النّاس »[4] و مهما وجد عيباً

---

(١) أخرجه احمد ج ٥ ص ٤٥٥ من حديث أبى الطفيل عامر بن واثلة .

(٢) الباب التاسع والاربعون .

(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٤) أخرجه الديلمى فى الفردوس بسند حسن من حديث أنس كما فى الجامع الصغير .

فينبغي أن يستحيي من أن يترك نفسه ويذمّ غيره ، بل ينبغي أن يعلم أنّ عجز غيره عن نفسه في التنزّه عن ذلك العيب كعجزه وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلّق بفعله و اختياره ، و إن كان أمراً خلقيّاً فالذمّ له ذمّ للخالق فإنّ من ذمّ صنعة فقد ذمّ الصانع قال رجل لبعض الحكماء : يا قبيح الوجه ، فقال : ما كان خلق وجهي إليّ فاُحسنه ، و إن لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله و لا يلوّثنّ نفسه بأعظم العيوب فإنّ ثلب الناس و أكل لحوم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم أن ظنّه بنفسه أنّه بريء من كلّ عيب جهلٌ بنفسه و هو من أعظم العيوب ، و ينفعه أن يعلم أنّ تألّم غيره بغيبته كتألّمه بغيبة غيره له ، و إذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جمليّة .

أمّا التفصيل فهو أن ينظر إلى السبب الباعث له على الغيبة فإنّ علاج العلّة بقطع سببها ، و قد قدّمنا الأسباب ؛ أمّا الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب و هو أن يقول : إن أمضيت غضبي عليه لعلّ الله يمضي غضبه عليّ بسبب الغيبة إذنهاني عنها و استجرأت على نهيه و استخففت بزجره وقدقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ لجهنّم باباً لا يدخله إلّا من شفي غيظه بمعصيةالله» (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من اتّقى ربّه كلّ لسانه ولم يشف غيظه» (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتّى يخيّره في أيّ الحور شاء »(٣).

و في بعض كتب الله « يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق » .

وأمّا الموافقة فبأن تعلم أنّ الله يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضى المخلوقين

(١) أخرجه البزار وابن ابي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه ابن ابي الدنيا في التقوى عن سهل بن سعد بسند ضعيف (الجامع الصغير) .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٨٦ وقوله « كظم غيظاً » اي حبس نفسه عن اجراء مقتضاه ، و « يمضيه » اي قادر على أن يأتي بمقتضاه و في المصدر « ينفذه » مكان « يمضيه » ، وأخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ .

فكيف ترضى لنفسك أن توقّر غيرك و تحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلّا أن يكون غضبك لله وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله على رفقائك إذ ذكروه بالسّوء فإنّهم عصوا ربّك بأفحش الذّنوب و هي الغيبة.

و أمّا تنزيه النّفس بنسبة الخيانة إلى الغير حيث تستغني عن ذكر الغير فمعالجته بأن تعرف أنّ التعرّض لمقت الخالق أشدّ من التعرّض لمقت الخلق وأنت بالغيبة متعرّض لسخط الله يقيناً ولاتدري أنّك تتخلّص من سخط الناس أم لافتخلّص نفسك في الدّنيا بالتوهّم و تهلك في الآخرة و تخسر حسناتك بالحقيقة و تحصل ذمّ الله لك نقداً وتنتظر دفع ذمّ الخلق نسيئة و هذا غاية الجهل والخذلان.

و أمّا عذرك كقولك: إنّي إن أكلت الحرام ففلان يأكله، و إن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل لأنّك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإنّ من خالف أمر الله لا يقتدي به كائناً من كان و لو دخل غيرك النّار وأنت تقدر على أن لاتدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفّه عقلك ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجّلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك و غباوتك و كنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من الجبل فهي أيضاً تردي نفسها من الجبل ولو كان لها لسان ناطق وصرحت بالعذر و قالت: العنز أكيس منّي وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثمّ لاتتعجّب ولاتضحك من نفسك.

و أمّا قصدك المباهاة و تزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنّك بما ذكرته أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربّما نقص اعتقادهم فيك إذ عرفوك بثلب الناس (١) فتكون قد بعت ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهماً، ولوحصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً. .

و أمّا الغيبة للحسد فهو جمع بين عذابين لأنّك حسدته على نعمة الدّنيا

---

(١) ثلبه من باب ضرب أي عابه، لامه، اغتابه، سبه، طرده.

وكنت فيها معذّباً بالحسد فما قنعت بذلك حتّى أضفت إليه عذاباً في الآخرة فكنت خاسراً في الدّنيا فجعلت نفسك أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين نكالين فقدقصدت محسودك فأصبت نفسك و أهديت إليه حسناتك ، فإذاً أنت صديقه و عدوّ نفسك إذ لا تضرّه غيبتك و تضرّك ، و تنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيّئاته ولاتنفعك ، فقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة ، وربّما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك فقد قيل :

و إذا أراد الله نشر فضيلة ✿ طويت أتاح لها لسان حسود

و أمّا الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة و النبيّين فلو تفكّرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم تحمل سيّئات من استهزأت به و تساق إلى النّار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك و لو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فإنّك سخرت به عندنفر قليل و عرضت نفسك لأن يأخذ بيدك في القيامة على ملأ من النّاس و يسوقك تحت سيّئاته كما يساق الحمار إلى النّار مستهزءاً بك و فرحاً بخزيك و مسروراً بنصرالله تعالى إيّاه و تسليطه على الانتقام منك .

و أمّا الرّحمة له على إثمه فهو حسن ولكن حسدك إبليس فاستنطقك بماتنقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً وتنقلب أنت مستحقّاً لأن تكون مرحوماً إذ أحبط أجرك ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله لا يوجب الغيبة وإنّما الشيطان حبّب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وعملك و تصير متعرّضاً لمقت الله تعالى بالغيبة .

و أمّا التعجّب إذا أخرجك إلى الغيبة فينبغي أن تتعجّب من نفسك أنّك كيف أهلكت دينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدّنيا وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجّب ستر أخيك فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقطّ والتحقّق بهذه الأمور الّتي هي من أبواب الإيمان فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكفّ لسانه عن الغيبة لامحالة .

☼(بيان تحريم الغيبة بالقلب)☼

إعلم أنّ سوء الظنّ حرامٌ مثل سوء القول ، وكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدّث نفسك بذلك ولا تسيء الظنّ بأخيك ، ولست أعني به إلّا عقد القلب وحكمه على غيره بالسّوء ، وأمّا الخواطر وحديث النفس فهو معفوٌّ عنه بل الشكّ أيضاً معفو عنه ، ولكنّ المنهيّ عنه أن تظنّ والظنّ عبارة عمّا تركن إليه النّفس وتميل إليه القلب وقد قال تعالى(١): « اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » وسبب تحريمه أنّ أسرار القلوب لا يعلمها إلّا علاّم الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلّا إذا انكشف لك بعيان لا يحتمل التأويل فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه باُذنك ثمّ وقع في قلبك فإنّما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذّبه فإنّه أفسق الفسّاق وقد قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة » (٢) فلا يجوز تصديق إبليس وإن كان ثمّة مخيلة تدلّ على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدّق به وإن كان الفاسق يتصوّر أن يصدّق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدّق به حتّى أنّ من استنكه فوجد في فيه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدّ إذ يقال : يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجّه وما شربه أو حمل عليه قهراً ، فكلّ هذه دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظنّ بالمسلم بها ، فقد قال ﷺ : « إنّ الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السّوء » (٣) فلا يستباح ظنّ السّوء إلّا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيّنة عادلة فإذا لم يكن ذلك وخطر لك سوء الظنّ فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرّر عليها أنّ حاله عندك مستور كما كان فإنّ ما رأيته فيه يحتمل الخير والشرّ .

---

(١) و(٢) الحجرات : ١٢ و ٦ .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف (المغني) و لابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر تحت رقم ٣٩٣٢ .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد سوء الظنّ و الشكوك تختلج و النفس تحدث؟ فأقول : أمارة عقد سوء الظنّ أن يتغيّر القلب معه عمّا كان فينفر عنه نفوراً لم يعهده و يستثقله ويفترعن مراعاته و تفقّده و إكرامه و الاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظنّ و تحقيقه ، وقد قال ﷺ : « ثلاث في المؤمن لا يستحسن وله منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظنّ أن لايحقّقه »[1] أي لايحقّقه في نفسه بعقد و لا فعل لا في القلب ولا في الجوارح ، أمّا في القلب فبتغيّره إلى النفرة والكراهة ، و في الجوارح بالعمل بموجبه والشيطان قد يقدر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ويلقي إليه أنّ هذا من فطنتك و سرعة تنبّهك و ذكائك و أنّ المؤمن ينظر بنور الله و هو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، فأمّا إذا أخبرك به عدل فمال ظنّك إلى تصديقه كنت معذوراً لأنّك لو كذّبته لكنت جانياً على هذا العدل إذ ظننت به الكذب وذلك أيضاً من سوء الظنّ فلا ينبغي أن تحسن الظنّ بواحد و تسيء بالآخر نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة و مقت فتتطرّق التهمة بسببه وقد ردّ الشرع شهادة العدوّ على عدوّه للتهمة[2] فلك عند ذلك أن تتوقّف في إخباره وإن كان عدلاً فلاتصدّقه ولاتكذّبه ولكن تقول في نفسك : المذكور حاله كان في ستر الله عنّي و كان أمره محجوباً وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرّجل ظاهره العدالة و لا محاسدة بينه و بين المذكور ولكن يكون من عادته التعرّض للنّاس بذكر مساويهم فهذا قد يظنّ أنّه عدل وليس بعدل فإنّ المغتاب فاسق ، و إذا كان ذلك من عادته ردّت شهادته إلّا أنّ الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ، و مهما خطر لك خاطر سوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته و تدعو له بالخير فإنّ ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف كما في المغنى .

(٢) أخرج ابوداود ج ٢ ص ٢٧٥ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردشهادة الخائن والخائنة ، و ذى الغمر على أخيه ، وردشهادة القانع لاهل البيت وأجازها لغيرهم » والقانع : الاجير التابع مثل الاجير الخاص ، وايضاً راجع الكافى ج ٧ ص ٣٩٥ باب مايرد من الشهود .

إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدّعاء و المراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجّة فانصحه في السرّ و لا يخدعنّك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه و إذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرورٌ باطّلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم و تنظر إليه بعين الاستصغار و ترتفع عليه بدلالة الوعظ ولكن قصدك تخليصه من الإثم و أنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك وينبغي أن يكون تركه ذلك من غير نصيحتك أحبّ إليك من تركه بالنّصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت جمعت بين أجر الوعظ و أجر الغمّ بمصيبته و أجر الإعانة له على دينه ، ومن ثمرات سوء الظنّ التجسّس فإنّ القلب لا يقنع بالظنّ و يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسّس وهو أيضاً منهيٌّ عنه ، قال الله تعالى : «ولاتجسّسوا» فالغيبة وسوء الظنّ والتجسّس منهيٌّ عنها في آية واحدة ومعنى التجسّس أن لاتترك عباد الله تحت ستر الله فتتوصّل إلى الاطلاع و هتك السترحتّى ينكشف لك ما لوكان مستوراً عنك لكان أسلم لقلبك و لدينك ، و قد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكم التجسّس وحقيقته .

✿(بيان الاعذار المرخصة في الغيبة)✿

إعلم أنّ المرخّص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصّل إليه إلّا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهي ستّة اُمور :

الأوّل التظلّم فإنّ من ذكر قاضياً بالظلم و الخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً أمّا المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلّم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لايمكنه استيفاء حقّه إلّا به و قد قال ﷺ : « لصاحب الحقّ مقال » (١) و قال : « مطل الغني ظلم» (٢) وقال : «ليّ الواجد يحلّ عرضه وعقوبته» (٣).

(١) و (٢) أخرجه مسلم والبخارى من حديث ابى هريرة وقدتقدما .

(٣) أخرجه ابوداودوابن ماجه تحت رقم ٢٤٢٧ من حديث الشريد ، « ولى الواجد » اى مطله . والواجد : القادر على الاداء وقوله صلى الله عليه وآله : «ويحل عرضه وعقوبته » اى الذى يجد مايؤدى يحل عرضه للدائن بان يقول : ظلمنى ، وعقوبته بالحبس والتعزير كذا فى هامش السنن .

الثاني الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح و إنّما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً .

الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتي : قد ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص ؟ و الأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو زوجته ، ولكنّ التعيين مباح بهذا القدر لما روي عن هند أنّها قالت للنبي ﷺ أنّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني إيّاي و ولدي أفآخذ من غير علمه ؟ قال : خذي ما يكفيك و ولدك بالمعروف »[1] فذكرت الشحّ و الظلم لها و لولدها ولم يزجرها رسول الله ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع تحذير المسلمين من الشرّ فإذا رأيت متفقّها يتردّد إلى أهل الشرّ أو مبتدع أو فاسق و خفت أن يتعدّى إليه بدعته فلك أن تكشف له بدعته و فسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة إلى غيرهم وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، و كذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فإنّ في سكوتك ضرراً على المشتري وفي ذكرك ضرر على العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه ، و كذلك المزكّي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن إن علم مطعناً ، و كذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر مايعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة ، و إن علم أنّه يترك التزويج بمجرّد قوله : لايصلح لك فهو الواجب ، فإن علم أنّه لاينزجر إلّا بالتصريح بعيبه فله أن يصرّح به ، قال رسول الله ﷺ : « أترعون عن ذكر الفاجر حتّى لا يعرفه النّاس ، اذكروه بما فيه يحذره النّاس »[2] و كانوا يقولون : ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر و المبتدع و المجاهر بفسقه .

(١) أخرجه مسلم والبخارى ج ٧ ص ٨٥ .

(٢) أخرجه ابن ابي الدنيا فى الصمت فى ذم الغيبة والحكيم فى نوادر الاصول والحاكم فى الكنى والشيرازى فى الالقاب كما فى الجامع الصغير .

الخامس أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج و الأعمش فلا إثم على من يقول روى أبو الزّناد عن الأعرج و سلمان عن الأعمش و ما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف و لأنّه صار ذلك بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن صار مشهوراً به ، نعم لو وجد عنه معدلاً و أمكنه التعريف بعبارة اُخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

السّادس أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنّث و صاحب الماخور[1] والمجاهر بشرب الخمر و مصادرة الناس و كلّ من يتظاهر بالفسق بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكر فيه مايتظاهر به فلا إثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلاغيبة له »[2] و ذلك لأنّه ربّمايتفاخر به فكيف يكره ذلك و هو يقصد إظهاره ، نعم لو ذكره بغير مايتظاهر به أثم .

أقول : قال السيّد العلّامة فضل الله بن عليّ الحسنيّ في شرح الشهاب في تفسير قوله صلى الله عليه وآله : « ليس لفاسق غيبة » : إنّ الغيبة ذكر الغائب بما فيه من عيب من غير حاجة إلى ذكره ثمّ قال : فأمّا إذا كان يغتاب فاسقاً فإنّه ليس ما يذكر به غيبة و إنّما يسمّى ما يذكر في غيبته غيبة إذا كان تائباً نادماً فأمّا إذا كان مصرّاً عليه فليس بغيبة كيف و هو يرتكب ما يغتاب به جهاراً . انتهى كلامه .

و يؤيّده الأخبار و كلام أهل اللّغة قال الجوهري : الغيبة أن تتكلّم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه فإن كان صدقاً سمّي غيبة و إن كان كذباً سمّي بهتاناً ، و عن الصادق عليه السلام : «الغيبة أن تقول في أخيك ما ستر الله عليه و أمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة و العجلة فلا ، و البهتان أن تقول فيه ما ليس فيه» [3].

و عن أبي الحسن عليه السلام « من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه ممّا لا يعرفه الناس اغتابه ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته » [4].

---

(١) اى مجلس الفساق .

(٢) أخرجه البيهقي وضعفه عن أنس كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٩٧ .

(٣) و (٤) الكافي ج ٢ ص ٣٥٨ .

✿(بيان كفّارة الغيبة)✿

إعلم أنّ الواجب على المغتاب أن يندم و يتوب ويتأسّف على ما فعله ليخرج به عن حقّ الله ثم يستحلّ المغتاب ليحلّه فيخرج عن مظلمته و ينبغي أن يستحلّه وهو حزين متأسّف نادمٌ على ما فعله إذ المرائي قد يستحلّ ليظهر من نفسه الورع و في الباطن لا يكون نادماً فيكون قدقارف معصية اُخرى ، و قيل : يكفيه الاستغفار دون الاستحلال و ربّما يحتجّ في ذلك بما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « كفّارة من اغتبته أن تستغفر له »(١) و قال مجاهد : كفّارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير .

و سئل بعضهم عن التوبة عن الغيبة فقال : تمشي إلى صاحبك و تقول : كذبت فيما قلت ، وظلمت وأسأت فإن شئت أخذت بحقّك و إن شئت عفوت ، و هذا هو الأصحّ . وقول القائل : « العرض لاعوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال» كلام ضعيف إذقدوجب في العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روي أنّه صلّى الله عليه وآله قال : « من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هنالك دينارٌ ولا درهمٌ إنّما يؤخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنة اُخذ من سيّئات صاحبه فزيدت على سيّئاته »(٢).

أقول : الكلام الصحيح الجامع بين الأخبار و الأقوال الواردة في هذا الباب ما قاله الصادق عليه السلام أنّه « إن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحلّ منه وإن لم تبلغه فاستغفر الله له »(٣) وذلك لأنّ في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه أثارةً للفتنة وجلب للضغاين وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أوغيبة .

قال أبوحامد : فإن كان غائباً أو ميّتاً فينبغي أن يكثر الاستغفار له و الدّعاء و يكثر من الحسنات فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنّه نوع تبرّع و التبرّع فضل و ليس بواجب ولكنّه مستحسنٌ و سبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت بسند صحيح عن انس كما فى الجامع الصغير .
(٢) أخرجه أحمد فى المسند ج ٢ ص ٥٠٦ من حديث أبى هريرة .
(٣) مصباح الشريعة الباب التاسع والاربعون .

عليه و التودّد إليه و يلازم ذلك حتّى يطيب قلبه فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره و تودّد حسنة محسوبة له يقابل بها سيّئة الغيبة في القيامة فكان بعض السلف لا يحلّل الظالم ، قال سعيد بن المسيّب : لا اُحلّل من ظلمني . وقال ابن سيرين : إنّي لم اُحرّمها عليه فاحلّلها له ، إنّ الله حرّم الغيبة عليه وما كنت لاُحلّل ما حرّم الله أبداً .

فإن قلت : فما معنى قول رسول الله ﷺ : « وينبغي أن يستحلّها » وتحليل ما حرّمه الله غير ممكن ؟ فنقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً ، وما ذكره ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنّه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة .

فإن قلت : فما معنى قول رسول الله ﷺ : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ـ ضمضم كان إذا خرج من بيته قال : اللّهمّ إنّي قد تصدّقت بعرضي على الناس»(١) فكيف يتصدّق بالعرض و من تصدّق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحثّ عليه ؟ فنقول : معناه إنّي لا أطلب مظلمة في القيامة منه و لا اُخاصمه وإلّا فلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة عنه لأنّه عفو قبل الوجوب إلّا أنّه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم فإن رجع وخاصم كان قياسه قياس سائر الحقوق و إنّ له ذلك ، بل صرّح الفقهاء بأن من أباح القذف لم يسقط حقّه من حدّ القذف ، و مظلمة الآخرة مثل مظلمة الدّنيا ، و على الجملة فالعفو أفضل فقد ورد : إذا جثت الاُمم بين يدي الله عزّ و جلّ يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله ، فلا يقوم إلّا من عفا عن مظلمته في الدّنيا ، و قد قال الله تعالى : « خذ العفو و أمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال رسول الله ﷺ : يا جبرئيل ما هذا العفو ؟ فقال : إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك »(٢) .

و روي عن بعضهم أنّ رجلاً قال له : إنّ فلاناً قد اغتابك ، فبعث إليه طبقاً من الرّطب و قال : بلغني أنّك أهديت إليّ من حسناتك فأردت أن اُكافيك عليها فاعذرني فإنّي لا أقدر أن اُكافيك على التمام .

(١) أخرجه ابن السني في العمل اليوم والليلة ص ١٨ ، من حديث أنس .

(٢) تقدم مراراً في كتاب رياضة النفس وغيره .

☼(الآفة السادسة عشر النميمة)☼

قال الله تعالى : « همّاز مشّاء بنميم ☼ منّاع للخير معتد أثيم ☼ عتلّ بعد ذلك زنيم »(١) قال عبدالله بن المبارك : الزنيم ولد الزّنى الّذي لايكتم الحديث ، وأشار به إلى أنّ كلّ من لايكتم الحديث ومشى بالنميمة دلّ على أنّه ولدالزّنى ، استنباطاً من قوله تعالى : « عتلّ بعد ذلك زنيم » و الزنيم هو الدّعي .

وقال تعالى : « ويلٌ لكلّ همزة لمزة »(٢) قيل : الهمزة: النّمام ، واللّمزة : المغتاب ، وقال تعالى : « حمّالة الحطب » (٣) قيل : إنّها نمّامة حمّالة للحديث .

و قال تعالى : « فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً » (٤) قيل : كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح كانت تخبر أنّه مجنون ، وقد قال النبيّ ﷺ : « لايدخل الجنّة نمّام » و في حديث آخر « لا يدخل الجنّة قتّات ، و القتّات هو النمّام » (٥).

وعنه ﷺ : «أحبّكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الّذين يألفون و يؤلفون ، وإنّ أبغضكم إلى الله المشّاؤن بالنميمة بين الأحبّة ، المفرّقون بين الأحزاب ، الملتمسون للبرآء العثرات»(٦).

وقال ﷺ : « ألا اُخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : المشّاؤن بالنميمة ، المفسدون بين الأحبّة ، الباغون للبرآء العيب» (٧) .

---

(١) القلم : ٦٨ الى ٧٠ وا لهماز : العياب ، والعتل : الفظ الغليظ ، و الزنيم : المعلق بالقوم وليس منهم .

(٢) الهمزة : ٢ . (٣) اللهب : ٤ .

(٤) التحريم : ٦٦ .

(٥) أخرجه البخارى ومسلم وابوداود ج ٢ ص ٥٦٧ والترمذى ج ٨ ص ١٨٢ من حديث حذيفة .

(٦) أخرجه الطبرانى فى الصغير والاوسط دون قوله : «المفرقون بين الاحزاب الخ » من حديث أبى هريرة ، والبزار من حديث ابن مسعود باختصار .

(٧) أخرجه احمد فى المسند ج ٦ ص ٥٥٩ من حديث اسماء بنت يزيد .

و قال أبوذرّ: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حقّ شانه الله في النار يوم القيامة » (١).

و قال أبو الدّرداء قال صلى الله عليه وآله: « أيّما رجل أشاع على رجل كلمة و هو منها بريء ليشينه بها في الدّنيا كان حقّاً على الله عزّوجلّ أن يذيبه بها يوم القيامة في النار » (٢).

و عنه صلى الله عليه وآله: « إنّ الله تعالى لمّا خلق الجنّة قال لها: تكلّمي، فقالت: سعد من دخلني، قال الجبّار جلّ جلاله: وعزّتي وجلالي لايسكن فيك ثمانية نفر من النّاس: لايسكنك مدمن خمر، ولامصرّ على الزّنى، ولاقتّات وهو النمّام، ولا ديّوث، ولاشرطيّ، ولا مخنّث، ولاقاطع رحم، ولاالّذي يقول عليّ عهدالله أن أفعل كذا و كذا ثمّ لم يف به » (٣).

أقول: ومن طريق الخاصّة ما روّيناه عن الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « شراركم المشّاؤن بالنميمة المفرّقون بين الأحبّة المبتغون للبرآء المعايب»(٤).

وعن الباقر عليه السلام قال: « الجنّة محرّمة على المغتابين والمشائين بالنميمة»(٥).

قال أبو حامد: وروى كعب أنّه أصاب بني إسرائيل قحطٌ فاستسقى موسى مرّات فما اُجيب فأوحى الله تعالى إليه أنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة، فقال موسى: يا ربّ من هو حتّى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى أنهاكم عن النميمة و أكون نمّاماً فتابوا بأجمعهم فسقوا.

و يقال: اتبع رجلٌ حكيماً سبعمائة فراسخ في سبع كلمات فلمّا قدم عليه قال: إنّي جئتك للّذي آتاك الله من العلم فأخبرني عن السماء و ما أثقل منها، وعن الأرض و ما أوسع منها، وعن الحجر و ما أقسى منه، وعن النّار و ماأحرّ منها،

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٢) أخرجه ابن ابي الدنيا في الصمت موقوفاً على ابي الدرداء كما في المغني.

(٣) لم أجده هكذا بتمامه ولكن مضمون جملاته مخرج في المصادر راجع المغني.

(٤) و (٥) الكافي ج ٢ ص ٣٦٩.

و عن الزمهرير و ما أبرد منه ، و عن البحر و ما أغنى منه ، و عن اليتيم و ما أذلّ منه ؟ قال : البهتان على البريء أثقل من السماوات ، و الحقّ أوسع من الأرض ، و القلب القانع أغني من البحر ، و الحرص و الحسد أحرّ من النّار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزّمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمّام إذا بان أمره أذلّ من اليتيم . ويقال : إنّ ثلث عذاب القبر من النميمة .

✿(بيان حد النميمة وما يجب في ردها)✿

إعلم أنّ اسم النميمة إنّما يطلق في الأكثر على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه كما يقال فلان يتكلّم فيك بكذا و كذا وليست النميمة مخصوصة بالمقول فيه بل حدّها كشف مايكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث ، و سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرّمز أو الايماء ، و سواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاناً على المنقول عنه أولم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السرّ وهتك الستر عمّا يكره كشفه ، بل كلّ مارآه الانسان من أحوال الناس ممّا يكره فينبغي أن يسكت عنه إلّا ما في حكايته فائدة لمسلم أودفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحقّ المشهود له فأمّا إذا كان رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة و إفشاء للسرّ فإن كان ما ينمّ به نقصاناً وعيباً في المحكيّ عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة .

و الباعث على النميمة إمّا إرادة السّوء بالمحكي عنه و إظهار الحبّ للمحكي له ، أو التفرّج بالحديث ، أو الخوض في الفضول . و كلّ من حملت إليه النميمة وقيل له : إنّ فلاناً قال فيك كذا و كذا أو فعل فيك كذا و كذا أوهو يدبّر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوّك أو في تقبيح حالك اوما يجري مجراه فعليه بستّة أمور :

الأوّل أن لا تصدّقه لأنّ النمّام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة » (١).

(١) الحجرات : ٦ .

الثاني أن تنهاه عن ذلك وينصحه ويقبّح له فعله قال الله تعالى : «وأمر بالمعروف وانه عن المنكر» [1].

الثالث أن تبغضه في الله فإنّه بغيض عند الله ، ويجب بغض من يبغضه الله .

الرّابع أن لا تظنّ بأخيك الغائب السوء لقوله تعالى «اجتنبوا كثيراً من الظنّ» .

الخامس أن لا يحملك ما حكي لك على التجسّس والبحث ليتحقّق قال الله تعالى : «ولا تجسّسوا» .

السادس أن لا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمّام فلا تحكي نميمة فتقول فلان قد حكى له كذا وكذا فتكون به نمّاماً و مغتاباً ، و تكون قد أتيت بما عنه نهيت .

و قد روي عن عليّ عليه السلام أنّ رجلاً أتاه يسعى إليه برجل ، فقال : يا هذا نحن نسأل عمّا قلت فإن كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، فإن شئت أن نقيلك أقلناك ؟ قال : أقلني يا أمير المؤمنين » [2].

و ذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه وأخبره بخبر عن غيره فقال له الحكيم : قد أبطأت عن الزّيارة و أتيتني بثلاث جنايات بغّضت إليّ أخي وشغلت قلبي الفارغ ، و اتّهمت نفسك الأمينة .

و روي أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً و عنده الزّهري فجاءه رجلٌ فقال له سليمان : بلغني أنّك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا ، فقال الرّجل : ما فعلت ولا قلت ، فقال سليمان : إنّ الّذي أخبرني كان صادقاً ، فقال الزّهري : لا يكون النمّام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت إذهب بسلام .

و قال بعضهم : من نمّ إليك نمّ عنك . وهذا إشارة إلى أنّ النمّام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بصداقته ، و كيف لا يبغض وهو لا ينفكّ من الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغلّ و الحسد والنفاق و الإفساد بين الناس و الخديعة وهو ممّن قد سعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل قال الله تعالى : « و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل

---

(١) لقمان : ١٧ .

(٢) رواه المفيد ـ رحمه الله ـ في الاختصاص ص ١٤٢ .

و يفسدون في الأرض » (١) . و قال عزّ و جلّ: « إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ » (٢) والنمّام منهم .

وقال ﷺ : « إنّ من شرّ النّاس من اتّقاه النّاس لشرّه » (٣) والنمّام منهم .

وقال ﷺ : « لايدخل الجنّة قاطع » قيل : وماالقاطع ؟ قال : هوقاطعٌ بين الناس وهو النمّام (٤) ، وقيل : قاطع الرّحم ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما ظنّكم بقوم يحمد الصدق من كلّ طبقة من الناس إلاّ منهم .

و السعاية هي النميمة إلّا أنّها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سمّيت سعاية .

وقد قال النبيّ ﷺ : « السّاعي بالنّاس إلى النّاس لغير رشدة » (٥) يعني ليس بولد حلال .

وقال لقمان الحكيم : يابنيّ اُوصيك بخلال إن تمسّكت بها لم تزل بها سيّداً أبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللّئيم ، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن أخدانك من إذا فارقتهم و فارقوك لم تغتبهم و لم يغتابوك .

وقال بعضهم : النميمة مبنيّة على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافيّ الذّل (٦) .

و قال بعضهم : لو صحّ ما نقله النمّام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنّه لم يقابلك بشتمك ، وعلى الجملة فشرّ النمّام عظيم فينبغي أن يتوقّى ، قال حمّاد بن سلمة باع رجل عبداً فقال للمشتري : ما فيه عيب إلّا النميمة قال: قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أيّاماً ثمّ قال لزوجة مولاه : إنّ زوجك لا يحبّك وهو يريد أن يتسرّى عليك و أنا أسحره لك في شعره فقالت : كيف أقدر

(١) البقرة : ٢٧ . (٢) الشورى : ٤٢ .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج٢ ص٣٢٧ ، والبخاري ومسلم نحوه .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص٦ ومسلم ج ٨ ص ٨ من جبير بن مطعم عن ابيه .

(٥) أخرجه الحاكم من حديث ابي موسى هكذا « من سعى بالناس فهو لغير رشدة او فيه شيء منها » .

(٦) الاثافي جمع الاثفية وهي الحجارة التي تنصب وتجعل عليه القدر .

على أخذ شعره ؟ فقال : إذا نام فخذي الموسى و احلقي من قفاه عند نومه شعرات حتّى أسحره عليهافيحبّك ، ثمّ قال للزوج : إنّ امرأتك اتّخذت خليلاً وتريدأن تقتلك فتناوم لهاحتّى تعرف ذلك ، فتناوم فجاءته المرأة بالموسى فظنّ أنّها يقتله فقام فقتلها ، فجاء أهلها و قتلوا الزّوج فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر بينهم .

☆(الافة السابعة عشر كلام ذى اللسانين)☆

و هو الّذي يأتي هؤلاء بوجه و هؤلاء بوجه ويتردّد بين المتعاديين ويكلّم كلّ واحد بكلام يوافقه وقلّما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق .

و قال عمّار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : « من كان له وجهان في الدّنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »(١).

و عنه ﷺ : « تجدون من شرّ عباد الله يوم القيامة : ذا الوجهين الّذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث »(٢) وفي لفظ «الّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »(٣).

و قال مالك بن دينار : قرأت في التورية بطلت الأمانة والرّجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله يوم القيامة كلّ شفتين مختلفتين .

و قال ﷺ : « أبغض خليقة الله إليه يوم القيامة : الكاذبون و المستكبرون و الّذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم تملّقوا لهم و الّذين إذا دعوا إلى الله و رسوله كانوا بطاء وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعاً »(٤).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه الصدوق بإسناده إلى عليّ عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : يجيء يوم القيامة ذوالوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً حتّى يلهبان خدّه ، ثمّ يقال : هذا الّذي كان في الدّنيا ذاوجهين

---

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٦٧ بسند حسن .

(٢) و (٣) احمد فى مسند ابى‌هريرة والبخارى ومسلم نحوه كمافى الجامع الصغير وأخرجه ابن أبى‌الدنيا بلفظ المصنف كما فى المغنى .

(٤) قال العراقى : لم اقف له على أصل .

وذالسانين يعرف بذلك يوم القيامة »[١].

و بالإسناد إلى الباقر عليه السلام قال : « بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين و ذا لسانين يطري أخاه شاهداً و يأكله غائباً ، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله» [٢].

و بالإسناد عنه عليه السلام قال : « بئس العبد عبد همزة لمزة ، يقبل بوجه ويدبر بآخر »[٣].

و بالإسناد قال : «قال الله تعالى لعيسى ابن مريم عليهما السلام : ليكن لسانك في السرّ و العلانية لساناً واحداً و كذلك قلبك ، إنّي اُحذّرك نفسك و كفى بك خبيراً لا يصلح لسانان في فمٍ واحد ولا سيفان في غمد واحد ، و كذلك الأذهان» [٤].

قال أبوحامد : واتّفقوا على أنّ ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها ، وقد روي أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مات فلم يصلّ عليه حذيفة فقال عمر : يموت رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لا تصلّي عليه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين إنّه منهم ، قال : ونشدتك الله أنا منهم أم لا؟ فقال : اللّهمّ لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

فإن قلت : فبما ذا يصير الرّجل ذا لسانين وما حدّ ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعادين وجامل كلّ واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين فإنّ الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حدّ الاُخوّة إذ لو تحقّقت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرناه في كتاب آداب الصحبة و الاُخوّة نعم لو نقل كلام كلّ واحد إلى الآخر فهو ذو لسانين وذلك شرّ من النميمة إذ يصير نمّاماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإن نقل من الجانبين فهو شرّ من النميمة و إن لم ينقل كلاماً ولكن حسّن لكلّ واحد منهما ما هوعليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، و كذلك إذا وعد كلّ واحد منهما أنّه ينصره وكذلك إذا أثنى على كلّ واحد منهما في معاداته و كذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمّه فهو ذولسانين بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحقّ

---

(١) الى (٤) عقاب الاعمال باب عقاب من كان ذاوجهين وذالسانين .

من المتعادين ويثني في حضوره و في غيبته وبين يدي عدوّه ، قيل لبعض الصّحابة : إنّا ندخل على اُمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال : كنّا نعدّ ذلك نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ . و هذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدّخول على الأمير و عن الثناء عليه فلو استغنى عن الدّخول ولكن إذادخل يخاف إن لم يثن ، فهونفاق لأنّه الّذي أحوج نفسه إليه و إن كان يستغني عن الدّخول لو قنع بالقليل وترك المال و الجاه فدخل لضرورة الجاه و الغنى و أثنى فهو منافق وهذا معنى قوله ﷺ : « حبّ المال و الجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » (١) لأنّه يحوّج إلى الأمراء ومراعاتهم ومراءاتهم ، فأمّا إذا ابتلي به لضرورة و خاف إن لم يثن فهو معذور فإنّ اتّقاء الشرّ جائز ، قال أبو الدّرداء : إنّا لنكشر (٢) في وجوه أقوام و إنّ قلوبنا لتبغضهم ، و قالت عائشة : « استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو فلمّا دخل أقبل عليه و ألان له القول ، فلمّا خرج قالت عائشة : قد قلت بئس رجل العشيرة ثمّ ألنت له القول ؟ فقال : يا عائشة إنّ شرّ الناس الّذي يكرم اتّقاء لشرّه» (٣).

ولكن هذا ورد في الإقبال و في الكشر و التبسّم و أمّا الثناء فهو كذب صريح فلا يجوز إلّا لضرورة أو إكراه يباح الكذب لمثلها كما ذكرناه في آفة الكذب ، بل لا يجوز الثناء و لا التصديق و تحريك الرّأس في معرض التقرير على كلّ كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر بلسانه و بقلبه فإن لم يقدر فليسكت بلسانه ولينكر بقلبه .

✿(الآفة الثامنة عشر المدح)✿

و هو منهيّ عنه في بعض المواضع أمّا الذّم فهو الغيبة والوقيعة قد ذكرنا

(١) أخرجه ابومنصورالديلمي في مسند الفردوس بنحوه من حديث ابي هريرة بسند ضعيف كما في المغني .

(٢) كشرعن اسنانه : كشف عنها وابداها عند الضحك وغيره .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وقد تقدم .

حكمها ، و المدح يدخله ستّ آفات أربعة في المادح و اثنتان في الممدوح ، فأمّا المادح فهو أنّه قد يفرط فينتهي الإفراط به إلى الكذب ، الثانية أنّه قد يدخله الرّياء فإنّه بالمدح مظهر للحبّ و قد لا يكون مضمراً له و لا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً ، الثالثة أنّه قد يقول ما لا يتحقّقه ولا سبيل له إلى الاطّلاع عليه . روي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبيّ ﷺ فقال ﷺ : ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثمّ قال : إن كان لابدّ أحدكم مادحاً أخاه فليقل أُحبّ فلاناً و لا أُزكّي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنّه كذلك »[1] وهذه الآفة تتطرّق إلى المدح بالأوصاف المطلقة الّتي تعرف بالأدلّة كقوله أنه متّق و ورع و زاهد و خيّر و ما يجري مجراه ، أمّا إذا قال : رأيته يصلّي باللّيل و يتصدّق و يحجّ فهذه أُمور مستيقنة ومن ذلك قوله أنّه عدل رضيّ فإن ذلك خفي فلاينبغي أن يجزم القول به إلّا بعد خبرة باطنة ، الرابعة أنّه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ : «إنّ الله ليغضب إذا مدح الفاسق »[2] وقيل: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعص الله في أرضه . و الظالم فاسق ينبغي أن يذمّ ليغتمّ ولا يمدح ليفرح ؛ وأمّا الممدوح فيضرّه من وجهين : أحدهما أنّه يحدث فيه كبراً و إعجاباً وهما مهلكان ، الثاني هو أنّه إذا أثنى عليه بالخير فرح به و فتر ورضي عن نفسه و من أعجب بنفسه قلّ تشمّره وإنّما يتشمّر للعمل من يرى نفسه مقصّراً فإذا انطلقت الألسنة بالثناء عليه ظنّ أنّه قد أدرك ولهذا قال النبيّ ﷺ : « قطعت عنق صاحبك ولو سمعها ما أفلح» وقال ﷺ : « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنّما أمررت على حلقه الموسى »[3] وقال أيضاً لمن مدح رجلاً : « عقرت الرّجل

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٢٧ ، و ابوداود ج٢ ص ٥٥٤ بأدنى اختلاف فى اللفظ وأخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف .

(٢) أخرجه ابن ابى الدنيا فى ذم الغيبة والبيهقى وأبويعلى من حديث بريدة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٣) اخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا كما فى المغنى .

عقرك الله »[1] و قال مطرف : ما سمعت ثناء أو مدحة إلّا تصاغرت إلى نفسي .

وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحدٌ يسمع ثناء عليه أو مدحة إلّا تراءى له الشيطان و لكنّ المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : قد صدق كلاهما أمّا ما ذكره زياد فتلك قلوب العوام ، و أمّا ما قاله مطرف فتلك قلوب الخواصّ .

و قال ﷺ : « لو مشى رجلٌ إلى رجل بسكّين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه » و قيل : المدح الذّبح وذلك لأنّ المذبوح هو الّذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أولأنّ المدح يورث الكبر والعجب وهما مهلكان كالذّبح ولذلك شبّه به فإن سلم المدح من هذه الآفات في حقّ المادح و الممدوح لم يكن به بأس ، بل ربّما كان مندوباً إليه ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة ولكنّه قال عن صدق و بصيرة و كانوا أجلّ رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً و فتوراً بل مدح الرّجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر و التفاخر و قال رسول الله ﷺ : « أنا سيّدُ ولد آدم و لا فخر » [2] أي لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأنّ افتخاره كان بالله و بقربه من الله لا بولد آدم وتقدّمه عليهم كما أنّ المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنّما يفتخر بقبوله إيّاه و به يفرح لا بتقدّمه على بعض رعاياه ، وبتفصيل هذه الآفات نقدر على الجمع بين ذمّ المدح و بين الحثّ عليه إذ قال ﷺ : « وجبت الجنّة » لما أثنوا على بعض الموتى ثمّ قال : « أنتم شهداء الله في الأرض » [3].

و قال مجاهد : « إنّ لبني آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر أخاه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك مثله و إذا ذكره بسوء قالت الملائكة : يا ابن آدم المستور عورته أربع على نفسك و أحمد الله إذ ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

✿(بيان ما على الممدوح)✿

إعلم أنّ على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر و العجب

(١) قال العراقى : لم اجده أصلا و كذا الخبر الاتى .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٠٨ من حديث ابى سعيد الخدرى .

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٥٣ فى حديث طويل عن أنس .

و آفة الفتور و الرّياء ، ولا ينجو عنه إلّا بأن يعرف نفسه و يتأمّل في خطر الخاتمة و دقائق الرّياء وآفات الأعمال و أنّه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره و ما يجري على خواطره لكفّ المادح عن مدحه ، و عليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله : « احثوا التراب في وجوه المدّاحين» [١] وقال سفيان بن عيينة : لا يضرّ المدح من عرف نفسه ، و أثنى على رجل من الصالحين فقال : اللّهمّ إنّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني ، و قال آخر لمّا اُثني عليه : اللّهمّ إنّ عبدك هذا قد تقرّب إليّ بمقتك و أنا اُشهدك على مقته .

و قال عليّ عليه السلام لما اُثني عليه « اللّهمّ اغفرلي ما لايعلمون ولاتؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيراً ممّا يظنّون» [٢].

✿(الآفة التاسعة عشر)✿

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لاسيّما فيما يتعلّق بالله و صفاته و يرتبط باُمور الدّين فلايقدر على تقويم اللّفظ في اُمور الدّين إلّا العلماء الفصحاء فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزّلل ، ولكنّ الله يعفو عنه لجهالته مثاله ماقال حذيفة : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : «لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثمّ شئت» [٣] و ذلك لأنّ في العطف المطلق بالواو تشريكا و تسوية وهو على خلاف الاحتراز . و قال ابن عباس : جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يكلّمه في بعض الاُمور فقال : ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وآله : أجعلتني لله عدلاً ؟! بل ماشاء الله وحده » [٤].

وخطب رجلٌ عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : من يطع الله ورسوله فقدرشد ، ومن

(١) أخرجه أبوداود ج ٢ص٥٥٤ ومسلم ج ٨ ص ٢٧٨ من حديث مقداد وقد تقدم .

(٢) أورده الشريف الرضى فى النهج باب المختار من حكم أميرالمؤمنين عليه السلام تحت رقم ١٠٠ .

(٣) أخرجه ابو داود ج ٢ ص ٥٩١ هكذا « لا تقولوا ما شاء الله و شاء فلان ولكن قولوا : ماشاء الله ثم شاء فلان » .

(٤) أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة ص ١٨١ من حديث ابن عباس .

يعصهما فقد غوى ، فقال : « قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى »(١) ، و كره صلى الله عليه وآله وسلم قوله « و من يعصهما » لأنّه تسوية و جمع .

و عن ابن عباس أنّه قال : إنّ أحدكم يشرك حتّى يشرك بكلبه يقول : لولاه لسرقنا اللّيلة .

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أوليصمت »(٢).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تسمّوا العنب الكرم إنّما الكرم الرّجل المسلم »(٣).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « لايقولنّ أحدكم عبدي و لا أمتي كلّكم عبيد الله و كلّ نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي ، ولايقول المملوك : ربّي ولا ربّتي ولكن سيّدي وسيّدتي كلّكم عبيد الله و الرّبّ واحد »(٤).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «لاتقولوا للمنافق سيّدنا فإنّه إن يكن سيّدكم فقد أسخطتم ربّكم »(٥).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «من قال : أنا بريء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً»(٦) فهذا و أمثاله ممّا يدخل في الكلام ولا يمكن حصره .

و من تأمّل جميع ما أوردناه من آفات اللّسان علم أنّه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، و عند ذلك يعرف سرّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صمت نجا »(٧) لأنّ هذه الآفات كلّها مهالك و معاطب و هي على طريق التكلّم فإن سكت سلم من الكلّ و إن

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٢ من حديث عدى بن حاتم .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٦٤ من حديث ابن عمر .

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٦ من حديث ابى هريرة .

(٤) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٦ و ابن السنى فى اليوم والليلة ص ١٠٥ .

(٥) أخرجه ابن السنى أيضاً ص ١٠٥ .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢١٠٠ من حديث بريدة .

(٧) تقدم عن الترمذى .

تكلّم خاطر بنفسه إلّا أن يوافقه لسان فصيح و علم غزير و ورع حاجز و مراقبة لازمة و تقليل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك و هو مع ذلك لاينفكّ من الخطر ، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممّن تكلّم فغنم فكن ممّن سكت فسلم فالسلام إحدى الغنيمتين .

✿(الآفة العشرون)✿

✿(سؤال العوام عن صفات الله وعن كلامه وعن الحروف قديمة هي أومحدثة)✿

و حقّهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلّا أنّ ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب ، و العاميّ يفرح بأن يخوض في العلم إذ الشيطان يخيّل إليه أنّك من العلماء وأهل الفضل فلايزال يحبّب إليه ذلك حتّى يتكلّم بماهو كفر وهو لا يدري و كلّ كبيرة يرتكبها العاميّ فهو أسلم له من أن يتكلّم في العلم لا سيّما في ما يتعلّق بالله و صفاته و إنّما شأن العوام الاشتغال بالعبادات و الإيمان بما ورد به القرآن والتسليم بما جاء به الرّسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلّق بالعبادة سوء أدب منهم يستحقّون به المقت من الله تعالى ويتعرّضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدوابّ عن أسرار الملوك وهو يوجب العقوبة ، و كلّ من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدّرجة فهو مذموم فإنّه بالإضافة إليه عاميّ ولذلك قال ﷺ : « ذروني ما تركتكم فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، و ما أمرتكم به فأتوا منه من استطعتم » (١).

و روي أنّه سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً حتّى أكثروا عليه و أغضبوه ، فصعد المنبر فقال : سلوني فلا تسألوني عن شيء إلّا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال : يارسول الله من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة ، فقام إليه شابّان أخوان قالا : يا رسول الله من أبونا ؟ فقال : أبو كما الّذي تدعيان إليه ، ثمّ قام إليه رجل آخر فقال : يا رسول الله أنا في الجنّة أو في النّار ؟ فقال : لا بل في النّار ، فلمّا رأى الناس غضب

(١) اخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢ من سننه من حديث أبي هريرة .

رسول الله ﷺ أمسكوا» (١).

و في الحديث نهى رسول الله ﷺ : «عن القيل و القال وكثرة السؤال و إضاعة المال» (٢).

و قال ﷺ : «يوشك الناس يتساءلون بينهم حتّى يقولوا هذا خلق الله فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا : قل هو الله أحد حتّى تختموا السورة ثمّ ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم» (٣).

و قال جابر : «ما نزلت آية التلاعن إلّا لكثرة السؤال» (٤).

و في قصّة موسى و الخضر صلّى الله عليهما تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : «فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتّى احدث لك منه ذكراً» فلمّا سأل عن السفينة أنكر عليه حتّى اعتذر و قال : «لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً» (٥) فلمّا لم يصبر حتّى سأل ثلاثاً قال : «هذا فراقُ بيني وبينك» و فارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدّين من أعظم الآفات وهي من المثيرات للفتن فيجب ذبّهم و منعهم . وخوضهم في حروف القرآن و نظائر ذلك من العلوم ونظرهم في ذلك يضاهي اشتغال من كتب إليه الملك بكتاب يرسم له فيه اُموراً فلم يشتغل بشيء منه و ضيّع زمانه في أنّ قرطاس الكتاب عتيق أو حديث فاستحقّ به العقوبة لا محالة فكذا تضييع العاميّ حدود القرآن و اشتغاله بحروفه أنّه قديمة أو محدثة وكذا سائر صفات الله .

هذا آخر الكلام في كتاب آفات اللّسان من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

و يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفة الغضب والحقد والحسد والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً والصلاة على محمّد وأهل بيته وسلّم .

(١) أخرجه البخارى مختصراً ج ١ ص ٣٤ و مفصلا ج ٩ ص ١١٧ من حديث أبى موسى و ج ٩ ص ١١٨ من حديث أنس .

(٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة وقد تقدم راجع صحيح البخارى ج٩ ص١٢٨.

(٣) أخرج صدره البخارى ج٩ ص١١٩.

(٤) أخرجه البزار كما فى المغنى .

(٥) أخرجه البخارى ج١ ص ٤١ و٤٢ . والايات فى سورة الكهف .

كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي لا يتّكل إلّا على عفوه و رحمته الراجون ، و لا يحذر سوى غضبه و سطوته الخائفون ، الّذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، و سلّط عليهم الشهوات و أمرهم بترك ما يشتهون ، و ابتلاهم بالغضب و كلّفهم كظم الغيظ فيما يغضبون ، ثمّ حفّهم بالمكاره و اللّذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، و امتحن به حبّهم ليعلم صدقهم فيما يدّعون ، و عرفهم أنّه لا يخفى عليه شيء ممّا يسرّون و ما يعلنون ، وحذّرهم أن يأخذهم بغتة و هم لا يشعرون ، فقال : «ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصّمون ، فلا يستطيعون توصية و لا إلى أهلهم يرجعون» .

و الصلاة على محمّد رسوله الّذي يسير تحت لوائه النبيّون والمتّقون و على آله وأصحابه الأئمّة المهديّين ، والسادة المرضيّين ، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله و ما سيكون ، ويحظي ببركتها الأوّلون والآخرون .

أمّا بعد فإنّ الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة إلّا أنّها لا تطّلع إلّا على الأفئدة ، و أنّها لمستكنّة في طيّ الفؤاد استكنان الجمر تحت الرّماد ، و يستخرجها الكبر الدّفين من قلب كلّ جبّار عنيد كما يستخرج الحجر النار من الحديد . وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أنّ الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللّعين فمن استفزّته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال : «خلقتني من نار وخلقته من طين» (١) فمن شأن الطين السكون و الوقار و شأن النار التلظّي والاستعار و الحركة و الاضطراب و الاصطهار و منه قوله تعالى : «يصهر به ما في

(١) الاعراف : ١٢ .

بطونهم » [1] و من نتائج الغضب الحقد و الحسد و بهما هلك من هلك و فسد من فسد ، و مغيظهما مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد و الغضب ممّا يسوق العبد إلى مواطن العطب فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ليحذره و يتّقيه و يميطه[2] عن القلب إن كان فيه ويعالجه إن يلج في قلبه ويداويه فإنّ من لا يعرف الشرّ يقع فيه و من عرفه فالمعرفة لا تكفيه ما لم يعرف الطريق الّذي به يدفع الشرّ و يقصيه . و نحن نذكر ذمّ الغضب وآفات الحقد و الحسد في هذا الكتاب ويجمعها بيان ذمّ الغضب ، ثمّ بيان حقيقة الغضب بعد هيجانه ، ثمّ بيان أنّ الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرّياضة أم لا ، ثمّ بيان الأسباب المهيّجة للغضب ، ثمّ بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثمّ بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثمّ بيان فضيلة الحلم ، ثمّ بيان القدر الّذي يجوز الانتصار و التشفّي به من الكلام ، ثمّ القول في معنى الحقد و نتائجه و فضيلة العفو و الرّفق ، ثمّ القول في ذمّ الحسد و في حقيقته و أسبابه و معالجته و غاية الواجب في إزالته ، ثمّ بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال و الأقران و الاخوة و بني الأعمام والأقارب و تأكّده و قلّته في غيرهم و ضعفه ، ثمّ بيان الدّواء الّذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ، ثمّ بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب .

❁(بيان ذم الغضب)❁

قال الله تعالى : « إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله - الآية - »[3] ذمّ الكفّار بما تظاهروا به من الحميّة الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنعم الله عليهم من السكينة .

و روي «أنّ رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل و أقلل ، قال : لا تغضب ،

(١) الحج : ٢٠ . وقوله تعالى : « يصهر » اى يذاب .

(٢) الاماطة : الازالة .

(٣) الفتح : ٢٦ . والحمية : الانفة والغضب .

ثمّ أعاد عليه ، فقال : لا تغضب »[1] وعنه ﷺ « أنّه سئل ما ذا يبعد عن غضب الله قال : لا تغضب »[2].

و قال ابن مسعود : قال النبيّ ﷺ : « ما تعدّون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الّذي لا يصرعه الرّجال ، قال : ليس ذلك ولكنّ الّذي يملك نفسه عند الغضب »[3].

و عنه ﷺ : « ليس الشّديد بالصرعة إنّما الشّديد من يملك نفسه عند الغضب »[4].

و عنه ﷺ : « من كفّ غضبه ستر الله عورته »[5].

و قال سليمان بن داود : « يا بنيّ إيّاك و كثرة الغضب فإنّ كثرة الغضب تستخفّ فؤاد الرّجل الحليم » .

و عن عكرمة في قوله تعالى : « و سيّداً و حصوراً »[6] قال السيّد الّذي لا يغلبه الغضب .

و قال أبو الدّرداء : قلت : « يارسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنّة ، قال : لا تغضب »[7].

و قال يحيى لعيسى عليهما السلام : لاتغضب قال : لا أستطيع ألّاأغضب ، إنّما أنا بشرٌ

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣٥ ، ورواه احمد في المسند والطبراني في الاوسط كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٩ .

(٢) أخرجه احمد و فيه ابن ابى لهيعة وهو لين الحديث كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٩ .

(٣) اخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٠ .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣٤ و رواه الطبراني في الاوسط بسند ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠ .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أبي هريرة و ابن عمر بسند ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠ .

(٦) آل عمران : ٣٩ والحصور الذى لايأتى النساء من العفة والاجتهاد فى ازالة الشهوة . او من المرض اى العنة .

(٧) اخرجه ابن ابى الدنيا بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

قال : لاتقتنن مالاً (*) ، قال : هذا عسى إن شاء الله تعالى .

و قال صلى الله عليه وآله : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل» [1].

و قال صلى الله عليه وآله : « ما غضب أحدٌ إلّا أشفى على جهنّم » [2].

و قال رجلٌ : « يا رسول الله أيُّ شيء أشدُّ عليَّ ؟ قال : غضب الله ، قال : فما يبعدني من غضب الله ؟ قال : لاتغضب » [3].

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخلُّ العسل » [4] .

و عن ميسرة قال : ذكر الغضب عند أبي جعفر عليه السلام فقال : « إنَّ الرَّجل ليغضب فما يرضى أبداً حتّى يدخل النار ، فأيّما رجل غضب على قوم و هو قائم فيجلس من فوره ذلك فإنّه سيذهب عنه رجز الشيطان ، وأيّما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسّه فإنَّ الرَّحم إذا مسّت سكنت» [5].

و عن أبي حمزة الثمالي عنه عليه السلام قال : « إنَّ هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في جوف ابن آدم و إنَّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه و انتفخت أوداجه و دخل الشيطان فيه ، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض فإنَّ رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك »[6].

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « الغضب مفتاح كلِّ شرٍّ» [7].

وعنه عليه السلام قال : «سمعت أبي يقول : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجلٌ بدويٌّ فقال: إنّي أسكن البادية فعلّمني جوامع الكلم ، فقال : آمرك أن لا تغضب ، فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرّات حتّى رجع الرَّجل إلى نفسه فقال : لا أسأل

(*) من الاقتناء وهواتخاذ الشيء للنفس .

(١) في الكافي ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) أخرجه البزار من حديث ابن عباس هكذا « قال رسول الله صلى الله عليه وآله « باب للنار لايدخله أحد الامن يشفي غيظه بسخط الله» راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧١ .

(٣) أخرجه احمد من حديث عبدالله بن عمر بالشطر الاخير وقد تقدم .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٣٠٢ يعني يذهب حلاوته وخاصيته وصارالمجموع شيئاً آخر .

(٥) الى (٧) الكافي باب الغضب ج ٢ ص ٣٠٢ الى ٣٠٦ .

عن شيء بعد هذا ، ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا بالخير ، قال : و كان أبي يقول : أيّ شيء أشدّ من الغضب إنّ الرّجل يغضب فيقتل النفس الّتي حرّم الله و يقذف المحصنة » (١).

و عنه عليه السلام قال : « من كفّ غضبه ستر الله عورته » (٢).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ في التوراة مكتوباً يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك عند غضبي فلاأمحقك فيما أُمحق ، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك فإنّ انتصاري لك خيرٌ من انتصارك لنفسك» (٣).

و عنه عليه السلام قال : « الغضب ممحقةلقلب الحكيم ، وقال : من لم يملك غضبه لم يملك عقله » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وآله : علّمني ، قال : إذهب ولاتغضب فقال الرّجل : قد اكتفيت بذلك فمضى إلى أهله فإذا بين قومه حربٌ قد قاموا صفوفاً و لبسوا السلاح فلمّا رأى ذلك لبس سلاحه ثمّ قام معهم ثمّ ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « لاتغضب » فرمى السلاح ثمّ جاء يمشي إلى القوم الّذين هم عدوّ قومه فقال : يا هؤلاء ما كانت لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر فعليّ في مالي أنا أوفيكموه ، فقال القوم : فما كان فهو لكم نحن أولى بذلك منكم ، قال : فاصطلح القوم وذهب الغضب» (٥).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من كفّ نفسه عن أعراض الناس أقال الله نفسه يوم القيامة ، و من كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه عذاب يوم القيامة » (٦).

و عنه عليه السلام قال : « مكتوب في التورية فيما ناجى الله به موسى عليه السلام ياموسى أمسك غضبك عمّن ملكتك عليه أكفّ عنك غضبي » (٧).

قال أبو حامد : الآثار : عن ذي القرنين أنّه لقي ملكاً من الملائكة فقال : علّمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً ، قال : لاتغضب فإنّ الشيطان أقدر ما يكون على

(١) الى (٧) الكافي باب الغضب ج ٢ ص ٣٠٢ الى ٣٠٦ .

ابن آدم حين يغضب، فردّ الغضب بالكظم و سكّنه بالتؤدة، وإيّاك و العجلة فإنّك إذا عجّلت أخطأت حظّك، و كن سهلاً ليّناً للقريب والبعيد ولاتكن جبّاراً عنيداً.

و عن وهب بن منبّه أنّ راهباً سأل الشيطان أيّ أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدّة إنّ الرّجل إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

وقال خيثمة: الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتّى أكون في قلبه، وإذا غضب طرت حتّى أكون في رأسه.

و قال جعفر بن محمّد عليهما السلام: «الغضب مفتاح كلّ شرّ» (١).

و قال بعض الحكماء: رأس الحمق الحدّة و قائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن العلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرّة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه.

و قال مجاهد: قال إبليس: ماأعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته، فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، و إذا غضب قال بما لايعلم، وعمل بما يندم، و نبخّله بما في يديه ونمنّيه بما لايقدر عليه.

و قيل لحكيم: ما أملك فلاناً لنفسه، قال: إذاً لاتذلّه الشهوات، ولايصرعه الهوى، و لا يغلبه الغضب.

و قال بعضهم: إيّاك و الغضب فإنّه يصيّرك إلى ذلّة الاعتذار.

و قال عبد الله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرّجل عند غضبه، و أمانته عند طمعه، و ما علمك بحلمه إذ لم يغضب و ما علمك بأمانته إذا لم يطمع.

و قال بعضهم لابنه: يا بنيّ لايثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحيّ في التنانير المسجورة، فأقلّ الناس أعقلهم فإن كان للدّنيا كان دهاءً و مكراً، وإن كان للآخرة كان علماً وحلماً.

و قد قيل: الغضب عدوّ العقل، و الغضب غول العقل.

و قيل لعبدالله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة، فقال: ترك الغضب.

و قال نبيٌّ من الأنبياء لمن معه : من تكفّل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شابٌّ من القوم : أنا ، ثمَّ أعاد عليه فقال الشابُّ : أنا اُوفي به فلمّا مات كان في منزلته بعده وهو ذوالكفل سمّي به لأنّه تكفّل بالغضب و وفى به .

و قال وهب بن منبّه :للكفر أربعة أركان : الغضب ، و الشهوة ، والخرق والطمع .

✿(بيان حقيقة الغضب)✿

إعلم أنَّ الله تعالى لمّا خلق الحيوان معرضاً للفساد و الموتان بأسباب في داخل بدنه و أسباب خارجة منه ، أنعم عليه بما يحميه الفساد و يدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سمّاه في كتابه ، أمّا السبب الدّاخل فهو أنّه ركبه من الرُّطوبة و الحرارة وجعل بين الحرارة و الرُّطوبة عداوة و مضادَّة فلا تزال الحرارة تحلّل الرُّطوبة وتجفّفها وتبخرها حتّى تتفشّى أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها ، فلولم يتّصل بالرُّطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحلَّ وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء كالموكّل به في جبر ما انكسر و سدِّ ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب .

وأمّا الأسباب الخارجة الّتي يتعرَّض لها الإنسان فكالسيف و السنان و سائر المهلكات الّتي يقصد بها فافتقر إلى قوَّة و حميّة تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله الغضب من النار وغرزها في الإنسان و عجنها بطينته ، فمهما قصد في غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب و ثارت ثوراناً يغلي به دم القلب و ينتشر في العروق و يرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار ، و كما يرتفع الماء الّذي يغلي في القدر ولذلك ينصب إلى الوجه فيحمرُّ الوجه والعين والبشرة بصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدَّم كما تحكي الزُّجاجة لون ما فيها ، و إنّما ينبسط الدَّم إذا غضب على من دونه و استشعر القدرة عليه فإن صدر الغضب على من هو فوقه و كان معه يأس من الانتقام تولّد منه انقباض الدَّم من ظاهر الجلد

إلى جوف القلب وصار حزناً ولذلك يصفر اللّون و إن كان الغضب من نظير يشكّ فيه تولّد منه تردّد بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفر ويضطرب .

و بالجملة فقوّة الغضب محلّها القلب و معناها غليان دم القلب لطلب الانتقام و إنّما يتوجّه هذه القوّة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفّي و الانتقام بعد وقوعها ، والانتقام قوت هذه القوّة و شهوتها و فيه لذّتها ، ولاتسكن إلّا به . ثمّ الناس في هذه القوّة على درجات ثلاث في أوّل الفطرة من التفريط و الإفراط و الاعتدال . أمّا التفريط فبفقد هذه القوّة أو ضعفها وذلك مذموم و هو الّذي يقال فيه : إنّه لا حميّة له ولذلك قيل : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، فمن فقد قوّة الحميّة و الغضب أصلاً فهو ناقص جدّاً ، وقد وصف الله الصحابة بالشدّة و الحميّة فقال : « أشدّاء على الكفّار » (١) و قال تعالى : « يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم » (٢) و إنّما الغلظة والشدّة من آثار القوّة الحميّة وهو الغضب .

وأمّا الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتّى تخرج من سياسة العقل والدّين و طاعتهما ، فلا يبقى للمرء معها بصيرة و نظر و فكر ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطرّ ، وسبب غلبته اُمورٌ غريزيّة و اُمورٌ اعتياديّة فربّ إنسان هو بالفطرة مستعدّ لسرعة الغضب حتّى كأنّ صورته في الفطرة صورة غضبان و يعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأنّ الغضب من النار كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله (٣) فبرودة المزاج تطفيه و تكسّر سورته . و أمّا الأسباب الاعتياديّة فهي أن يخالط قوماً يتبجّحون بتشفّي الغيظ و طاعة الغضب ويسمّون ذلك شجاعة ورجوليّة فيقول الواحد منهم : أنا الّذي لا أصبر على المحالّ و لا أحتمل من أحد أمراً ، ومعناه لاعقل لي و لاحلم ثمّ يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه فيرسخ في نفسه حسن الغضب و حبّ

(١) الفتح : ٢٩. (٢) التوبة : ٧٣ .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابي سعيد بسند ضعيف ، و أبوداود ج ٢ ص ٥٥٠ عن عطية هكذا قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله : « ان الغضب من الشيطان ، وان الشيطان خلق من النار ، وانما تطفأ النار بالماء ، فاذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

التشبّه بالقوم فيقوى به الغضب، ومهما اشتدّت نار الغضب و قوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمّته عن كلّ موعظة فإذا وعظ لم يسمع بل تزيده الموعظة غضباً وإن أراد أن يستضيء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر على ذلك إذ يطفي نور العقل و ينمحى في الحال بدخان الغضب فإنّ معدن الفكر الدّماغ و يتصاعد عند شدّة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدّماغ مظلم يستولي على معادن الفكر وربّما يتعدّى إلى معادن الحسّ فيظلم عينه حتّى لا يرى بعينه و يسوّد عليه الدّنيا بأسرها و يكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نارٌ فاسودّ جوّه وحمي مستقرّه و امتلأ بالدّخان جوانبه و كان فيه سراج ضعيف فانطفي و انمحى نوره فلا تثبت فيه قدم، ولا يسمع فيه كلام، ولا ترى فيه صورة و لا يقدر على إطفائه لا من داخل و لا من خارج، بل ينبغي أن يصير إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدّماغ، و ربّما تقوى نار الغضب فتفنى الرّطوبة الّتي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشقّ و تنهدّ أعاليه على أسافله و ذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوّة الممسكة الجامعة لأجزائه فهكذا حال القلب مع الغضب، و بالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرّياح في لجّة البحر أحسن حالاً و أرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً إذ في السفينة من يحتال لتسكينها و تدبيرها وينظر لها و يسوسها و أمّا القلب فهو صاحب السفينة و قد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب و أصمّه، و من آثار هذا الغضب في الظّاهر تغيّر اللّون وشدّة الرّعدة في الأطراف و خروج الأفعال عن الترتيب و النظام، و اضطراب الحركة و الكلام حتّى يظهر الزّبد على الأشداق و تحمرّ الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، و قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإنّ الظاهر عنوان الباطن و إنّما قبحت صورة الباطن أوّلاً ثمّ انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً فتغيّر الظاهر ثمرة تغيّر الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره في الجسد.

وأمّا أثره في اللّسان فانطلاقه بالشتم والفحش و قبيح الكلام الّذي يستحي

منه ذووا العقول و يستحي منه قائله عند فتور الغضب و ذلك مع تخبّط النظم و اضطراب اللّفظ.

و أمّا أثره على الأعضاء فالضرب و التهجّم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكّن من غير مبالاة فإن هرب منه المغضوب عليه أوفاته بسبب وعجز عن التشفّي رجع الغضب على صاحبه فيمزّق ثوب نفسه و يلطم وجهه ، و قد يضرب يده على الأرض و يعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحيّر ، و ربّما سقط صريعاً لا يطيق العدو و النهوض لشدّة الغضب و يعتريه مثل الغشية ، وربّما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة على الأرض و قد يكسّر المائدة إذا غضب عليها ، وقد يتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجماد و يخاطبه و يقول : إلى متى منك و يا كيت و كيت كأنّه يخاطب عاقلاً حتّى ربّما رفسته دابّة فيرفسها و يقابلها به .

و أمّا أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد و إضمار السّوء و الشماتة بالمساءة والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السرّ وهتك الأستار والاستهزاء ، و غير ذلك من القبائح . فهذه ثمرة الغضب المفرط .

و أمّا ثمرة الحميّة الضعيفة فقلّة الأنفة ممّا يأنف منه من التعرّض للحرم و الزّوجة والأمة ، واحتمال الذّلّ من الأخسّاء ، وصغر النفس والقمأة و هو أيضاً مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام و هي خنوثة قال ﷺ : « إنّ سعداً لغيور و إنّي لأغير من سعد والله أغير منّي »(١) وإنّما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بها لاختلطت الأنساب و لذلك قيل : كلّ أمّة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ، و من ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات ، و قد قال ﷺ : « خير أمّتي أحدّاؤها » (٢) يعني في الدّين ، و قال

(١) أخرج مسلم ج ٤ ص ٢١١ من حديث المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله « اتعجبون من غيرة سعد فوالله لانا أغير منه والله أغير مني الحديث » والمراد سعد بن عبادة .

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه يغنم بن سالم بن قنبر وهو كذاب كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨ ولفظه « خيار أمتي احداؤهم » .

تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » (١) بل من فقد الغضب عجز من رياضة نفسه إذ لا تتم الرياضة إلّا بتسليط الغضب على الشهوة حتّى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب مذموم وإنّما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحميّة و ينطفي حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حدّ الاعتدال هو الاستقامة الّتي كلّف الله تعالى بها عباده و هو الوسط الّذي وصفه رسول الله ﷺ حيث قال : « خير الأمور أوساطها »(٢) فمن مال غضبه إلى الفتور حتّى أحسّ من نفسه بضعف الغيرة و خسّة النفس في احتمال الذّل والضيم (٣) في غير محلّه فينبغي أن يعالج نفسه حتّى يقوى غضبه و من مال غضبه إلى الإفراط حتّى جرّه إلى التهوّر واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب و يقف على الوسط الحقّ بين الطّرفين فهو الصّراط المستقيم ، وهو أدقّ من الشعر وأحدّ من السّيف فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال الله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النّساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة » (٤) فليس كلّ من عجز عن الإتيان بالخير كلّه ينبغي أن يأتي بالشرّ كلّه ، و لكن بعض الشرّ أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض ، فهذه حقيقة الغضب ودرجاته .

✿(بيان ان الغضب هل تمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا)✿

إعلم أنّه قد ظنّ ظانّون أنّه يتصوّر محو الغضب بالكلّية و زعموا أنّ الرّياضة إليه تتوجّه و إيّاه تقصد ، و ظنّ آخرون أنّه أصلاً لا يقبل العلاج و هذا رأي من يظنّ أنّ الخلق كالخلق و كلاهما لا يقبل التغيير و كلا الرّأيين ضعيف ، بل الحقّ فيه ما نذكره و هو أنّه ما بقي الإنسان يحبّ شيئاً و يكره شيئاً فلا يخلو عن الغيظ والغضب ، ومادام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلابدّ من أن يحبّ ما يوافقه و يكره ما

(١) النور : ٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب مرسلا وقد تقدم .

(٣) الضيم : الظلم .

(٤) النساء : ١٢٩ .

يخالفه والغضب يتبع ذلك فانّه مهما اُخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، و إذا قصد بمكروه غضب لا محالة إلّا أنّ ما يحبّه الانسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل ما هو ضرورة في حقّ الكافّة و هو القوت والمسكن والملبس و صحّة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلابدّ وأن يغضب و كذلك إذا اُخذ منه ثوبه الّذي يستر عورته و كذلك إذا اُخرج من داره الّتي هي مسكنه و اُريق ماؤه الّذي هو لعطشه فهذه ضرورات لايخلوالانسان من كراهة زوالها و من غيظ على من يتعرّض لها .

القسم الثاني : ما ليس ضروريّاً لأحد من الخلق كالجاه و المال الكثير و الغلمان و الدّوابّ فانّ هذه الاُمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الاُمور حتّى صار الذّهب والفضّة محبوبين في أنفسهما فيكنزان و يغضب على من يسرقهما و إن كان مستغنياً عنهما بالقوت ، فهذا الجنس ممّا يتصوّر أن ينفكّ الانسان عن أصل الغيظ عليه فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدّنيا فيزهد في الزّيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فانّه لا يحبّ وجودها و لو أحبّ وجودها لغضب بالضرورة على أخذها و أكثر غضب الناس على ما هو غير ضروريّ كالجاه والصيت والتصدّر في المجالس و المباهاة بالعلم فمن غلب هذا الحبّ عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على الصّدر في المحافل و من لا يحبّ ذلك فلا يبالي ولو جلس في صفّ النعال فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه ، و هذه العادات الرديّة هي الّتي أكثرت محابّ الانسان و مكارهه فأكثرت غضبه و كلّما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحطّ رتبة وأنقص لأنّ الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص والجاهل أبدا جهده في أن يزيد في حاجاته و في شهواته و هو لا يدري أنّه مستكثر من أسباب الغمّ والحزن حتّى ينتهي بعض الجهّال بالعادات الرّديّة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له إنّك لاتحسن اللّعب بالطيور واللّعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير و تناول الطعام الكثير و ما يجري مجراه من الرّذائل ، فالغضب على هذا الجنس

ليس بضروري لأنّ حبّه ليس بضروري .

القسم الثالث : ما يكون ضرورياً في حقّ بعض الناس دون البعض كالكتاب مثلاً للعالم فانّه مضطر إليه فيحبّه فيغضب على من يحرقه ويغرقه و كذلك أدوات الصناعات في حقّ المكتسب الّذي لا يمكنه التوصّل إلى القوت إلّا بها فانّما هو وسيلة إلى الضروري ، والمحبوب يصير ضرورياً ومحبوباً و هذا يختلف بالأشخاص و إنّما الحبّ الضروري ما أشار إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله : « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها »(١) ومن كان بصيراً بحقائق الأمور و سلمت له هذه الثلاث يتصوّر أن لا يغضب في غيرها ، فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرّياضة في كلّ واحد منها .

أمّا القسم الأوّل : فليست الرّياضة فيه لينعدم غيظ القلب و لكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب و لا يستعمله في الظاهر إلّا على حدّ يستحبّه الشرع و يستحسنه العقل ، و ذلك ممكن بالمجاهدة و تكلّف الحلم والاحتمال مدّة حتّى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً ، فأمّا قمع أصل الغيظ من القلب وذلك ليس مقتضى الطبع فهو غير ممكن ، نعم يمكن كسر سورته و تضعيفه حتّى لا يشتدّ هيجان الغيظ في الباطن و ينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ولكن ذلك شديد جدّاً و هذا حكم القسم الثالث أيضاً لأنّ ما صار ضرورياً في حقّ شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه فالرّياضة فيه تمنع العمل به و يضعف هيجانه في الباطن حتّى لا يشتدّ التألّم بالصبر عليه .

و أمّا القسم الثاني : فيمكن التوصّل بالرّياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبّه من القلب ، و ذلك بأن يعلم الإنسان بأنّ وطنه القبر و مستقرّه الآخرة و إنّما الدّنيا معبر يعبر عليها و يتزوّد منها قدر الضرورة و ما وراء ذلك فهو عليه و بالٌ في وطنه و مستقرّه فيزهد في الدّنيا و يمحو حبّها

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠٨ وابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ . وفي النهاية الحذافير الجوانب ، وقيل : الاعالي واحدها حذفار وقيل حذفور أي فكأنما اعطى الدنيا بأسرها .

عن القلب ولو كان للانسان كلبٌ لا يحبّه لم يغضب إذا ضربه غيره فالغضب تبع للحبّ، فالرّياضة في هذا قد ينتهي إلى قمع أصل الغضب وهو نادرٌ جدّاً وقد ينتهي إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون، فإن قلت: الضروريّ من القسم الأوّل التألّم بفوات المحتاج إليه دون الغضب فمن له شاة مثلاً و هي قوته فماتت فلا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة وليس من ضرورة كلّ كراهة غضب فالإنسان يتألّم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصّاد والحجّام فمن غلب عليه التوحيد حتّى يرى الأشياء كلّها من الله فلا يغضب على أحد من خلقه إذ يراهم مسخّرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب، ومن وقّع عليه ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم و لا يغضب على من يذبح شاته الّتي هي قوته كما لا يغضب على موتها إذ يرى الموت والذّبح من الله فيندفع الغضب بغلبة التوحيد و يندفع أيضاً بحسن الظنّ بالله و هو أن يرى أنّ الكلّ من الله و أنّ الله لا يقدّر له إلّا بما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة في جوعه ومرضه وجرحه و قتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفصّاد لأنّه يرى أنّ الخيرة فيه، فنقول: هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد على هذا الوجه إنّما يكون كالبرق الخاطف يغلب في أحوال مختلفة ولا يدوم ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعيّاً لا يندفع عنه، ولو تصوّر ذلك على الدّوام لبشر لتصوّر لرسول الله ﷺ، وإنّه كان يغضب حتّى تحمرّ وجنتاه (١).

و قال عبدالله بن عمرو بن العاص: «يا رسول الله أكتب عنك كلّ ماقلت في الغضب والرّضا؟ فقال: اكتب فوالّذي بعثني بالحقّ مايخرج منه إلّا حقّ - و أشار إلى لسانه -»(٢) فلم يقل: إنّي لا أغضب ولكن قال: إنّ الغضب لا يخرجني عن الحقّ أي لا أعمل بموجب الغضب.

وغضبت عائشة مرّة فقال ﷺ: «مالك جاءك شيطانك فقالت: ومالك شيطان

(١) اخرجه مسلم ج ٣ ص ١١ من حديث جابر بن سمرة.

(٢) اخرجه أبوداود ج ٢ ص ٢٨٦ بنحوه من حديث عبدالله بن عمر.

فقال : بلى ولكنّي دعوت الله فأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلّا بخير [١] » فلم يقل لا شيطان لي وأراد شيطان الغضب لكن قال : لا يحملني على الشرّ .

وقال عليّ عليه السلام : «كان صلى الله عليه وآله لا يغضب للدّنيا فإذا أغضبه الحقّ لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له » [٢] فكان يغضب على الحقّ و إن كان غضبه لله فهو الالتفات إلى الوسائط على الجملة ، بل كلّ من غضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته الّتي لابدّ له في دينه منها فإنّما غضب لله فلا يمكن الانفكاك عنه ، نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروريّ إذا كان القلب مشغولاً بضروريّ أهمّ منه فلا يكون في القلب متّسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإنّ استغراق القلب ببعض المهمّات يمنع الاحساس بما عداه ، وهذا كما أنّ سلمان لما شتم قال : إنّ خفّت موازيني فأنا شرّ ممّا تقول ، وإن ثقلت موازيني لم يضرّني ما تقوله . فقد كان همّه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثّر قلبه بالشتم ، وكذلك شتم رجل الرّبيع بن خثيم فقال : ياهذا قد سمع الله كلامك و إنّ دون الجنّة عقبة إن قطعتها لم يضرّني ماتقول ، و إن لم أقطعها فأنا شرّ ممّا تقول ، وسبّ رجل بعضهم فقال : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك ، فهذه الأقاويل دالّة في الظّاهر على أنّهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمّات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثّر في قلوبهم ولكنّهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم فإذاً اشتغال القلب ببعض المهمّات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحابّ فإذاً يتصوّر فقد الغيظ إمّا باشتغال القلب بمهمّ أو بغلبة نظر التّوحيد أو بسبب ثالث و هو أن يعلم أنّ الله يحبّ منه ألّا يغتاظ فيطفي شدّة حبّه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أنّ طريق الخلاص من نار الغضب محو حبّ الدّنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدّنيا وغوائلها كما سيأتي في كتاب ذمّ الدّنيا ، ومن أخرج حبّ الدّنيا عن القلب تخلّص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه فيمكن كسره و تضعيفه فيضعف الغضب بسببه

(١) اخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٩ من حديث عائشة .

(٢) اخرجه الترمذى فى الشمائل و قد تقدم فى ج ٤ .

ويهون دفعه .

✿ (بيان الاسباب المهيجة للغضب) ✿

قد عرفت أنّ علاج كلّ علّة بحسم مادّتها وإزالة أسبابها ، فلابدّ من معرفة أسباب الغضب وقدقال يحيى لعيسى عليهما السلام : أيّ شيء أشدّ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والتعزّز والحميّة ، والأسباب المهيجّة للغضب هي الزهو والعجب و المزاح والهزل و الهزء والتعيير و المماراة والمضادّة والغدر وشدّة الحرص على فضول المال و الجاه وهي بأجمعها أخلاق رديّة مذمومة شرعاً ولاخلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلابدّ من إزالة هذه الأسباب بأضدادها فينبغي أن تميت الزّهو بالتواضع و تميت العجب بالمعرفة بنفسك كماسيأتي في كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنّك من جنس عبدك إذالناس يجمعهم في الانتساب أبٌ و إنّما اختلفوا بالفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد و إنّما الفخر بالفضائل والفخر والعجب أكبر الرذائل وهما رأسها و أصلها فإذالم تخل عنها فلافضل لك على غيرك فلا تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية و النسب و الأعضاء الظاهرة والباطنة ، وأمّا المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمّات الدّينية الّتي تستوعب العمر وتفضل عنه إذاعرفتها ، وأمّا الهزل فتزيله بالجدّ في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدّينيّة الّتي تبلغك إلى سعادة الآخرة ، وأمّا الهزء فتزيله بالتكرّم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزىء بك، وأمّا التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مرّ الجواب ، و أمّا شدّة الحرص على مزايا العيش فيزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعزّ الاستغناء و ترفّعاً عن ذلّ الحاجة ، و كلّ خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجها إلى رياضة وتحمّل مشقّة وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثمّ المواظبة على مباشرة أضدادها مدّة مديدة حتّى تصير بالعادة مألوفة هيّنة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقدزكت وطهرت عن هذه الرّذائل وتخلّصت أيضاً عن الغضب الّذي يتولّد منها ، ومن أشدّ البواعث للغضب عند أكثر الجهّال تسميتهم الغضب شجاعة ورجوليّة وعزّ نفس و كبر همّة و تلقّبه بالألقاب المحمودة غباوة

وجهلاً حتّى تميل النفس إليه وتستحسنه وقد يتأكّد ذلك بحكاية شدّة الغضب من الأكابر في معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة إلى التشبّه بالأكابر ويهيج الغضب في القلب بسببه، و تسمية هذا عزّة نفس و شجاعة جهل محض بل هو مرض قلب و نقصان عقل و هو لضعف النفس و نقصانها و آية أنّه لضعف النفس أنّ المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرّجل، والصبيّ أسرع غضباً من الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل و ذو الخلق السيّىء والرّذايل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل فالرّذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللّقمة و لبخله إذا فاتته الحبّة حتّى يغضب على أهله وولده وأصحابه، بل القويّ مَن يملك نفسه عند الغضب كما قال ﷺ: «ليس الشديد بالصّرعة إنّما الشديد الّذي يملك نفسه عند الغضب» (١) بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن يتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإنّ ذلك منقول عن الأنبياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك والفضلاء وضدّ ذلك منقول عن الأتراك والأكراد والجهلة والأغبياء الّذين لا عقل لهم ولا فضل.

✿(بيان علاج الغضب بعد هيجانه)✿

إعلم أنّ ما ذكرناه حسم لموادّ الغضب و قطع لأسبابه حتّى لا يهيج فإذا جرى سبب هيجانه فعنده يجب التثبّت حتّى لا يضطرّ صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم و إنّما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

أما العلم فهو ستّة اُمور: الأوّل أن يتفكّر في الأخبار الّتي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه فتمنعه شدّة الحرص على ثواب الكظم عن التشفّي والانتقام وينطفي عنه غيظه، غضب بعضهم على رجل فقال الرّجل: «خذ العفو و أمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» فخلّى عنه.

الثاني أن يخوّف نفسه بعقاب الله و هو أن يقول: قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان فلو أمضيت غضبي عليه بم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ

(١) تقدم عن مسلم وغيره آنفاً.

يوم القيامة وأنا أحوج ما أكون إلى العفو ، وقد قال الله تعالى في بعض الكتب : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق ، و بعث رسول الله ﷺ و صيفاً له إلى حاجة فأبطأ عليه فلمّا جاء قال : « لولا القصاص لأوجعتك ضرباً » [1] أي القصاص في القيامة . و قيل : ما كان في بني إسرائيل ملك إلّا و معه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة وفيها : ارحم المساكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرأها حتّى يسكن غضبه .

الثالث أن يحدث نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمّر العدوّ لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوّف نفسه بعواقب الغضب في الدّنيا إن كان لا يخاف من الآخرة ، و هذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب و ليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لأنّه متردّد على حظوظه العاجلة يقدّم بعضها على بعض إلّا أن يكون محذوره أن يتشوّش عليه في الدّنيا فراغه للعلم والعمل و ما يعينه على الآخرة فيكون حينئذ مثاباً عليه .

الرابع أن يتفكّر في قبح صورته عند غضبه بأن يتذكّر صورة غيره في حالة الغضب و يتفكّر في قبح الغضب في نفسه و مشابهة صاحبه بالكلب الضّاري و السبع العادي ، و مشابهة الحليم الهادي التارك للغضب بالأنبياء والعلماء والحكماء و يخير نفسه بين أن يشبه بالكلاب والسّباع وأراذل النّاس و بين أن يشبه بالأنبياء والعلماء في عادتهم لتميل نفسه إلى حبّ الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس أن يتفكّر في السبب الّذي يدعوه إلى الانتقام و يمنعه من كظم الغيظ ، ولابدّ أن يكون سبب له مثل قول الشيطان له : إنّ هذا يحمل منك على العجز و صغر النّفس والذّلّة والمهانة و تصير حقيراً في أعين الناس فليقل لنفسه : ما أعجبك يا نفس تأنفين من الاحتمال الآن و لا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك و تحذرين من أن تصغري في أعين النّاس و لا تحذرين من أن تصغري عند الله و عند الملائكة والنبيّين بانتقامك من هذا ، فمهما كظم الغيظ

---

(١) اخرجه ابويعلى من حديث ام سلمة بسند ضعيف كما فى المغنى .

فينبغي أن يكظمه لله وذلك يعظمه عندالله فماله و للنّاس ، وذلّ من ظلمه يوم القيامة أشدّ من ذلّه لوانتقم الآن ، أفلا يحبّ أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلّا من عفا عن حق ، فهذا و أمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يقرّره على قلبه .

السّادس أن يعلم أنّ غضبه من تعجّبه من جريان الشيء على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده فكيف يقول : مرادي أولى من مرادالله تعالى ، و يوشك أن يكون غضب الله أعظم من غضبه .

وأما العمل فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم ، هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقال عندالغيظ[1] وكان صلى الله عليه وآله إذا غضب عائشة أخذ بأنفها قال : « يا عويش قولي : اللّهمّ ربّ النبيّ محمّد اغفرلي ذنبي و أذهب غيظ قلبي و أجرني من مضلّات الفتن »[2] .

و يستحبّ أن يقول ذلك فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت جالساً و اقرب من الأرض الّتي منها خلقت لتعرف بذلك ذلّ نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فإنّ سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة إذ قال صلى الله عليه وآله : « إنّ الغضب جمرة تتوقّد في القلب ألم تر إلى انتفاخ أوداجه و حمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضّأ بالماء البارد وليغتسل فإنّ النار لا يطفيها إلّا الماء »[3].

و قد قال صلى الله عليه وآله : « إذا غضب أحدكم فليتوضّأ بالماء البارد فإنّ الغضب من النّار »[4].

---

(١) الامر بالتعوذ بالله من الشيطان عندالغيظ أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٠ من حديث سليمان بن صرد الخزاعى .

(٢) أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة ص ١٢٢ من حديثها .

(٣) أخرجه الترمذى فى حديث طويل طى خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد العصر رواه ابوسعيد الخدرى .

(٤) أخرجه ابوداود باللفظ الذى يأتى .

وفي رواية « إنّ الغضب من الشيطان وإنّ الشيطان خلق من النّار وإنّما يطفي النّار الماء فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ » (١).

و قال ابن عبّاس : قال رسول الله ﷺ : « إذا غضبت فاسكت » (٢).

و قال أبوهريرة : « كان النبيّ ﷺ إذا غضب وهو قائمٌ جلس وإذا غضب و هو جالس اضطجع فيذهب غيظه » (٣).

و قال أبو سعيد الخدريّ : قال النبيّ ﷺ : « ألا إنّ الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خدّه بالأرض » (٤). وكان هذا إشارة إلى السجود وهو تمكين أعزّ الأعضاء من أذلّ المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذّل وتزائل به العزّة والزّهو الّذي هو سبب الغضب ، و قيل : كان رجلٌ ممّن كان قبلكم يغضب فيشتدّ غضبه فكتب ثلاثة صحايف فأعطى كلّ صحيفة رجلاً و قال للأوّل : إذا غضبتُ فأعطني هذه الصحيفة ، و قال للثاني : إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه ، و قال للثالث : إذا ذهب غضبي فأعطني هذه ، فاشتدّ غضبه يوماً فاُعطي الصّحيفة الاُولى فإذا فيها ماأنت وهذا الغضب إنّك لست بإله إنّما أنت بشر أوشك أن يأكل بعضك بعضاً فسكن بعض غضبه ، فاُعطي الثانية فإذا فيها ارحم من في الأرض يرحمك من في السّماء ، ثمّ اُعطي الثالثة فإذا فيها خذ النّاس بحقّ الله فإنّهم لا يصلحهم إلّا ذلك ، أي لا تعطّل الحدود .

✲(فضيلة كظم الغيظ)✲

قال الله تعالى : « و الكاظمين الغيظ » (٥) وذكر ذلك في معرض المدح .

و قال رسول الله ﷺ : « من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه ، و من اعتذر

---

(١) تقدم عن أبي داود أخرجه ج ٢ ص ٥٥٠ .

(٢) رواه احمد والطبراني ورجال احمد ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠ .

(٣) أخرجه ابن ابي الدنيا وفيه من لم يسم كما في المغني .

(٤) جزء من الحديث المتقدم الذي رواه الترمذي .

(٥) آل عمران : ١٢٨ .

إلى ربّه قبل الله عذره ، و من خزن لسانه ستر الله عورته » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أشدّ كم من ملك نفسه عند الغضب ، و أحلمكم من عفا عند القدرة » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً و لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً » . و في رواية اُخرى « أمناً و إيماناً » (٣).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « ما جرّع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » (٤).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ لجهنّم باباً لا يدخلها إلّا من شفي غيظه بمعصية الله تعالى » (٥) .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من جرعة أحبّ إلى الله تعالى من جرعة غيظ يكظمها عبدٌ وما كظمها عبدٌ إلّا ملأ الله جوفه إيماناً » (٦).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً و هو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يخيره في أيّ الحور شاء » (٧).

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تذهب ماء وجهك بالمسئلة ، و لا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك ، وقال أيّوب : حلم ساعة يدفع شرّاً كثيراً.

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال :

---

(١) راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨ رواه مختصراً عن الطبراني في الاوسط بسند ضعيف من حديث أنس .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب بسند ضعيف عن علي عليه السلام كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الاولى من حديث ابن عمر كما في المغني و بالرواية الثانية ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٨٩ باسناد صحيح .

(٥) تقدم سابقاً عن مسند البزار .

(٦) أخرجه ابن ابي الدنيا في ذم الغضب عن ابن عباس كما في الجامع الصغير وقد تقدم .

(٧) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٤٨ من حديث معاذ وقد تقدم .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أحبّ السبيل إلى الله تعالى جرعتان جرعة غيظ تردّها بحلم و جرعة مصيبة تردّها بصبر » (١).

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول : ما اُحبّ أنّ لي بذلّ نفسي حمر النعم ، و ما تجرّعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا اُكافي بها صاحبها » (٢).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « من كظم غيظاً و هو يقدر على إمضائه حشاالله قلبه أمناً و إيماناً يوم القيامة » (٣).

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها فإنّ عظيم الأجر لمن عظم البلاء ، و ماأحبّ الله قوماً إلّا ابتلاهم » (٤).

و عنه عليه السلام : « مامن عبد كظم غيظاً إلّا زاده الله تعالى عزّاً في الدّنيا والآخرة وقد قال الله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين »(٥) و أثابه الله مكان غيظه ذلك ».

و عنه عليه السلام : « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه » (٦).

و عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام : قال : « اصبر على أعداء النعم فإنّك لن تكافيء من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه » (٧).

✿(فضيلة الحلم)✿

إعلم أنّ الحلم أفضل من كظم الغيظ لأنّ كظم الغيظ عبارة عن التحلّم أي

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ ، و«حمر النعم »اى كرائم النعم كما في (المغرب) وقال الكرماني : حمر النعم - بضم الحاء وسكون الميم ، والنعم المال الراعي وهو جمع ولاواحد له من لفظه واكثر مايقع على الابل اه ونبه بذكر تجرع الغيظ عقيب هذا على أن في التجرع العزوفي المكافات الذل .

(٣) و(٤) الكافي ج ٢ ص ١١٠ وباب شدة ابتلاء المؤمن ص ٢٥٢ .

(٥) آل عمران : ١٢٨ والخبر في الكافي ج ٢ ص ١١٠ .

(٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

تكلّف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلّا من هاج غيظه و يحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعوّد ذلك مدّة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب و هو الحلم الطبيعي و هو دلالة على كمال العقل واستيلائه وانكسار قوّة الغضب و خضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلّم و كظم الغيظ تكلّفاً قال رسول الله ﷺ : « إنّما العلم بالتعلّم والحلم بالتحلّم و من يتحرّ الخير يعطه و من يتوقّ الشرّ يوقه » (١) أشار بهذا إلى أنّ اكتساب الحلم طريقه التحلّم أوّلاً و تكلّفه كما أنّ اكتساب العلم طريقه التعلّم .

و عنه ﷺ : « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ليّنوا لمن تعلّمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم » (٢) أشار بهذا إلى أن التجبّر والكبر هو الّذي يهيّج الغضب و يمنع من الحلم و اللّين .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللّهمّ أغنني بالعلم وزيّنّي بالحلم وأكرمني بالتقوى و جمّلني بالعافية » (٣).

و عنه ﷺ : « ابتغوا الرّفعة عند الله ، قالوا : و ماهي يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك ، و تعطي من حرمك ، و تحلم عمّن ظلمك أو جهل عليك » (٤).

و قال ﷺ : « خمس من سنن المرسلين : الحياء ، والحلم ، والحجامة ، والسواك والتعطّر » (٥).

و قال عليّ عليه السلام : قال النبيّ ﷺ : « إنّ الرّجل المسلم ليدرك بالحلم

---

(١) أخرجه الطبراني والدار قطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف كما في المغني .

(٢) أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين بسند ضعيف كما في المغني .

(٣) أخرجه ابن النجار من حديث ابن عمر بسند حسن كما في الجامع الصغير .

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ والحكيم الترمذي في نوادر الاصول والبزار في مسنده والطبراني في الكبير، وابو نعيم في المعرفة و البيهقي عن حصين الخطمي بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

درجة الصائم القائم و إنّه ليكتب جبّاراً عنيداً و ما يملك إلّا أهل بيته » (١) .

و روي أنّ رجلاً قال : « يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلهم و يقطعوني ، و أحسن إليهم ويسيئون إليّ ، ويجهلون عليّ وأحلم عنهم ، قال : لئن كان كما تقول فكأنّما تُسِفّهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك الملّ »(٢) يعني به الرّمل .

و قال رجلٌ من المسلمين : « اللّهمّ ليس عندي صدقة أتصدّق بها فأيّما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله إلى النبيّ أن قد غفرت له بذلك »(٣).

وقيل في قوله تعالى: « ربّانيّين » (٤) أي حلماء علماء ، وفي قوله : « يمشون على الأرض هوناً » أي حلماء « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » أي حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا ، و قيل في قوله عزّ وجلّ : « و إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً » (٥) أي إذا أُوذوا صفحوا ، وفي قوله : « و كهلاً » (٦) قيل : الكهل منتهى الحلم .

و قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله يحبّ الحليم الحييّ الغنيّ المتعفّف و يبغض الفاحش البذيّ السائل الملحف » (٧).

---

(١) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب كما في الترغيب ج ٣ ص ٤١٨ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٨ وقال النووي قوله ﷺ « كانما تسفهم الملّ » اى كانما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الالم بما يلحق آكل الرماد الحار من الالم ولا شيء على هذا المحسن بل ينالهم الاثم العظيم في قطيعته وادخالهم الاذى عليه .

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب تحت عنوان « ابوضمضم » عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابى صالح عن ابى هريرة . ورواه البيهقى في الشعب وابو نعيم في الصحابة وقال العراقى : انه علبة بن زيد وابو ضمضم ليس له صحبة انما هو متقدم .

(٤) آل عمران : ٧٩ .

(٥) الايات في سورة الفرقان : ٦٤ و ٧٢ .

(٦) آل عمران : ٤٦ .

(٧) لم أجد تمام الحديث في اى اصل و جاء مضمونه في عدة احاديث راجع الجامع الصغير ج ١ ص ٧٤ . وفي الكافي ج ٢ ص ١١٢ « ان الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف » .

و قال ابن عبّاس : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهنّ فلا يعتدن بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله ، وحلم يكفّ به السفيه و خُلق يعيش به في الناس »(١).

وقال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناسٌ وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنّة فتلقّاهم الملائكة فيقولون : إنّا نراكم سراعاً إلى الجنّة فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : ماكان فضلكم؟ فيقولون : كنّا إذا ظلمنا صبرنا و إذا اُسيء إلينا غفرنا ، و إذا جهل علينا حلمنا ، فيقال : لهم : ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين »(٢).

و قال عليٌّ عليه السلام : « ليس الخير أن يكثر مالك و ولدك ، و لكن الخير أن يكثر عملك و يعظم حلمك وأن لا تباهي الناس بعبادة ربّك ، فإذا أحسنت حمدت الله و إذا أسأت استغفرت الله » .

و عن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ عليهما السلام أنّه سبّه رجلٌ فرمى إليه خميصة كانت عليه و أمر له بألف درهم(٣) ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال : الحلم و إسقاط الأذى ، و تخليص الرّجل ممّا يبعده من الله وحمله على الندم والتوبة و رجوعه إلى المدح بعد الذّم ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدّنيا يسير .

و قال رجل لجعفر بن محمّد عليهما السلام : إنّه وقع بيني و بين قوم منازعة في أمر و إنّي اُريد أن أتركه فيقال لي : إنّ تركك له ذلّ فقال جعفر عليه السلام : إنّما الذّليل الظالم . و مرّ المسيح بن مريم عليهما السلام بقوم من اليهود فقالوا له شرّاً ، فقال لهم خيراً ، فقيل له : إنهم يقولون شرّاً و أنت تقول خيراً ؟ فقال : كلٌّ واحد ينفق ممّا عنده . وقال لقمان : ثلاثة لايعرفون إلّا عند ثلاثة : لايعرف الحليم إلّا عند الغضب ولا الشجاع إلّا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك إلّا عند حاجتك إليه .

(١) أخرجه ابو نعيم فى كتاب الايجاز باسناد ضعيف والطبرانى من حديث امسلمة باسناد فيه لين (المغنى) .

(٢) رواه الاصبهانى عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده كما فى الترغيب ج٣ ص٤١٨.

(٣) لم أعثر على اصله انما أورده الشعرانى فى الطبقات ج ١ ص ٢٨ .

أقول: ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف » (١) .

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما أعزّ الله بجهل قطّ ولا أذلّ بحلم قطّ » (٢).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول : إنّه ليعجبني الرّجل أن يدركه حلمه عند غضبه » (٣).

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « كفى بالحلم ناصراً ، وقال : إذا لم تكن حليماً فتحلّم » (٤).

وعن حفص بن أبي عائشة قال : « بعث أبوعبدالله عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج أبو عبدالله عليه السلام في أثره فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروّحه حتّى انتبه فلمّا انتبه قال له أبو عبدالله عليه السلام : يا فلان والله ما ذلك لك تنام اللّيل والنّهار لك اللّيل و لنا منك النّهار » (٥).

و عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما : قلت و قلت و أنت أهل لما قلت ستجزى بما قلت ، و يقولان للحليم منهما : صبرت و حلمت سيغفر الله لك إن أتممت ذلك ، قال : فإن ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان » (٦).

وعن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال : « لا يكون الرّجل عابداً حتّى يكون حليماً و إنّ الرّجل كان إذا تعبّد في بني إسرائيل لم يعدّ عابداً حتّى يصمت قبل ذلك عشر سنين » (٧).

قال أبو حامد : ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدّم إليه الطعام فخرجت امرأة الحكيم و هي سيّئة الخلق فرفعت المائدة و أقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم و قال : أتذكر يوماً كنّا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة وأفسدت ما عليها فلم يغضب أحدٌ منّا فقال : نعم فقال : احسب

(١) الى (٧) الكافي ج ٢ ص ١١٢ باب الحلم .

أنّ هذه مثل تلك الدّجاجة فسرّي عن الرّجل وانصرف وقال : صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كلّ ألم .

و ضرب رجلٌ قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له : في ذلك فقال : أقمته مقام حجرة تعثّرت بها فوقعت فذبحت الغضب ، وقال محمود الورّاق :

سألزم نفسي الصفح عن كلّ مذنب ✿ و إن كثرت منه عليّ الجرائم
و ما الناس إلّا واحد من ثلاثة ✿ شريف و مشروف و مثل مقاوم
فأمّا الّذي فوقي فأعرف فضله ✿ و أتبع فيه الحقّ والحقّ لازم
و أمّا الّذي دوني فإن قال صنت عن ✿ أجابته عرضي و إن لام لائم
و أمّا الّذي مثلي فإن زلّ أوهفا ✿ تفضّلت إنّ الفضل بالخير حاكم

✿(بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام)✿

إعلم أنّ كلّ ظلم صدر من شخص فلا تجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسّس بالتجسّس ، ولا مقابلة السبّ بالسبّ ، و كذا سائر المعاصي و إنّما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به و فصّلناه في كتب الفقه ، قال رسول الله ﷺ : « إن امرءٌ عيّرك بما فيك فلا تعيّره بما فيه » (١).

وقال ﷺ : « المستبّان شيطانان متهاتران » (٢) وشتم رجل أبابكر وهو ساكت فلمّا ابتدأ لينتصر منه قام رسول الله ﷺ : « فقال أبو بكر : إنّك كنت ساكتاً لمّا شتمني فلمّا تكلّمت قمت ؟ قال : لأنّ الملك كان يجيب عنك فلمّا تكلّمت ذهب الملك و جاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان » (٣) .

و قال قوم : تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ونهيه ﷺ عن التعيير بمثله نهي تنزيه والأفضل تركه و لكنّه لا يعصي بفعله والّذي يرخّص فيه أن تقول : من أنت و هل أنت إلّا من بني فلان ومثل قوله : يا أحمق ، قال مطرف : كلّ الناس أحمق فيما

(١) أخرجه احمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم .

(٢) تقدم عن الطيالسي ورواه ابن حبان كما في الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٦٩ .

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٢ من حديث سعيد بن المسيب .

بينه و بين ربّه إلّا أنّ بعض الناس أقلّ حماقة من بعض ، و قال ابن عمر في حديث طويل : حتّى ترى الناس كلّهم حمقى في ذات الله ، و كذلك قوله : ياجاهل ، إذ ما من أحد إلّا و فيه جهل فقد آذاه بما ليس بكذب ، و كذلك قوله : ياسيّىء الخلق ، يا صفيق الوجه ثلاباً للأعراض(*) وكان ذلك فيه ، و كذلك قوله : لو كان فيك حياء لما تكلّمت و ما أحقرك في عيني بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك .

فأمّا النميمة والغيبة والكذب وسبّ الوالدين فحرام بالاتّفاق والدّليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزّنى والسبّ والفحش ما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المستبّان ما قالا فعلى البادي منهما حتّى يعتدي المظلوم » (١).

أقول : ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابّان قال : « البادي منهما أظلم و وزره و وزر صاحبه عليه مالم يعتذر إلى المظلوم »(٢).

قال أبوحامد : فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي ، فهذا القدر هو الّذي أباحه و هو رخصة في الايذاء جزاء على إيذائه السابق ولا تبعد الرخصة في هذا القدر و لكن الأفضل تركه لأنّه يجرّ إلى ما وراءه ولا يمكن الاقتصار إلى مقدار الحقّ فيه ، والسّكوت عن أصل الجواب لعلّه أيسر من الشروع في الجواب و الوقوف على حدّ الشرع فيه ، و لكن من الناس من لايقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب و لكن يعود سريعاً و منهم من يكفّ نفسه في الابتداء و لكن يحقد على الدّوام ، والناس في الغضب أربعة فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضاء(٣) بطيىء الوقود بطيىء الخمود ، وبعضهم بطيىء الوقود سريع الخمود ، وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحميّة و الغيرة ، و بعضهم سريع الوقود بطيىء الخمود و هذا هو شرّهم ، و في الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرّضا فهذه بتلك » (٤) .

قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ألا إنّ بني آدم خلقوا على

(*) ثلبه ثلباً من باب ضرب : عابه وتنقصه ، والمثلبة : المسبة .

(١) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٣٥ و تقدم عن عدة من المصادر .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٦٠ . (٣) الحلفاء : نبت معروف والغضا شجرة من الاثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زماناً طويلا . (٤) تقدم سابقاً .

طبقات شتّى منهم بطيء الغضب سريع الفيء و منهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ، و منهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا و إنّ خيرهم البطيء الغضب السّريع الفيء و شرّهم السّريع الغضب البطيء الفيء »[١] ولمّا كان الغضب في الحال يهيج و يثور في كلّ إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه عليه لأنّه ربّما يتعدّى الواجب ولأنّه يكون متغيّظاً عليه فيكون متشفّياً لغيظه ، مريحاً نفسه ، صاحب حظّ فيه ، وينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله لا لنفسه . رأى بعض الولاة سكران فأراد أن يأخذه ويعزّره فشتمه السكران فرجع وقال : أغضبني ولو عزّرته لكان ذلك لغضبي لنفسي ولم اُحبّ أن أضرب مسلماً حميّة لنفسي .

✿(القول في معنى الحقد و نتايجه و فضيلة العفو والرفق)✿

إعلم أنّ الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفّي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً و معنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه و أن يقوم على ذلك و يبقى و قد قال ﷺ : « المؤمن ليس بحقود »[٢] فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية اُمور : الأوّل الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن يتمنّى زوال النعمة عنه فتغتمّ بنعمة إن أصابها و تسرّ بمصيبة إن نزلت به ، و هذا من فعل المنافقين - أعني الحسد - وسيأتي ذمّه ، الثاني أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتشمت بما يصيبه من البلاء ، الثالث أن تهجره و تصارمه[٣] وتنقطع عنه و إن طلبك و أقبل عليك ، الرابع و هو دونه أن تعرّض عنه استصغاراً له ، الخامس أن تتكلّم فيه بما لا يحلّ من كذب و غيبة و إفشاء سرّ وهتك ستر وغيره ، السّادس أن تحاكيه استهزاءً به و سخرية منه ، السابع إيذاؤه بالضرب و ما يؤلم بدنه ، الثامن أن تمنعه حقّه من صلة رحم أو قضاء دين أو ردّ مظلمة و كلّ ذلك حرام ، و أقلّ درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة و لا تخرج بسبب

---

(١) أخرجه الطيالسي تحت رقم ٢١٥٦ والبزار باختلاف في لفظه من طريق بن شريك عن ابيه هما ثقتان وفيهما ضعف و بقية رجاله رجال الصحيح عن ابي هريرة كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨ . (٢) تقدم في كتاب العلم . (٣) اى تقاطعه .

الحقد إلى ما تعصي الله به و لكن تستثقله بالباطن و لا ينتهي قلبك عن بغضه حتّى تمتنع ممّا كنت تتطوّع به من البشاشة والرّفق والعناية ، و القيام بحاجاته ، و المجالسة معه على ذكر الله ، والمعاونة على المنفعة له ، أو تترك الدّعاء له والثناء عليه أو التحريص على برّه و مواساته ، فهذا كلّه ممّا ينقص درجتك في الدّين و يحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل ، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله . والأولى أن يبقى على ما كان فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس و إرغاماً للشيطان فذلك هو مقام الصدّيقين وهو من فضائل أعمال المقرّبين ، فللحقود ثلاثة أحوال عند القدرة أحدها أن يستوفي حقّه الّذي يستحقّه من غير زيادة أو نقصان و هو العدل ، والثاني أن يحسن إليه بالعفو والصّلة و ذلك هو الفضل ، والثالث أن يطلبه[1] بما لا يستحقّه وذلك هو الجور وهو اختيار الأراذل والثاني هو اختيار الصدّيقين والأوّل هو منتهى درجة الصالحين ، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان .

✿(فضيلة العفو)✿

إعلم أنّ العفو أن تستحقّ حقّاً فتسقطه وتبرأ عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم و كظم الغيظ ، فلذلك أفردناه قال الله تعالى : « خذ العفو و أمر بالعرف ـ الآية ـ »[2] و قال تعالى : « وإن تعفوا أقرب للتقوى » [3] .

و قال رسول الله ﷺ : « التواضع لا يزيد العبد إلّا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله ، والعفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً فاعفوا يعزّكم الله ، والصدقة لا تزيد المال إلّا كثرة فتصدّقوا يغنكم الله » [4].

و قالت عائشة : « ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قطّ مالم ينتهك حرمة من محارم الله فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدّهم في ذلك

---

(١) في الاحياء [أن يظلمه بما لا يستحقه] .

(٢) آل عمران : ١٩٨ . (٣) البقرة : ٢٣٨ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت عن محمد بن عميرة العبدي بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ولاحمد في مسند عبدالرحمن بن عوف مثله راجع المسند ج ١ ص ١٩٣ .

غضباً وما خيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ممّا لم يكن مأثماً » [١].

و قال عقبة بن عامر : « لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فبدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال : يا عقبة ألا اُخبرك بأفضل أخلاق أهل الدُّنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك و تعطي من حرمك و تعفو عمّن ظلمك » [٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « قال موسى يا ربّ أيُّ عبادك أعزّ عليك ؟ قال : الّذي إذا قدر عفا » [٣].

و جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله يشكو مظلمة فأمره النبيّ صلى الله عليه وآله أن يجلس و أراد أن يأخذ له بمظلمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ المظلومين هم المفلحون يوم القيامة » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث [٤].

وعنه صلى الله عليه وآله : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » [٥].

وعنه صلى الله عليه وآله : « إذا بعث الله الخلايق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحّدين إنّ الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض» [٦].

و روي « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكّة طاف بالبيت وسعى وصلّى ركعتين ثمّ أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال : ما تقولون و ما تظنّون ؟ قالوا : نقول أخ وابن عمّ حليمٌ رحيمٌ - قالوا ذلك ثلاثاً - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أقول كما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو أرحم الرّاحمين » قال :

(١) أخرجه مسلم باختلاف فى اللفظ ج ٧ ص ٨٠ و قد تقدم .

(٢) أخرجه أحمد ج ٤ ص١٤٨ و١٥٨ والطبرانى وأحد اسنادى أحمد رجاله ثقات كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٨٩ .

(٣) أخرجه الخرائطى فى المكارم والبيهقى فى الشعب من حديث ابى هريرة كما فى الجامع الصغير .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب من رواية أبى صالح الحنفى بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٦٦ من حديث عائشة .

(٦) ما عثرت على لفظ الحديث .

فخرجوا كأنّما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام» (١).

وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنّة قيل: من ذا الّذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس، فيقوم كذا و كذا ألفاً فيدخلونها بغير حساب» (٢).

و قال ابن مسعود: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا ينبغي لوالي أمر أتى بحدّ إلّا أقامه، والله عفوّ يحبّ العفو ثمّ قرأ فليعفوا وليصفحوا الآية» (٣).

و قال جابر: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ثلاث من جاء بهنّ مع إيمان دخل من أيّ أبواب الجنّة شاء و زوّج من الحور العين حيث شاء: من أدّى ديناً خفيّاً وقرأ في دبر كلّ صلاة «قل هو الله أحد» عشر مرّات و عفا عن قاتله، قيل: أو إحداهنّ يا رسول الله؟ قال: أو إحداهنّ» (٤).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في خطبته: ألا اُخبركم بخير خلائق الدّنيا والآخرة العفو عمّن ظلمك و تصل من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك و إعطاء من حرمك» (٥).

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: عليكم بالعفو فإنّ العفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً فتعافوا يعزّكم الله» (٦).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: سمعته يقول: «إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ثمّ ينادي مناد أين

---

(١) أورده جل المؤرخين في قصة فتح مكة راجع تاريخ الطبرى و سيرة ابن هشام والكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٢٠.

(٢) أخرجه الطبرانى فى مكارم الاخلاق وفيه فضل بن يسار ولا يتابع على حديثه.

(٣) أخرجه أحمد ج ١ ص ٤٣٨، والحاكم و صححه.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الاوسط فى الدعاء بسند ضعيف كما فى المغنى.

(٥) المصدر ج ٢ ص ١٠٧ والخلائق جمع الخليقة و هو الطبيعة والمراد هنا الملكات النفسانية الراسخة.

(٦) الكافى ج ٢ ص ١٠٧ و ١٠٨ باب العفو.

أهل الفضل ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتلقّاهم الملائكة فيقولون : و ما كان فضلكم ؟ فيقولون : كنّا نصل من قطعنا ، ونعطي من حرمنا ، و نعفو عمّن ظلمنا ، قال : فيقال لهم : صدقتم ادخلوا الجنّة »[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « الندامة على العفو أفضل و أيسر من الندامة على العقوبة »[٢].

وعنه عليه السلام قال : «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله اُتي باليهوديّة الّتي سمّت الشاة للنبيّ صلى الله عليه وآله فقال لها : ما حملك على ماصنعت ؟ فقالت : قلت : إن كان نبيّاً لم يضرَّه وإن كان ملكاً أرحت الناس منه ، قال : فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله عنها » [٣] .

و عن أبي عبدالله عليه السلام « ثلاث من مكارم الدُّنيا والآخرة : تعفو عمن ظلمك و تصل من قطعك و تحلم إذا جهل عليك » [٤].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال : « ما التقت فئتان قطُّ إلّا نصر أعظمهما عفواً»[٥].

و عن معتّب قال : «كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائط له يصرم[٦] فنظرتُ إلى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط فأتيته و أخذته و ذهبت به إليه فقلت له : جعلت فداك إنّي وجدت هذا وهذه الكارة ، فقال للغلام : يافلان ، قال : لبّيك ، قال : أتجوع ؟ قال : لا يا سيّدي ، قال : فتعرى ؟ قال : لا يا سيّدي ، قال : فلأيِّ شيء أخذت هذا ؟ قال : اشتهيت ذلك ، قال : إذهب فهي لك و قال : خلّوا عنه » .

قال أبو حامد : الآثار ؛ قيل لراهب : أرأيت ذا القرنين أكان نبيّاً قال : لاولكنّه إنّما اُعطي ما اُعطي بأربع خصال كنَّ فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفا ، و إذا حدَّث صدق ، ولا يجمع اليوم لغد ، فقال بعضهم : ليس الحليم من ظلم فحلم حتّى إذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم فحلم ، ثمّ قدر فعفا . وقيل : القدرة تذهب الحفيظة يعني الحقد والغضب . و روي أن سارقاً دخل على خباء عمّار بن ياسر بصفّين فقيل له :

---

(١) الى (٥) الكافي ج ٢ ص ١٠٧ و ١٠٨ باب العفو .

(٦) صرم النخل : جزه والفعل كضرب . والخبر في الكافي ج ٢ ص ١٠٨.

اقطعه فإنّه من أعدائنا فقال : بل أستر عليه لعلّ الله أن يستر عليّ يوم القيامة .

وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع متاعاً فابتاع ثمّ طلب الدّراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلّت فقال : لقد جلست و إنّها لمعي فجعلوا يدعون على السارق اللّهمّ اقطع يد السارق الّذي أخذها فقال عبد الله : اللّهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها ، و إن كان حملته على الذّنب جرأة فاجعله آخر ذنوبه .

و قال الفضيل : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليّ في المسجد الحرام ، ثمّ قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه ، فجعل يبكي فقلت : أعلى الدّنانير تبكي ؟ قال : لا ولكن مثّلتني و إيّاه بين يدي الله عزّ وجلّ فأشرف عقلي على إدحاض حجّته فبكائي رحمة له .

وقيل مكتوب في الانجيل : من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان .

❁(فضيلة الرفق)❁

إعلم أنّ الرّفق محمود و يضادّه العنف و الحدّة ، و العنف نتيجة الغضب والفظاظة و الرّفق و اللّين نتيجة حسن الخلق و السلامة و قد يكون سبب الحدّة الغضب ، و قد يكون سببها شدّة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكّر ويمنع من التثبّت ، فالرّفق في الاُمور ثمرة لا يثمرها إلّا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلّا بضبط قوّة الغضب وقوّة الشهوة وحفظهما على حدّ الاعتدال ، ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الرّفق و بالغ فيه فقال : « إنّه من اعطي حظّه من الرّفق اُعطي حظّه من خير الدّنيا و الآخرة ، و من حرم حظّه من الرّفق حرم حظّه من خير الدّنيا والآخرة »(١).

قال صلى الله عليه وآله وسلم :« إذا أحبّ الله أهل بيت أدخل عليهم الرّفق »(٢).

---

(١) اخرجه الترمذى بنحوه و أخرجه بلفظه أحمد والعقيلى فى الضعفاء فى ترجمة عبدالرحمن بن أبى بكر المليكى وضعفه عن القاسم عن عائشة (المغنى) .

(٢) أخرجه احمد من حديث عائشة بسند صحيح كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٩ ولفظه هكذا «اذا اراد الله بأهل بيت خيراً ـ الحديث ـ » و هكذا رواه البزار عن جابر .

و قال ﷺ: «إنّ الله ليعطي على الرّفق ما لا يعطي على الخرق، و إذا أحبّ الله عبداً أعطاه الرّفق، وما من أهل بيت يحرمون الرّفق إلّا قد حرموا محبّة الله» (١).

و قال ﷺ: «إنّ الله رفيق يحبّ الرفق و يعطي عليه مالا يعطي على العنف» (٢).

و قال ﷺ: «من يحرم الرّفق يحرم الخير كلّه» (٣).

و قال ﷺ: «أتدرون من يحرم على النار كلّ هيّن ليّن سهل قريب» (٤).

و قال ﷺ: «الرّفق يمن و الخرق شؤم» (٥).

و قال ﷺ: «التأنّي من الله و العجلة من الشيطان» (٦).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لو كان الرّفق خلقاً يرى ما كان ممّا خلق الله شيء أحسن منه» (٧).

و عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الرّفق لم يوضع على شيء إلّا زانه، ولا نزع من شيء إلّا شانه» (٨).

و عنه عليه السلام: «إنّ الله رفيق يحبّ الرفق» (٩).

و عنه عليه السلام قال: «إنّ لكلّ شيء قفلاً و قفل الإيمان الرّفق ويعطى على الرّفق مالا يعطى على العنف» (١٠).

---

(١) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات من حديث جرير بن عبدالله كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٨٨.

(٣) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٥٤ من حديث جرير بن عبدالله.

(٤) أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحيهما كما في الترغيب والترهيب ج٣ ص ٤١٨.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٦) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٧٢.

(٧) الى (١٠) المصدر ج٢ ص ١١٩ وص ١٢٠ باب الرفق.

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الرِّفق يمنٌ والخرق شؤم » (١) .

و عنه عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما اصطحب اثنان إلّا كان أعظمهما أجراً ، وأحبّهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه » (٢) .

و عنه عليه السلام « من كان رفيقاً في أمره نال مايريد من الناس » (٣).

و عنه عليه السلام « إنّ الله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق ، فمن رفقه بعباده تسليله أضغانهم ، و مضادّته لهواهم و قلوبهم ، و من رفقه بهم أنّه يدعهم على الأمر يريد إزالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان و مثاقلته جملة واحدة فيضعفوا ، فإذا أراد ذلك نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخاً »(٤).

و عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال : « الرِّفق نصف العيش» (٥).

و عنه عليه السلام قال لمن جرى بينه وبين قومه كلام : « ارفق بهم فإنّ كفر أحدكم في غضبه ، ولاخير فيمن كان كفره في غضبه » (٦).

و عن عمرو بن أبي المقدام رفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « إنّ في الرِّفق الزِّيادة والبركة و من يحرم الرِّفق يحرم الخير » (٧).

و عنه رفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله « ما زوي الرِّفق عن أهل بيت إلّا زوي عنهم الخير » (٨).

قال أبو حامد بعد ذكر الآثار : فهذا ثناء أهل العلم على الرِّفق وذلك لأنّه محمود و مفيد في أكثر الأحوال و أغلب الأمور ، و الحاجة إلى العنف قد تقع لكن على الندور وإنّما الكامل من يميّز مواقع الرِّفق عن مواقع العنف فيعطي كلّ أمرٍ حقّه فإن كان قاصر البصيرة وأشكل عليه حكم واقعة من الوقايع فليكن ميله إلى الرِّفق فإنّ النجح معه في الأكثر .

(١) الى (٣) الكافي ج ٢ ص ١١٩ و ص ١٢٠ باب الرفق .
(٤) المصدر ج٢ ص١١٨ والتسليل : انتزاع الشيء واخراجه في رفق ، والاضغان : الاحقاد التي في القلوب والعداوة والبغضاء ، والمضادة منع الخصم عن الامر برفق .
(٥) الى (٨) الكافي ج ٢ ص ١١٩ و١٢٠ باب الرفق .

✿(القول في ذم الحسد)✿

✿(و في حقيقته واسبابه و معالجته وغاية الواجب في ازالته)✿

(بيان ذمّ الحسد)

إعلم أنّ الحسد من نتائج الحقد، و الحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرع الغضب و الغضب أصل أصله، ثمّ للحسد من الفروع الذّميمة ما لايكاد يحصى وقد ورد في ذمّ الحسد خاصّة أخبار كثيرة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسد يأكل الحسنات كماتأكل النارالحطب»(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النهي عن الحسد و أسبابه وثمراته: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً» (٢).

وروي «أنّه صلى الله عليه وآله وسلم شهد لرجل من الأنصار بأنّه من أهل الجنّة فلمّافتّشوا عن حاله ما رأوه يعمل عملاً كثيراً غير أنّه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يقم حتّى يقوم لصلاة الفجر فقيل له في ذلك فقال: ما هو إلّا ما ترون غيرأنّي لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشّاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إيّاه»(٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث لا ينجو منهنّ أحدٌ: الظنّ و الطيرة و الحسد، وسأُحدّثكم بالمخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقّق، و إذا تطيّرت فامض، و إذا حسدت فلا تبغ» (٤).

و في رواية «ثلاث لا ينجو منهنّ أحدٌ و قلّ من ينجو منهنّ» (٥)فأثبت

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢١٠ في حديث عن أنس.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم و قد تقدم مراراً.

(٣) رواه أحمد في حديث طويل في مسند أنس باسناد على شرط الشيخين والنسائي و أبو يعلى والبزار و سمى الرجل المبهم سعداً راجع الترغيب ج ٣ ص ٥٤٩.

(٤) و(٥) أخرجهما ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة والرواية الاولى فيها يعقوب بن محمد الزهري و موسى بن يعقوب ضعفهما الجمهور والثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً مرسلا. كما في المغني

في هذه الرّواية إمكان النجاة.

و قال ﷺ: «دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد و البغضاء و البغضة هي الحالقة، لا أقول: حالقة الشعر ولكن حالقة الدّين، و الّذي نفس محمّد بيده لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتّى تحابّوا ألا اُنبّئكم بما يثبت ذلك لكم افشوا السلام بينكم»(١).

و قال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر»(٢).

و قال ﷺ: «إنّه سيصيب اُمّتي داء الاُمم، قالوا: و ما داء الاُمم؟ قال: الأشر و البطر والتكاثر و التنافس في الدّنيا و التباعد و التحاسد حتّى يكون البغي ثمّ يكون الهرج» (٣).

و قال ﷺ: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك» (٤).

و روي أنّ موسى عليه السلام لمّا تعجّل إلى ربّه رأى في ظلّ العرش رجلاً فغبطه بمكانه و قال: إنّ هذا لكريم على ربّه فسأل ربّه أن يخبره باسمه فلم يخبره باسمه و قال: اُحدّثك من عمله بثلاث: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعقّ والديه. ولا يمشي بالنميمة.

وقال زكريّا عليه السلام: قال الله تعالى: «الحاسد عدوّ لنعمتي، متسخّط لقضائي، غير راض لقسمتي الّتي قسمت بين عبادي».

و قال ﷺ: «أخوف ما أخاف على اُمّتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون و يقتتلون» (٥).

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى من حديث الزبير بن العوام بسند صحيح كما فى الجامع الصغير.

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشي و أبو مسلم الكشى أيضاً و يزيد ضعيف كما فى المغنى. و سيأتى عن الكافى مثله.

(٣) أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة بسند صحيح كما فى الجامع الصغير.

(٤) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٣١٢ من حديث واثلة بن الاسقع.

(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى عامر الاشعرى (المغنى).

و قال صلى الله عليه وآله : « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإنّ كلّ ذي نعمة محسود » (١).

و قال صلى الله عليه وآله : « إنّ لنعم الله أعداءً فقيل : ومن أولئك ؟ قال : الّذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله : « ستّة يدخلون النار قبل الحساب بستّة قيل : يا رسول الله منهم ؟ قال : الامراء بالجور ، و العرب بالعصبيّة ، والدّهاقين بالتكبّر ، والتجّار بالخيانة و أهل الرّستاق بالجهالة ، والعلماء بالحسد »(٣).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الرجل ليأتي بأيّ بادرة فيكفر (٤) و إنّ الحسد ليأكل الايمان كما تأكل النّار الحطب » (٥).

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « آفة الدّين الحسد و العجب و الفخر » (٦).

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله تعالى لموسى بن عمران : يا ابن عمران لاتحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي ، و لا تمدّنّ عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك ، فإنّ الحاسد ساخط لنعمي ، صادّ لقسمي الّذي قسمت بين عبادي و من يك كذلك فلست منه وليس منّي »(٧).

و عنه عليه السلام قال : « اتّقوا الله و لا يحسد بعضكم بعضاً إنّ عيسى ابن مريم عليهما السلام كان من شرايعه السيح في البلاد ، فخرج في بعض سيحه و معه رجلٌ من أصحابه

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن عدي في الكامل والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب . (الجامع الصغير)

(٢) أخرج الطبراني في الاوسط من حديث ابن عباس « ان لاهل النعم حساداً فاحذروهم » . (المغني)

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين (المغني) .

(٤) البادرة : ما يبدر من حدتك في الغضب من قول أو فعل ، وفي النهاية : الكلام الذي يسبق الانسان في الغضب .

(٥) الى (٧) الكافي باب الحسد ج ٢ ص ٣٠٦ و٣٠٧.

قصيرٌ وكان كثير اللّزوم لعيسى ، فلمّا انتهى عيسى عليه السلام إلى البحر قال : بسم الله بصحّة يقين منه فمشي على ظهر الماء فقال الرّجل القصير حين نظر إلى عيسى عليه السلام جازه : بسم الله بصحّة يقين منه ، فمشى على الماء ولحق بعيسى ، فدخله العجب بنفسه فقال هذا عيسى روح الله يمشي على الماء و أنا أمشي على الماء فما فضله عليّ قال : فرمس في الماء (*) ، فاستغاث بعيسى فتناوله مِن الماء فأخرجه ، ثمّ قال له : ما قلت يا قصير ؟ قال : قلت : هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي فدخلني من ذلك عجبٌ فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الّذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت ، فتب إلى الله عزّ وجلّ ممّا قلت ، قال : فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته الّتي وضعه الله فيها فاتّقوا ولا يحسدنّ بعضكم بعضاً » [1].

وعنه عليه السلام قال : «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد ، والمنافق يحسد ولا يغبط»[2].

وفي مصباح الشريعة [3] عنه عليه السلام قال : « الحاسد يضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود كإبليس أورث بحسده لنفسه اللّعنة ولآدم الاجتباء و الهدى والرّفع إلى محلّ حقائق العهد و الاصطفاء ، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً فإنّ ميزان الحاسد أبداً خفيفٌ بثقل ميزان المحسود ، و الرّزق مقسوم فما ذا ينفع الحسد الحاسد ؟ و ما ذا يضرّ المحسود الحسد ؟ و الحسد أصله من عمى القلب وجحود فضل الله وهما جناحان للكفر ، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد و هلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً ، ولا توبة للحاسد لأنّه مصرٌّ عليه ، معتقد به ، مطبوع فيه ، يبدو بلا معارض به ولا سبب ، و الطبع لا يتغيّر عن الأصل وإن عولج » .

قال أبوحامد : الآثار : قال بعض السلف : إنّ أوّل خطيئة كانت هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام إذا اُمر أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية .

و قال بكر بن عبد الله المزني : كان رجل يغشي بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه و المسيء سيكفيكه مساويه ، فحسده رجلٌ

(*) «فرمس» على صيغة المجهول أى غمس من رمست الميت اذا دفنته فى التراب .

(١) و (٢) الكافى باب الحسد ج ٢ ص ٣٠٦ و ٣٠٧.

(٣) الباب الحادى والخمسون.

على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال : إنّ هذا الّذي يقوم بحذائك و يقول مايقول يزعم أنّ الملك أبخر (١)، فقال له الملك : فكيف يصحّ ذلك عندي ؟ قال : تدعو به غداً إليك فإذا دنى منك وضع يده على أنفه أن لا يشمّ ريح البخر فقال له : انصرف حتّى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرّجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرّجل من عنده وقام بحذاء الملك فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيكه مساويه ، فقال له الملك : ادن منّي فدنى منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشمّ الملك منه ريح الثوم ، فقال الملك في نفسه ما أدري فلاناً إلّا صدق ، قال : وكان الملك لايكتب بخطّه إلّاجايزة أو صلة فكتب له كتاباً بخطّه إلى عاملٍ من عمّاله إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه و اسلخه واحش جلده تبناً و ابعث به إليّ ، فأخذ الكتاب و خرج فلقيه الرّجل الّذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ فقال خطّ الملك أمر لي بصلة ، فقال : هبه لي ، فقال : هولك ، فأخذه و مضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال : إنّ الكتاب ليس هولي ، فالله الله في أمري حتّى تراجع إلى الملك قال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً و بعث به ، ثمّ عاد الرّجل إلى الملك كعادته و قال مثل قوله فتعجّب الملك وقال : مافعل الكتاب فقال : لقيني فلان فاستوهبه منّي فوهبته له فقال الملك : إنّه ذكر لي أنّك تزعم أنّي أبخر ؟ قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على أنفك ؟ قال : كان أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمّ ، قال: صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفاك المسيء مساويه .

و قال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدّنيا لأنّه إن كان من أهل الجنّة فكيف أحسده على أمر الدّنيا و هي حقيرة في الجنّة ، و إن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدّنيا وهو يصير إلى النار . وسئل بعضهم هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بني يعقوب نعم ولكن غمّه في صدرك و إنّه لا يضرّك ما لم تعدّ به يداً و لا لساناً . و قال أبو الدّرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلّا قلّ فرحه

---

(١) بخر يبخر ـ من باب علم ـ الفم : انتن ريحه فهو أبخر .

و قلّ حسده . وقيل : كلّ الناس أقدر على رضاه إلّا حاسد نعمة فإنّه لا يرضيه إلّا زوالها و لذلك قيل :

كلّ العداوة قد يرجى مودّتها ✿ إلّا عداوة من عاداك من حسد

و قد قال بعض الحكماء : الحسد جرح لايبرأ وحسب الحسود ما يلقى . وقال أعرابي : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد ، إنّه يرى النعمة عليك نقمة عليه ، و قال بعضهم : الحاسد لاينال من المجالس إلّا مذمّة و ذلّا ، ولا ينال من الملائكة إلّا لعنة و بغضاً ، ولا ينال من الخلق إلّا جزعاً و غمّاً و لا ينال عند النزع إلّا شدّة و هولاً ، ولا ينال عند الموقف إلّا فضيحة ونكالاً .

✿(بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه)✿

إعلم أنّه لاحسد إلّا على نعمة فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان :

إحداهما أن تكره تلك النعمة و تحبّ زوالها و هذه الحالة تسمّى حسداً فالحسد حدّه كراهة النعمة وحبّ زوالها من المنعم عليه .

الحالة الثانية أن لا تحبّ زوالها ولا تكره وجودها و دوامها ولكنّك تشتهي لنفسك مثلها ، و هذه تسمّى غبطة وقد تخصّ باسم المنافسة .

و قد تسمّى المنافسة حسداً و الحسد منافسة ويوضع أحد اللّفظين بدل الآخر ولاحجر في الأسامي بعد فهم المعاني ، و قد قال ﷺ : « إنّ المؤمن يغبط والمنافق يحسد »(١) فأمّا الأوّل فهو حرام لكلّ حال إلّا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين و إيذاء الخلق ، فلا يضرّك كراهتك لها ومحبّتك لزوالها فإنّك لا تحبّ زوالها من حيث أنّها نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فساده لم تغمّك بنعمته ، ويدلّ على تحريم الحسد الأخبار الّتي نقلناها ، و إنّ هذه الكراهة سخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة وأيّ معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك فيها مضرّة و إلى هذا أشار القرآن بقوله : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم و إن

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٣٠٧ تحت رقم ٧ وقد تقدم .

تصبكم سيّئة يفرحوا بها » (١) و هذا الفرح شماتة والحسد و الشماتة يتلازمان ، و قال تعالى : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم » (٢) فأخبر أنّ حبّهم زوال نعمة الإيمان حسدٌ ، وقال : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً »(٣) و ذكر الله حسد إخوة يوسف عبّر عمّا في قلوبهم فقال : « إذ قالوا ليوسف و أخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين ۞ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم » (٤) فلمّا كرهوا حبّ أبيه له ساءهم ذلك و أحبّوا زوالها عنه فغيّبوه عنه ، و قال تعالى : « ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا و يؤثرون على أنفسهم » (٥) أي لا يضيق به صدورهم و لا يغتمّون فأثنى عليهم بعدم الحسد ، وقال تعالى في معرض الإنكار : « أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله » (٦) و قال : « كان الناس اُمّة واحدة ـ إلى قوله ـ إلّا الّذين اُوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم » (٧) قيل في التفسير : حسداً ، و قال تعالى : « و ما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (٨) فأنزل الله العلم ليجمعهم و يؤلّف بينهم على طاعته و أمرهم أن يتألّفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كلّ واحد منهم أن ينفرّد بالرّئاسة و قبول القول فردّ بعضهم على بعض .

قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبيّ ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبيّ الّذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الّذي تنزله إلّا ما نصرتنا ، فكانوا ينصرون فلمّا جاء النبيّ ﷺ من ولد إسماعيل عرفوه و كفروا به بعد معرفتهم إيّاه فقال تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به ـ إلى قوله ـ أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أي حسداً » (٩).

(١) آل عمران : ١٢٠ .
(٢) البقرة : ١٠٩.
(٣) النساء : ٨٩ .
(٤) يوسف : ٨ و ٩ .
(٥) الحشر : ٩ .
(٦) النساء : ٥٤ .
(٧) البقرة : ٢١٢ .
(٨) الشورى : ١٤ .
(٩) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء و ضحاك عن ابن عباس كما في الدرالمنثور ج ١ ص ٨٨ والاية في سورة البقرة : ٨٩ .

و قالت صفيّة بنت حيي للنبيّ ﷺ : جاء أبي وعمّي من عندك يوماً فقال أبي لعمّي : ما تقول فيه ؟ قال : أقول : إنّه النبيّ الّذي بشّر به موسى ، قال: فما ذا ترى ؟ قال : أرى معاداته أيّام الحياة » [(١)] فهذا حكم الحسد في التحريم .

و أمّا المنافسة فليست بحرام بل هي إمّا واجبة و إمّا مندوبة أو مباحة و قد يستعمل لفظ المنافسة بدل الحسد والحسد بدل المنافسة ، قال قثم بن العبّاس لمّا أراد هو والفضل أن يأتيا النبيّ ﷺ فيسئلانه أن يؤمّرهما على الصدقة قالا لعلي عليه السلام حين قال لهما : لاتذهبا إليه فإنّه لايؤمّر كما عليها فقالا له : ما هذا منك إلّا نفاسة و الله لقد زوّجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك [(٢)]. أي هذا منك حسدٌ و ما حسدناك على تزويجك فاطمة ، فالمنافسة مشتقّة في اللّغة من النفاسة و الّذي يدلّ على إباحة المنافسة قوله تعالى : « و في ذلك فليتنافس المتنافسون »[(٣)] ، و قال : « سابقوا إلى مغفرة من ربّكم » [(٤)] و إنّما المسابقة عند خوف الفوت و هو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كلّ واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ، فكيف وقد صرّح رسول الله ﷺ بذلك فقال : « لا حسد إلّا في اثنين رجلٌ آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ ، و رجلٌ آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلّمه الناس»[(٥)] ثمّ فسّر ذلك في حديث أبي كبشة الأنصاريّ فقال : « مثل هذه الأمّة مثل أربعة رجال : رجل آتاه الله مالاً و علماً فهو يعمل بعلمه في ماله ، و رجلٌ آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فيقول : ربّ ! لو أنّ لي مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء [وهذا منه حبٌّ لأن يكون له مثل ما كان له من غير حبّ زوال النعمة عنه، قال : [(٦)]] و رجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفق في معاصي

---

(١) أورده ابن اسحاق فى السيرة قال : حدثنى أبوبكر بن محمد بن عمر بن حزم قال حديث عن صفية فذكر نحوه و هو منقطع . (المغنى)

(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١١٨ وفيه ربيعة بن حارث مكان قثم .

(٣) المطففين : ٢٦ . (٤) الحديد : ٢١ .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٠٨ من حديث عبدالله بن مسعود .

(٦) ما بين القوسين من المؤلف (الغزالى) ذكرها توضيحاً .

الله ، و رجلٌ لم يؤته الله مالاً فيقول : لو أنَّ لي مال فلان كنت أعمل بمثل عمله ، فهما في الوزر سواء » (١) فذمّه رسول الله ﷺ من جهة تمنّيه للمعصية لا من جهة حبّه أن يكون له من النعمة مثل ماله ، فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة و يشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحبَّ زوالها عنه ولم يكره دوامها له ، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينيّة واجبة كالإيمان و الصلاة و الزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحبَّ أن يكون مثله لأنّه إن لم يحبَّ ذلك فيكون راضياً بالمعصية و ذلك حرامٌ ، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم و الصدقات فالمنافسة فيها مندوبٌ إليها ، و إن كانت نعمة يتنعّم فيها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحٌ و كلٌّ ذلك يرجع إلى إرادته مساواته واللّحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران : أحدهما راحة المنعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره و تخلّفه عنه و هو يكره أحد الوجهين و هو تخلّف نفسه ويحبُّ مساواته له .

و لا حرج على من يكره تخلّف نفسه و نقصانها في المباحات نعم ذلك ينقص من الفضل ويناقض الزّهد و التوكّل و الرّضا ، و يحجب عن المقامات الرّفيعة ولكنّه لا يوجب العصيان ، وههنا دقيقة غامضة وهو أنّه إذا أيس عن أن ينال مثل تلك النعمة و هو يكره تخلّفه و نقصانه فلا محالة يحبُّ زوال النقصان وإنّما يزول نقصانه إمّا بأن ينال مثلها أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا انسدَّ إحدى الطريقتين فيكاد القلب لا ينفكُّ عن شهوة للطريقة الاُخرى حتّى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشهى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلّفه و تقدّم غيره و هذا لا يكاد ينفكُّ القلب عنه و إن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه و ردَّ إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسداً مذموماً ، وإن كان يرتدعه التقوى عن إزالة ذلك فيعفى عمّا يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارهاً لذلك من نفسه بعقله و دينه و لعلّه المعنيُّ بقوله ﷺ : « ثلاثٌ لا ينفكُّ المؤمن عنهنَّ : الحسد و الظنّ و الطيرة - ثمَّ قال : - و له منهنَّ مخرج ، إذا حسدت

(١) أخرجه ابن ماجه فی باب النية تحت رقم ٤٢٢٨ .

فلا تبغ » [1] أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به و بعيد أن يكون الإنسان مريداللّحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ، ثمّ ينفكّ عن ميل إلى زوال النعمة إذ يجد لا محالة ترجيحاً له على دوامها فهذا الحدّ من المنافسة يتآخم الحسد بحرام فينبغي أن يحتاط فيه فإنّه موضع الخطر و ما من إنسان إلّا و هو يرى فوق نفسه من معارفه وأقاربه من يحبّ أن يساويه و يكاد ينجرّ ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قويّ الإيمان وزين التقوى ، و مهما كان محرّكه خوف التفاوت و ظهور نقصانه عن غيره يجرّه ذلك إلى الحسد المذموم و إلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه حتّى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة و ذلك لا رخصة فيه أصلاً ، بل هو حرامٌ سواء كان في مقاصد الدّين أو مقاصد الدّنيا و لكن يعفى عنه في ذلك مالم يعمل به إن شاء الله ، و تكون كراهته لذلك من نفسه كفّارة له ، فهذه حقيقة الحسد وأحكامه .

أمّا مراتبه فأربع : الأولى أن يحبّ زوال النعمة عنه وإن كانت لاتنتقل إليه ، و هذا غاية الخبث ، الثانية أن يحبّ زوال النعمة عنه [إليه] لرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة واسعة نالها غيره و هو يحبّ أن تكون له و مطلوبه تلك النعمة لازوالها عنه و مكروهه فقد النعمة لا تنعّم غيره بها ، الثالثة أن لا يشتهي عينها بل يشتهي لنفسه مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحبّ زوالها عنه كيلا يظهر التفاوت بينهما ، الرابعة أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم يحصل فلا يحبّ زوالها عنه و هذا الأخير هو المعفوّ عنه إن كان في الدّنيا و المندوب إليه إن كان في الدّين ، والثالثة فيها مذمومٌ و غير مذموم ، والثانية أخفّ من الثالثة ، و الأولى مذمومٌ محض ، و تسمية الثانية حسداً فيه تجوّز و توسّع ولكنّه مذمومٌ ، قال الله تعالى : « و لا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض » [2] فتمنّيه لمثل

(١) أخرجه الطبرانى و فيه اسماعيل بن قيس الانصارى وهو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٨ .

(٢) النساء : ٣٢ .

ذلك غير مذموم ، أمّا تمنّيه عن ذلك فمذموم .

✿(بيان أسباب الحسد و المنافسة)✿

أمّا المنافسة فسببها حبّ مافيه المنافسة فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حبّ الله تعالى وحبّ طاعته ، وإن كان دنيويّاً فسببه حبّ مباحات الدّنيا و التنعّم فيها ، و إنّما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جدّاً ولكن يحصر جملتها سبعة أسباب : العداوة و التعزّز و الكبر و التعجّب و الخوف من فوت المقاصد المحبوبة و حبّ الرئاسة وخبث النفس وبخلها فإنّه إنّما يكره النعمة عليه إمّا لأنّه عدوّه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختصّ بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنّه يحبّ زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبّه ، و إمّا أن يكون من حيث يعلم أنّه سيتكبّر بالنعمة عليه وهولا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزّة نفسه و هو المراد بالتعزّز ، و إمّا أن يكون في طبعه أن يتكبّر على المحسود و يمتنع ذلك عليه بنعمته و هو المراد بالتكبّر ، و إمّا أن يكون النعمة عظيمة و المنصب كبيراً فيتعجّب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجّب ، وإمّا أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصّل بها إلى مزاحمته في أغراضه ، و إمّا أن يكون يحبّ الرّئاسة الّتي تبتني على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها ، و إمّا أن لا يكون لسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس و شحّها بالخير لعباد الله ، ولا بدّ من شرح هذه الأسباب .

السبب الأوّل العداوة والبغضاء و هو أشدّ أسباب الحسد فإنّ من آذاه إنسان بسبب من الأسباب و خالفه في غرضه بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد و الحقد يقتضي التشفّي والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفّي منه بنفسه أحبّ أن يتشفّي منه بتغيّر الزّمان ، وربّما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله ، فمهما أصابت عدوّه بليّة فرح بذلك و ظنّها مكافاة من جهة الله له على بغضه ، و إنّما أصابه ذلك لأجله ، و مهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنّه ضدّ مراده و ربّما يظهر له أنّه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوّه الّذي آذاه بل

أنعم عليه ، بالجملة فالحسد يلزم البغض و العداوة و لا يفارقها و إنّما غاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه ، فأمّا أن يبغض إنساناً ثمّ يستوي عنده مسرّته و مساءته فهذا غير ممكن وهذا ما وصف الله الكفّار به أعني الحسد بالعداوة ، إذ قال تعالى : « و إذا لقوكم قالوا آمنّا و إذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليمٌ بذات الصدور ✿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم » [1] . و كذلك قال : « ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم » [2] و الحسد بسبب البغض ربّما يفضي إلى التنازع و التقاتل و استغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل وبالسعاية وهتك الستر و ما يجري مجراه .

السبب الثاني التعزّز و هو أن يثقل عليه أن يترفّع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبّر عليه و هو لا يطيق تكبّره ولا يسمح نفسه باحتمال صلفه [3] و تفاخره عليه فليس من غرضه أن يتكبّر بل غرضه أن يدفع كبره فإنّه قد رضي بمساواته مثلاً ولكن لايرضى بترفّعه عليه .

السبب الثالث الكبر وهوأن يكون في طبعه أن يتكبّر عليه و يستصغره و يستخدمه ويتوقّع منه الانقياد له والمتابعة فيأغراضه فإذانالنعمة خافأن لايحتمل تكبّره و يترفّع عن متابعته أو ربّما يتشوّف إلى مساواته أو إلى أن يترفّع عليه فيعود متكبّراً بعد أن كان متكبّراً عليه ، ومن التعزّز و التكبّر كان حسد أكثر الكفّار لرسول الله ﷺ إذ قالوا : كيف يتقدّم علينا غلامٌ يتيمٌ وكيف نطأطىء له رؤوسنا فقالوا : « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » [4] أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتّبعه إذاكان عظيماً ، وقال الله تعالى يصف قول قريش : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » [5] كالاستحقار لهم و الأنفة منهم .

---

(١) آل عمران : ١١٩ و ١٢٠ . (٢) آل عمران : ١١٨ .

(٣) صلف - بكسر اللام - يصلف : تمدح بما ليس فيه أو عنده و أدعى فوق ذلك تكبراً فهو صلف - ككتف - و لصاحبه أى تكلم له بما يكرهه .

(٤) الزخرف : ٣١ و راجع الدر المنثور ج ٦ ص ١٦ .

(٥) الانعام : ٥٣ .

السبب الرّابع التعجّب كما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية إذ قالوا : «ما أنتم إلّا بشر مثلنا » (١) و قالوا : « أنؤمن لبشرين مثلنا » (٢) ، وقالوا : « و لئن أطعتم بشراً مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون» (٣) ، فتعجّبوا من أن يفوز برتبة الرّسالة و الوحي و القرب من الله بشر مثلهم فحسدوهم وأحبّوا زوال النبوّة عنهم جزعاً أن يفضّل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبّر وطلب رئاسة و تقدّم عداوة و سبب آخر من ساير الأسباب و قالوا متعجّبين : « أبعث الله بشراً رسولاً » (٤) و قالوا : « لولا أُنزل علينا الملائكة » (٥) فقال تعالى : « أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربّكم على رجل منكم » (٦).

السبب الخامس الخوف من فوت المقاصد وذلك يختصّ بمتزاحمين على مقصود واحد فإنّ كلّ واحد منهما يحسد صاحبه في كلّ نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده و من هذا الجنس تحاسد الضرّات في التزاحم على مقاصد الزّوجيّة ، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصّل به إلى مقاصد الكرامة و المال ، و كذلك تحاسد التلميذين لاستاذ واحد في نيل المنزلة في قلب الأستاذ و تحاسد ندماء الملك و خواصّه في نيل المنزلة من قلبه للتوصّل به إلى الجاه و المال ، و كذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم ، و كذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقّهين المحصورين إذ يطلب كلّ واحد منزلة في قلوبهم للتوصّل إلى أغراض لهم .

السبب السادس حبّ الرّئاسة و طلب الجاه نفسه من غير توصّل به إلى مقصود ، و ذلك كالرّجل الّذي يريد أن يكون عديم النظير في فنّ من الفنون إذا غلب عليه حبّ الثناء و استفزّه الفرح بما يمدح به من أنّه واحد الدّهر و فريد العصر في فنّه و أنّه لا نظير له ، فإنّه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك

---

(١) يس : ١٥ .
(٢) المؤمنون : ٤٧ .
(٣) المؤمنون : ٣٤ .
(٤) الاسراء : ٩٤ .
(٥) الفرقان : ٢١ .
(٦) الاعراف : ٦٩ .

و أحبّ موته أو زوال النعمة عنه الّتي بها يشاركه في المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك ممّا يتفرّد هو به و يفرح بسبب تفرّده وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزّز ولا تكبّر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرّئاسة بدعوى الانفراد و هذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصّل إلى مقاصد سوى الرّئاسة، و قد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و لا يؤمنون به خيفة من أن تبطل به رئاستهم و استتباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع خبث النفس و شحّها بالخير لعباد الله فإنّك تجد من لا يشتغل برئاسة و تكبّر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعم به عليه شقّ ذلك عليه، و إذا وصف له اضطراب أمور النّاس و إدبارهم و فوات مقاصدهم و تنغّص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحبّ الإدبار لغيره، و يبخل بنعمة الله على عباده كأنّهم يأخذون ذلك من ملكه و خزائنه، و يقال: البخيل من يبخل بمال نفسه، و الشحيح هو الّذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الّذين ليس بينهم و بينه عداوة ولا رابطة و هذا ليس له سبب ظاهر إلّا خبث في النفس و رذالة في الطبع، عليه وقعت الجبلّة، و معالجته شديدة لأنّ الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة ويتصوّر زوالها فيطمع في إزالتها و هذا خبث في الجبلّة لا عن سبب عارض فتعسّر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته.

فهذه أسباب الحسد، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم الحسد لذلك ويقوي قوّة لا يقدر معها على الإخفاء و المجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب و قلّما يتجرّد سبب واحد منها.

(بيان السبب في كثرة الحسد)
(بين الامثال و الاقران و الاخوة و بني العم والاقارب)
(و تأكده وقلته وضعفه في غيرهم)

إعلم أنّ الحسد إنّما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب الّتي ذكرناها و إنّما

يقوى بين قوم تجتمع لهم جملة من هذه الأسباب وتتظاهر فيهم إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنّه قد يمتنع عن قبول التكبّر ولأنّه يتكبّر ولأنّه عدوّ ولغير ذلك من الأسباب و هذه الأسباب إنّما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات و يتواردون على الأغراض فإذا خالف واحد صاحبه في غرض من أغراضه نفر طبعه وأبغضه و ثبت الحقد فيه فعند ذلك يريد أن يستحقره و يتكبّر عليه و يكافيه على مخالفته لغرضه ويكره تمكّنه من النعمة الّتي توصله إلى أغراضه و تترادف جملة هذه الأسباب إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة و كذلك في محلّتين ، نعم إذا تجاوروا في مسكن أو سوق أو مسجد أو مدرسة تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض و منه يثور بقيّة أسباب الحسد فلذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، والإسكاف يحسد الإسكاف و لا يحسد البزّاز إلّا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ، و يحسد الرّجل أخاه وابن عمّه أكثر ممّا يحسد الأجانب ، والمرأة تحسد ضرّتها وسريّة زوجها أكثر ممّا يحسد أُمّ الزّوج و ابنته لأنّ مقصد البزّاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد إذ مقصد البزّاز الثروة ولا يحصّلها إلّا بكثرة الزبون[1] وإنّما ينازعه فيه بزّاز آخر إذ حريف البزّاز لا يطلبه الإسكاف بل البزّاز ، ثمّ مزاحمة البزّاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق فلاجرم يكون حسده للجار أكثر ، و كذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد الشجاع العالم لأنّ مقصده أن يذكر بالشجاعة و يشتهر بها و يتفرّد بهذه الخصلة ، و لا يزاحمه العالم على هذا الغرض ، و كذلك يحسد العالم العالم و لا يحسد الشجاع ، ثمّ حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه و الطبيب لأنّ التزاحم بينهما على مقصود واحد أخصّ .

فأصل هذه المحاسدات العداوة و أصل العداوة التزاحم على غرض واحد

(١) الزبون : الحريف ، و قال الجوهري : اما الزبون للغبي والحريف فليس من كلام أهل البادية .

فالغرض الواحد لا يجمع بين متباعدين بل متناسبين فلذلك يكثر الحسد بينهم ، نعم من اشتدّ حرصه و أحبّ الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنّه يحسد كلّ من هو في العالم - و إن بعد - ممّن يساهمه في الخصلة الّتي تتفاخر بها و منشأ جميع ذلك حبّ الدّنيا فإنّ الدّنيا هي الّتي تضيق على المتزاحمين ، أمّا الآخرة فلا ضيق فيها ، و إنّما مثال الآخرة نعمة العلم ، فلا جرم من يحبّ معرفة الله تعالى و معرفة صفاته و ملائكته و أنبيائه و ملكوت أرضه و سمائه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً لأنّ المعرفة لا تضيق عن العارفين بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم و يفرح بمعرفته و يلتذّ به و لا تنقص لذّة واحد بسبب غيره بل تحصل بكثرة العارفين زيادة الأُنس و ثمرة الإفادة والاستفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدّين محاسدة لأنّ مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحرٌ واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله سبحانه ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى لأنّ أجلّ ما عند الله سبحانه من النعيم لذّة لقائه و ليس فيها ممانعة و لا مزاحمة ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأُنس بكثرتهم .

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال و الجاه تحاسدوا لأنّ المال هو أعيان و أجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد آخرين و معنى الجاه ملك القلوب ، و مهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا - محالة فيكون ذلك سبباً للمحاسدة ، و إذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلي قلب غيره به و أن يفرح به ، فالفرق بين العلم و المال أنّ المال لا يحلّ في يد مالم يرتحل عن اليد الأُخرى و العلم في قلب العالم مستقرّ و يحلّ في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه ، وإنّ المال أعيان وأجسام و لها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مالٌ ليتملّكه غيره و العلم لا نهاية له ولا يتصوّر استيعابه ، فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته و ملكوت أرضه و سمائه صار ذلك عنده ألذّ من كلّ نعيم و لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأنّ غيره أيضاً لو عرف

مثل معرفته لم ينقص من لذّته بل زادت لذّته بمؤانسته فتكون لذّة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدّوام أعظم من لذّة من ينظر إلى أشجار الجنّة و بساتينها بالعين الظاهرة ، فإنّ نعيم العارف و جنّته معرفته الّتي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبداً يجني ثمارها ، فهو بروحه و قلبه متغذّ بفاكهة علمه ، و هي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطوفها دانية ، فهو و إن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتاح [(١)] في جنّة عالية و رياض زاهرة ، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم ربّ العالمين : « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين » [(٢)] فهذا حالهم وهم بعد في الدّنيا فماذا يظنّ بهم عند انكشاف الغطاء و مشاهدة المحبوب في العقبى فإذن لا يتصوّر أن يكون في الجنّة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنّة في الدّنيا محاسدة لأنّ الجنّة لا مضايقة و لا مزاحمة فيها ولا تنال إلّا بمعرفة الله الّتي لا مزاحمة فيها في الدّنيا أيضاً ، فأهل الجنّة بالضرورة برآء من الحسد في الدّنيا و الآخرة جميعاً ، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة العلّيّين إلى مضيق السجّين ، ولذلك وسم به الشيطان اللّعين وذكر من صفاته أنّه حسد آدم على ما خصّ به من الاجتباء ولمّا دعي إلى السجود استكبر و أبي و تمرّد وعصى ، فقد عرفت أنّه لا حسد إلّا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكلّ ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين الّتي هي جزء يسير من جملة الأرض ، و كلّ الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ولكن متّسعة الأقطار وافية لجميع الأبصار ، فلم يكن فيها تزاحم و لا تحاسد أصلاً ، فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ولذّة لا مكدّر لها ، ولا يوجد ذلك في الدّنيا إلّا في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته و أفعاله وعجائب ملكوت السماوات والأرض ، ولا ينال ذلك في الآخرة إلّا بهذه المعرفة أيضاً ، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله و لم تجد لذّتها ففتر عنه رأيك و ضعف فيه رغبتك

(١) ارتاح : سر و نشط . ـ ارتاح الله له برحمته انقذه من بلية .

(٢) الحجر : ٤٧ .

فأنت فيه معذور ، فالمخنّث والعنّين لا يشتاق إلى لذّة الوقاع ، و الصبيّ لا يشتاق إلى لذّة الملك فإنّ هذه لذّات يختصّ بإدراكها الرّجال دون الصبيان و المخنّثين فكذلك لذّة المعرفة أيضاً يختصّ بإدراكها الرجال «رجال لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله» ولا يشتاق إلى هذه اللّذة غيرهم لأنّ الشوق بعد الذّوق و من لم يذق لم يعرف و من لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك و من لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين «و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين».

✿(بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب)✿

إعلم أنّ الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب و لاتداوى أمراض القلوب إلّا بالعلم و العمل.

والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أنّ الحسد ضرر عليك في الدّنيا و الدّين و أنّه لا ضرر فيه على المحسود في الدّين و الدّنيا بل ينتفع بها في الدّنيا و الدّين ، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك و صديق عدوّك فارقت الحسد لا محالة ، أمّا كونه ضرراً عليك في الدّين فهو أنّك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى و كرهت نعمته الّتي قسّمها بين عباده وعدله الّذي أقامه في ملكه بخفيّ حكمته و استنكرت ذلك و استبشعته [1] و هذه جناية على حدقة التوحيد و قذى في عين الإيمان وناهيك بها جناية على الدّين ، و قد انضاف إليه أنّك غششت رجلاً من المؤمنين و تركت نصيحته و فارقت أولياء الله و أنبياءه في حبّهم الخير لعباد الله و شاركت إبليس و سائر الكفّار في حبّهم للمؤمنين البلايا و زوال النعم ، و هذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النّار الحطب و تمحوها كما يمحو اللّيل النهّار.

و أمّا كونه ضرراً في الدّنيا عليك : فهو أنّك تتألّم بحسدك ، و تتعذّب به ،

---

(١) استبشعه أى استقذره والبشع ضد الحسن.

ولا تزال في كدّ و غمّ إذ أعداؤك لا يخلّيهم الله عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذّب بكلّ نعمة تراها و تتألّم بكلّ بليّة تنصرف عنهم فتبقى مغموماً محزوناً متشعّب القلب ضيق النفس كما تشتهيه لأعدائك و كما يشتهي أعداؤك لك فقد كنت تريد المحنة لعدوّك فتنجّزت في الحال محنتك و غمّك نقداً ، ولا تزول النعمة على المحسود بحسدك و لولم تكن تؤمن بالبعث و الحساب لكان مقتضي الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب و مساءته مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل أن يتعرّض لسخط الله من غير نفع يناله مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة ، و أمّا إنّه لا ضرر على المحسود في دينه و دنياه فواضح لأنّ النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدّره الله من إقبال و نعمة فلا بدّ أن يدوم إلى أجل قدّره الله فلا حيلة في دفعه بل « كلّ شيء عنده بمقدار » و « لكلّ أجل كتاب » ولذلك شكى نبيّ من الأنبياء من إمرة ظالمة مستولية على الخلق بالأذى فأوحى الله تعالى إليه أن فرّ من قدّامها حتّى تنقضي أيّامها ، أي ماقدّرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتّى تنقضي المدّة الّتي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها ، و مهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضررٌ في الدّنيا و لا يكون عليه إثم في الآخرة .

ولعلّك تقول : ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي ، و هذا غاية الجهل فإنّه بلاء تشتهيه أوّلاً لنفسك فإنّك أيضاً لا تخلو عن عدوّ يحسدك ، فلو كانت النعمة يزول بالحسد لم تبق لله عليك نعمة ولا على الخلق ولا نعمة الإيمان أيضاً لأنّ الكفّار يحسدون المؤمنين على الإيمان قال تعالى : « ودّت طائفةٌ من أهل الكتاب لو يضلّونكم و ما يضلّون إلّا أنفسهم و ما يشعرون » [1] إذ ما يريده الحسود لا يكون ، نعم هو يضلّ بإرادته الضلال لغيره فإنّ إرادة الكفر كفر ، فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنّه يريد أن يسلب نعمة

(١) آل عمران : ٦٩ .

الإيمان بحسد الكفّار وكذا سائر النعم ، وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل و الغباوة ، فإنّ كلّ واحد من حمقاء الحسّاد أيضاً يشتهي أن يخصّ بهذه الخاصيّة و لست بأولى من غيرك فنعمة الله عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد ممّا يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها، وأمّا إنّ المحسود ينتفع به في الدّين و الدّنيا فواضح أمّا منفعته في الدّين فهو أنّه مظلوم من جهتك لا سيّما إذا أخرجك الحسد إلى القول أو الفعل بالغيبة و القدح فيه و هتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها إليه أعني أنّك بذلك تهدي إليه حسناتك حتّى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة كما حرمت في الدّنيا عن النعمة وكأنّك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل ، نعم كان لله عليه نعمة إذ وفّقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت له نعمة إلى نعمة وأضفت لنفسك شقاوة إلى شقاوتك .
و أمّا منفعته في الدّنيا فهو أنّ أهمّ أغراض الخلق مساءة الأعداء و غمّهم وشقاوتهم وكونهم معذّبين مغمومين ، ولا عذاب أعظم ممّا أنت فيه من ألم الحسد و غاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة و أن تكون في غمّ و حسرة بسببهم ، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم و لذلك لا يشتهي عدوّك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد والغمّ لتنظر إلى نعمة الله عليه و تنقطع قلبك حسداً ولذلك قيل :

لا مات أعداؤك بل خلّدوا ✿ حتّى يروا فيك الّذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة ✿ فإنّما الكامل من يحسد
ولا خلاك الدّهر من حاسد ✿ فإنّما الفاضل من يحسد

ففرح عدوّك بغمّك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، و لو علم خلاصك من ألم الحسد و عذابه لكان ذلك أعظم مصيبة و بليّة عنده فما أنت ممّا تلازمه من غمّ الحسد إلّا كما يشتهيه عدوّك ، فإذا تأمّلت هذا عرفت أنّك عدوّ نفسك و صديق عدوّك إذ تعاطيت ما تضرّرت به في الدّنيا والآخرة ، و انتفع به عدوّك في الدّنيا والآخرة ، وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق ، شقيّاً في الحال والمآل و نعمة المحسود دائمة شئت أو أبيت ، ثمّ لم تقتصر على تحصيل مراد عدوّك حتّى وصلت

إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الّذي هوأعدى أعدائك لأنّه لمّا رآك محروماً من نعمة العلم و الورع و الجاه و المال الّذي اختصّ به عدوّك عنك خاف أن تحبّ ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبّة، لأنّ من أحبّ الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير و من فاته اللّحاق بدرجة الأكابر في الدّين لم يفته ثواب الحبّ لهم مهما أحبّ ذلك فخاف إبليس أن تحبّ ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحبّ فبغّضه إليك حتّى لا تلحقه بحبّك كما لم تلحقه بعملك، و قد قال أعرابيّ للنبيّ ﷺ: «الرّجل يحبّ القوم و لما يلحق بهم؟ فقال النبيّ ﷺ: هو مع من أحبّ»(١).

وقام أعرابيّ و رسول الله ﷺ يخطب فقال: متى الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة و لا صيام إلاّ أنّي اُحبّ الله و رسوله، فقال النبيّ ﷺ: أنت مع من أحببت»(٢) قال الرّاوي: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ. إشارة إلى أنّ أكثر ثقتهم كان بحبّ الله ورسوله(٣).

وقال أبو موسى قلت: يارسول الله الرّجل يحبّ المصلّين و لا يصلّي و يحبّ الصوّام ولا يصوم - حتّى عدّ أشياء - فقال النبيّ ﷺ: «هو مع من أحبّ»(٤).

و قيل: إن لم تكن عالماً ولا متعلّماً فكن محبّاً و إلاّ فلا تبغضهم.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوّت عليك ثواب الحبّ ثمّ لم يقنع به حتّى بغّضه إليك وحملك على الكراهة حتّى أثمت، فكيف لا؟ وعساك أن تحاسد رجلاً من أهل العلم و تحبّ أن يخطىء في دين الله و ينكشف خطاؤه ليفتضح، وتحبّ أن يخرس لسانه حتّى لا يتكلّم أو يمرض حتّى لا يعلم ولا يتعلّم، و أيّ إثم يزيد على ذلك، فليتك إذا فاتك اللّحاق به و اغتممت بسببه سلمت من الإثم

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٤٣ من حديث ابن مسعود.
(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٤٩ من حديث أنس، ومسلم ج ٨ ص ٤٢.
(٣) في الاحياء «أن أكبر بغيتهم كانت حب الله و رسوله».
(٤) متفق عليه كما مر.

وعذاب الآخرة و قد جاء في الحديث «أهل الجنّة ثلاثة : المحسن والمحبّ له والكاف عنه » [١] أي من يكفّ عنه الأذى و الحسد و البغض والكراهة .

فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتّى لا تدور بها البتّة فقد نفذ فيك حسد إبليس و ما نفذ حسدك في عدوّك بل في نفسك ، بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيّها الحاسد في صورة من يرمي حجراً إلى عدوّه ليصيب به مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه ثانياً فيعود فيرميها أشدّ من الأوّل فيرجع على عينه الاُخرى فيعميها فيزداد غيظه فيعود ثالثاً و يرميها على رأسه فشجّه و عدوّه سالم في كلّ حال و هو إليه راجع مرّة بعد اُخرى و أعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه ، وهذه حال الحسود وسخريّة الشيطان منه ، لا بل حالك في الحسد أقبح من هذا لأنّ الحجر العائد إلى راميه لم تفوت إلّا العينين ولو بقيت لفاتت بالموت لامحالة ، والحسد يعود بالإثم و الإثم لا يفوت بالموت ولعلّه يسوقه إلى غضب الله و إلى النار ، فلأن تذهب عينه في الدّنيا خيرٌ من أن يبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النّار .

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها منه ، ثمّ أزالها من الحاسد إذ السلامة من الإثم نعمة و السلامة من الغمّ والكمد نعمة ، وقد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى : « ولا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله »[٢] و ربّما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوّه ، و قلّما يشمت شامت بمساءة إلّا و يبتلى بمثلها ، حتّى قالت عائشة : ما تمنّيت لعثمان شيئاً إلّا نزل بي حتّى لو تمنّيت له القتل لقتلت ، فهذا إثم الحسد نفسه فكيف بما يجرّ إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحقّ وإطلاق اللّسان و اليد بالفواحش في التشفّي من الأعداء وهو الدّاء الّذي فيه هلك الاُمم السالفة .

فهذه هي الأدوية العلميّة فمهما تفكّر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر

(١) قال العراقي : ما عثرت على أصل له .
(٢) فاطر : ٤٣

انطفى من قلبه نار الحسد و علم أنّه مهلك نفسه و مفرح عدوّه و مسخط ربّه و منغّص عيشه .

و **أما العمل** النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكلّ ما يتقاضاه الحسد من قول و فعل فينبغي أن يكلّف نفسه نقيضه ، فإن بعثه الحسد على القدح فيه كلّف لسانه المدح له و الثناء عليه ، وإن حمله على التكبّر عليه ألزم نفسه التواضع له و الاعتذار إليه ، وإن بعثه على كفّ الإنعام عنه ألزم نفسه الزّيادة في الإنعام ، فمهما فعل ذلك عن تكلّف و عرفه المحسود طاب قلبه و أحبّه و مهما ظهر حبّه عاد الحاسد وأحبّه وتولّد بينهما الموافقة الّتي يقطع مادّة الحسد ، لأنّ التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستميل قلب المنعم عليه و يسترقّه و يستعطفه و يحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ثمّ ذلك الإحسان يعود إلى الأوّل فيطيب قلبه فيصير ما تكلّفه أوّلاً طبعاً آخراً ، ولا يصدّنّه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت و أثنيت عليه حمله العدوّ على العجز أو على النفاق و الخوف وإنّ ذلك مذلّة ومهانة ، فإنّ ذلك من خدع الشيطان و مكائده ، بل المجاملة تكلّفاً كان أو طبعاً تكسّر سورة العداوة من الجانبين وتقلّ من عزّتها (١) ويعود القلب إلى التآلف و التحابّ ، وبه يستريح القلب من ألم الحسد و غمّ التباغض ، فهذه هي أدوية الحسد و هي نافعة جدّاً إلّا أنّها مرّة جدّا ، لكن النفع في الدّواء المرّ ، فمن لم يصبر على مرارة الدّواء لم ينل حلاوة الشفاء ، و إنّما يهون مرارة الدّواء أعني التواضع للأعداء و التقرّب إليهم بالمدح والثناء بقوّة العلم بالمعاني الّتي ذكرناها و قوّة الرّغبة في ثواب الرّضا بقضاء الله و حبّ ما أحبّه الله ، وعزّة النفس و ترفّعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد ما يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد و فوات المراد ذلّ وخيبة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذّلّ إلّا بأحد أمرين إمّا أن يكون ما يريد أو بأن يريد ما يكون ، و الأوّل ليس إليك ولا مدخل للتكلّف و المجاهدة فيه . و أمّا الثاني فللمجاهدة فيه مدخل و تحصيله بالرّياضة ممكن

---

(١) في الاحياء « تقل مرغوبها » .

فيجب تحصيله على كلّ عاقل، هذا هو الدّواء الكلّيّ.

فأمّا الدّواء المفصّل فهو بقمع أسباب الحسد من الكبر وعزّة النفس وشدّة الحرص على مالا يعني، و سيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها فإنّها موادّ هذا المرض ولا ينقمع المرض إلّا بقمع المادّة فإن لم يقمع المادّة لم يحصل ممّا ذكرناه إلّا تسكين و تطفية و لا يزال يعود مرّة بعد اُخرى و يطول الجهد في تسكينه مع بقاء موادّه، فإنّه مادام محبّاً للجاه فلابدّ أن يحسد من استأثر بالجاه و المنزلة في قلوب الناس دونه ويغمّه ذلك لامحالة وإنّما غايته أن يهون الغمّ على نفسه ولايظهره بلسانه ويده، فأمّا الخلوّ عنه رأساً فلايمكنه.

✿(بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب)✿

إعلم أنّ المؤذي ممقوت بالطبع و من آذاك لايمكنك أن لا تبغضه غالباً و إذا تيسّرت له نعمة فلا يمكنك أن لاتكرهها له حتّى يستوي عندك حسن حال عدوّك و سوء حاله، بل لاتزال تدرك في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك في الحسد له ولكن إن قوي ذلك فيك حتّى يبعثك على إظهار الحسد بقول أوفعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختياريّة فأنت إذن حسود عاص بحسدك و إن كففت ظاهرك بالكلّيّة إلاّ أنّك بباطنك تحبّ زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسودٌ عاص لأنّ الحسد صفة القلب لاصفةالفعل، قال الله تعالى: «ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا» (١)، وقال: «ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء» (٢)، وقال: «إن تمسسكم حسنة تسؤهم»(٣)، أمّا الفعل فهو غيبة و كذب و هو عمل صادر عن الحسد و ليس هو عين الحسد، بل محلّ الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليست مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك و بين الله، و إنّما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح، و أمّا إذا كففت ظاهرك و ألزمت مع ذلك قلبك كراهية ما يترشّح منه

(١) الحشر: ٩. (٢) النساء: ١٩.
(٣) آل عمران: ١٢٠

بالطبع من حبّ زوال النعمة حتّى كأنّك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهية من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أدّيت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأمّا تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي و المحسن ويكون فرحه أو غمّه ممّا تيسّر لهما من نعمة أو تنصبّ عليهما من بليّة سواء فهذا ممّا لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتاً إلى حظوظ الدّنيا إلّا أن يصير مستغرقاً بحبّ الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكلّ بعين واحدة و هو عين الرّحمة و يرى الكلّ عباداً لله و أفعالهم أفعالاً لله و يراهم مسخّرين ، وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ويرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدوّ إلى منازعته أعني الشيطان فإنّه ينازع بالوسوسة ، فمهما قابل ذلك بكراهية ألزم قلبه فقد أدّى ما كلّفه و ذهب ذاهبون إلى أنّه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه .

و روي مرفوعاً أنّه « ثلاثة في المؤمن له منهنّ مخرج و مخرجه من الحسد أن لا يبغي » (١) و الأولى أن يحمل هذا على ما ذكرنا من أن يكون فيه كراهة من جهة الدّين والعقل في مقابلة حبّ الطبع لزوال النعمة عن العدوّ ، وتلك الكراهة تمنعه من البغي و من الإيذاء فإنّ جميع ما ورد من الأخبار في ذمّ الحسد يدلّ ظاهرها على أنّ كلّ حاسد آثم ، و الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكلّ محبّ لمساءة المسلمين فهو حاسد فإذا كونه آثماً بمجرّد حسد القلب من غير فعل هو في محلّ الاجتهاد .

وقد عرفت من هذا أنّ لك في أعدائك ثلاثة أحوال : أحدها أن تحبّ مساءتهم بطبعك وتكره حبّك لذلك و ميل قلبك إليه بعقلك ، و تمقت نفسك عليه وتودّ لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفوّ عنه قطعاً ، لأنّه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه ، الثانية أن تحبّ ذلك و تظهر الفرح بمساءته إمّا بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعاً ، الثالثة وهي بين الطرفين أن تحسد بالقلب

(١) مر آنفاً .

من غير مقتك لنفسك على حسدك و من غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاها وهذا محلّ الخلاف ، والظاهر أنّه لايخلوعن إثم بقدر قوّة ذلك الحبّ وضعفه .

هذا آخر كتاب ذمّ الغضب و الحقد و الحسد من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء ، و يتلوه إن شاء الله كتاب ذمّ الدّنيا . و الحمد لله أوّلاً وآخراً والصلاة على محمّد وأهل بيته وسلّم .

كتاب ذم الدنيا

و هو الكتاب السادس من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي عرّف أولياءه غوائل الدّنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتّى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيّئاتها، فعلموا أنّه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوّها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنّها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبايح تهلك الرّاغبين في وصالها، ثمّ هي فرّارة عن طلّابها، شحيحة باقبالها، وإذا أقبلت لا تؤمن من شرّها و وبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، و إن أساءت مرّة جعلتها سنّة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلّابها راشقة، ومجاري أحوالها بذلّ طالبيها ناطقة، فكلّ متعزّز بها إلى الذّلّ مصيره، وكلّ متكثّر بها إلى التحسّر مسيره، شأنها الهرب من طالبها و الطلب لهاربها، من خدمها فاتته، ومن أعرض عنها و اتته[1]، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفكّ سرورها عن المنغّصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها لا يسوق إلّا إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلّا الحسرة والندم، فهي خدّاعة مكّارة طيّارة فرّارة، لاتزال تتزيّن لطلّابها حتّى إذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها[2]، و شوّشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها فأذاقتهم قواتل سمّها، ورشقتهم بصوائب سهمها[3]، فبينما أصحابها منها في سرور و إنعام إذ ولّت

(١) في المصباح واتيته على الامر بمعنى وافقته.

(٢) كشر عن اسنانه أي أبداها وكشفها، والانياب: الاضراس.

(٣) رشقه بالسهم: رماه، و بنظره: أحد النظر اليه. و بلسانه: طعن عليه.

عنهم كأنّها أضغاث أحلام ، ثمّ عكرت عليهم بدواهيها[١] ، فطحنتهم طحن الحصيد ، و وارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملّكت واحداً جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته عن قريب حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، تمنّي أصحابها سروراً ، وتعدهم غروراً حتّى يأملون كثيراً ، و يبنون قصوراً ، فتصبح قصورهم قبوراً ، و جمعهم بوراً و سعيهم هباء منثوراً ، و كان أمر الله قدراً مقدوراً .

و الصلاة على محمّد عبده و رسوله المرسل إلي العالمين بشيراً ونذيراً ، وعلى من كان من آله وأصحابه له في الدّين ظهيراً و على الظالمين نصيراً وسلّم كثيراً .

أما بعد فإنّ الدّنيا عدوّة لله ، وعدوّة لأولياء الله ، وعدوّة لأعداء الله ، أمّا عداوتها لله فإنّها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها مذ خلقها[٢] ، و أمّا عداوتها لأولياء الله فإنّها تزيّنت لهم بزينتها ، و عمّتهم بزهرتها و نضارتها حتّى تجرّعوا مرارة الصبر في مقاطعتها ، وأمّا عداوتها لأعداء الله فإنّها استدرجتهم بمكرها و مكيدتها ، و اقتنصتهم بشباكها[٣] حتّى وثقوا بها وعوّلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ، ثمّ حرمتهم عن السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسّرون ، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم : اخسؤا فيها ولا تكلّمون أولئك الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينصرون ، و إذا عظمت غوائل الدّنيا و شرورها فلابدّ أوّلاً من معرفة حقيقة الدّنيا وما هي ، و ما الحكمة في خلقها مع عداوتها ، و ما مداخل غرورها وشرورها ، فإنّ من لايعرف الشرّ لايتّقيه ويوشك أن يقع فيه ، و نحن نذكر ذمّ الدّنيا و أمثلتها و حقيقتها و تفصيل معانيها ، و أصناف الأشغال المتعلّقة بها ، و وجه الحاجة إلى اُصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله .

(١) عكر عليه : كر وحمل وانصرف وعطف ، والدواهي جمع الداهية وهي النوازل والنوائب والمصيبات .

(٢) كما يأتي عن قريب في الحديث .

(٣) اقتنص الصيد أو الطير : صاده ، والشباك جمع شبكة و هي شركة الصياد .

✿(بيان ذم الدنيا)✿

الآيات الواردة في ذمّ الدنيا و أمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذمّ الدّنيا و صرف الخلق عنها و دعوتهم إلى الآخرة بل هو مقصود بعث الأنبياء عليهم السلام و لم يبعثوا إلّا لذلك فلاحاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها و إنّما نورد بعض الأخبار الواردة فيها .

فقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مرّ على شاة ميتة فقال : «أترون هذه الشاة الميتة هينة على صاحبها ؟ قالوا : نعم من هوانها ألقوها ؛ قال : والّذي نفسي بيده الدّنيا أهون على الله عزّ وجلّ من هذه على صاحبها ، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الدّنيا سجن المؤمن و جنّة الكافر » (٢).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الدّنيا ملعونة ملعون ما فيها إلّا ما كان لله منها» (٣).

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم « من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته و من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على مايفنى »(٤).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة » (٥).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يا عجباً كلّ العجب للمصدّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » (٦).

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٠٦ بلفظه و ابن ماجه تحت رقم ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ١٩٩ .

(٣) أخرجه أبونعيم في الحلية بسند صحيح من جابر ، وابن ماجه تحت رقم ٤١١٢ بلفظ آخر عن أبي هريرة ، والترمذي ج ٩ ص ١٩٨ أيضاً .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣١٩ من حديث أبي موسى الاشعري ، و صححه .

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث الحسن مرسلا كما في الجامع الصغير.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد من حديث جرير مرسلا . (المغني)

وروي أنّ رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال : « هلمّوا إلى الدّنيا ، و أخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة و عظاماً قد نخرت[١] فقال : هذه الدّنيا » و هذه إشارة إلى أنّ زينتها ستخلق مثل تلك الخرق وأنّ الأجسام الّتي ترى بها ستصير عظاماً بالية .

و قال ﷺ : « إنّ الدّنيا حلوة خضرة ، و إنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، إنّ بني إسرائيل لمّا بسطت لهم الدّنيا و مهّدت تاهوا في الحلية و النساء و الطيب والثياب » [٢].

و قال عيسى عليه السلام : « لاتتّخذوا الدّنيا ربّاً فتتّخذكم الدّنيا عبيداً ، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيّعه لكم فإنّ صاحب كنز الدّنيا يخاف عليه الآفة و صاحب كنز الله لايخاف عليه الآفة » .

و قال أيضاً : « يا معشر الحواريّين إنّي قد كببت لكم الدّنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي[٣] فإنّ من خبث الدّنيا أن عصي الله فيها وإنّ من خبث الدّنيا أنّ الآخرة لاتدرك إلّا بتركها ، ألا فاعبروا الدّنيا ولاتعمروها ، واعلموا أنّ أصل كلّ خطيئة حبّ الدّنيا ، وربّ شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً » .

و قال أيضاً : « بطحت لكم الدّنيا[٤] وجلستم على ظهرها فلا ينازعنّكم فيها الملوك و النساء ، فأمّا الملوك فلا تنازعوهم في الدّنيا فإنّهم لن يتعرّضوا لكم ما تركتموهم و دنياهم ، و أمّا النساء فاتّقوهنّ بالصوم والصلاة » .

و قال أيضاً : « الدّنيا طالبة و مطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدّنيا حتّى يستكمل فيها رزقه وطالب الدّنيا تطلبه الآخرة حتّى يجيىء الموت فيأخذ بعنقه » .

و عن النبيّ ﷺ : « أنّ الله جلّ ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدّنيا

(١) أي بليت ، وأخرجه ابن أبي‌الدنيا في الزهد والبيهقي في‌الشعب من طريقه من رواية ابن‌ميمون اللخمي مرسلا . وفيه بقية بن‌الوليد وقد عنعنه وهومدلس كما في‌المغني .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠٠٠ دون قوله « ان بني‌اسرائيل الخ » ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التي آخرها كما في‌المغني .

(٣) نعشه الله - كمنعه - رفعه . (٤) بطحه : بسطه ، ألقاه على وجهه .

و إنّه لم ينظر إليها منذ خلقها » (١).

و روي « أنّ سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه و الطير تظلّه و الجنّ و الإنس عن يمينه وعن يساره ، قال : فمرّ بعابد من عبّاد بني إسرائيل فقال : والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً ، قال : فسمع سليمان فقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خيرٌ ممّا أُعطي ابن داود ، فإنّ ما أُعطي ابن داود يذهب و التسبيحة تبقى .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلّا ما تصدّقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الدّنيا دار من لا دار له ، و مال من لا مال له ، و لها يجمع من لا عقل له ، و عليها يعادي من لا علم له ، و عليها يحسد من لا فقه له ، و لها يسعى من لا يقين له » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصبح و الدّنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : همّاً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلاً لا يتفرّغ منه أبداً ، و فقراً لا ينال غناه أبداً ، و أملاً لا يبلغ منتهاه أبداً » (٤).

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الدّنيا موقوفةٌ بين السماء و الأرض منذ خلقها الله عزّ و جلّ لا ينظر إليها و تقول يوم القيامة : يا ربّ اجعلني لأدنى أوليائك نصيباً

---

(١) أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث أبي هريرة كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٢٣ من حديث مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه .

(٣) ما عثرت على تمام حديث في أصل نعم أخرج أحمد صدره في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عائشة كما في الجامع الصغير .

(٤) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث أبي ذر دون قوله « الزم الله قلبه - الخ - » وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف ، والحاكم من حديث حذيفة ، و روى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر و كلاهما ضعيف كما في المغني .

اليوم ، فيقول : اسكتي لاشيء ، إنّي لم أرضك لهم في الدّنيا أرضاك لهم اليوم »؟![1].

و روي « أنّ الله عزّ وجلّ لمّا أهبط آدم من الجنّة إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفناء »[2].

و روي في أخبار آدم عليه السلام « أنّه لمّا أكل من الشجرة تحرّكت معدته لخروج الثفل و لم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنّة إلّا في هذه الشجرة فلذلك نهى الله عن أكلها ، قال : فجعل يدور في الجنّة فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له : قل له : أيّ شيء تريد ؟ قال آدم : اُريد أن أضع ما في بطني من الأذى ، فقيل للملك : قل له : في أيّ مكان تريد أن تضعه ؟ أعلى الفرش أم على السرير ؟ أم على الأنهار ؟ أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا موضعاً يصلح لذلك ؟ ولكن اهبط إلى الدّنيا » .

و قال صلّى الله عليه وآله : « ليجيئنّ أقوام يوم القيامة و أعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النّار ، فقيل : يا رسول الله أمصلّين ؟ قال : نعم كانوا يصومون ويصلّون ويأخذون هنة[3] من اللّيل فإذا عرض لهم من الدّنيا شيء وثبوا عليه »[4].

و قال صلّى الله عليه وآله في بعض خطبه : « المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه و بين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزوّد العبد من نفسه لنفسه و من دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، و من شبابه لهرمه ، فإنّ الدّنيا قد خلقت لكم و أنتم خلقتم للآخرة ، و الّذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب

(١) ما عثرت على أصل له ، و روى ابن عساكر عن على بن الحسين مرسلاهكذا « ان الله تعالى لما خلق الدنيا أعرض عنها فلم ينظر اليها من هوانها عليه » راجع الجامع الصغير ج ١ ص ٧٢ .

(٢) راجع الكافى ج ٢ ص ١٣١ روى مثله .

(٣) اى ساعة بمعنى هنيهة من باب هنو .

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس بسند ضعيف أيضاً . (المغنى)

ولا بعد الدّنيا من دار إلّا الجنّة أو النار»[١].

و قال عيسى عليه السلام: «لايستقيم حبّ الدّنيا و الآخرة في قلب مؤمن كما لايستقيم الماء و النار في إناء واحد».

و روي «أنّ جبرئيل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدّنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من آخر».

و قيل لعيسى عليه السلام: «لو اتّخذت بيتاً؟ فقال: يكفينا خلقان من كان قبلنا».

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله: «احذروا الدّنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت»[٢].

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج ذات يوم على أصحابه فقال: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنّه من رغب في الدّنيا وطال فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدّنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علماً بغير تعلّم وهدى بغير هداية، ألا إنّه سيكون بعدي قوم لايستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والتجبّر و لا الغنى إلّا بالفخر و البخل و لا المحبّة إلّا باتّباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك الزّمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبّة، و صبر على الذّلّ وهو يقدر على العزّ لايريد بذلك إلّا وجه الله أعطاه الله بذلك ثواب خمسين صدّيقاً»[٣].

و روي أنّ عيسى عليه السلام اشتدّ به المطر و الرّعد و البرق يوماً فجعل يطلب بيتاً يلجأ إليه فرفعت إليه خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسدٌ فوضع يده على رأسه و قال: إلهي جعلت لكلّ شيء مأوى و لم تجعل لي مأوى فأوحى الله إليه مأواك في مستقرّ من رحمتي لازوّجنّك

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٧٠ و قوله صلى الله عليه وآله «مستعتب» أي موضع استعتاب أي طلب رضاء.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلا و فيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه أبو حاتم. (المغني)

يوم القيامة ألف حوراء خلقتها بيدي ولأُطعمنّ في عرسك أربعة آلاف عام يومٌ منها كعمر الدُّنيا ولآمرنّ منادياً ينادي أين الزُّهّاد في الدُّنيا زوروا عرس الزّاهد عيسى ابن مريم .

و قال عيسى عليه السلام : « ويلٌ لصاحب الدُّنيا كيف يموت و يتركها و ما فيها ؟ و تغرُّه و يأمنها ، ويثق بها و تخذله ، و ويل للمغترّين كيف ألزمهم ما يكرهون و فارقهم ما يحبّون و جاءهم ما يوعدون ؟ وويل لمن أصبحت الدُّنيا همّه و الخطايا عمله كيف يفتضح غداً بذنبه » .

و قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « يا موسى مالك ولدار الظالمين إنّها ليست لك بدار أخرج منها همّك وفارقها بعقلك ، فبئست الدّار هي إلّا لعامل يعمل فيها فنعمت الدّار هي ، يا موسى إنّي مرصد للظالم حتّى آخذ منه للمظلوم ».

و روي « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا عبيدة بن الجرّاح فجاءه بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف فتعرّضوا له فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين رآهم ، ثمّ قال : أظنّكم سمعتم أنّ أبا عبيدة قدم بشيء ؟ قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا و أمّلوا ما يسرّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنّي أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدُّنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم »[1].

و قال أبو سعيد الخدريُّ : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، فقيل : ما بركات الأرض ؟ فقال : زهرة الدُّنيا »[2].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدُّنيا»[3] فنهى عن ذكرها فضلاً

(١) أخرجه مسلم ج٨ ص ٢١٢ كما فى المتن والبخارى ج ٨ ص١١٣ و فيه « و تلهيكم كما ألهتهم » . و أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٨٧ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٣ و ج ٤ ص ٣٢ .

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب عن محمد بن النضر الحارثى مرسلا بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

عن إصابة عينها .

و قال عمّار بن سعيد : مرّ عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال لهم : يا معشر الحواريّين إنّ هؤلاء ماتوا عن سخطة و لو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : يا روح الله وددنا أنّا علمنا خبرهم ، فسأل ربّه فأوحى الله إليه إذا كان اللّيل فنادهم يجيبوك ، فلمّا كان اللّيل أشرف على نشز من الأرض(*) ، ثمّ نادى يا أهل القرية ؟ فأجابه مجيبٌ : لبّيك يا روح الله ، فقال : ما حالكم و ما قصّتكم ؟ قالوا : بتنا في عافية وأصبحنا في هاوية ، قال : و كيف ذلك ؟ قال : لحبّنا الدّنيا و طاعتنا أهل المعاصي ، قال : و كيف كان حبّكم للدّنيا ؟ قال: حبّ الصبيّ لأمّه إذا أقبلت فرحنا و إذا أدبرت حزنّا و بكينا ، قال : فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال : لأنّهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد قال : كيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال : لأنّي كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلمّا نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا معلّق على شفير جهنّم لا أدري أنجو منها أم اُكبكب فيها ، فقال المسيح عليه السلام للحواريّين : لأكل خبز الجريش بالملح الشعير و لبس المسوح و النوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدّنيا والآخرة »(١).

و روي أنّ ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العضباء لا تسبق فجاء أعرابيّ بناقة له فسبقتها فشقّ ذلك على المسلمين فقال رسول الله : « إنّه حقّ على الله أن لا يرفع شيئاً من الدّنيا إلّا وضعه » (٢).

و قال عيسى عليه السلام : « من ذا الّذي يبني على أمواج البحر داراً ، تلكم الدّنيا فلا تتّخذوها قراراً » .

وقيل : لعيسى عليه السلام : علّمنا عملاً واحداً يحبّنا الله عليه ، قال : « أبغضوا الدّنيا يحببكم الله » .

و قال أبو الدّرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً

(*) اى المكان المرتفع منها . (١) راجع الكافى ج٢ ص٣١٨ - باب ذم الدنيا - .

(٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣٨ .

ولضحكتم قليلاً ولهانت عليكم الدّنيا و لآثرتم الآخرة » (١) ثمّ قال أبو الدّرداء من قبل نفسه : لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعداء و لبكيتم على أنفسكم وتركتم أموالكم بلا حارس لها و لا راجع إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة و حضرها الأمل فصارت الدّنيا أملك بأعمالكم و صرتم كالّذين لايعلمون ، فبعضكم شرٌّ من البهائم الّتي لا تدع هواها مخافة ممّا في عاقبته مالكم لاتتحابّون ولا تتناصحون و أنتم إخوان على دين الله ما فرّق بين أهوائكم إلّا خبث سرائركم و لو اجتمعتم على البرّ لتحاببتم مالكم تناصحون في أمر الدّنيا و لاتناصحون في أمر الدّين و لا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبّه و يعينه على أمر آخرته ما هذا إلّا من قلّة الإيمان في قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما توقنون بالدّنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنّها أملك بأُموركم فإن قلتم : حبّ العاجلة غالبٌ فإنّا نراكم تدعون العاجلة من الدّنيا للآجل منها تكدّون أنفسكم بالمشقّة و الاحتراق في طلب أمر لعلّكم لا تدركونه ، فبئس القوم أنتم ما حقّقتم أيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم فإن كنتم في شكّ ممّا جاءكم به محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فائتونا فلنبيّن لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ إليه قلوبكم و الله ما أنتم بالمنقوصة قلوبكم فنعذركم أنّكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم و تأخذون بالحزم في أُموركم مالكم تفرحون باليسير من الدّنيا تصيبونه و تحزنون على اليسير منها يفوتكم حتّى يتبيّن ذلك في وجوهكم و يظهر على ألسنتكم و تسمّونها المصائب و تقيمون عليها المآتم و عامّتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ، ثمّ لا يتبيّن ذلك في وجوههم ولايتغيّر حالتكم ، إنّي لأرى الله قد تبرّأ منكم ، يلقى بعضكم بعضاً بالسرور و كلّكم يكره أن يستقبل صاحبه بمايكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله ، فأصبحتم على الغلّ ونبتت مراعيكم على الدّمن وتصافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أنّ الله تعالى أراحني منكم فألحقني بمن أُحبّ رؤيته ولو كان حيّاً لم يصابركم ، فإن كان

(١) أخرج صدره مسلم والبخارى ج ٨ ص ١٢٧ من حديث أبى هريرة و أخرجه الترمذى ج ٩ ص ١٩٤ وابن ماجه تحت رقم ٤١٩٠ باختلاف فى اللفظ من حديث أبى ذر.

فيكم خير فقد أسمعتكم ، و إن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً ، و بالله استعين على نفسي و عليكم .

و قال عيسى عليه السلام : « يا معشر الحواريّين أرضوا بدنيّ الدّنيا مع سلامة الدّين كما رضي أهل الدّنيا بدنيّ الدّين مع سلامة الدّنيا . وفي معناه قيل :

أرى رجالاً بأدنى الدّين قد قنعوا ✿ و لا أراهم رضوا في العيش بالدّون

فاستغن بالدّين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنيا هم عن الدّين

و قال عيسى عليه السلام : « يا طالب الدّنيا لتبرّ [بها] تركك للدنيا أبرّ » .

و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله : « لتأتينّكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النّار الحطب » (١).

و أوحي الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « ياموسى لا تركننّ إلى حبّ الدّنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشدّ عليك منها ».

ومرّ موسى برجل و هو يبكي ورجع و هو يبكي فقال موسى : يا ربّ عبدك يبكي من مخافتك فقال : « يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه و رفع يديه حتّى تسقطا لم أغفر له وهو يحبّ الدنيا ».

و قال عليّ عليه السلام : « من جمع ستّ خصال لم يدع للجنّة مطلباً ولا عن النار مهرباً أوّلها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، و عرف الحقّ فأتبعه ، وعرف الباطل فاتّقاه ، و عرف الدّنيا فرفضها ، و عرف الآخرة فطلبها» .

و قال رجلٌ لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين صف لنا الدّنيا ، فقال : « وما أصف لك من دار من صحّ فيها ما آمن ، ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، و من استغنى فيها فتن ، في حلالها الحساب ، و في حرامها العذاب » .

وقيل له عليه السلام ذلك مرّة فقال : «أطوّل أوأقصّر ؟ فقال : قصّر، فقال: حلالها حساب وحرامها عذاب »(٢) .

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) و راجع النهج الخطب تحت رقم ٨٢ .

و قال عليه السلام : « إنّما هي ستّة أشياء مطعوم و مشروب و ملبوس و مركوب و منكوح و مشموم : فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء يستوي فيه البرّ والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرّجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال والله أنّ المرأة ليزيّن أحسن شيء منها و يراد أقبح شيء منها ، و أشرف المشمومات المسك وهو دم حيوان » .

فصل

أقول : و من طريق الخاصّة عن أهل البيت عليهم السلام في ذمّ الدّنيا ما فيه بلاغ لقوم عابدين و سيّما عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وناهيك ما في كتاب نهج البلاغة من كلماته عليه السلام في هذا الباب و قد أسلفنا كلاماً له عليه السلام فيه في كتاب العلم من ربع العبادات عند ذكر علامات علماء الآخرة .

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « خرج النبيّ صلّى الله عليه وآله و هو محزون فأتاه ملك و معه مفاتيح خزائن الأرض فقال : يا محمّد هذه مفاتيح خزائن الأرض يقول لك ربّك : افتح و خذ منها ماشئت من غير أن تنقص شيئاً عندي ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : الدنيا دار من لا دار له [1] و لها يجمع من لاعقل له ، فقال له الملك : و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرّابعة حين اُعطيت المفاتيح » [2].

و عنه عليه السلام قال : « مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بجدي أسكّ [3] ملقى على مزبلة ميتاً فقال لأصحابه : كم يساوي هذا ؟ فقالوا : لعلّه لو كان حيّاً لم يساو درهماً ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : والّذي نفسي بيده الدّنيا أهون على الله من هذا الجدي على أهله» [4].

(١) لعل المراد أن الدنيا دار من لا دارله غيرها وليس له في الاخرة من نصيب .
(٢) المصدر ج ٢ ص ١٢٩ .
(٣) الجدى : ولد المعز في السنة الاولى ، و أسك أى مصطلم الاذنين مقطوعهما .
(٤) الكافي ج ٢ ص ١٢٩ .

و عنه عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ في طلب الدّنيا إضراراً بالآخرة و في طلب الآخرة إضراراً بالدّنيا فأضرّوا بالدّنيا فإنّها أحقّ بالإضرار » (١).

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : مالي و للدّنيا و ما أنا والدّنيا إنّما مثلي و مثلها كمثل راكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثمّ راح و تركها »(٢).

و عنه عليه السلام قال : « ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وآله شيء من الدّنيا إلّا أن يكون فيها جائعاً خائفاً »(٣).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ في كتاب عليّ عليه السلام إنّما مثل الدّنيا كمثل الحيّة ما ألين مسّها وفي جوفها السمّ الناقع ، يحذرها الرّجل العاقل ويهوى إليها الصبيّ الجاهل » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابه يعظه : أوصيك ونفسي بتقوى من لا يحلّ معصيته ، ولا يرجى غيره ، و لا الغنى إلّا به ، فإنّ من اتّقى الله تعالى عزّ و قوي وشبع وروى ، ورفع عقله عن أهل الدّنيا ، فبدنه مع أهل الدّنيا و قلبه و عقله معاين الآخرة فأطفأ بضوء قلبه ما أبصرت عيناه من حبّ الدنيا فقذّر حرامها وجانب شبهاتها وأضرّ والله بالحلال الصافي إلّا مالا بدّ له منه من كسرة يشدّ بها صلبه (٥) و ثوب يواري به عورته من أغلظ ما يجد و أخشنه ولم يكن له فيما لا بدّ منه ثقة ولا رجاء فوقعت ثقته و رجاؤه على خالق الأشياء فجدّ واجتهد وأتعب

---

(١) الخبر فى الكافى ج ٢ ص ١٣١ و يومى الى أن المذموم من الدنيا ما يضر بامر الاخرة فاما مالا يضر به كقدر الحاجة فى البقاء والتعيش فليس بمذموم .

(٢) يوم صائف أى يوم حار و قوله : « فقال تحتها » من القيلولة أى الاستراحة والخبر فى الكافى ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ١٣٦ .

(٥) الكسر ـ بالكسر ـ : القطعة من الشيء المكسور والجمع كسر مثل قطعة و قطع والمراد كسرة الخبز .

بدنه حتّى بدت الأضلاع وغارت العينان فأبدل الله له من ذلك قوّة في بدنه وشدّة في عقله و ما ذخر له في الآخرة أكثر ، فارفض الدّنيا فإنّ حبّ الدّنيا يعمي ويصم ويبكم ويذلّ الرّقاب فتدارك ما بقي من عمرك ولاتقل : غداً و بعد غد فإنّما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف حتّى أتاهم أمر الله بغتةً وهم غافلون فنقلوا على أعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيّقة و قد أسلمهم الأولاد و الأهلون فانقطع إلى الله بقلب منيب من رفض الدّنيا وعزم[1] ليس فيه انكسار ولا انجزال[2] أعاننا الله و إيّاك على طاعته و وفقنا وإيّاك لمرضاته »[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال عليّ بن الحسين عليهما السلام : إنّ الدّنيا قد ارتحلت مدبرةً و إنّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، و لكلّ واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا و كونوا من الزّاهدين في الدّنيا الرّاغبين في الآخرة ، ألا إنّ الزّاهدين في الدّنيا اتّخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً و قرّضوا من الدّنيا تقريضاً[4] ، ألا ومن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات ، و من أشفق من النّار رجع عن المحرّمات ، ومن زهد في الدّنيا هانت عليه المصائب ، ألا إنّ لله عباداً كمن رأى أهل الجنّة في الجنّة مخلّدين و كمن رأى أهل النار في النار معذّبين شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة و حوائجهم خفيفة صبروا أيّاماً قليلة فصاروا بعقبى[5] راحة طويلة ، أمّا اللّيل فصافّون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم و هم يجأرون إلى ربّهم[6] يسعون في فكاك رقابهم ، و أمّا النهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنّهم القداح قد براهم الخوف من العبادة[7] ينظر إليهم الناظر فيقول :

(١) عطف على «قلب» . (٢) الانجزال : الانقطاع .

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) القرض القطع أي قطعوا أنفسهم من الدنيا تقطيعاً باقلاع قلوبهم عنها (الوافي).

(٥) كذا في فقه الرضا «فصارت لهم العقبى» . (٦) أي يتضرعون ، جأر إلى الله أي تضرع .

(٧) القداح - بالكسر - : السهم بلا ريش و لا نصل ، شبههم في نحافة أبدانهم بالاسهم ، ثم ذكر مايستعمل في السهم اعني البرى وهو النحت «من العبادة» أي من كثرتها ان تعلق بقوله : «كانهم القداح » أو من قلتها ان تعلق بالخوف (الوافي) .

مرضى - وما بالقوم من مرض- أم خولطوا[١] فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها » [٢].

و عن محمّد بن مسلم بن شهاب قال : سئل عليّ بن الحسين عليهما السلام : أيّ الأعمال أفضل عند الله تعالى ؟ فقال : « ما من عمل بعد معرفة الله تعالى ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من بغض الدّنيا وإنّ لذلك لشعباً كثيرة [٣] وللمعاصي شعباً فأوّل ما عصي الله به الكبر و هي معصية إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين ، و الحرص و هي معصية آدم و حوّا حين قال الله تعالى لهما : « كلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [٤] فأخذا مالا حاجة بهما إليه فدخل ذلك [٥] على ذريّتهما إلى يوم القيامة وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم مالا حاجة به إليه ، ثمّ الحسد و هي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله ، فتشعّب من ذلك حبّ النساء و حبّ الدّنيا و حبّ الرّئاسة و حبّ الرّاحة و حبّ الكلام و حبّ العلوّ و الثروة ، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلّهنّ في حبّ الدّنيا فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك : حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و الدنيا دنيا آن دنيا بلاغ و دنيا ملعونة » [٦].

و عن جابر قال : دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال : « يا جابر والله إنّي لمحزون و إنّي لمشغول القلب ، قلت : جعلت فداك و ما شغلك و ما حزن قلبك ؟ فقال : يا جابر إنّه من دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عمّا سواه ، ياجابر ما الدّنيا و ما عسى أن تكون الدّنيا هل هي إلّا طعام أكلته أو ثوب لبسته أو امرأة

---

(١) أى ينسبونهم باختلاط العقل والجنون . خولط فلان اى أفسد عقله بما خالطه من المفسدة .

(٢) الكافى ج ٢ ص ١٣١ .

(٣) أى ان لبغض الدنيا لشعباً من الصفات الحسنة والاعمال الصالحة و هى ضد شعب المعاصى .

(٤) البقرة : ٣٥ .

(٥) أى الحرص أو أخذ مالا حاجة به .

(٦) الكافى ج ٢ ص ١٣٠ .

أصبتها ياجابر : إنّ المؤمنين لم يطمئنّوا إلى الدّنيابقائهم فيها ولم يأمنوا قدومهم الآخرة ، يا جابر الآخرة دار قرار و الدّنيا دار فناء و زوال ولكن أهل الدّنيا أهل غفلة و كأنّ المؤمنين هم الفقهاء أهل فكرة و عبرة ، لم يصمهم عن ذكر الله تعالى ما سمعوا بآذانهم ولم يعمهم عن ذكرالله تعالى ما رأوا من الزينة بأعينهم ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم ، و اعلم يا جابر أنّ أهل التقوى أيسر أهل الدّنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة تذكر فيعينونك وإن نسيت ذكروك ، قوّالون بأمر الله قوّامون على أمر الله ، قطعوا محبّتهم بمحبّة ربّهم و وحشوا الدّنيا لطاعة مليكهم و نظروا إلى الله تعالى وإلى محبّته بقلوبهم و علموا أنّ ذلك هو المنظور إليه لعظيم شأنه ، فأنزل الدّنيا كمنزل نزلته ثمّ ارتحلت عنه ، أو كمال وجدته في منامك فاستيقظت و ليس معك منه شيء ، إنّي إنّما ضربت لك هذا مثلاً لأنّها عند أهل اللّبّ والعلم بالله كفيء الظلال ، يا جابر فاحفظ ما استرعاك الله من دينه و حكمته و لاتسألنّ عمّالك عنده إلّا ماله عند نفسك (١) فإن تكن الدّنيا على ما وصفت لك فتحوّل إلى دار المستعتب(٢) فلعمري لربّ حريص على أمر قد شقي به حين أتاه و لربّ كاره لأمر قد سعد به حين أتاه و ذلك قول الله تعالى : « وليمحّص الله الّذين آمنوا ويمحق الكافرين» (٣).

و عنه عليه السلام قال : « مثل الحريص على الدّنيا كمثل دودة القزّ كلّما ازدادت على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت غمّاً» (٤).

---

(١) الاسترعاء طلب الرعاية و لعل المراد بقوله : « لا تسألن عمالك عنده » انك لا تحتاج الى أحد تسأله عن ثوابك عندالله اذ ليس ذلك الا بقدر ماله عند نفسك أعنى بقدر رعايتك دينه و حكمه فاجعله المسؤول و تعرف ذلك منه أو المراد لا تسأل عن ذلك بل سل عن هذا فانك انما تفوز بذلك بقدر رعايتك هذا .

(٢) « على ما وصفت لك » فى المصدر «على غيرما وصفت لك » والشراح تكلفوا فى شرحه ولكن فى تحف العقول كما فى المتن أى بدون لفظة «غير» والمعنى معلوم بدون التكلف .

(٣) الكافى ج ٢ ص ١٣٣ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ١٣٤ .

و عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدّنيا وفقّهه في الدّين وبصّره عيوبها و من أوتيهنّ فقد اُوتي خير الدّنيا و الآخرة . و قال : لم يطلب أحدٌ الحقّ بباب أفضل من الزّهد في الدّنيا و هو ضدٌّ لما طلب أعداء الحقّ ، قلت : جعلت فداك ممّا ذا ؟ قال : من الرّغبة فيها ، وقال : إلّا من صبّار كريم فإنّما هي أيّام قلائل ، ألا إنّه حرامٌ عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتّى تزهدوا في الدّنيا »(١).

قال : و سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « إذا تخلّى المؤمن من الدّنيا سما و وجد حلاوة حبّ الله و كان عند أهل الدّنيا كأنّه قد خولط و إنّما خالط القوم حلاوة حبّ الله فلم يشتغلوا بغيره . قال : وسمعته يقول : إنّ القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتّى يسمو »(٢).

و عنه عليه السلام قال : « جعل الخير كلّه في بيت وجعل مفتاحه الزّهد في الدّنيا ، ثمّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يجد الرّجل حلاوة الإيمان في قلبه حتّى لا يبالي من أكل الدّنيا » (٣).

و عنه عليه السلام قال : « من زهد في الدّنيا أثبت الله الحكمة في قلبه و أنطق بها لسانه و بصّره عيوب الدّنيا داءها و دواءها ، و أخرجه من الدّنيا سالماً إلى دار السّلام » (٤).

و عنه عليه السلام قال : « مثل الدّنيا كمثل ماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتّى يقتله » (٥).

و عن أبي إبراهيم عليه السلام قال : « قال أبوذرّ - رحمه الله - : جزى الله الدّنيا عنّي مذمّة بعد رغيفين من الشعير أتغدّى بأحدهما وأتعشّى بالآخر ، وبعد شملتي الصوف أتّزر بإحديهما و أتردّى بالاُخرى»(٦).

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٣٠ و قوله : «سما» من السمو أي العلو .
(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ١٢٨ .
(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ١٣٤ .

و عن الرّضا عليه السلام قال : « قال عيسى ابن مريم عليه السلام للحواريّين : يا بني إسرائيل لا تأسوا على ما فاتكم من الدّنيا كما لا يأسى أهل الدّنيا على ما فاتهم من دينهم إذا أصابوا دنياهم »(١).

﴿فصل﴾

قال أبوحامد : في الآثار : قال لقمان : يا بنيّ إنّ الدّنيا بحر عميق قد غرق فيها ناسٌ كثير فليكن سفينتك فيها تقوى الله عزّ و جلّ ، و حشوها الإيمان بالله عزّ وجلّ وشراعها التوكّل على الله (٢) ، لعلّك تنجو وما أراك ناجياً .

و قال بعض الحكماء : إنّك لن تصبح في شيء من الدّنيا إلّا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك ، وليس لك من الدّنيا إلّا عشاء ليلة أو غداء يوم ، فلا تهلك نفسك في أكلة ، وصم الدّنيا و أفطر على الآخرة فإنّ رأس مال الدنيا الهوى وربحها النّار .

و قيل لبعض الزّهاد : كيف ترى الدّهر ؟ قال : يخلق الأبدان ، و يجدّد الآمال ، ويقرب المنيّة ، و يبعد الأمنيّة ، قال : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ، و من فاته نصب ، وقد قيل :

و من يحمد الدّنيا لعيش يسرّه ✿ فسوف لعمري عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ✿ و إن أقبلت كانت كثيراً همومها

و قال بعض الحكماء : كانت الدّنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإنّ عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إمّا بنعمة زائلة ، أو بليّة نازلة ، أومنيّة قاضية .

و قال بعضهم : من عيب الدّنيا أنّها لا تعطى أحداً ما يستحقّ لكنّها إمّا تزيد وإمّا تنقص .

(١) الكافي ج ٢ ص ١٣٧ وقوله : « لا يأسى » الاسى : الحزن على فوت الفائت.
(٢) الى هنا أورده الكليني في الكافي ج ١ ص ١٦ عن موسى بن جعفر عليه السلام قال : « ان لقمان الخ » .

و قال آخر : ما ترى النعم كأنّها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها .

و قال يحيى بن معاذ : الدّنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيىء في طلبك ويأخذك .

وقال الفضيل : لو كانت الدّنيا من ذهب يفنى و الآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى .

و قال أبو حازم : إيّاكم و الدّنيا فإنّه بلغني أنّه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا فيقال : هذا عظم ما حقّره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلّا وهو ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مردودة ، وقد قيل :

و ما المال والأهلون إلّا وديعة ✿ و لابدّ يوماً أن تردّ الودايع

و زارت رابعة أصحابها فذكروا الدّنيا فأقبلوا على ذمّها فقالت لهم : اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره . و قيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال :

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا ✿ فلا ديننا يبقى ولا ما نرقّع

فطوبى لعبد آثر الله ربّه ✿ و جاد بدنياه لما يتوقّع

وقيل :

أرى طالب الدّنيا وإن طال عمره ✿ ونال من الدّنيا سروراً وأنعما

كبان بنى بنيانه فأتمّه ✿ فلمّا استوى ما قد بناه تهدّما

وقيل أيضاً :

هب الدّنيا تساق إليك عفواً ✿ أليس مصير ذاك إلى انتقال

و ما دنياك إلّا مثل فيىء ✿ أظلّك ثمّ آذن بالزّوال

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ولاتبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً .

و قال مطرف بن الشخّير [١] : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك و لين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم [٢] وشرّ منقلبهم .

و قال ابن عبّاس : إنّ الله جعل الدّنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، و جزء للمنافق ، وجزء للكافر ، فالمؤمن يتزوّد ، والمنافق يتزيّن ، والكافر يتمتّع .

و قال بعضهم : الدّنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب ومباشرتهم ، وقيل :

يا خاطب الدّنيا إلى نفسها ✿ تنحّ عن خطبتها تسلم
إنّ الّتي تخطب غدّارة ✿ قريبة العرس من المأتم

و قال أبو الدّرداء : من هوان الدّنيا على الله أنّه لا يعصى الله إلّا فيها ، ولاينال ما عنده إلّا بتركها ، وقيل :

وما النّاس إلّاهالك وابن هالك ✿ و ذو نشب في الهالكين غريق
إذا امتحن الدّنيالبيب تكشّفت ✿ له عن عدوّ في ثياب صديق

وقيل :

يارا قد اللّيل مسروراً بأوّله ✿ إنّ الحوادث قديطرقن أسحارا
أفنى القرون الّتي كانت منعّمة ✿ كرّ الجديدين إقبالاً وإدبارا
يا من يعانق دنيا لابقاء لها ✿ يمسي و يصبح في دنياه سفّارا
هلاّ تركت من الدّنيا معانقة ✿ حتّى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ✿ فينبغي لك أن لاتأمن النّارا

و قال أبو أمامة الباهلي : لمّا بعث النبيّ ﷺ أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث نبيّ وأخرجت أمّة ، قال : يحبّون الدّنيا ؟ قالوا : نعم ، قال : إن كانوا يحبّونها ما اُبالي أن لايعبدوا الأوثان ، و إنّما أغدو عليهم و أروح بثلاث : أخذ المال من غير حقّه ، وإنفاقه في غير حقّه ، وإمساكه عن حقّه ، والشرّ كلّه من هذا نبع.

(١) الظاهر هو مطرف بن عبدالله بن الشخير ـ بكسر الشين و شد الخاء ـ .
(٢) الظعن ـ بالظاء المعجمة ـ : الارتحال .

و قيل: اتّقوا السحّارة فإنّها تسحر قلوب العلماء - يعني الدّنيا - .

و قال وهب : في بعض الكتب : الدّنيا غنيمة الأكياس و غفلة الجهّال لم يعرفوها حتّى خرجوا منها فسألوا الرّجعة فلم يرجعوا .

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ إنّك استدبرت الدّنيا من يوم نزلتها و استقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها .

و قال بعضهم : عجباً لمن يعرف أنّ الموت حقّ كيف يفرح ، و عجباً لمن يعلم أنّ النّار حقّ كيف يضحك ، وعجباً لمن يرى تقلّب الدّنيا بأهلها كيف يطمئنّ إليها و عجباً لمن يعلم أنّ القدر حقّ كيف ينصب ؟.

و قدم على معاوية رجلٌ من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدّنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء ، و سنيات رخاء ، يوم بيوم و ليلة بليلة ، يولد ولد ويهلك هالك فلولا المولود لبادالخلق ، ولولا الهالك ضاقت الدّنيا بمن فيها ، فقال له معاوية : سل ماشئت قال : عمرٌ مضى فتردّه أو أجل حضر فتدفعه ، قال : لاأملك ذلك ، قال : لا حاجة لي إليك .

و قال بشر : من سأل الله الدّنيا فإنّما سأله طول الوقوف بين يديه .

و قال أبوحازم : ما في الدّنيا شيء يسرّك إلّا و قد ألزق الله به شيئاً يسوءك .

وقال آخر: لاتخرج نفس ابن آدم من الدّنيا إلّا بحسرات ثلاث : إنّه لم يشبع ممّا جمع ، ولم يدرك ما أمل ، و لم يحسن الزّاد لما يقدم عليه .

و قيل لبعض العبّاد : قد نلت الغنى ، فقال : إنّما نال الغنى من عتق من رقّ الدّنيا .

وقال أبوحازم : اشتدّت مؤونة الدّنيا والآخرة ، فأمّا مؤونة الآخرة فإنّك لا تجد عليها أعواناً ، و أمّا مؤونة الدّنيا فإنّك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلّا وجدت فاجراً قد سبقك إليه .

و قيل لحكيم : الدّنيا لمن هي ؟ قال : لمن تركها ، فقيل له : والآخرة لمن هي ؟ قال : لمن طلبها .

و قال حكيمٌ : الدّنيا دارخراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنّة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها .

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم في المنام أحبّ إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال دينار في اليقظة ، فقال كذبت لأنّ الّذي تحبّه في الدّنيا كأنّك تحبّه في المنام و الّذي تحبّه في الآخرة كأنّك تحبّه في اليقظة .

و قال يحيى بن معاذ : العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

و قال أيضاً : الدّنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها .

و قيل : من أقبل على الدّنيا أحرقته نيرانها يعني الحرص حتّى يصير رماداً و من أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصارسبيكة ذهب ينتفع به و من أقبل على الله عزّ وجلّ أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لاحدّ لقيمته .

انتهى الجزء الخامس ويليه الجزء السادس أوّلها

« بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا وصفاتها »

فهرست ما فى هذا المجلد

الصفحة	الموضوع
٧٨	هل يتصوّر أن ينقطع الوسواس بالكلّيّة عند الذكر أم لا .
٨١	سرعة تقلّب القلب و انقسام القلوب في التغيّر والثبات .

كتاب رياضة النفس

الصفحة	الموضوع
٨٧	تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب .
٨٨	بيان فضيلة حسن الخلق ومذمّة سوء الخلق .
٩٤	بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق .
٩٩	بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرّياضة .
١٠٣	بيان السبب الّذي به ينال حسن الخلق على الجملة .
١٠٨	بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق .
١١٠	بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده إلى الصحّة .
١١٢	بيان طريق الّذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه .
١١٤	بيان شواهد النقل من أرباب البصائر .
١٢٠	بيان علامات حسن الخلق .
١٢٤	بيان الطريق في رياضة الصبيان في أوّل النشوء .
١٢٨	بيان شروط الإرادة ومقدّمات المجاهدة .

كتاب كسر الشهوتين

الصفحة	الموضوع
١٤٤	شهوة البطن والفرج .
١٤٦	بيان فضيلة الجوع وذمّ الشبع .
١٥٣	بيان فوائد الجوع وآفات الشبع .
١٦٢	بيان طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن .
١٧١	بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس .
١٧٤	آفة الرّياء المتطرّق إلى من يترك أكل الشهوات أو يقلّل الأكل .

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٠٥	بيان علاج الغضب بعد هيجانه بالعلم والعمل .
٣٠٨	فضيلة كظم الغيظ .
٣١٠	فضيلة الحلم .
٣١٥	بيان القدر الّذي يجوز الانتصار والتشفّي به من الكلام .
٣١٧	القول في معني الحقد ونتايجه وفضيلة العفو و الرّفق .
٣١٨	فضيلة العفو .
٣٢٢	فضيلة الرّفق .
٣٢٥	ذمّ الحسد وحقيقته و أسبابه و معالجته وغاية الواجب في إزالته .
٣٣٠	بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه .
٣٣٥	بيان أسباب الحسد والمنافسة .
٣٣٨	بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران .
٣٤٢	بيان الدّواء الّذي به ينفي مرض الحسد عن القلب .
٣٤٨	بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب .
	كتاب ذم الدنيا
٣٥١	في ذمّ الدنيا وغوائلها وآفاتها .
٣٥٢	بيان ذمّ الدنيا من كلام أبي حامد وطريق العامّة .
٣٦٢	بيان ذمّ الدنيا من طريق الخاصّة .
٣٦٨	فصل - نقل الآثار في ذمّ الدنيا .